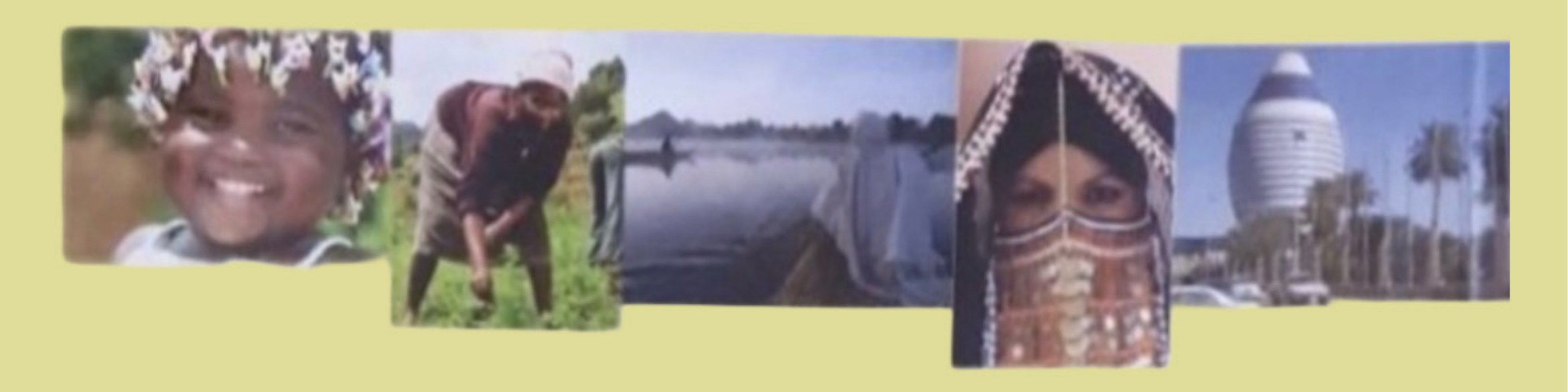


ملامح من المجتمع السوداني

حسن نجيلة

دار عزة للنشر والتوزيع

ملامح من المجتمع السوداني

حســـن نجيلــة





الكتاب : ملامح من المجتمع السودانى

المؤلف : حسن نجيله

رقم الإيداع : ١٥١٧٤ / ٢٠٠٥

تاريخ النشر : ٢٠٠٥

ردمك : ١٠٠٥ – ٥٤ – ٩٩٩٤٢

الناشر : دار عزة للنشر والتوزيع

الإدارة : شارع الجامعة – الخرطوم – جنوب وزارة الصحة .

ت : ٨٣٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٨٣٧٩٧٠٨٤ (١ – ٢٤٩ +)

التوزيع : دارعزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٧٢٠١

السودان – الخرطوم . ص.ب : ١٢٩٠٩

بريد إلكترونى azza ph @ yahoo.com

الإهداء

الى شقيقي علي نجيله
في الدار التي لا ترقى اليها الاباطيل
إليك . . .
يا من كنت لي أباً وأخاً صديقاً
إليك . . .
يا أغلى ذكرياتي
أهدي هذا الكتاب
ولكم يحزنني ويشقيني ألَّا تكون من بين قرائه



مقدمة

كان الجزء الأول قد خصصت أكثره لتسجيل «لقطات» أدبية وفنية ووطنية منذ تخرجت الأفواج الأولى في كلية غردون حتى نهاية العشرينات والجزء الثاني خصصت أكثره لفترة الثلاثينات حيث صار دور الخريجين أكثر وضوحا في المجتمع وحيث صارت قبضة المستعمرين يصيبها قليل من التراخي حتى سمحت في أواخر الثلاثينات بقيام مؤتمر الخريجين الذي كان بداية لسفور الحركة الوطنية بعد سنوات قليلة من إنشائه .

وكانت فترة الثلاثينات التي ضم بعض معالمها هذا الكتاب فترة ازدهار للحركة الأدبية نثرا وشعراً مع تخلف في فن القصة الذي صار له اليوم شأن في عالم الثقافة ولقد كان التعبير بالشعر والتأنق فيه من أظهر سمات هذه الفترة وقد سجلت بعضه بمناسبته هنا .

وقد صدرت في الثلاثينات مجلات أدبية كان لها أكبر الأثر في بعث وتنشيط الحركة الأدبية ، أولها «مرآة السودان» للمرحوم سليمان كشه أعقبتها بعد توقفها «مجلة النهضة السودانية» للمرحوم محمد عباس أبو الريش ثم أعقبتها «مجلة الفجر» للمرحوم عرفات محمد عبدالله الذي كان من أقطاب جمعية اللواء الأبيض والمشتركين في ثورتها واستطاع أن يهرب إلى مصر حتى عاد إلى السودان في الثلاثينات وأصدر هذه المجلة «الفجر» التي كانت لها أهمية بالغة في تلك الفترة لأنها كانت تعالج بجانب قضايا الأدب بعض القضايا الوطنية والإجتماعية بأسلوب شجاع ولكنها لم تكن تلقى كل التأييد من القارىء المثقف في بعض ما كانت تثير في هذه القضايا ولكنها بغير شك كانت قوة فعالة في تحريك النشاط الثقافي والاجتماعي والوطني حتى عند مخالفيها أحياناً .

إنني لم أقدم في الجزء الأول ولا الجزء الثاني دراسة أكاديمية ولكني أضع بعض اللوحات التاريخية من هنا وهناك ربما تكون عوناً لمن يقومون بالدراسات الأكاديمية لتاريخنا المعاصر في فتراته المختلفة ، ولقد دعوت في كتابي الأول إخواني الذين عاشوا جانباً هاماً من تاريخنا المعاصر وقد أوشكت أن تتلاشى معالمه أن يقوموا بتسجيل ما لديهم من معلومات عن أحداث كانوا من أقطابها وخاصة حق وطنهم عليهم وانني لأكرر هذا النداء ويحزنني أن عدداً غير قليل من هؤلاء قد انتقل إلى رحمة الله دون أن يسجل شيئا من التاريخ الوطني الذي شارك فيه مشاركة فعلية وأسأل الله أن يبقي منهم طول العمر والنشاط الفكري ليكتبوا ما يمكن أن يكتب من التاريخ المعاصر : وهو تاريخ حافل حاشد بكل ما يستحق الكتابة .

حسن جميلة

الصحافة في المهد

نشأة الصحافة :

قلت لهذا الشيخ العذب الحديث الحلو المشر وأنا استمع الى ذكرياته العذاب ليكن بدء حديثنا عن نشأة الصحافة . واعني الصحافة التي عاصرت الفترة التي نتحدث عنها في العقد الاول والثاني والثالث من هذا القرن .

وأرهفت اذني استمع اليه وهو يتدفق في حديثه ، ويستمهل احياناً ليستجمع شتات الذكريات :

لا أعرف ان كانت غازيتة حكومة السودان تدخل في عداد الصحف ، ولكن من الخير ان نشير اليها فقد كانت اول صحيفة رسمية تصدر ، وقد سجل في اول عدد منها اتفاقية ١٨٩٩ التي قام على أساسها الحكم الثنائي البائد . . . والغازيتة ما زالت تصدر حتى اليوم .

وفي شهر سبتمبر عام ١٩٠٣ منحت حكومة السودان اصحاب جريدة المقطم التي كانت تصدر في مصر ، حق اصدار صحيفة في السودان . فكانت اول جريدة عربية تصدر في السودان ، وقد سماها اصحاب المقطم « جريدة السودان » و كانت تخرج مرتين في الأسبوع .

وتولى تحريرها الأستاذ اسكندر مكاريوس ثم عاد لمصر واصدر مجلة اللطائف المصورة التي يذكرها الكثير من قراء الصحافة المصرية الى عهد قريب ثم تولى تحريرها من بعده الاستاذ خليل ثابت ثم تركها بدوره للأستاذ لبيب الجريديني ،

اذ تولى خليل رئاسة تحرير المقطم في مصر ، وهو والد الصحفي المعروف كريم ثابت الذي اعتقل في عهد الثورة بعصر لصلاته المريبة مع الملك فاروق . وظل الاستاذ جريديني يوالي تحريرها حتى انتهى امرها عـــام ١٩٢٥ عقب حوادث ١٩٢٤ المشهورة حيث طلب الى شركة مكور كوديل الانجليزية الاستيلاء عليها بشراء معداتها .

لم يكن لهذه الصحيفة اثر بارز في النهضة الادبية او الاجتماعية الا بقدر يسير لطابع الحذر الشديد الذي كان يسود جو تحريرها . وقــد كان كل محرريها الذين ذكرت من اخواننا السوريين ، واضيف أنها كانت تصدر باللغتين العربيـــة والانجليزية ، ولم تكن الانجليزيةالا ترجمة لما يكتب بالعربية. .. لقد كانت قريبة في روحها واسلوبها من الغازيتة الرسمية .

وصمت برهة ثم استطرد يقول :

وظهرت بعض الصحف غير الجادة ، اذكر منها « كشكول المساح » وقــد اصدرها صحفي مصري يسمى اسعد يس المساح ولكنها لم تعش طويلا .

الرائد :

ان الصحيفة الوحيدة التي تستحق ان نقف عندها طويلاً في تلك الفترة هي صحيفة الرائد التيصدرت عام ١٩١٤ م أدبية اجتماعية اسبوعية .

والعجيب أن منشيء هذه الصحيفة العربية الأدبية تاجر يوناني كان يصدر صحيفة يونانية في الخرطوم ثم رأى بتوجيه من بعض السودانيين ان يخرج هــذه الصحيفة العربية الأدبية . وقد تعاقب على تحريرهـــا عدد من الأدباء المصريين والسوريين اذكر منهم الاستاذ توفيق وهبي وهو شاب مصري مثقف كان يشغل منصب القضاء،وسنلقاه كثيراً فيما بعد، والشاعر السوري المشهور فؤاد الخطيب

وكان استاذاً للأدب العربي في كلية غردون ، على ان اشهر من تولى تحريرهـا ولفترة طويلة كان الأستاذ المرحوم (عبد الرحيم مصطفى قليلاتي البيروتي الحسني) هكذا كان يصر على تسجيل اسمه .

وكان الاستاذ قليلاتي هذا أديباً شاعراً وثيق الصلة بأدباء ذلـــك الجيل من السودانيين محبوباً لديهم ، وفي عهده ازدهرت الرائد وفتحت صفحاتها للكتاب والشعراء من ابناء البلاد .

عرفنـــا الاستاذ قليلاتي قبل انشاء الرائد عن طريق ذلك الشعر الذي كان ينظمه وتزين به واجهات السرادقات في ميلاد النبي ، قبل ان ينتشر الوعي وبدخل الأدباء والشعراء إلى الجمـاهير داخل تلك السرادقات ويسمعوهم مـــا يستنهضون به هممهم مستغلين النزعة الدينية فيهم .

قلت : الا تذكر شيئاً من هــــذا الشعر الذي كان يزين به قليلاتي واجهات السرادقات ؟ ومتى كان ذلك على التحديد ؟

فابتسم وقال : لا تتعجل فقد كنت على وشك ان اضع بين يديك اثراً ادبياً تاريخياً لتلك الفترة ، فقد جمع الاستاذ قليلاتي الشعر الذي حلى به واجهـــات السرادقات عام ١٣٢٩ هجرية – ١٩١١ في كتيب صغير سماه (نسمات الربيـع ... ولعل هذه النغمات كانت بمثابة الارهاصات لمقدم (نسمات الربيـع) الذي صدر عام ١٩٢٣ ويشمل مجموعة من الشعر الثائر الذي القي في عيد ميلاد النبي بامدرمان فأحدث ضجة . وسيأتي ذكر ذلك في حينه ، فقـد كان شعر النسمات إرهاصاً وإيذاناً بتلك العاصفة التي زعزعت المستعمرين عام ١٩٢٤ .

ولنعد إلى صديقنا قليلاتي ، ولنتمش معه حول سرادقات المولد النبوي في مدينة الخرطوم بحري عـام ١٩٢٩ هـ – ١٩١١ م كما ذكرنا آنفاً ، ولنقرأ له ما كتب على واجهة كل سرادق .

يواجهنا في المقدمة سرادق (مصلحة الوابورات) وقد اكتظ بحشد عظيم من العمال والموظفين اكثرهم من المصريين الذين كانوا يعمرون هذه المصلحة . فنقرأ على الواجهة المزينة بالأزهار والرياحين :

أيها الزائرون حفلة ميلا | د نبي الورى بأبرك يوم
اعلموا انه فخار قريش | وإمام لكل عرب وعجم
وشفيع الاسلام في الحشر لما | ترعدالنفس خوف هول الحكم
ونصير لمن يعزز دين الله | والحق مثل (عباس حلمي) (١)
صل ربي دوما وسلم عليه | وتفضل لنا بأحسن ختم

وغني عن القول إن (عباس حلمي) كان خديو مصر آنذاك

وبجانب سرادق مصلحة الوابورات يواجهنا « صيوان » الطريقة البرهامية للسيد إبراهيم الدسوقي تزينه هذه الأبيات :

جاد الزمان وزاد في تشويقي | وجرى دم الذكرى بكل عروقي
يوم بمكة اشرقت شمس الهدى | وزهت نجوم البشر بالتأليق
سطعت على ارض الحجاز فنورت | (شبه الجزيرة) واستوت (بفروق)
وسرى السنا نحو الكنانة خافقاً | بسنا لواء الحق اي خفوق
يوم بـه ولد الامين المصطفى | كنز الرسالة ذخر كل صدوق
ياما أحيلى ذكره ذا اليوم في | حلقات ابراهيم فخر دسوق
يا رب صل على الشفيع وهب لنا | حسن الختام فأنت خير شفيق

ولنتقدم قليلاً إلى سرادق رجال الطريقة السمانية القادرية ، وقد تحلت واجهته بهذه الأبيات :

يا ليل نح كراك عن اجفاني | تالله مـا أنا فيك بالوسنان
او تعلم الأطيار قدرك لانثنت | تشدو مسهدة على الأغصان
فيك الاله حبا الزمان واهله | بظهور احمد نور كل زمـان

---

(١) الآستانة ـ مقر الخلافة الاسلامية .

من جاء بالدين الحنيف وزانه بالعدل والمعروف والاحسان
وأنار قلب الجاهلية بالهدى والصدق والتوحيد والقرآن
فزهـا بمولده الربيع واصبح الاسلام فـيه ربيـع كل أوان
وحلا بذا اليوم المبارك ذكرنا رب الوجود بحضرة السماني
شيخ الكرام خليفة القطب الكبير البار عبد القادر الجيلاني
صلى الاله عليك يا خير الورى يا من به شرفت بنو عدنان

وعلى قيد اذرع تمتد زينات سرادق رجال الطريقة الاسماعيلية حيث سجل الاستاذ قليلاتي الابيات التالية :

قم والق بالتكبير والتهليل يوماً حبا الدنيا بخير رسول
واذكر مناقبه الشريفة خاشعاً في حضرة (المكي اسماعيل)
وادحض بها بهتان كل منافق متخرص أعمى الفؤاد ضلول
فخر الورى تاج النبيين الذي ثبتت رسالته لكل دليـل
وسمت فضائله وحكمة دينه بشواهـد المعقول والمنقول
اودى بأوثان وجهل مطبق واعاد شمس العلم بعد أفول
ورمى جموع الظالمين بشر ما رميت به من قبل أهل الفيل
وأقـام بالاسلام خير عدالة بمحاسن التحريم والتحليل
صلى عليك الله ما جاد الحيا وشدت على الأغصان بنت هديل

ثم يواجهنا « صيوان » رجال الطريقة الختمية وقد افتنوا في تزيينه احتفاء بهذه المناسبة ، وشعر قليلاتي يزين الواجهة :

أهلا بيوم شف عن عيد سني وزها بميلاد البشير الأحسن
ذاك النبي المصطفى بحر الوفا فخر الوجود وسر كل تمـدن
العاقد الأيمان تحت لوائـه المنجد الحيران فخر المؤمن
كنز الرسـالة صاحب العلم الشريف وناصر الدين الحنيف الايمن

والله لا يحلو الهيـــام بغيره ويحـــل فيه تهتكي وتفنني
فمديحه بيت القصيد وقصده ديني وتعظيم الشريعة ديدني
ووسيلتي بعد انتهاج صراطه ريحانة النسب (العلي) المبر غني
وكرام أهل البيت بيت محمد مصباح نور الكون بشر الحسن
قسماً إذا غضب الزمان واهله فأنا أنا عـــن حبهم لا أنثني
صلى عليك الله جل جلاله واعاد هذا العيد بالخير الهني

وفي سرادق الطريقة الاحمدية للسيد احمد البدوي نقرأ أبيات قليلاتي :

بشراك يا دهر ابتهج وتميّد بحلول ميلاد الشفيع الاسعد
وتغن ترحيباً به واطرب وقم واذكر سناه على البساط الاحمدي
هو سيد الكونين نور العالمـين وبهجة الدارين عين السؤدد
فيه اعز الله اهل كتابه وأذل آل الشرك والجهل الردي
وزهت بمولده الكريم وأزهرت حلل الربيع فيا له من مولد
تختال فيه ذرى السماء كأنها تيجان ماس رصعت بزبرجد
ويميس سطح الارض في حلل حكت اقراط در في سبائك عسجد
وترى السطوحيين في حلقاتهم كقلائـد في جيد ظبي أغيـد
متحمسين بذكر أعدل عادل متهللين بنور اشرف سيـد
صلى الاله على النبي الهاشمي المصطفى فخر الأنام محمـد

وهنا نرى «صيوان» رجال الطريقة التيجانية (الطريقة الجزولية بدلائل الخيرات) وقد احتفوا بشعر قليلاتي وزينوا به سرادقهم :

ميلاد فخر العـالمين محمـد احرى بخير مظاهر الحفلات
يوم قد انقشعت بنور جماله سحب الشقا وغياهب الظلمات
وتمزقت حجب الضلال واشرقت شمس الهدى وكواكب الحسنات

واعتيض بالاسلام دين الحق عن　　دين الجهالة واتخاذ اللات
واندك صرح الظلم والعدوان والا　　شراك والبهتان والاعنات
واقيم شرع العدل والمعروف والتوحيد بالقرآن والآيات
افلا يحق إذن لآل الدين ان　　يستقبلوه بأفخر الزينات
ويرحبوا بقدومه وحلوله　　ببديع نثر (دلائل الخيرات)
صلى الاله على الشفيع المصطفى　　وعليه منا افضل الصلوات

اوشكنا على نهاية المطاف فليس امامنا غير سرادقين احدهما هذا الذي يواجهنا لرجال الطريقة الاحمدية الخلوتية وقد خطوا في لوحة كبيرة شعر قليلاتي :

مرحباً يا مرحباً اهلا بمن　　زين الكون بأسمى شرعة
وحبا الاسلام والدهر معاً　　بالكتاب المرتجى والسنة
واقام الحق والعدل ولم　　يبغ بث الدين إلا بالتي
احمد المختار من جاء لنا　　نعمة اكرم بها من نعمة
لم يقل رحماك يا رب الورى　　أمتي ، إلا ونودي رحمتي
ايه ما أحلى وابهى ذكره　　في مقام (الاحمدي الخلوتي)
شيخنا المحبوب هادينا لكي　　نحمد الله بأصفى نية
وصلاة وتحيات على　　خير مبعوث لاسنا امة

وفي ختام هذا الطواف متأملين ما كتب على واجهات السرادقات من شعر الاستاذ قليلاتي نقف عند سرادق العمدة والتجار وهو نهاية المطاف فنقرأ :

ميلاد خير الورى للخلق احسان　　يحار في وصفه كعب وحسان
يوم البشائر بل عيد الفضائل بل　　انسان عين الهدى ماعاش انسان
سمت به العرب في الاسلام وافتخرت　　وشاطر الفخر قحطان وعدنان

فلا غرابة ان جاد الكرام له بالروح او افرطوا في بذل ماصانوا
وعظمته (تجار) وانجلت (عمد) بشراً، وفك أكف الجود أعيان
صى الإله على طه المشفع ما تمايلت في رياض الانس أغصان

قلت : لقد نقلني الى عهد بعيد ، واجواء دينية عطرة لكأني أرى حشود المسلمين في ذلك العهد تحتفي بهذا اليوم العظيم ايما احتفاء . ومظهر ذلك هذه السرادقات العديدة لطرق صوفية عديدة لا ارى لبعضها اثراً في احتفالات ميلاد النبي في هذا الوقت ..

ولتعد بي الى الحديث عن الرائد . وقد عرفنا شيئاً عن محررها الاستاذ قليلاتي ، لنستجلي بعض مظاهر النشاط على صفحاتها .

وانبعث صوته هادئاً صافياً وهو يقول ...

كانت صفحات الرائد ملتقى جيلين . الجيل الذي تلقى ثقافته في الازهر أو في حلقات الدراسة في منازل كبار العلماء والفقهاء الذين اتخذوا من دورهم مدارس لنشر الثقافة الدينية ، ولما جاء الحكم الثنائي تخير من هؤلاء من رأى اهليتهم لتولي الوظائف الجديدة في دور التعليم او القضاء الشرعي . وقد اشتهر جماعة منهم بالتعلق بالادب وإنشاد الشعر ، اذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الاساتذة محمد عمر البناء مفتش المحاكم الشرعية والشيخ ابو القاسم احمد هاشم شيخ العلماء وإخوانه الشيخ الطيب احمد هاشم والشيخ ابراهيم والشيخ با بكر بدرى بمصلحة المعارف والشيخ عمر الازهري من العلماء وغيرهم .

والجيل الثاني كان يحتله هؤلاء الناشئون الذين تخرجوا حديثاً في كلية غردون التي انشأها الانجليز عام ١٩٠٢ . وقد تخرج اول فوج فيها من قسم القضاء الشرعي وقسم المدرسين عام ١٩٠٦ وجميعهم كانوا يدرسون باللغة العربية فقط .

أما القسم الثانوي ، وكانت اللغة الإنجليزية تحتل جزءاً هاماً من دراسته ، فقد تخرج اول فوج منه عام ١٩١٢ .

ولم تكن الكلية في ذلك العهد تخرج غير مدرسين ومهندسين فقط ، ما عدا قسم القضاء الشرعي. ولم يكن الخريجون الذين يتممون دراساتهم كل عام يتعدون أصابع اليد الواحدة لكل فرع .

أول مسابقة أدبية تنظمها الرائد .

واستطرد يقول :

وكانت أول مسابقة أدبية تنظمها الرائد تهدف إلى تشطير بيتي أمير الشعراء احمد بك شوقي وكان قـــد انشأهما في استقبال الطائرة (ادرميد) اول طائرة تركية يقودها فتيان من الاتراك وذلك عند زيارتها لمصر عام ١٩١٤ ...

والبيتان هما :

يا أدرميد ألا طيري مبلغـة   رسائل الشوق من عمرو إلى عمر
إلى الذي خفقت في الارض رايته   واليوم تخفق فوق الشمس والقمر

وتدفقت على محرر الرائـد الاستاذ قليلاتي مقطوعات التشطير من مختلف الأدباء شيوخاً وشباباً من الجيلين ، ففاز بالجائزة الاولى الاستاذ الكبير المرحوم الشيخ محمد عمر البناء (والد الشاعر عبد الله البناء) وقـــد شطر البيتين على النحو التالي :

(يا أدرميد ألا طيري مبلغة)   خليفة الله عنا أصدق الخبر
وبلغيه عن الإسلام قاطبـــة   (رسائل الشوق من عمرو الى عمر)
(الى الذي خفقت في الارض رايته)   وعززتها سيـوف الله بالظفر
مدت على الارض ظلالا لانفاد له   .(واليوم تخفق فوق الشمس والقمر)

وأذكر ان اشترك في هذه المسابقة بشعر جيد من ناشئة ذلك العهد الأستاذ

احمد محمد صالح وحسن عثمان بدري (صاحب مكتبة الثقافة بأم درمان)وتوفيق صالح جبريل .

قلت : ان لهذا الشعر مدلولا آخر ، يكشف عن تعلق رجال ذلـــك العهد « بخلافة الآستانة » وان قلوب المسلمين كانت تهفو الى الجالس على عرش الخلافة في تركيا ... قال لم تعدُ الواقع فقد كنا الى ما قبل عام ١٩٢٤ ندعـــو له في مساجدنا عقب كل صلاة جمعة .

ثم واصل حديثه مستعرضاً ذكرياته الأدبية عن ذلك العهد ... فقال :
ولما ظهر أن الاستاذ البناء الكبير هو الفائز الاول بجائزة التشطير أهـــداه الاستاذ قليلاتي محرر الرائد مصحفاً شريفاً وكتب عليه هذين البيتين :

بنى عمر البنا قصوراً من النهى بشعر له ارتاح الخليفة والمهدى
فلا غرو إن أهديت صدق بيانه بأكرم مايهدى واصدق ما يهدى

وفي هذين البيتين اشارة لخليفة الآستانة واشارة للامام المهدى وخليفته ، فالبناء الكبير كان شاعر المهدية الذي شدا بأبطالها فأعجب وأطرب ، ولم يكن بيننا في ذلك العهد من لا يحفظ قصيدته المشهورة :

الحرب صبر واللقـــاء ثبات والموت في شأن الإله حياة
الجبن عـــار والشجاعة هيبة للمرء ما اقترنت بها العزمات
والصبر عنـد اليأس مكرمة ومقـدام الرجال تهـابه الوقعات
والاقتحـام الى العـــدو مزية لا يستطـــاع لنيلها غايات
والعمر في الدنيا له اجل متى يقضى ، فليس تزيده خشيات
والفخر كل الفخر بيع النفس للـــه العـلي وأجرها الجنـات
ان الجهـاد فضيـلة مرضية شهـدت بمحكم أجرها الايات

ثم يأخذ في تمجيد اولئك الرجال الأبطال «صحب الإمام المهدي» فيقول

قد حاز هذا الافتخار جميعه   صحب الإمام السادة القادات
قوم اذا حمي الوطيس رأيتهم   شم الجبال ، وللضعيف حماة
ولباسهم سرد الحديد وبأسهم   شهدت به يوم اللقا الغارات
في السلم تلقاهم ركوعاً سجداً   أثر السجود عليهم وسمات
وتخالهم يوم الجلاد ضراغماً   أسد وأسل رماحهم غابات
ركبوا الجياد وغادروا شلو العدى   رزق النسور ولحمهم أقوات
والخيل ترقص بالكماة كأنها   تختال في ميدانها ، فتيات
فأثرن نقع الموت في عرصاتهم   وأغرن صبحاً اذ علت اصوات
وذباب أسياف المنية فوقها   رعفت دماً وجلاؤها الهامات
والارض سالت بالدماء وما بها   غير الجماجم والشعور نبات

وهكذا تمضي القصيدة رصينة محكمة ، وقد كانت وما تزال ، من خير ما نظم في تمجيد أولئك الأبطال .

واستطرد الشيخ محدثاً عن ذكرياته الادبية فقال :

ولكي نكمل الصورة الشعرية لمسابقة الرائد الاولى نورد التشطير الذي نال الجائزة الثانية.وهو للاستاذ أحمد محمد صالح الذي كان طالباً في كلية غردون يقول :

(يا أدرميد الا طيري مبلغة)   خليفة الله عنا أصدق الخبر
حييت سابحة في الجو حاملة   (رسائل الشوق من عمر والى عمر)
إلى الذي خفقت في الارض رايته)   وهابه الخلق من بدو الى حضر
اعلامه خفقت في المشرقين معاً   (واليوم تخفق فوق الشمس والقمر)

ثم يجيء بعد هذا تشطير الشيخ حسن عثمان بدري اذ يقول :

(يا ادرميد الا طيري مبلغة) روح ابن فرناس ماأوتيت من ظفر
ورفرفي فوق نجم السعد حاملة (رسائل الشوق من عمرو الى عمر)
(الى الذي خفقت في الارض رايته) يحفها النصر من بدو ومن حضر
تاقت الى القبة الزرقاء فارتفعت (واليوم تخفق فوق الشمس والقمر)

وكان الثالث الفتى توفيق صالح جبريل ويقول :

(يا ادرميد ألاطيري مبلغة) عنا سلاماً الى من سادفي البشر
واسترجعي زمر الالحان حاملة (رسائل الشوق من عمرو الى عمر)
(الى الذي خفقت في الارض رايته) بـآية الفتح والتوفيق والظفر
أمسى بها الدين في عز وفي طرب (واليوم تخفق فوق الشمس والقمر)

وان كان شعراؤنا هنا قد احتفوا بادرميد بتشطير بيتي شوقي ، فقد احتفى شعراء مصر بمقدم هذه الطائرة التركية أيما احتفاء وقد نقلت الينا صحافة ذلك العهد قصيدتي امير الشعراء احمد شوقي وشاعر النيل حافظ ابراهيم عندما هبطت القاهرة الطائرة ادرميد يقودها الطائران التركيان سالم بك وكمال بك في اليوم العاشر من شهر مايو عام ١٩١٤ .

وقد استهل شوقي قصيدته بهذا المطلع :
يا راكب الريح حي النيل والهرما .
وفيها يقول :
يا صاحبيّ أدرميد حسبها شرفاً أن الرياح اليها القت اللجما
وانها جاوزت في القدس منطقة جرى البساط فلم يجتز لها حرما
مشت على افق مر (البراق) به فقبلت أثراً للخـــف مرتسما
ومسحت بالمصلى فاكتست شرفاً وبالمغار المعلى فاكتست عظما
جشمتموها من الاهوال اربعة البرق والرعد والاعصار والظلما

حتى حوتها سماء النيل فانحدرت		كالنسر اعيى ووافى الوكر فاعتصما

اما حافظ ابراهيم ، فقد جاء بالسهل الممتنع :

اهلا بأول مسلم		في المشرقين علا وطار
النيل والبسفور فيك		تجاذبا ثوب الفخار
يوم امتطيت براقك الميمون واجتزت القفار
تلهو وتلعب بالريا		ح على المفاوز والبحار
لوسا بقتك سوابق الا		فكار ادركها العثار
حسدتك في الافق البر		وق وغار في الارض البحار
وتكاد تقدح في الاثير		فتستحيل الى شرار
مثل الشهاب انقض في		آثار عفريت وثار
فإذا علت فكدعوة الـ		مضطر تخترق الستار !
واذا هوت فكما هوت		انثى العقاب على الهزار
«فتحي» بربك ما رأ		يت بذلك الفلك المدار ؟
ابلغت تسبيح الملا		ئك او دنوت من السرار ؟
ام خفت تلك الراصدا		ت هناك من شهب ونار
اهناك في المريخ مافي		الارض من علل الشجار ؟

وليس عجيباً ان يحتفي الشعراء هنا وهناك بالطائرة ادرميد يقودها فتيان مسلمان فقد شعر المسلمون بالزهو ان يشارك نفر منهم في هذا التقدم العلمي الذي يزهو به عليهم الغرب وقد كان حافظ ابراهيم معبراً عن هذا الشعور اصدق تعبير عندما قال :

اهلا بأول مسلم		في المشرقين علا وطار !

الرائد في النزع :

وعلى صفحات الرائد نلتقي مرة اخرى بشعراء ذلك الجيل يلتقون في

مسابقة شعرية اقترحها على الرائد الاديب المصري الكبير محمد بك فاضل الذي كان يعمل بمصلحة السكة الحديد بعطبرة وكان شاعراً مرموق المكانة الادبية هنا وفي مصر .

- اقترح على الشعراء تخميس القصيدة الغزلية المشهورة (وحقك انت المنى والطلب) فتبارى عدد كبير من الشعراء وبعد المقارنة والفحص فاز بالجائزة الاولى الشيخ عبدالله محمد عمر البناء.. وهكذا نجد الاب والابن يلتقيان على صفحة الرائد ويفوز كل منهما بالجائزة الاولى في المسابقة الشعرية ..

وقصيدة البناء الصغير - او على الاصح (التخميس) الذي قدمه البناء - وكان ذلك في عام ١٩١٧ هو :

حبيب يشوب الرضا بالغضب تجنى علـى رقـة وانقلب
وقـال سوانا عليـك غلب (وحقك انت المنى والطلب
(وانت المراد وانت الأرب)

لأهليك ان زرتكم جفوة وانت ترى انهم اسوة
فرقوا لحالي فبي نشوة (ولى كل يوم بكم صبوة)
(تحير في وصفها كل صب)

محاسن فيك اطالت سقامي تضيء ثناياك جنح الظلام
وتخطو فيخطو الضنا في عظامي (ويعجبني منك حسن القوام)
(ولين الكلام وفرط الأدب)

صدودك في سرح امني تعدى وشوقك اروى وهجرك كدا
فهبني تجاوزت في اللوم حدا (فمثلك لا ينبغي ان يصدا)
(ويترك صباً له قـد احب)

تدل فأبدي لديك الخضوعا وتفتك باللحظ فتكاً ذريعاً
واني وان كنت شوقاً صريعاً (اشاهد فيك الجمال البديعا)
(فيأخذني عند ذاك الطرب)

فؤادك يا فتنة النــاظرين شهيد بـأني محب امين
فما بال طرفك في الغاضبين (اما والذي زان منك الجبين)
(وأودع في الخد بنت العنب)
وسواك ذا غرة كالهلال وذا طرة كسواد الليــالي
وذا مبسم كنظيم الـلآلي (واودع في الخد روض الجمال)
(ولكن سقاه بمـاء اللهب)
لرقى يقينا قضاه الوداد وذلى يمينـاً قضاه البعــاد
فكن كيف شئت فداك العباد (لئن جدت او جرت انت المراد
(وليس سواك حبيب يحب)

وران الصمت بيننا برهة وكنت اتأمل هــذا الجهد الذي كان ينفقه شعراء ذلك العهد في التشطير والتخميس ، وكأنما أدرك محدثي ما كان يجول في خاطري فابتدرني يقول : —

لا تعجب لهذه الصناعة الشعرية المتكلفة فتلك مقاييس ذلك العهد ، واذكر ان هذا الشعر قد قيل قبل اربعين عاماً حيث كان اقصى أماني الشعراء في سائر البلاد العربية أن يحسنوا تقليد الأقدمين صناعة ونظما .

واختيار بعض القصائد للتشطير او التخميس انما اريد به شحذ قرائح الشعراء لنظم الشعر وترويضهم على انتهاج الاسلوب الرصين بوضع هذه النماذج من الشعر المشهور بين أيديهم لمحاكاتها والنسج على منوالها .

اذن فقد كان هذا الاسلوب منسجما والروح الادبية لذلك العهد الذي يمكن أن يسمى بحق ، عهد التقليد والمحاكاة للجيد الرصـــين من الشعر العربي . وما كانت صفحات الرائد الا سجلا اميناً ومظهراً صادقاً لروح الادب في تلك الفترة . .

قلت ، ومتى كانت نهاية هذه المجلة الادبية ؟ قال ، لقد جاءت نهاية محررها الاستاذ مصطفى قبيلاتي قبل نهايتها بقليل ، ولعلك تعجب اذا عرفت انه أول

صحفي تعتقله حكومة السودان بسبب مقال لم ترض عنه ...

كانت الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ – ١٩١٩ دائرة الرحى ، واجتاحت السودان مجاعة عامة واضطرت الحكومة الى شراء الذرة واستجلابها من الهند وبيعها للسكان في حدود ضيقة وتحت رقابة رجال الادارة والبوليس ، وكتب قليلاتي في الرائد مقالا ملتهباً تحدث فيه عما يلاقيه الناس من ضائقة العيش. واذكر ان كان عنوان مقاله هذا البيت من الشعر :

تموت الاسد في الغابات جوعاً ولحم الضأن يطرح للكلاب

وكان يعني بهذه الحياة الناعمة التي يعيشها الإنجليز وقد اشتهروا باقتناء الكلاب وتدليلها . !

وكان في هذا البيت وحده من معان الثورة والاستفزاز ما لم تطقه أعصاب الإنجليز فألقي القبض على الصحفي محرر الرائد واعتقل ، ثم أبعد عن السودان مخفوراً الى مصر وكان ذلك في اعقاب عام ١٩١٧ .

وانقطع عهدنا بالصحفي الذي كان له أحسن الاثر في رعاية تباشير النهضة الادبية الاولى في هذه البلاد .

ولكن الرائد ظلت حية بعده لفترة ما .. فقد اسند تحريرها لطيب الذكر المرحوم السيد حسين شريف فكان اول سوداني يحترف الصحافة ويتولى رئاسة تحرير جريدة أدبية أسبوعية ..

الصحافي الأول حسين شريف

مولد جريدة حضارة السودان :

تولى السيد حسين شريف تحرير مجلة الرائد الادبية عام ١٩١٧ ، وصاحبها تاجر يوناني كما اسلفنا الا ان هـذا الوضع لم يرض طموح حسين شريف الذي كان صحافياً بطبعه وروحه ، وكان يريد صحافة سودانية خالصة . فاستطاع بجهده الخـاص ان ينشىء جريدة حضارة السودان سنة ١٩١٩ فكانت اول صحيفة سودانية لحما ودماً وروحاً وكانت أدبية اجتماعية ، وجاء اصدار هـذه الجريدة نتيجة لتلك المقالات التي صاح فيها حسين شريف على صفحات الرائد وهي تحتضر مهيباً بالشعب السوداني قائلا (شعب بلا جريـدة كقلب بـلا لسان) . وكان أصحاب امتياز الحضارة أول امرها السيد عبد الرحمن المهدي والسيد محمد الخليفة شريف والشيخ عثمان صالح التاجر بأم درمان والشيخ عبد الرحمن جميل بكوستي والشيخ حسن أبو بالأبيض .

وفي ٢٤ يونيو ١٩٢٠ حدث تحول خطير في هذه الصحيفة اذ آلت ملكيتها للسادة الروحيين السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي ، وأعلن في نفس العدد الذي صدر بهذا التاريخ انها انتقلت من صحيفة أدبية اجتماعية الى صحيفة سياسية .

ومن الخـير أن ننقل هنا نص افتتاحية العدد الذي حمل لقرائها خبر هـذا الانتقال الخطير . بقلم السيد حسين شريف أول رئيس تحرير للحضارة في عهدها السياسي الجديد : --

« لما رجع أعضاء الوفد السوداني [١] من بعثتهم الى لندن في الصيف الماضى رأوا أن الحاجة ماسة الى وجود جريدة ومطبعة عامة تعتبرها جميع طوائف هذه البلاد المختلفة وشيعها المشتتة لساناً واحداً ناطقاً يعبر عن آرائها ويفصح عن رغباتها . ولذا أخذ كبار رجال الوفد واقطاب السودان وهم :

أصحاب السيادة الحسيبون السير السيد علي الميرغني والشريف يوسف الهندي والسيد عبد الرحمن المهدي منذلك الحين يفكرون في تدبير الامر تدبيراً ينطبق على حالة القطر ويستطيع ان يحدث فيه ما يراد له من الخير والاثر .

واخيراً أتيح لهم ان يتفقوا على انشاء صحيفة سياسية تنضوي تحت اسمائهم الثلاثة فتنطق بلسان الاربعة ملايين نسمة التي يقلها هـذا الاقليم وتذود عن حوضهم بشبا القلم وسلاح الخلق وتحوط وحدتهم بسياج القوميـة وسور العصبية وتبحث عن ادوائهم متعرفة منشأها وتطلب الدواء النافع لها .

فعلى هذا الاساس قامت هذه الصحيفة ، وقد رأوا ان يبقوا لهـا (حضارة السودان) اسماً كما كان تخليداً لذكرى اول صحيفة وطنيـة ظهرت في سماء السودان » .

بداية الصراع :

قال صاحبي :

ولم يكن هـذا الانتقال بالصحيفة من ادبية الى سياسية مفاجئاً فقـد جاء طبيعياً بالنسبة للأحداث التي كانت تجري في مصر وامتد اثرها للسودان ..

---

(١) يعني الوفد الذي بعثته حكومة السودان عقب انتصار انجلـترا وحلفائها في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٩ لتهنئة ملك بريطانيا بالنصر ، وقد فعل الانجليز ذلك في كل البلاد التي كانوا يحكمونها اذ بعثوا منها وفوداً للتهنئة

فقد اشتطت بعض الصحف المصرية في تعرضها لسفر الوفد السوداني الى لندن للتهنئة بالنصر وكان نقدها عنيفاً جامحاً .

وكانت نار الثورة قد اندلعت في مصر قوية ملتهبة ، والقي القبض على سعد زغلول ورفاقه وارسلوا الى المنفى في جبل طارق ثم سيشل وظهرت من بين شعارات الثورة المصرية عبارة (السودان جزء من مصر لا يتجزأ) .

وبرزت في السودان ثلاثة تيارات أخذت الطبقة المتعلمة تتجمع حولها ، تيار المشفقين على القومية السودانية في هذا المعترك الجديد ويصرون على ان تكون للسودان وحدة ذاتية قائمة بنفسها ، وتيار آخر يسير مع هذا التيار الحفيظ على القومية السودانية الا انه يعمل لتحقيق اهداف السياسة الإنجليزية في السودان ، والتيار الثالث يجمع اولئك المتجاوبين مع ثورة مصر وشعارات قادتها وقد بدا لهم ان هذه الثورة قد تعين على تغيير اوضاع السودان الى خير مما هي عليه ، فساروا مع التيار الثوري المصري ولكن في خفاء وحذر عن طريق الجمعيات السرية حتى انفجرت ثورتهم المكبوتة في حوادث عام ١٩٢٤ المعروفة واستطرد يقول :

كان السيد حسين شريف من انصار التيار الاول ما في ذلك شك ، وبالرغم من ان هذا التيار الحريص على القومية السودانية قد اندس فيه بعض الانتهازيين فأفسدوه الا ان السيد حسين شريف كان ملحوظ المكانة الوطنية حتى بين اولئك الذين خالفوه الرأي وحاربوا اتجاهه مستلهمين ثورة مصر واهدافها .

ونشر السيد حسين شريف اربع مقالات سياسية هامة بعنوان (المسألة السودانية) كانت من اقوى واصرح ما كتب في السياسة في ذلك العهد ، ويمكن القول بأن التيارات السياسية التي اشرنا اليها هنا انبعثت في المجتمع عقب هذه المقالات الاربع .

ومن الخير ان نثبت هنا طرفاً منها بوصفها نموذجاً (للنثر السياسي) في ذلك العهد ولانها تعبر عن تفكير واتجاه جانب من المجتمع الذي نحاول رسم ملامحه في هذه الذكريات :

ففي المقال الاول ، العدد الثالث من الحضارة بتاريخ ٧ اغسطس ١٩٢٠ ، كتب رئيس التحرير السيد حسين يقول تحت عنوان (المسألة السودانية) (وقد كتبت هذه المقالات عند بدء المفاوضات الاولى بين عدلي يكن رئيس حكومة مصر وبين حكومة الانجليز حول القضية المصرية) : قال :

« دع اللوم ان اللوم عون النوائب   ولا تتجاوز فيه حد التعاتب »

على حد هذا البيت نريد أن نمهد لبحثنا بكلمة عتاب صغيرة نلوم بها اخواننا المصريين على ما أهالوه لنا وكالوه ممـــا لا تسلم معه زجاجة ود ولا يثبت امامه حبل قرب ، ومع اننا نحن ضنينون بالإخاء حريصون عـلى الوفاء نعض عليها بالنواجذ ولا نبيعها بالبوادر والقوارص ..

ولولا ان الدخول في كل مبحث يقتضي ذكر الداعي اليه ، ومجلس التعاتب والمناقشة يستدعي طرح ما في النفس لما تطرقنا الى ذكر كلمة واحدة ممـــا هو جار هناك ، إبقاء لما بين الامتين من الصلات وابتعاداً عن الاشتغال بالعرض دون الجوهر .... مضى اكثر من حول والقضية المصرية مطروحة عـلى بساط البحث يتنازعها نضال الفريقين المختصين حتى القت مراسيها اليوم عند الشاطيء الذي بيده الحل النهائي والفصل الاخير ...

ولا يهمنا هنا ان نشرح ادوار القضية ونبين ادوار الدفـــاع فيها السلبية والإيجابية ولا ان نتنبأ بالشكل الذي ستسفر عنه مفاوضـة اللجنتين المنعقدتين بلندن الآن مهما دلت الاحوال عليه والاخبار اليه فان ذلك كله لا يعنينا منه الا

الرجاء بحسن العاقبة لإخواننا المصريين والا مصلحة بلادنا التي نفديها بالنفيسين والتي لا نماري فيها ولا نجاري رابطة قرب او عاطفة دين ...

المصريون هم اخواننا وبيننا وبينهم من الروابط ما يجعلنا واياهم متصافحين متحابين جالسين سوياً على ضفاف النيل يغترف كل منا من مائه العذب ما تسمح له به نسبتهُ العددية ودرجته العمرانية غير متشاحنين ولا متباغين .

أما اذا تجاوزت الأخوة حدودها ومدت الاطماع رؤوسها ونفخت الدعوات بوقها فليس على المدافع عن حقه والذاب عن شرفه لوم وتثريب ... ونحن كما قدمنا لم نحرك هذا اليراع لرد ما قيل ويقال او الرد على ما كتب ويكتب ، كلا ان هذا كله سخف يجب ان يذرى في مهب الرياح ثم يتناقش عقلاء الامتين فيما هو بينهم حقيقة من مسألة النيل وعلاقة القطرين السياسية وهما مثار تلك الحرب التي صلينا بجرها ولم نكن – علم الله – من جناتها .

اما الاولى فقد قضي فيها قضاء لاشبهة فيه ولا معقب بعده ، أما الثانية فالحق يرجع الى اوجه كثيرة اهمها رغبة السودانيين أهل البلاد أنفسهم وهم أدرى بمصلحتهم وأصدق من يعبر عنها واولى من يطلبها ويقول بها وأبعد من ان يعترضهم في سبيلها غرض او يؤثر عليهم مؤثر – ومتى كانت المناقشة بروح الود المشبع بالصراحة والإنصاف انقشع ضباب التعصب وزال ظلام الخلاف فوضع الحق لكلا الفريقين وأسفر الصبح لكل ذي عينين ورجعت كل بلاد بحتمها راضية من اختها بالصداقة وهما رأس مال العلاقات وأساس بناء الصلات .

وسنحاول بنفس هذه الروح شرح المسألة السودانية ، وبالله التوفيق .

وفي المقالين الاخيرين شرح تناول المعاهدات السابقة ، وأبرز لاول مرة نداء (السودان للسودانيين) وكان أخطر المقالات هذه وأبعدها ضجة وأعمقها أثراً في مجتمع ذلك العهد المقال الثالث في العدد الخامس بتاريخ ٢١ أغسطس

١٩٢٠ والذي كان عنوانه (لماذا نطلب حل الشركة وتوحيد الحكومة ؟ لماذا نختار الإنجليز على المصريين ؟ المنافع غير العواطف) وجاء في هذا المقال الخطير ما يلي :

« لا اظنني واهماً او مبالغاً اذا قلت انه لم يكن في قاموس مصطلحات السياسة ومبتدعات الاستعمار طريقة مثل هذه الطريقة التي قيد بعقدها موقف السودان السياسي واتبع بلقبيها اسمه وتدافعت بين نسبتيها تابعيته وملكيته وتوارت وراء علميها شخصيته وذاتيته حتى لقد كاد يكون ظلاً أو ذيلاً لا وجود له الا في التاريخ .

ان توحيد التابعية السياسية او مستودع الامنية القومية كما تعبر عنها المبادىء الولسنية الحديثة أمر جوهري في سياسة الممالك وادارة البلدان ، أما كونها كذلك في الاولى فلأن من القواعد الاولية في فن الحكم والفروض المعينة على اربابه ان يسعوا في توثيق رابطة الالفة بين افراد الامة ويشركوا بينهم في المصالح العامة حتى يشعروا أنهم تحت راية واحدة وابناء امة واحدة يذودون عن حياضها ويدرأون كل ما يؤول الى اضعافها وشتاتها ، وانى يتأتى لهم القيام بهذا الواجب ما دامت الاغراض المتباينة تتنازعهم والمصالح المتضاربة تتقاسمهم وما دام كل فريق منهم يدعو الى تأييد الفريق الذي يمثله ويقوم بتنفيذ سياسته عنه مدفوعاً الى ذلك بغريزة حب الذات والنزعة الى نصرة المذهب ؟

أما لزومها في الثانية فأكثر ظهوراً وأبين وضوحاً مما يرى ويلمس من الارتباك والاضطراب الناشئين عن تجاذب الاعمال وتنازع السلطة .

فالامة التي قضى عليها قصورها الاجتماعي او ضعفها الحربي ان تتبع غيرها او تخضع لسواها بأي موقف حددته دواعي الحالة ، واي اسلوب حاكته يد السياسة يكون مصابها اعظم وخطبها اجسم اذا هي تشوركت بين حكومتين

أجنبيتين عنها تندغم فيها وتنقسم بينهما وتتوزع عليهما بحسب ما يملكه كل منهما من المقدرة ويبذله من الجهد ويحدثه من التأييد دون ان تجد فراغاً تخلو فيه الى نفسها فتتحسس مكان شخصيتها وتجمع متفرق وحدتها وتتعرف اين مصلحتها ومنفعتها ، والشواهد على ذلك كثيرة متواردة ملء الابصار والاسماع ناهيك بالمشاكل السياسية المحلية القائمة الآن في بعض بلدان الشرق بسبب تنازع الدول فيها وتوزع ميول اهاليها .

على ان الامم ليست بقطعان من الاغنام يتشارك في رعيها ، ولا بأسراب من الحيوان يتعاقد في ملكها ، وانما هي جماعات من البشر كان الاصل فيها ان تكون ولية أمرها وحاكمة نفسها ثم قضت عليها أحوالها ان تكون في درجة تحتاج فيها الى ارشاد ، فيجب ان يتولى ذلك عنها سلطة واحدة تحسن القيام بالمهمة لا سلطتان او سيادتان .

ثم يمضي المقال على هذا النسق حتى يقول :

خلص الينا مما تقدم ان من الافن في الرأي والقصر في النظر والظلم للوطن ان تترك البلاد بين يدي حكمين اجنبيين عنها وغير متعاونين ولا متطابقين ولا متوافقين هذا يبني جهاراً وذاك ينقض سراً وتتقاعد عن طلب حل العقد في هذه الفرصة السانحة لسماع قضايا الامم وتقرير حقوق البلدان ... فلننظر اذن: اي المواقف ينطبق على حالنا ويؤدي الى تقدمنا في سبيل استقلالنا .

اولاً — ان كفاءتنا الذاتية تبعد بنا في الوقت الحاضر عن الدرجة التي تؤهلنا لحكم انفسنا بأنفسنا دون مساعد ومرشد .

ثانياً — ان اخواننا المصريين وان كانوا هم في طليعة الامم الشرقية الطامحة للحرية والاستقلال والمتعلقة باهداب الرقي والكمال الا انها لم تبلغ الى الان سن التمرس في الحكم والاضطلاع بعبئه دون تعب او ارتباك ، وصحف الامس في

بلادنا وبلادهم ووقائع اليوم عندنا وعندهم تؤيد المشاهدة الملموسة فـلا نحتاج فيها الى دليل او برهان .

ولو كانت الدلائل والوقائع والتجارب تساعدنا على الوثوق بان جـيرانا يستطيعون الاحتفاظ بوديعتنا الوطنية المقدسة لما فضلنا غيرهم وما اختـرنا سواهم . اما والامر كذلك فمن الخرق والحمق ان نغرر بانفسنا ونقامر بكياننا ونقذف بمستقبلنا في هوة لا قرار لها ، ولا يعلم الا الله ما في جوفها المظلم مـن المصائب والويلات . فلم يبق لنا اذن الا باب واحد هو الانكليز وهـؤلاء لا يسع احـد ان ينكر انهم أكفأ من ادار دفة ، وساس أمة ، عـلى قـدر ما تسعه الطاقة البشرية ويتسع لدولة فاتحة وأمة استعمارية .. » انتهى .

ولعل في هذا الذي اخترناه ما يلقي ضوءاً على احـداث المجتمع السياسي آنذاك ، كما يستطيع الباحثون عن اساليب اللغة والانشاء ان يجـدوا فيه امثلة للاسلوب الصحافي السياسي لكاتب يعد من اقدر كتاب ذلك العهد .

بداية النشاط السري :

ولم يقف مؤيدو التيار الثالث موقفاً سلبياً فقد اخذوا يديجـون النشرات السرية يبثون افكارهم ويعارضون اتجاه (الحضارة) ولعل اول منشور كانت له ضجة ، هذا الذي اصدره (ناصح مخلص امين) وقـد بعث به الى الزعماء الدينيين والرجال البارزين بالبريد ، وهو يمثـل الجانب الآخر من ذلك الصراع السياسي المذهبي الذي اتقدت جذوته منذ ذلك العهد .

وقد جاء في هذه النشرة السرية التي تصلح مثالا للأفكار التي كان يعتنقها ويروج لها انصار ثورة مصر في السودان ما نصه :

ـ حضرات اخواني وابناء وطني :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد . فقد لبثتم زمناً طويلا وانتم خاضعون لاحكام سياسة الاستعمار الإنجليزية تلعب بكم اهواء القوم وتلقي بكم كل يوم في حفرة عميقة لا تعلمون لها من قرار ، فتارة تفرق بين القبائل وتارة تفرق السادة رؤساء الدين فتقرب منهم واحداً دون الآخر وتمد بالمال واحداً وتسجن سواه . وهكذا يذيقكم الإنجليز من صنوف العسف والجور الواناً ، منها نزع ملكية الاراضي [1] من اربابها الذين يملكونها بحق الوراثة الشرعية عن الاباء والاجداد ويعطونها للشركات الإنجليزية من ابناء جنسهم كما تعلمون ، ثم حرمانكم من حقوقكم المشروعة والحجر على حريتكم الشخصية الى غير ذلك من صنوف الظلم التي لا تخفى على احد منكم .

ويمضي المنشور في حديث طويل عن (الرق) في جنوب السودان قديماً ويخلص منه ليقول :

وما الرق في الحقيقة ونفس الواقع الا الطرق التي يستعملها الان الإنجليز وهي استعباد جميع الاهالي بلا تفريق بين عبد او حر ولا بين وضيع او رفيع ولقد اذلوا العظماء ورفعوا الاذلاء كما تشاهدون بأنفسكم ، ولو عدنا الى تاريخ الإنجليز في حكم الشعوب واخضاعهم لسلطانهم لوجدناه مملوءاً بالمظالم مثل وقوفهم حجر عثرة في سبيل التعليم والترقي .

انظروا للضرائب تثقل الان كاهل الغني والفقير على حد سواء ، ويعلم الله ونبيه انها ضرائب لم تنطبق على عدل وليس لها مثيل بين دول الارض قاطبة ولو كانت الحكومة وطنية مؤمنة بالله واليوم الاخر ما كانت تستحل من هذه الضرائب الا ما ينطبق عليه الشرع الحنيف .

---

(١) أراضي الجزيرة التي أخذت من اصحابها بثمن بخس تهيئة لانشاء خزان سنار واقامة مشروع الجزيرة .

اما حرية الدين فلا ادل على ما وصلت اليه من التضييق ومن التأخر من أن المدارس بالخرطوم وأم درمان وسواها ترغم ابناءنا على تعلم الإنجيل وكذا ترغم اهالي البلاد الجنوبية على التدين بالنصرانية ، ووجود اكثر من ست كنائس في الخرطوم كاملة في حين لا يوجد غير جامع واحد لم يتم منذ عشرين عاماً . كل هذا من الادلة التي تفسر لكم استعمار القوم وتعرضهم للدين .

والآن قد بدأوا بسياسة جديدة بقصد التفريق بيننا وبين اخواننا المصريين، وعندما اقول اخواننا أقول ويعلم الله انهم مرتبطون معنا بروابط متينة لا تنفصم عراها مدى الدهر منها الدين والنسب واللغة والوطن والمصالح والجيرة ، وروابط اكثر من اربعة آلاف عام .

بدأ الانجليز بسياسة التفريق بيننا وبينهم ولكني واثق من ان هذه السياسة غير مجدية وقد سخروا لهذه جريدة الحضارة التي اظهرها القوم هذه الايام لأغراض لا يجهلونها خدمة لمآربهم يكتبون فيها ما شاءوا من ضروب السياسة الخرقاء ومما يؤسف له شديد الاسف انهم يستخدمون لاغراضهم اسماء الثلاثة زعماء الدينيين لما لهم من المكانة العظيمة في نفوسنا . ويعلم الله ان سياسة هذه الجريدة على غير ارادتهم ولكنهم مرغمون على السكوت بالنظر لاحكام السودان العرفية الظالمة .

اخواني – لقد سار الانجليز على سياسة التفريق بين المسلم والقبطي بمصر زمناً طويلا واقاموا الفتنة في البلاد وقد حل بالعنصرين الشقاء والتعاسة كما لاحظتم ولما اتحدوا واتفقوا نجحوا وايدهم الله ، فان يد الله مع الجماعة . وهذا درس نافع لكم يجب ان تضعوه نصب اعينكم وتتحدوا مع اخوانكم المصريين حتى تصلوا الى غرضكم من الاستقلال التام وعليكم ان تجاهروا القوم بما تكنه ضمائركم ، لانهم مغرورون في سكوتكم وفي هذا من الضرر عليكم ما فيه ، وان اخوانكم المصريين الآن يجاهدون من اجلكم حتى اذا ما تم مرغوبكم كان لهم ما لكم وعليهم ما

عليكم ، وليس كما يود الإنجليز ان يجعلوكم مستعبدين لهم ابـــد الدهر كغيركم من مستعمراتهم التي في حوزتهم منذ مئات السنين ولا تعرف للخــلاص من سبيل . وانتم الان لا تزالون خارج الشرك المنصوب لكم فاحذروهم ، وثقوا يا إخواني ان الإنجليز ستكون عاقبتهم قريباً وخيمة . والرجاء – هداكم الله الى الصراط المستقيم – عندمـــا يفكر احدكم في امر بلاده ان ينظر الى كندا واستراليا ونيوزيلاندا وجنوب افريقيا ويتساءل كيف انقرضت الشعوب الاصلية في هذه البلاد وحـــل محلها المستعمرون الإنجليز ، وانظروا كيف تنزع ارضكم منـكم وتعطى للشركات وكيف تعيشون وكيف تعامــلون وكيف تذلون وكيف ... وكيف من صنوف التضييق والاستعباد .

فتدابروا في الامر وتذكروا انكم تعملون للمستقبل ولابنائكم وللتاريخ -- ومما يدل على شدة ارتباط المصريين بكم انهم يرفضون اي اتفاق مـع انجلترا يقضي بفصل السودان عن مصر وحرمانه من التمتع بحلاوة الأستقلال التـــام فعليكم ان تقوموا معهم بطلب الاستقلال التام لمصر والسودان ، هدانا الله جميعاً لما فيه خير السعادة للبلاد والسلام .

نوفمبر ١٩٢٠ (وطني ناصح امين)

الشريف يوسف يرد :

وكما كان للمقالات الاربع عن المسألة السودانية دوي ضخم في المجتمع ، فقد أحدثت هذه النشرة السرية والتي ارسلت بالبريد الى عدد كبير من السودانيين اثراً وضجة ، وآية ذلك ان انبرى لهذه النشرة احـد الزعماء الدينيين الثلاثة ، الشريف يوسف الهندي ، فكتب مقالا في جريدة الحضارة [١] يرد عـــلى هذه النشرة السرية جاء فيه :

---

(١) العدد رقم ٦٧ .

« ما هذه المقالات والانشقاقات ؟ اتريدون بها تعكير الحياة ام الخلاص مما انتم فيه ؟ رأى الله شيئاً حسناً ففعله (ألا إلى الله تصير الامور) اما الملك فالله يؤتيه من يشاء . فاتقوا الله يا عباد الله واملأوا مراكزكم وانزلوا نفوسكم حيث انزلكم الله وانزلتكم الحكومة واستعملوا حسن الظن وشكر الجميل .

قد وردت علينا منشورات كثيرة ملعونة ، لان النصح لا يدخل من باب الجهالة ... وقد عجز صاحب المنشورات ان يكتب اسمه فهل علم الناس بناصح مجهول وامين معدوم؟ فان كان ناصحاً واميناً فليقابلنا وينصحنا ويسمع ماعندنا.

أما الأمة السودانية سوادها الاعظم وملأها الاكبر مرتاحة ومطمئنة بما لم يسبق له مثيل وشاكرة بما تراه من العدل والحرية والامن .. فان الامة سبرت غور الامور السابقة وكل حي باق من افرادها شاهد في عمره مرور ثلاث حكومات ، فليحضر اهل المنشورات لنطوف بهم كل حي وكل بلد ليسألوها عن ذلك فان وجدوا خلاف ما قلناه فنحن الكاذبون .. ويكفيك ما صرح به علماؤنا العاملون في الاعداد الماضية من الحضارة وحبذه السواد الاعظم على صفحاتها ، فلا اعتبار بعده لقول (صادق أمين) أو كاذب مبين والى الله ترجع الامور واليه المصير وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

١٤ ربيع الاول سنة ١٣٠٤ هـ الشريف يوسف الهندي

واستطرد محدثي قائلا :

كان الشريف يوسف طيب الله ثراه رجلا قوي الشكيمة حاد الذكاء اذا آمن بفكرة اندفع نحوها بكل قوته ، واذا أعرض عن شيء لا تستطيع قوة في الارض ان تثنيه . وقد شاء الله ان يقف الشريف من ذلك الحكم الذي اثنى عليه موقفاً معارضاً سافراً ، فكرهه وتطرف في كراهيته ولم يخف ذلك على احد من زواره وحاشيته .

ولعل بداية هذا التحول او نهايته ، عندما احتفلت الحكومة احتفالا ضخما بافتتاح خزان سنار عـام ١٩٢٦ وسيجيء تفصيله فيما بعـد . وانعم على كل من السيد عبد الرحمن المهدي والشيخ علي التوم ناظر قبيلة الكبابيش بنيشان القديسين ميخائيل وجورج مع لقب (سير) ولم يمنح الشريف هذا الوسام . مع انه ثالث الزعماء الدينيين الكبار ، ولم يرضه ان يقدم عليه ناظر الكبابيش فعاد الى داره ببري الشريف ثائراً ساخطاً . وكان اول ما فعله ان قطع اسلاك التلفون من داره ايذاناً بقطع صلاته بالخرطوم والحاكمين .

ومنذ ذلك التاريخ قاطع الشريف جميع الاتصالات بالحاكمين ولم يلب دعواتهم الرسمية او الشخصية على كثرة ما بذلوا لاسترضائه ... وقـد كان التخلف عن الحفلات الرسمية ، وفي سراي الحاكم العام خاصة آنذاك أمراً جلـلاً . ولكن الشريف لم يأبه لذلك ولم تطأ قدماه سراي الحاكم العام فيما بعد ، الا مرة واحدة وذلك عندما اراد حاكم السودان السير سايمز ان يعلن الحرب باسم السودان على ايطاليا ودول المحور في الحرب العالمية الأخيرة ، واضطر الى جمع زعماء السودان ليلقي اليهم بهذا النبأ الخطير قبل اعلانه رسمياً .

اما النشرات السرية ، فلم ينقطع امرها حتى بلغت الحركة غايتها عام ١٩٢٤

واستطرد يقول :

من الصعب أن تحكم على فرد او جماعة بالخيانة او فرط الأمانة ما لم تفكر جيداً – بعد دراسة وافية – في الظروف التي كانت تحيط بهم وتلهمهم التفكير .

حقاً لقد اثارت هذه المقالات الاربع من الداخل ، وثورة مصر من الخارج ، شعور المتعلمين وبعض فئات الجماهير الواعية ، ونشأت التيارات الثلاثة التي اشرت اليها لتوجه المجتمع ، تيار المشفقين على الذاتية السودانية ان تفنى في ظـل شعار (السودان جزء من مصر لا يتجزأ) وقـد اندس خلاله تيار الانتهازيين الذين ارادوا خدمة الأغراض الإنجليزية ضـد مصر فأفسدوا تيار الذاتية السودانية

وشوهوه ، والتيار الثالث يضم اولئك المتجاوبين مع ثورة مصر ، ولم يكن لهؤلاء مجال لنشر فكرتهم والعمل لتحقيقها جهرة ، فعمدوا للتخفي في جمعيات سرية ، واستغل بعضهم الصحافة المصرية فأخذ يرسل لها مقالات تؤكد تأييد السودانيين لثورة مصر بقيادة سعد .

ولقيت مقالات السيد حسين الاربع فى هذا المجتمع من كل فئة وفق اتجاهاتها من تأييد او تنديد ، واحدثت هزة قوية في تفكير المتعلمين ، وتجاوب معها نفر من الادباء فكتبوا للحضارة معبرين عن تأييدهم .

ويذكر عشاق الأدب في تلك الفترة قصيدة الشاعر الشيخ (حسن عثمان بدرى) للحضارة بعنوان (يا للحضارة انهم ظلموك) عقب ان اشتدت حملة بعض الشباب عليها :

نازعت حلمي[1] في الهوى بشريك ... واقمت ذلك شافعاً ليقيك
لا تجزعي مني ولا تتخادعي ... فضح الصباح ظلام كل حلوك
فلئن عتبت فما العتاب بنافع ... وهل العتاب يكف غي فروك
لا والذي بعث الحياة قشيبة ... القى القياد لواهن منهوك
منيتني عيشاً بقربك رافهاً ... فوجدت عيش مظنة وشكوك
لا تجذبني منك عطفة شارة ... أبداً وتلعق في دمي المسفوك
حسبي وحسبك ان نعيش تجاوراً ... بالود غير وثائق وصكوك
ابني أبينا النيل لفتة وامق ... يصغى لعتب بالوداد محوك
أنذم ان رمنا الحياة واننا ... لم نعد نهج طريقها المسلوك ؟
فهناك تسري كالنسيم طلاقة ... وترى بوجه كالصباح ضحوك
وهنا بوجه قد يرى متجهما ... في زي خاتلة العقول هلوك

(١) يخاطب الشاعر مصر

أحييت موات الغرب ثمة أنعشت بالشرق كل ممرض منهوك
هل تغبطون اذا تضعضع ركننا حاشا التخاذل خلة لشريك
ونعيش في البيداء تحت سرابها وطعامنا من حنظل وحسيك
ونعاشر (السرحان) في وديانه « يا للحضارة » انهم ظلموك !

ولكن الشيخ حسن بدري نفسه لم ينج من حملات بعض الشباب الثائر يومئذ، فقد انبرى له فتية من طلبة كلية غردون ، وسعى اليه نفر منهم في داره ،منهم الطالبان الدرديري احمد اسماعيل ومحيي الدين جمال ابو سيف، وكانت لهما معرفة وصلة بالشاعر ، فأوسعاه نقداً لاذعاً وسخرية مريرة ما زال حسن بدري يذكرها حتى اليوم باسماً راضياً ..!

قال الشيخ :

وما كان كل – مع اختلاف السبل – يريد غير رفعة هذا السودان الحبيب .

علي عبد اللطيف والحضارة امام القضاء :

كان السيد احمد فهمي الريح اول مدير لجريدة حضارة السودان منذ ان تولى تحريرها السيد حسين شريف .

وهو هنا يروي كيف حدثت اول قضية صحفية مثلت فيها الحضارة وكاتب المقال امام القضاء ، اما كاتب المقال الذي لم ير النور ولم ينشرْ ، فهو الضابط السوداني المعروف علي عبد اللطيف الذي عرف بثورته على الاستعمار وجرأته على الإنجليز .

وقد حدثت وقائع هذه القضية الصحفية في عام ١٩٢١ ويروي السيد احمد الريح في مذكراته بمجلة المرأة ما يلي :

« كنت بمكتبي بادارة جريدة الحضارة عندما حضر لي احـد الضباط ، ولم اكن اعرفه من قبل وسلمني مظروفاً باسم رئيس التحرير السيد حسين شريف . الذي كان غائباً وقتئذ ، وانصرف الضابط بعد تسليمي الخطاب .

وبعد يومـين عاد الضابط الى المكتب والتقى بالسيد حسين رئيس التحرير فأفهمه بأن المقالة جيدة جداً وموضوعها موضوع حي للغاية ولكنه لما يحن بعد الحين الذي تنشر فيه .

وعلى اثر ذلك ثار الضابط . وعرفت انه علي عبد اللطيف — ولم يرض بهذا الرأي وخرج على وعد بالاجتماع مرة اخرى برئيس التحرير .

وبعد يومين اجتمع رئيس التحرير والضابطعلي عبد اللطيف وبعض زملائهم وبعد نقاش طويل لبنود المقالة التي كانت مكونة من :

١ — زيادة التعليم .

٢ — نزع احتكار السكر من يد الحكومة ووضعه بيد التجار .

٣ — وعن الوضع في مشروع الجزيرة .

٤ — اسناد بعض الوظائف للسودانيين .

هذا الى عدة مسائل اخرى مما يدخل في دائرة المطالب المحلية ، وقد انتهوا في ذلك الاجتماع الى ان الموضوع عظيم للغاية ووعـد السيد حسين شريف بنشره عندما يحين الحين بعد ان اثنى على الموضوع ثناء عاطراً ووصفه بالوطنية ، وبعد ذلك انفرط عقدهم .

وبعد يومين او ثلاثـة حضر المستر ولس مدير المخابرات الى مكتب رئيس

التحرير وهو ثائر مهتاج ، وكان رئيس التحرير في المطبعة فأخذ المستر ولس يفتش ادراج المكتب ويبعثر الورق حتى عثر على مقال علي عبد اللطيف في احد الادراج فأخذه عنوة واقتداراً .

وحضر السيد حسين شريف فابتدره المستر ولس قائلا بانه ليس له الحق في اخفاء هذا المقال الخطير وعاتبه في عدم عرضه عليهم وغادر المكتب وهو ثائر بادي الغضب .

وقد كانت للمستر ولس عيون منبثة في كل مكان ترصد كل حركة وما من شك في ان احد اعوانه نقل اليه خبر هذا المقال .

وقدم كل من علي عبد اللطيف وحسين شريف للمحاكمة ، وبعد سماع اقوالهما والشهود ودفاع رئيس التحرير عن المتهم قضت المحكمة بحبس علي عبد اللطيف سنتين سجناً وبراءة رئيس التحرير .

هذا وقد نزعت امام المحكمة الرتب والنياشين التي كانت تحلي صدر البطل .
هذا ما رواه احمد الريح اول مدير للحضارة .

قلت لمحدثي ، اذن فاختيار علي عبد اللطيف رئيساً لجمعية اللواء الابيض وقائداً لثورة ١٩٢٤ لم يكن اعتباطاً وانما كان للرجل تاريخ مشرف في الكفاح ؟

قال بلى ، والزعامات لاتجيء عفواً ولا يقود الناس إمعة خائر ...

وأخذت اتأمل وانظر الى تلك الفترة القاسية والاستعمار في ذروة سطوته جبروته وهذا الفتى الذي كان في وظيفة يسيل لها لعاب الكثيرين ، يقذف بها ليصارع قوة لا قبل له بها لولا الايمان بالحق ، والمؤمن بحقه لا ترهبه قوة ولا يقعد به ضعف .

وفاة حسين شريف .

وفي اول شهر يونيو ١٩٢٨ انتهت حيـاة اول صحفي سوداني السيد حسين شريف ، فشيعت جثمانه جموع زاخرة كان في مقدمتها افواج الخريجين في العاصمة المثلثة ، ووقف على قبره ممثلوهم مؤبنين فرثاه زميله وخليفته في تحرير الحضارة السيد احمد عثمان القاضي وآخرون .

وفي الاسبوع الأخير من شهر يوليو ١٩٢٨ امتلأ نادي الخريجين بأم درمان بحشد ضخم لتأبين الفقيد ، وتعاقب الخطباء والشعراء يعددون مناقبه ويتحسرون على فقده ، اذكر من بـين المتحدثين السيد احمد عثمان القاضي الذي افاض في في حديث شجي محزن، والشاعر ابو بكر عليم الذي استهل رثاءه بشعر يذكرنا بابي العلاء المعري فهو يقول :

غالب الهم فالحياة عنـاء ... وعظ النفس فالسلامة داء
واذا ما سررت بالعيش يوماً ... فبأضعـاف ما تسر تساء
ما وجدنا في كوننا باختيار ... ان ايجـادنا علينا بـلاء
قد حسدنا الجماد ، فاستغفر ... الله لان العقول فينا شقاء
هل رأيت الجماد حس بشيء ... او درى ماالأسى وما اللأواء؟
يا حسيناً ناديت منك رفيقـاً ... ذا وفاء ، فما افاد النداء ؟

وفيها يقول :

قصف الموت منه غصن شباب ... فيه من زاهر الكمال رواء
بث في قومه الشعور ونادى ... وطني مذهبي ، وديني الوفاء !
وقضى نحبه وفي النفس آما ... ل كبار يضيق عنها الفضاء
سائلوا منبر الحضارة هل ما ... لت به عن طريقه الاهواء؟
فسلام عليك حياً وميتـاً ... من صديـق انفاسه صعداء

وان كان زملاء الفقيد من ابناء جيله قد تباروا في رثائه وتعداد مناقبه فان طلائع الجيل الحديث قد أسهمت في تقدير الراحل فجاءت وفـــود طلبة كلية غردون بجلابيبهم البيض واحتلوا مكاناً بارزاً في الحفل وتحدث اثنان منهم همـا اسماعيل العتباني الذي القى كلمة مؤثرة ومحمد احمد المحجوب الذي القى قصيدة رائعة اذكر منها قوله :

ان الذي وهب العزائم في الورى   وهب الفقيد عزيمـــة الرئبال

وقد تولى تحرير الحضـارة – كما ذكرت – السيد احمد عثمان القاضي الذي كان موظفا « قاضياً شرعياً » ، ولما كانت الحضارة جريدة الحكومة الرسمية فلم يكن بدعاً ان يختار محررها من بين موظفي الحكومة ، بل كان هذا طابـــع محرريها الذين تعاقبوا عليها في الفترات التي كان فيها السيد احمد عثمان يسافر في بعض المهام الصحافية ، واذكر من بين هؤلاء المحررين الموظفين الأساتذة السادة عبد الرحمن احمد (الذي انشأ فيما بعد جريدة السودان) وعبد الفتاح المغربي ومكي شبيكة والمرحوم محمد عثمان ميرغني وكل هؤلاء كانوا آنذاك مدرسين في مصلحة المعارف .

ولما كانت الحضارة تصدر باسم السادة الثلاثة فقـد كان لهـا مندوبون من هؤلاء السادة الثلاثة يجوبون الاقاليم ويجمعون لهـا الاشتراكات ، وكان انصار كل سيد يتحمسون للاشتراك فيها ترضية وتبركا حتى الأميون كانوا يدفعون اشتراكاتهم في سخاء ! ومن الطرائف ان عامة الناس كانوا يطلقون على كل صحيفة اسم (الحضارة) ! اي ان كلمة « حضارة » كانت بمعنى « جريدة » ! وقـــد انتشرت في القرى النائية مثل انتشارها في المدن بفضل مندوبي السادة الثلاثـة وقد كان من اشهرهم الخليفة مصطفى التني اقرب المقربين للشريف يوسف الهندي وكان رجلا رائع الملح والنوادر ، واشتهر بارسال النكت المسجوعـة وله في كل

بقعة حل بها نكات يتندر بها الناس لطرافتها وبراعة التصوير فيها خاصة عندما يطلقها ضد اولئك الذين يتهربون من الاشتراك في الحضارة !

وانتهت الحضارة في الثلاثينات بعد ان قامت بجانبها صحف ادبية عديدة ، وازداد احساس الناس بمسؤولياتهم الوطنية واستنفدت هي اغراضها .. ومهما يكن من امرها فقد كانت مجالاً حسناً للنشاط الادبي والاجتماعي في فترة العشرينات ، وعلى صفحاتها تفتحت براعم أدباء وشعراء كان لهم أثر عظيم في النهضة التي تلت ذلك العهد .

أوّل حَفــل تَأْبين

قال صديقي الشيـخ :

كان أول عهدنا بإقامة حفلات التأبين عندما فقدت البلاد في يوم واحــد أستاذين جليلين وعلمين من اعلام الأدب والثقافة والدين ، احدهما سوداني والآخر مصري وهما الشيـخ محمد عمر البناء مفتش المحاكم الشرعية والاستاذ عبد المجيد بك ابراهيم احد أجلاء الاساتذة المصريين الذين كان لهم الفضل في تثقيف جيلنا الاول من الخريجين وكان عند وفاته ناظراً لكلية القضاء الشرعي والمعلمين .وقد حــدثت وفاتهما في يوم ٣ فبراير ١٩١٩ بل وفي ساعة واحدة كأنهما على ميعاد موقوت .

وكتب المرحوم السيد حسين شريف في جريدة الحضارة يـدعو الى اقامة حفل تأبين للراحلين العزيزين ، وعلى ما اذكر كانت تلك اول مرة يدعى فيها لاقامة حفل تأبين ، فما كانت البلاد تعرف هذا اللون من التكريم للموتى .

وفي مدرسة الخرطوم الابتدائية – وما تزال في مقرها حتى الآن - اقيم حفــل تأبين فقيد العلم عبد المجيد بك ابراهيم . واحتشد تلاميذه من الخريجين وعارفو فضله وأدبه وزملاؤه المصريون مدرسين وغير مدرسين وافتتح الحفل الاستاذ الجليل الشيخ محمود ناصف احد الاساتذة المصريين بكلمة رصينة معبرة عدد فيها مناقب الفقيد وافضاله .

وتلاه الاستاذ الشيـخ محمد احمد المبارك من الاساتذة المصريين بكلية غردون فألقى قصيدة حزينة باكية استهلها بقوله :

طال عهد الرحيل بالغرباء　　مذ تناءوا عن صفوة القرباء
وتولت ايام انسهم البيض　　كأن لم يكن لهم من بقـاء
يا ترى هل مقامهم لنعيم　　ألفـوه في بعدهم او شقاء
ليت شعري هل يرسلون رسولاً　　من لدنهم مبشراً بلقـاء
ومعيداً عهد السرور إلينا　　بعد ما طال عهدنا بالبكاء
أم يدومون في ونىً وسكون　　لا يبالون بارتفاع النـداء
لهف نفسي لطامع في بقاء　　هو في الاصل عين ذاك الفناء
لا يطيب المقام في دار شحنا　　ء ولا دار شقوة وبـلاء

ويخلص الى ذكر الفقيد فيقول :

حكم الله بالفناء على الخلق　　جميعاً فوجهـه ذو البقـاء
فافعلوا الخير ما استطعتم اليه　　من سبيل كسابقي الاتقياء
اقتدوا بالفقيد في صالح الاعمـال والرفق والتقى والاباء
كان ذا رقة وعطف ولين　　واهتمام براحة الاصدقاء
رب يوم حسبته فيه كالنار استعاراً وجـدته كالمـاء
عاش في عالم الجفاء زماناً　　كان فيه نموذجـاً للوفاء
جمع الفضل والمروءة والنبل　　كما حاز طيبات الثناء
هكذا تنضج المواهب في مصر　　بلاد النبوغ والنبغـاء
واصل الليل بالنهار اجتهاداً　　في سبيل الوصول للعليـاء
غير ان المنى تسوق المنايا　　فقضى نحبـه مع الشهداء
فقدته (كلية) سار فيها　　سير من يعرف الدواء للأدواء
فقدته مصر، وسودان مصر　　ومضى متعباً بداء عيـاء
وبكاه الشباب والخلق السمح　　وخير الرجال قبل النساء

ويختتم قصيدته بهذه الصورة الحزينة الباكية لأسرة الفقيد :

كم دعوناك يا شهيد المعالي ... ثم لم تنتبه لصوت الدعـاء
ما عرفنا فيك التثاقل والبطء ... وما كنت من ذوي البخلاء
كم دعاك الاهلون ما بين زوج ... وصغار تركتهم للعنـــاء
وأب هدّه المصاب وأم ... بترت قلبهـا يد البرحـاء
عرفوا بعدك النياحة والبؤ ... س وخفض الجناح للاعياء

وينفض الحفل بعدها بعد الترحم على الفقيد وتبادل العزاء في فقده .

وفي دار الخريجين بأم درمان وكانت حديثة العهد لم يمض على إنشائهـا نحو العام احتشد عدد كبير من المواطنين على اختلافهم ليشهدوا أول حفل تأبـين يقام لشيخ جليل كانت له مكانة عظيمة في النفوس، المغفور له الاستاذ محمد عمر البناء وكان ذلك في اليوم العشرين من شهر مارس ١٩١٩ ، وهو نفس اليوم الذي أقيم فيه حفل تأبين الاستاذ عبد المجيد .

واعتلى المنصة ذاك الفتى الذي كان ملء الاسماع والابصار السيد حسين شريف رئيس تحرير جريدة الحضارة ، وكان خطيباً ، حلو النبرات يتخير ألفاظه كأنه شاعر نقاد .

واني لأكاد اسمع نبراته تتردد في ذلك الحفل بهذه العبارات وهو يؤبن الفقيد:
« قضى الله الذي لا مرد لقضائه أن يفقد السودان في شخص راحله الكريم المرحوم الشيخ محمد عمر البناء ذهناً من اذهانه المفكرة ، ولساناً من ألسنته الناطقة وعلماً من أعلامه الظاهرة ، وريحانة من رياحينه العطرة ، وشيخاً من شيوخة التقاة ، وحبراً من أحباره الاثبات ، الذين عركوا الدهر وخبروا الايام وبلوا الحلو والمر فجاءوا ثمرة ناضجة نافعة لبلدانهم وأممهم -وما أحوجنا الى هذه مثل الثمرات اليوم - هذا الى قلب يشتعل ذكاء ونفس تتألق صفاء، واعطاف تسيل

ظرفاً واخلاق تقطر عذوبة وسريرة طاهرة ذكية قد ملئت ديناً ووطنية ، وبيان يجلسه بجانب المجيدين من الشعراء ، ولطافة تمزجه بالارواح ... » .

وبمثل هذا النسق العالي أخذ السيد حسين شريف يخلب ألباب المستمعين بسحر بيانه بعد أن سرد تاريخ الراحل الكبير وكشف عن جوانب العظمة في شخصه ، وجلس والابصار عالقة به . وسعى الى المنصة البناء الصغير ليرثي البناء الكبير ، الابن يرثي الاب ... وكان عبد الله البناء مشهوراً على حداثة سنه بالذكاء والالمعية والدعابة الساحرة الساخرة . وانصتنا اليه جميعاً بكل جوارحنا ، وفي صوت هادىء مليء انطلق يقول :

عين الكمال لهول يومك تذرف ... والمجد يرعد والشريعة ترجف
دهم الزمان ففاته المجد التليد ... وفاته المستطرف
رفاع ألوية العلاء أرى العلا ... مهجورة طرقاتها تتلهف
دفاع عادية الزمان ارى الورى ... ضاق الخناق بهم وشق الموقف
حمال اثقال المغارم اصبحت ... دور المكارم للبلى تستهدف
كشاف غماء المظالم بالهدى ... حار الهدى لما ثوى من ينصف
لباس ثوب الصبر في ازماته ... للصبر بعدك لوعة لا توصف

ويتمهل قليلا في إلقائه ، وقد ران الصمت على المجتمعين ثم يقول .

يا قوم حامي السرح أقصده الردى ... بكوا له بدم القلوب وانزفوا
لا در در الدافنيك فانهم ... هالوا عليك من التراب واسرفوا
أو ما دروا ان المكارم في الثرى ... أو ما دروا أبتي بأنك مصحف!
أو ما دروا ان الجلال مروع ... او ما دروا ان المروءة ترجف
او ما دروا ان الشجاعة والندى ... والبر من اعناقها تتقصف
قد كنت تؤثر ان تقول الصدق لا ... تبغي به بدلا ولا تتخوف

في موقف فيه (الخليفة)[1] غاضب ... والبيض ترجف والعواسل ترعف
وتبين ما دام الكلام مروءة ... شرف وتصمت اذ سكوتك اشرف
وتغض عن عيب الصديق نزاهة ... وعليك من عز المهابة مطرف

واستمر البناء في القاء قصيدته ذاكراً مناقب ابيه متحسراً على وفاته حتى يقول :

هذا أبي غيظ العدو وملجأ العاني وسيف الحادثات المرهف
هذا أبي قمر الندى وما ابي ... الا الحياة لها النفوس تشوف
فقد الكتاب سميره وبكى التقى ... وافتر من شوق اليه الموقف
كم قلت قافية ولم تضجر بها ... جاءت تكاد من اللذاذة ترشف
قد كنت اسرف في تليدك لاعباً ... وتغض طرفك بل تجود وتخلف
فالآن قد اخذ الزمان بمخنقي ... وغدا على حنق يضر ويتلف
حسناتك الغر الخوالد في الورى ... برد عليك من الجلال مفوف
نم في جوار الله مسروراً به ... فلقـــد تجير اذا تشاء وتسعف
ثمرات ما قدمته من صالح ... تختـار من نعمائهن وتقطف

ويزايل البناء المنصة بين اعجاب المستمعين له ، والحزن على الرجل الذي فقدناه . وينتهي الحفل عند هذا ونغادره الى بيوتنا ونحن نعلق على ما سمعناه من نثر وشعر ...

قلت لأستثيره ، وانا اعرف مدى ولعه بشعر البناء ... كن أميناً وحدثني أي القصيدتين كانت اروع ، قصيدة الشيخ محمد أحمد المبارك في رثاء عبد المجيد أم قصيدة البناء في رثاء والده ؟

واطرق برهة ، واجاب متمهلا ، لا انكرك كان هذا قد اثير بيننا في ذلك العهد ، اعجبنا نسج البناء القوي ، وهذه الالفاظ الفخمة الضخمة ، والحرص

(١) الخليفة عبدالله خليفة المهدي وكان البناء الكبير احد القضاة في مجلس الخليفة .

على النهج العربي السليم ، ولكني ارى – وقد بعد عهدنا بتلك المقاييس التي كنا ننظر بها ، ان قصيدة الاستاذ المبارك كانت اقرب الى الطبيعة الانسانية ، ففيها تلك اللمسات الانسانية الحانية الصادقه .

وابتسمت كأني انتصرت عليه ... ولمح ذلك في وجهي فثَار صارخاً . ومع ذلك فقد كان البناء شاعر جيلنا المفضل ! ...قلت : لا تثريب عليك فقدكانت تلك فترة الصناعة المجودة ، والبناء من فرسانها المعلمين .

أوّل وفد سوداني يزور انجلترا

قلت لهذا الصديق الراوية ، ألا تحـدثني عن قصة اول فـوج من السودانيين يغادر البلاد في رحلة الى اوروبا ليرى لاول مرة معالم الحضارة الحديثـة في مستقرها ؟ قال بلى ، فقد كان ذلك عقب ان وضعت الحرب الاولى (١٩١٤ - ١٩١٩) أوزارها وتنفس الناس الصعداء وانتصر معسكر انجلترا وحلفائها على معسكر المانيا . وكنا نتتبع انباء هذه الحرب عن طريق الصحافة المصرية ، ولم تكن هناك اذاعة او راديو لان هذه الأداة الحديثة التي تجعل انباء العـالم كلها بين يديك في لحظات لم تظهر في الوجود بعد .

وذات يوم ، وعلى التحديد في يوم ٢١ يونيو ١٩١٩ قرأنا في جريدة الحضارة العدد ١٧ ان وفداً من السودان سيتوجه الى انجلترا لتهنئة جـلالة الملك بالنصر ... وأدنى مني عدد الحضارة المذكورة لأقرأ في مقدمته ما يلي :

« علمنا ان وفداً من سراة هذه البلاد سيتوجه لانجلترا لينوب عن اهالي هذه البلاد في تهنئة جلالة الملك بنهاية الحرب نهاية سعيدة مقرونة بالانتصار ، وسيبرح الوفد الخرطوم فى اوائل يوليو القادم فيصل الى انجلترا قبل نهاية هذا الشهر . والذي فهمناه ان حكومة جلالة الملك اعربت عن سرورها العظيم لهذه الزيارة الميمونة ، وهي مستعدة لان ترحب بالوفد ترحيباً ودياً ... اجل ، نزف الى قومنا اليوم هذه البشرى التي لم تأتهم بمثلها الايام من حيث دلالتها عـلى معنى كبير . فلا بدع اذا ابتهجت البلاد سروراً بهذا الخبر لانه جاء دليلا على ان ما اظهرته في هذه الحرب لم يذهب سدى بل صادف امة حرة وحكومة كريمة فانبت فيها عواطف العطف علينا ، كما ان هذا المظهر مظهر الاخلاص الذي تظهر به

على الدوام لم يكن الا اعترافاً بالجميل فزيارة وفدنا لتلك البلاد التي تربطنا بها روابط سياسية واد واقتصادية وودية للتعبير لها عن عواطف الاهلين وللاشتراك معها في الافراح العمومية التي ستقيمها احتفاء بانتهاء الحرب وتوطيد اركان السلام مظهر لهذه العواطف المتبادلة بيننا وبين البريطانيين ، وانا لنرجو ان يعود اعضاؤه الى بلادهم وهم يحملون اليها التمدين الصحيح الذي تقوم عليه تلك البلاد العظيمة والله المسئول لكل مأمول » .

ورددت اليه الحضارة ، وتهيأ هو لمواصلة الحديث ...

اني اذكر ذلك جيداً ، يوم الاربعاء ٢ يوليو ١٩١٩ ، وقد امتلأت محطة سكة الحديد بالخرطوم وما حولها بخلق كثير لم تعهده من قبل ، واستطيع ان اجزم بانه اول حشد وطني تشهده هذه المحطة ، اذ كان هذا يوم سفر اول وفد سوداني الى انجلتره . لقد كنا نحاول ان نشق الجماهير لنتطلع الى وجوه رجالات الوفد ونتعرف اليهم ، ولكن الحشود كانت تحول بيننا وما نريد . ولقد كان الوفد مكوناً من السادة : السيد علي الميرغني والشريف يوسف الهندي والسيد عبد الرحمن المهدي عن الزعماء الدينيين بالسودان والشيخ الطيب احمد هاشم مفتي السودان والشيخ ابو القاسم احمد هاشم رئيس مجلس العلماء والسيد اسماعيل الأزهري قاضي شرعي مديرية دارفور والشيخ علي التوم ناظر الكبابيش والشيخ ابراهيم موسى ناظر الهدندوة والشيخ ابراهيم محمد فرح ناظر الجعليين والشيخ عوض الكريم عبد الله وكيل ناظر الشكرية .

هذا هو الوفد الرسمي ، ولكن الاقدار قد هيأت لشابين من نابهة الخريجين ان يجدا فرصة السفر مع هذا الوفد ، فقد سمح لأعضاء الوفد ان يصحبوا معهم بعض المرافقين ليستعينوا بهم هناك . فاختار السيد اسماعيل الازهري قاضي شرعي دارفور حفيده الاستاذ اسماعيل الازهري المدرس بالمدرسة الابتدائية (رئيس أول وزارة سودانية) ليرافقه كمترجم ، واختار الشيخان الجليلان

الطيب احمد هاشم وابو القاسم احمد هاشم الاستاذ محمد حاج الامين المدرس بمدرسة أم درمان الابتدائية مرافقاً لهما ايضاً لنفس الغرض ، وبهذا كان هذان الشابان أول من يزوران أوروبا من الخريجين.

قال محدثي ، من الخير ان اطلعك على وصف وداع الوفد كما نشرته الحضارة في عددها الثامن عشر بتاريخ ٥ يوليو ١٩١٩ . وتناولت منه الحضارة واخذت اقرأ :

« ما كاد يذاع خبر قيام الوفد السوداني بالسفر الى لندن بين مدن الخرطوم وامدرمان والخرطوم البحرية في القطار الخاص في العاشرة والنصف من صباح يوم الاربعاء ٢ يوليو ، الا وكنت تشعر بحركة عظيمة في المدن بين مقابل مقابلة خصوصية لاحد اعضاء الوفد وبين متهيىء لحضور الاحتفال في محطة السكة الحديد .ولم تشرق شمس اليوم المذكور حتى تقاطر الناس على المحطة من كل صوب وفج وقد اخذت الأحتياطات لحفظ النظام في هذا الجمع المتاوج المحتشد على بعد عظيم من باب المحطة وعلى الدرابزين مما يعد بالألوف ناهيك عمن بداخل المحطة ممن اسعدهم الحظ بالحصول على تذاكر توديع طبعت بواسطة مكتب المخابرات خصيصاً لهذه للغاية وقد بذلت مديرية العاصمة همة تذكر لحفظ النظام وابداءه وكان جناب القائمقام هيبرت بك ممتطياً صهوة جواده ليباشر بنفسه المحافظة عليه وقد رأيته بنفسي يرفع عصا لاحد المودعين سقطت منه اثناء مروره بالشارع . !

ونحو الساعة العاشرة حصلت حركة غير عادية في المحافظة على النظام وشدة الانتباه وذلك لقدوم صاحب السيادة الحسيب النسيب السيد علي الميرغني زعيم الوفد تنقله سيارة الى باب الصالون الخاص لما لسيادته من سمو المنزلة في نفوس المودعين .

وكانت الموسيقى تشجي الأسماع بأنغامها المطربة ، وكان بالمحطة جمهور عظيم

من اكابر الضباط الإنجليز والمصريين وكان الزحام حوالى العربات ممـــا لا يمكن للكاتب ان يبلغ نهاية وصفه مهما علا كعبه فانك لا تكاد ترى فراغـاً ولا غرو فالمسافرون محل معتقدات الامة وائمتهم وزعماؤهم والرحلة تاريخية قيمة لم يكن ليحلم بها فرد من افراد هذه البلاد فالعوامل الدافعـة كثيرة وبقدرها كان الاحتفال مؤثراً . وقد انتدب صاحب المعالي الحاكم العام صاحب العزة الاميرالاي هوبيلي بك سكرتير معاليـه الخصوصي وبمعيته البكباشي مستر ماستر والمستر هول لتوديع الوفد على المحطة وما وافت الساعـه العاشرة والنصف حتى تحرك القطار فتحركت بحركته القلوب والابصار وكان المسافرون مطلين من نوافـذ العربات لتحية الوداع اخيراً للاقوام الذين شيعوهم بحبات قلوبهم » .

واخذنا نتتبع انباء الوفد بما تنشره الحضارة من برقيات عن تحركاته فنعلم انه حظي بمقابـلة الملك جورج الخامس في ٢٨ يوليو ١٩١٩ وكان يرافقهم السير ونجت واللورد جرنفيل واللورد كرومر وغيرهم وقد اقلتهم عربات ملوكية الى قصر بكنجهام ، والقى السد علي الميرغني امام الملك والملكة كلمة تهنئة بالنصر باسم السودان ، وقدم السيد عبد الرحمن المهدي سيفاً من الذهب ، تقبـله الملك شاكراً ثم رده ليكون أثراً من جلالته لأسرة السيد عبد الرحمن .

ثم انعم عليهم الملك بالنياشين الآتية :

نيشان فيكتوريا من درجة فارس للسيد علي الميرغني (مـــع لقب سير) وبالنيشان نفسه من درجة رفيق عـلى كل من الشريف يوسف الهندي والسيد عبد الرحمن المهدي والشيخ ابو القاسم احمد هاشم ، ومن درجة عضو على كل من الشيخ ابراهيم موسى وللشيخ علي التوم والشيخ ابراهيم محمد فرح والشيخ عوض الكريم ابو سن .

وفي الساعة الخامسة والنصف مساء من اليوم السابع عشر من شهر أغسطس

وصل القطار الذي يقل الوفد الى محطة الخرطوم حيث تلقته حشود ضخمة أكثر بكثير من تلك التي ودعته وكان في مقدمة المستقبلين نائب معالي الحاكم العام واليوزباشي احمد عبد الله سعد ياور الحاكم العام [١] ورجالات الجاليات الاجنبية والاعيان وجماهير حاشدة من الشعب ، وظلت دور اعضاء الوفد غاصة بالمهنئين من مختلف الطبقات لعدة ايام .

قال صاحبي :

ولم يكن بدعاً ان تهز المناسبة عدداً من شعرائنا آنذاك ، فعند قيام الوفد نقرأ هذه القصيدة للشاعر الشيخ حسن عثمان بدري :

صحا القلب وارتاح الضمير المعذب ... وحاد عن التلوام من كان يعتب
واصبح لا يطبيه طرف ومعصم ... حناناً لوصل او بنان مخضب
وظل على التفكير والعقل سالم ... يطالع في صفحات أمس فيعجب
ويدركه يأس فينهض ثائراً ... بآماله والعزم سيف مشطب
ومن لم تؤدبه الحوادث انـــه ... لمن نوكه يبكي عليه ويندب
اذا انت لم تسلك حنادس طرقها ... بنور الحجا لم تدر ايان تذهب
وداعاً من الالباب يقتاده الرضى ... وعوداً به هذي النفوس ترحب

وفي دار السيدين الجليلين السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي وقف شاعران غردان من فتية ذلك العهد يعبران عن فرحتها بعودة السيدين في شعر سلس عذب اذا ما قيس بشعر تلك الفترة .

ففي دار السيد علي الميرغني وقف الفتى المهندس الشاعر عبد الرحمن شوقي ، والدار حاشدة بالناس يتلقفون ما يقول بيتاً بيتاً في تهليل واعجاب وهو ينشد :

وقفت ولم انسب ولم اتغزل ... ولم اشك حالي في الهوى وتذللي
ولم ابك داراً قد عفت وتغيرت ... وصحباً كراماً بت عنهم بمعزل

(١) والد الضابط محيي الدين أحمد عبد الله .

ومثلى اذا جن الظـلام رأيته يقوم قيام الناســك المتبتل
يعد نجوم الليل من وَلهٍ بـــه ويحنو على قلب من الوجد مبتل
يقولون حب الغيـــد تيم قلبه وما حب ربات الخبا عنك مشغلي
وما في فؤادي موضع لمحبـة لغيرك حتى قال ذلك عذلي
بـكم آل طه ما حييت متيم وفيك مديحي دون غيرك (ياعلي)
ومن ذا يرى في العمر وجهك مرة تقر به عيناه يومــاً وتمتلي
فيستلو هــوى آل النبي وحبهم جرى فيه مجرى الروح في كل مفصل
حلفت ولم احنث بأنــك سيد كريم السجايا والكتاب المنزل
وانــك للاسلام ركن وموئــل لتحفظه يا خير ركن وموئل
ورثت كريم المجد عن اكرم الورى ونور الهدى عن وجهه المتهلل
فبوركت من شهم حسيب منسب وبورك من مجد تليد مؤثل
تبدل هذا الدهر والناس كلهم ومجدك ايم الله لم يتبدل
وقدمت نفع القطر عن كل واجب عليك ولم تعجز ولم تتوكل
وسافرت عن هذي البلاد فقائل متى راجع غوث الضعيف المؤمل؟
وكم واله يوم الوداع وناظر اليك بقلب بالمحبة ممتــلي
وعيني ملآى بالدموع تدفقت وقلب حزين يلتظي مثل مرجل
وما غبت بل غابت قلوب كثيرة وغاب العلا والمجد عن كل محفل
وردك رب الناس للناس سالماً فأعظم بها من نعمة وتفضل
طلعت على الاقوام والنور ساطع بوجه وسيم بالجلال مكلل
فكم شاخص كم واله ومكبر وكم ساجــد لله كم من مهلــل
يودون تقبيــل الركاب تبركا وأنت ورا ستر من النور مسبل
أمولاي هذا اليوم اشرق نوره كوجهك بين الناس في كل محفل
وقد نال منك الفخر فاسلم لمثله مدى الدهر واهنأ في رضا الله وارفل

وفي دار السيد عبد الرحمن المهدي نلتقي بالفتى الألمعي الاستاذ احمــد محمد

صالح وهو يلقي قصيدة رائعة في استقبال السيد يسحر بها الباب الجماهير التي اوشكت ان تحمله على اعناقها اعجاباً ..

وإن كان عبد الرحمن شوقي في تحيته للسيد على يفخر بأنه وقف فلم ينسب ولم يتغزل ولم يشك حاله في الهوى :

وقفت ولم أنسب ولم أتغزل ولم أشك حالي في الهوى وتذللي

فإن أحمد محمد صالح الفتى المتفتح القلب والمشاعر والشاعر ذو الصبوات يستهل قصيدته متغزلاً شاكياً حاله في الهوى فيقول:

لزينب ربع ما يجيبك محول عفا بعدما قد كان بالغيد يأهل
وأقفر من بيض حسان نواعم أوانس من أخلاقهن التدلل
وزينب دعجاء العيون غريرة لها لحظات تسترق وتقتل
خدلجة الساقين خمصانة الحشا لها شعر ضاف وخصر مبتل
وخد أسيل فوق جيد غزالة وردف اذا قامت ينوء ويثقل
اذا ابتسمت فالأقحوانة نورت وان خطرت فالريم في البيد يجفل
رعى الله اياماً لهوت بقربها واترابها والحاسدون تحملوا
وعاذلة قالت تبدلت في الهوى سواها ومن في الناس لا يتبدل ؟
رويدك اني لم تغير مودتي ولكنني من حادث البين اوجل
ومذ ظعن الحي الذين احبهم واصبح فيما بيننا البحر يفصل
اقضت بجنبيّ المضاجع حقبة وأصبحت في شغل عن الحب يشغل

وهكذا يتخلص أحمد من نجوى زينب الى هذا الحب النبيل الذي اقض مضجعه منذ حال البحر بينه وبين من يحب ، ويعني به السيد عبدِ الرحمن ، حتى اذا ما ذهب البين واجتمع الشمل هتف الشاعر :

امام الهدى قرت بمرآك اعين وطابت نفوس حين عدت واعقل

واصبح هذا القطر يزدان بهجة ... ويختال في برد السرور ويرفل
نمتك الى الخيرات اعراق هاشم ... فأنت لهذا الدين ركن وموئل
واقسم ما قاسوك بالبـدر ميسما ... وشمس الضحى إلا ووجهك اجمل
ولا قرنوا كفيك بالبحر نائـلا ... ولا بالحيا الا وجدواك اجزل
فكم فرجت كفاك في المحل كربة ... وكنت لكل النائبات تؤمل
تهش اذا جـاء الفقـير ميمما ... وتبدؤه بالنيل من قبل يسأل
ابوك اقام الدين والفسق ضارب ... بأطنابه والناس للحق تجهـل
به عاد دين الله ابلـج واضحاً ... مقيما فـلا يبلى ولا يتحـول
الا افخر فبالمهدي يفخر نسله ... ويفتخر السودان والدين يحمل
حباك (مليك القوم) نيشان رفعة ... وانت بنيشان الجـلال مكلل
عليك من الرحمن تاج مهابـة ... ونور على رغم العدى يتهلل
امولاي ذا اليوم الذي كنت تائقاً ... اليه وذا الوجه الكريم المؤمل
ثلاثون يوماً ثم عشر وستة ... تقضت وابصار العباد تنقل
فلما تجلى نور وجهك كبروا ... لمرآك من بعد التنائي وهللوا
هنيئاً لهذا القطر ان رد سيفه (١) ... اليه ومتناه احد واصقل
تباركت من قرم اغر محجل ... تقيـله قـرم اغـر محجـل
ولا زلت في عيش رغيد وغبطة ... وقاصدك العافي يروح ويقبل

وان كان سفر هذا الوفد وعودته قد هزت مشاعر السودانيين آنذاك وانطق شعراءهم بهذا الشعر العذب الا انه كان مثار حملة عنيفة في الصحافة المصرية ، فقد كان الشعور الوطني يغلي في مصر ضد الانجليز لاعتقالهم لسعد زغلول ورفاقه الذين طالبوا بحرية البلاد .

---

(١) يشير الى السيف الذي أهداه السيد عبد الرحمن للملك الانجليز .

فؤاد الخطيب

اسم كان له بيننا دوي ورنين ، كان مدرساً في كلية غوردون عند اول نشأتها . سوري النشأة والمولد ، عربي النزعة ، دقيق الجسم والهندام . كان يقوم بتدريس اللغة العربية لطلبة قسم المدرسين والقضاة الشرعيين ، فأحبه تلاميذه واعجبوا به وتأثروا بنزعته الأدبية وبطريقته في معالجة الشعر الجزل .

نحن في مستهل عام ١٩٢٠ وقد ألقت الحرب اوزارها ، واخذ الشريف حسين في الحجاز يستنجز الحلفاء وعدهم الذي قطعوه له ان يحارب في صفوفهم ضد تركيا على ان تكون البلاد العربية التي كانت واقعة تحت سلطات خليفة المسلمين في تركيا حرة ، وكان الشريف حسين واولاده قد بذلوا جهوداً ضخمة في نصرة الحلفاء وإجلاء الاتراك عن البلاد العربية التي كانوا يحتلونها مرتقبين تحقيق وعد الحلفاء بتحرير البلاد العربية واقامة امبراطورية عربية يجلس على عرشها الشريف حسين

وتنكر الحلفاء لوعدهم ، واوشك الفرنسيون ان يقضوا على فيصل بن حسين في سوريا عندما اعلن نفسه ملكاً عليها تحقيقاً لمشيئة سكانها .

وقبل ان تصل الاحداث في البلاد العربية الى نهايتها السيئة باعتقال الانجليز للشريف حسين ونفيه بعد ان ثار عليه ابن السعود واحتل الحجاز ، خف شاعرنا فؤاد الخطيب ليجند كفايته وعلمه في خدمة الامبراطورية العربية التي كان يحلم بها قادة العرب وهم يحاربون الاتراك وحلفاءهم لإجلائهم عن البلاد العربية املا في ان يحقق الانجليز ما وعدوا به الشريف حسين .

وصل فؤاد الى الحجاز ، وسارت الامور على غير مـــا يشتهي ، واحتل الفرنسيون وطنه سوريا بعد اجلاء فيصل وجيوشه عنها . وخاب امل الشاعر العربي الثائر وعاد مرة اخرى الى الخرطوم في وظيفة اخرى غير التدريس في الكلية وجاشت نفسه بهذه القصيدة الرائعة التي كان لهـــا دوي وأي دوي في اوساط ادباء وشعراء السودان يوم ذاك . وقد نشرهـــا السيد حسين شريف في صدارة الحضارة عدد ٢٧ يناير ١٩٢١ وقدم لها تقديماً رائعاً .

يبدأ الشاعر قصيدته بهذه النفثة الحارة :

نحّ المـدام ودعني ايها الساقي هيهات تبرد من وجدي واشواقي
تـأبى اللواعج الا ان تحملني ما كان من عنت منها وارهاق
كيف السلو وحولي كل نائحـــة في الحي ماتحة من ذوب أماقي
ومـــا فزعت الى صبر اعوذ به الا علقت بحبل منه أحـــذاق

ويهتف في الم غير مكتوم الا من يبلـغ قومي العرب اني عفت السياسة الى عالم الشعر والادب ...!

من مبلغ القوم شطت دارهم ونأوا اني رجعت الى شعري واوراقي
عفت السياسة حتى مـــا ألم بهـــا وقد رددت عليهـــا كل ميثاق
فانهـــا جشمتني كل غائـــلة وانهـــا كلفتني غير اخلاقي !

ولكنه لا يطيق صبراً عن دنيا السياسة ، فسرعان ما تنفجر عواطفه حمماً ليصبها في هذا الشعر الثائر على اولئك الفرنسيين الذين احتلوا وطنه ، والذين ان استطاعوا ان يمتلكوا الرقاب فان نفوس العرب لن تعنو لهم ولن تذل .

وفتية من عتاة الدهر مطبقة على الشآم بأغـــلال واطواق

تعنو الرقاب ولاتعنو النفوس لهم | شتان ما بين ارواح واعناق
كم قائم بينهم بالامر معتسف | في حندس من ظلام الغي غساق
فما يثوب الى رأي ولا عمـل | الا تخبط في عجز واخفـاق
ولا تمر به الاوهام سانحـة | الا تصدع من ذعر واشفاق !
لله در قواف كنت انفثهـا | وقد نأيت . ولكن سمها باقي !
ينساب في دم طاغيهم وفاجرهم | منها ، وتعجز عنه حيلة الراقي !

ويفيض شعره بهذه المعاني النبيلة وهو يذكر قومه السوريين وقد نزحوا في فجاج الارض من ضيم واملاق . ويتجدد الامل في نفسه بهذا العلم العربي الخفاق الذي رفع في ارض العراق ، ويأمل ان تنبعث منه مـرة اخرى وثبة العرب لتحرير ارضهم التي دنسها المستعمرون ..

وانفس من بني قومي معذبة | لم يترك البغي منها غير ارماق
ونازح في فجاج الارض مضطرب | نهب البوائق من ضيم واملاق
تماسكت رغم انف المرجفين بها | حتى اتيح لها من اهلهـا واقي
فانهض الى امل كالفجر منبلج | وانظر الى علم كالنجم خفاق

وتناقلنا هذا الشعر في اعجاب بالغ ، وحفظه اكثرنا عن ظهر قلب وانبرى شاعرنا الاستاذ البناء وقد هزه شعر استاذه الخطيب ، يرد عليه بقصيدة تمثل فيها وفاء التلميذ لاستاذه ، وتجاوب العربي مع العربي ، قال البناء :

سقيت يا ربـع ان ضنت يد الديم | بدمع الصب ممزوجاً بفضل دم
ولا سقيت ـ وقد جشمته حرقاً | أفضت به حدثاً للشيب والهرم
اهرقت من دمعه ما كان يحبسه | من الحياء ومحض الفضل والكرم
ما مر ذكر الألى كانوا به سكنوا | الا وقد مر معسول الحيا بفمي

يا راحلون وفي الاحشاء ،ارکم　　وقاطعون، ووجدي غير منصرم
الحر يرعى زمام الحر فاحتسبوا　　فالاجر افضل مكسوب لذي نعم
جاورتكم زمناً عليّ أزورمها　　في حيكم طال من تعذيبها سقمي
فما سمحن، ولا حراسكم رقدوا　　ولا سنحن، ولا خانتكم قدمي

وبعد هذا الشعر الغزل يبكي البناء والده الشاعر الكبير المرحوم محمد عمر البناء ، وكان حديث عهد بفقده :

عانيت شرعة من في خيره وقفت　　لذاذتي وتوالى بعده ندمي
فرحمة الله تترى نستهل على　　من شاد مجدي ومن بلت به رحمي
هو الذي سلب الاصداف لؤلؤها　　ونظم الدر في سلك من الكلم
وصاغ من مدح المهدي ما حسنت　　بــه الليالي وزالت حلكة الظلم

ويتجه الى استاذه ابن الخطيب يواسيه بهذا الشعر العذب :

لي أسوة بالذي ما زال مضطلعاً　　بالمجد ينشده في الحل والحرم
بابن الخطيب فؤادو هو من خضعت　　لقوله نافرات الشعر والحكم
فيا أديب الورى إنا على ظمأ　　وأنت من فضله يروى لكل ظمي
يا من ترحلت تبغي المجد مغترباً　　تجتاز من علـم منه الى علم
جست البلاد فحدثنا فهل بصرت　　عيناك بالحر في خفض وفي نعم
وقد بلوت الورى حيناً فهل علقت　　كفاك حبل ذمام غير منفصم
قالوا المنافق (دهري) وقد صدقوا　　فعابد الدهر منسوب الى صنم
ظنوا الضراعة أس المجد فامتهنوا　　من الغرائب جلب الختل للشمم

ويهيب بأستاذه ان يترك دنيا السياسة ، فهي دنيا النفاق والختل ويعود الى الشعر يرتع في محاسنه ، فإن لغـة القرآن صمتت بعد رحيل ابن الخطيب عن السودان وبعودته عاد لها رواؤها وبهجتها :

فارجع الى الشعر وارتع في محاسنه　　فالشعر يكشف ما بالمرء من غمم

وانشر جواهر قد احكمت صنعتها　　لرفعة العـــلم والآداب والشيم
لما ترحلت ظل القطر مكتئباً　　واصبحت لغة القرآن في بكم
فالآن اذ عدت عاد الخير وابتهجت　　بك البلاد وأبدت خير مبتسم
وقمت انطق عنهـــا بالثناء فلم　　يقم بمعشار ما يحوي علاك فمي

وفي وفاء الطالب المعتز باستاذه ، يذكر عهده واخوانه وهم يتلقون العلم عليه ، ويقول ان هذه لحمة ما بينه واستاذه لا تمحى من القلب ، وان ليس هناك ما هو اوثق من صلة العلم .

وأذكر العهد فيه كنت انهل من　　موفور علمك في اجدى من الدّيم
فذاك لحمة ما بيني وبينك لا　　تمحى من القلب ما دام انسجام فمي
ومن يك المال والارحام حرمته　　فحرمة العلم عندي اوثق الحرم

قال محدثي ، وكان آخر عهدنا بهذا الشاعر السوري العربي في ليلة سامرة اعدها النادي المصري بالخرطوم ، كان يشرف على إعدادها هذا الفتى المصري لموهوب الموفور النشاط توفيق وهبي ، والذي سنلقاه اكثر من مرة في هـذه الذكريات التي انثرها عليك .

في تلك الليلة يقف شاعرنا ليلقي قصيدتـــه عن معجزة الوقت .. التصوير الفتوغرافي ..! وضحكت وانا اقول: يا لها من معجزة !. اما محدثي فلم يشاركني الضحك ، بل اجاب في لهجة الساخر .. لكل زمن آية ومعجزة ، سنة التطور وما ترونه اليوم بينكم معجزة خارقة يراه من بعدكم امراً تافهاً لا يعنيهم التفكير في شأنه .

ولقد عد أمير الشعراء احمد شوقي ظهور الصحافة في مصر تعبر عن رأي الشعب آية فقال :

لكل زمان مضى آية | وآية هذا الزمان (الصحف)

وفي اواخر العقد الثاني من هذا القرن كان ظهور الفوتوغرافيا في الخرطوم ـ من معجزات العصر التي تستحق ان يسجلها شاعر كفؤاد الخطيب الذي بهرنا تلك الليلة اول مارس ١٩٢١ وهو يسمعنا :

يا من تطوع للتصوير يولينا | يـــداً صناعاً والواناً افانينا
ترمي بعين من البلـّور صافيةً | ما شاء من هدف لحـاً وتبيينا
كأنها دمعة المحزون حائرة | بين الجفون مشت فاستمسكت حينا !
حتـــام تلتقط الاشباح سانحة | ولا تصور فيها بعض ما فينا
اني ليطمح طرفي ان يطل على | نجوى النفوس والام المحبينـا
وكيف يجري الهوى العذري في مهج | كادت تسيل دموعاً من مآقينا !
وكيف تستشعر الاشواق موقدة | بـــين الضلوع فتخفيها وتبدينا
ومائسات بأبراد مفوّفـةٍ | كأنهـــا لبست ورداً ونسرينا
اوفت اليك وفي اردانها ارج | فهل شهدت غصوناً ام رياحينا

يا للأحبة في الزمن الغابر يرون الطيف ممتنعاً ، وقد حققت الفوتوغرافيـا للعاشقين اعتقال الطيف فهو (عان بين ايدينا) ولم يعد أمنية عزيزة المنال .

فقل لقوم يرون الطيف ممتنعاً | هذا هو الطيفُ عان بين ايدينا !
كم مر منطلقاً كالبرق منصرفاً | عنهم ، وغادرهم يبكون شاكينا
لقـد نظرت بنور العلم مهتديـاً | فكنت منه بنور الله هـــادينا

ولكن مهلاً أيها المصور ، فلو قدرت على اظهار ما تكنه القلوب لعافـك الناس ولكان (وردك زقوماً وغسلينا) فلا ترعهم ايها المصور بإبداء السرائر

وحسبك مظاهرهم ...

مهلاً .وحسبك ما حققت من ارب ... وما خصصت به وشياً وتلوينا
فلو قدرت على تصوير خافية ... لكان وردك زقوماً وغسلينا
فادع المعاشر واملأ من مظاهرهم ... بيض المهارق تنميقاً وتزيينا
ولا ترعهم بما لو دار في خلد ... هجت الزلازل منهم والبراكينا
وان عجزت بسر ان تلمّ به ... فخذه من خالد الاشعار تلقينا
هيهات تسلم من صرف الردى صور ... كر الجديدين يبليها ويبلينا

قال محدثي : لقد كان استاذنا حسين شريف طيب الله ثراه معجباً بهذه القصيدة ، فكتب في مقدمتها عند نشرها في الحضارة يقول :

« تكرم حضرة الشاعر المبدع الكبير والكاتب المتفنن الخطير الاستاذ فؤاد الخطيب فطوق جيد الحضارة بيتيمة الشعر العصماء وآية العربية البينة على غزارة ما تمتلكه من ثورة وغناء تستطيع ان تخوض بها غمار المدنية الحديثة غير مجهدة تصوغ لمبتكراتها العجيبة اسماء صريحة ليست بدخيلة تضفي على معجزات الغرب حللاً من بدائع العرب فتصف البخار كما تصف الجمال وتنعت الكهرباء ومتصرفاتها كما كانت تنعت الطبيعة ومشاهداتها وتسلك في التعبير عن غرائب المستخدمات العصرية في نفس الطريق الذي سلكته في التعبير عن حضارتها الاسلامية حين فاجأها الانتقال والتطور ... »

رحم الله الرجلين الكبيرين فؤاداً وحسيناً ، فقد طواهما الردى مع من طوى من كرام رجال الأدب والفضل .

ولقد حقق ابن الخطيب امنيته فعاد مرة اخرى الى البلاد العربية ، وتقلب

في عدة مناصب كبرى في الحجاز والاردن ، حيث عمل في الاولى وزيراً وفي الثانية رئيساً للديوان الملكي ، ووافته منيته قبل اعوام يسيرة وهو في البحرين سفيراً عربياً ، وقد ترنم بشعره ادباء العرب في كل مكان حل به . ومـــا زال ذكره بين عارفيه ندياً عطراً :

أَوَّل الغَيْث

نحن في عـــام ١٩١٩ ونادي الخريجين لم يكمل العامين من عمره ، والشباب المثقف على قلته يزحم هـــذا النادي ويتحين الفرص لعرض نشاطه الثقافي بين جنباته .

وفي مستهل هذا العام المذكور ، روع المجتمع بحادث كان فريداً في نوعه ، فقد انتحرت إحدى الفتيات في أم درمـــان بأن ألقت بنفسها في النهر ولم يكن مثل هذا الحادث مألوفاً ، وقد كشف عن قصة عجيبة ، فقد كان بجوار منزل الفتاة شاب تربطها به اواصر قربى ، تبيح له ان يلقاها في منزلها . واحبها الفتى وتدله في غرامها بقدر ما كرهته الفتاة واحتوته ، وحاول الفتى غوايتها بما يملك من مال وجاه ، واوشكت الفتاة ان تسقط فريسة الاغراء ، وتنازعتهـــا حالة نفسية فـــلم تطق صبراً لمـــا هي فيه ، فاحتواها النهر وهي في ريق العمر وروعة الجمال .

وتناقل الناس قصتها ، كل يضيف اليها ما يشاء حتى غدت قصة الفتاة أشبه بالأسطورة السحرية .

وذات يوم من منتصف هذا العام ، علمنا ان الشاعر الفتى الاستاذ احمد محمد صالح سيلقي قصيدة في نادي الخريجين عن (شهيدة العفاف) الفتاة التي اعتصمت بالنهر عن الاغراء .

وهرعنا الى النادي الذي اكتظ بعدد وفير من الشباب والكهول . ولم اكن قد رأيت هذا الشاعر الفتى قبل تلك الليلة الا انه اشتهر بيننا كشاعر واديب .

وتطلعت اليه وهو يتقدم نحو المنصة ، فتى غض الاهاب في ريعان الصبا ، ربع القامة اسود اللون ، وقد ارتدى بذلة افرنجية ووضع على رأسه الطربوش في إمالة اشتهر بها فيما بعد وصارت من لوازمه . واخذ يلقي قصيدته عن شهيدة العفاف ، وكان القاؤه ساحراً اخاذاً ممتعاً ، واشهد اني لم اسمع مثل القائه بين شعرائنا :

ناد الشبيبة مجتازاً بناديها | وقل سلام عليها في مغانيها
وقص من نبأ الأيام موعظة | تجري الدموع دماء من مآقيها
لعلهم ان يروها حكمة بلغت | وعل أسماعهم تصغي لهديها
عرفت في سالف الايام جارية | البدر يخجل حسناً ان يجاريها
خد اسيل وطرف ناعس غنج | وقامة تزدري بالبان تشبيها
ومبسم نظم الدر النضيد به | فسبح العاشقون الله فى فيها !

ويضطرب محدثي وتلتمع عيناه ببريق عجيب كأنما ينظر الى موكب الذكريات ماثلا امامه ويهتف بي قائلا ، لقد كان النادي يهتز بأصواتنا ونحن نصيح ونهتف لشاعر اعد .. اعد .. ونحن نردد معه (فسبح العاشقون الله في فيها) ! قلت أهي نشوة الصبا ومرح الشباب ؟ جعلتكم تستعذبون هذا المعنى فتسبحون «الله في فيها» ؟ قال .. انه انه الشباب . والشباب جنة لا يعرفها الا من حرم منها، ألم تسمع القائل :

يا للشباب المرح التصابي | روائحُ الجنةِ في الشباب !

قلت أتم حديثك عن قصيدة العفاف ، فأخذ يعتصر جبهته ليستجمع شتات افكاره ، ثم اخذ ينشدني :

وعِفّة رضعتها منذ نشأتها | وشيّدت بين اهليها مبانيها

حتى اذا اكتملت منها محاسنها   وأصبحت فتنة في عين رائيها
سعى اليها فتى ضل الشباب به   وظن ان ثراءَ المال يغريها

ويقف الشيخ حائراً وتخونه ذاكرته الا من آثار تلك الليالي في اعماق نفسه وان القصيدة كانت على فم كل اديب آنذاك .

ويستطرد قائلاً ، ولكنا نستقبل هذا الفتى الشاعر بعد ايام من مستهل ذلك العام ، فقد قرر الخريجون بأم درمان ان يجعلوا من ناديهم مكانـاً يلتقون فيه للتهنئة بالعيد وان يستعيضوا بهذه الاجتماعات في ناديهم عن تلك الزيارات التقليدية في دورهم ايام العيد وسعينا الى النادى الذي اكتظ بالشباب والشيوخ في ملابسهم الأنيقة احتفاء بالعيد ، والحلوى والمرطبات تدور عليهم ، وشباب لجنة النادي يطوف على الزائرين محيين ومهنئين ، ولكأني ارى من بينهم الآن السيد احمد عثمان القاضي ، وطيب الذكر الاستاذ صديق فريد ، والسيد محمد علي محمد سكرتير النادي ، والاساتذة احمد البشير الطيب والمرحوم محمد حاج الأمين ، والمرحومين ابراهيم اسرائيلي وطه صالح ، وكلهم في نضرة الصبا وروعة الشباب يملأون الندى حبوراً وبهجة ، وضحكات الاستاذ فريـد تجلجل فتعدينا بالمرح فنضحك ملء قلوبنا لنكاته وتعبيراته المرحة ... لقد كانت سنة حسنة ان نستقبل العيد جماعة في ذلك النادي لنقوي من اواصر الصلات ونزداد قربـاً وتآلفـاً استعداداً لتحمل العبء الضخم الذي القته ظروف البلاد القاسية على اكتاف هذه الطبقة الواعية التي تسمى طبقة الخريجين .

ومرة اخرى تتعلق ابصارنا بهـذا الفتى الانيق الصارم النظرات والذي يضع طربوشه في امالة تدل على الاعتداد ، انه احمد محمد صالح الذي اخـذ يلعب بمشاعرنا وهو يلقي قصيدته القاء معجباً :

عيدُ اغرّ محجّـلُ   والخير فيه اجـزلُ

والناس في شكر الاله مكبر ومهلـــل
ماجت مواكبهم الى ارض الحجاز تهرول
ارض بهـــا البيت العتيق الزاهـر المتهلــل
وبها ثوى خير الأنا م الهاشمي المرسل
فالروضُ يبسم عن اقا حٍ والرّبى تتهلل
وملائك الرحمن تصعد بالدعـاء وتنزل

وتفيض قلوبنا بشراً وتجيش عواطفنا الدينية والشاعر يبتهل الى الله ان يحمي جمعنـــا وان يضفي على نادي الخريجين صالحات تهطـــل ، ويحبوهم نعمة لا ترحل :

يا خيرَ من عند الشدا ئدِ والنوائب يسأل
اشمل بلطفك جمعنا يا رب في مـن تشمل
وأفض على نادي المدا رسِ صالحاتٍ تهطـل
واجعل بفضلك اهله في نعمـة لا ترحـــل

قلت ، لقد حقق الله دعاء الاستاذ احمد فقد هطلت الصالحات على هـــذا النادى فقد انبعثت منه جميع الاعمال الصالحة لخير هذا البلد ، حتى تمت حريته قال الشيخ بـلى ، لقد كنا ندعو بقلوب صافيـة لا تعرف الشحناء ولا البغض والحسد ولذلك بارك الله في جمعنا على قلته فحمل الرسالة الضخمة غير وانٍ ولا ضجر .

وواصل حديثه عن شاعر تلك الليلة الاستاذ احمد فما زال يلقي قصيدتـه الرائعة تحية لاول عيد يلتقي فيه الخريجون بناديهم ، ويلتفت الاستاذ احمد الى صديقه الشاعر الثائر عبد الرحمن شوقي – وكان قـــد أمتعنا في مناسة قريبة بقصيدة ثائرة سأقص عليك نبأها – يلتفت اليه ليثني معجباً :

(شوقي) اجدت فليت شعري ما تقــول وتفعل !
أتغزلا ؟ افديك من مترنم يتغزل !
ما الناي يضرب والمغني فوق ذاك يرتــل
بألذ من سجع سجعت مــردداً يا بلبل
قل لي اهذا ما ابتكرت أم الرحيق السلسل !
أم مــا يبيح البحتري له السجود وجرول
ان كان ظبيك يستبيح حمى العقول ويخبل
أو كان يسبي العاشقين أغن اغيــد اكحل
او كان يسحرهم بلحظيه رشــاً متــدلل
فاعــلم – بأن بيانك السحر الحــلال وافعل
هاروت يلثم كفه متواضعــاً ويقبل !
لمــا انتضيت سلاحه فالكل بعدك اعزل !

لقد انتشينا تلك الليلة بشعر أحمد السلس العذب ، وأدرنا بيننا افانين من احاديث الشعر والادب وطرائف القصص ، وشباب النادي يطوف على الموائد بالحلوى والشراب السائغ الحلو .

قلت ، وما شأن هذه القصيدة التي فتن بها احمد محمد صالح واضفى على صاحبها هذا الثناء الحار ؟

قال انها الجديرة حقاً بثنائنا كلنا ، فلقد فتنا بها جميعاً عندما القاها صاحبها ذلك الفتى الثـــائر عبد الرحمن شوقي الذي تخرج حديثاً في كلية غردون ويعمل مهندساً .

ففي هذا العام ايضاً – ١٩١٩ والخريجون حادبون على ناديهم يحوطونه بكل اهتمامهم ورعايتهم ، قررنا ايضاً ان نحتفل بعيد ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم

في دار النادي عقب الليلة الختامية التي تقام عادة في سرادقات رجال الطرق الصوفية في المكان المخصص لهذا الاحتفال حيث يؤمه الشعب بكافة طبقاته .

واجتمعنا واحتشدنا ، وهب شاعر تلك الليلة ، عبد الرحمن شوقي فأسمعنا شعراً حاراً ثائراً .. بث في المجتمعين حماساً فائقاً .

كان فتى دقيقاً انيقاً وجيهاً ملتهب الشعور ، قد ملأه الشباب زهواً واعتداداً .. استهل قصيدته هذا الاستهلال الثائر :

نديمي من سلاف الخمر هات ... وشنفني بذكرى الماضيات
أترضى ان اضام وانت حر ... وتسمح ان تلين لهم قناتي ؟
فحدث عن بني النيلين قوماً ... بأدنى النيل او اعلى الفرات
بأنا نتتمي حسباً ومجداً ... الى ما بالجزيرة من رفات
يعز عليهم نحيا ولسنا ... مثالا للشجاعة والثبات
وانلا يبصروا في النيل قرناً ... ولا بطلاً يعد من الكماة
يجود بنفسه للموت حبا ... بنيل الباقيات الصالحات !
فليس الجود بذل دريهمات ... لمسكين على قيد الحياة
بل الجود الممات على بلاد ... ليحيا أهلها بعد الممات !

تذكر ان هذا الشعر قبل عام ١٩١٩ والاستعمار في اوج سطوته وجبروته والمتعلمون قلة لا تذكر ، والشعب لما يستيقظ بعد ، ولكن هذه الحفنة القليلة من ابكار الخريجين كانت تعمل على بث الوعي وخلق الشعور الوطني بمثل هذ الشعر الذي تنتهز له هذه المناسبات الدينية .

ولننظر لشاعرنا تلك الليلة ، بعد هذا الاستهلال الثائر يعيد المجتمعين الى عهد النبوة ليستلهم منه الكفاح من اجل العقيدة :

سلام الله يا عهد المواضى وأيامَ الظّبا والمرهفات
وعهداً فيه جبريل نبى يجيء محمداً بالبينات
ويدلي حجة من بعد أخرى تزول لها جميع الراسيات
يقول لهم اتيتكم رحيماً لأجمع شملكم بعد الشتات
هلموا آمنوا بالله حقاً تعالوا للسلامة والنجاة
فلاقى منهم كيداً وظلماً وعدواناً . فأف للطغاة
ولما أن رأوا منه اصطباراً رموه بكل جبارٍ وعات
بكل مدججٍ فى زى، ليث صؤول مغرم بالسيئات
صليب الرأى قاسى القلب ترس عنيد لا يمل من الاذاة
قتال دائم غزو وسبى وأزلام ووأد للبنات
وقد عبدوا الحجارة وهو كفر وقد سجدوا الى عزّى ولات
وساقوا للقتال الجيش لجباً يزمجر كالبحار الزافرات
وكل مقسم منهم يميناً برأس محمد للقوم آتي
فلاقى جيشهم جيش كريم به الروح الأمين من الغزاة
ومن يك جنده، جبريل منهم بلا سيف يفوز ولا قناة
وما زال النبى بكل فج يبث الدين يدعو للصلاة
وينهى القوم عن وثن وثأر ويبهرهم بتلك المعجزات
الى ان آمن الكفار منهم واسلمت القبائل بالمئات
واصبح كل جبار عنيد اخا رفق وكان من القساة
رفيقاً ليناً شهماً حليماً كريم النفس من خير الهداة
فدين محمد دين ائتلاف دين مروءة والمكرمات
هو الدين الذي قد عم نفعاً وقام على المشورة والأناة

وبعد ان طوف الشاعر بنا فى عهد النبوة الزاهرة ، يتحدث عن هذه الرابطة الإسلامية العظيمة التى تؤاخى بين المسلمين على اختلاف الديار :

كفى فخراً به ائتلفت قلوب وكانت قبــله متفرقــات
فأصبح من بمصر أخاً كريماً لمن بالشام أو من بالفرات
لقد حسنت به الدنيا وزانت كما ازدان السما بالنيرات
فهلل يا زمان به وكــبر وحدثْ وافتخرْ بالباقيات

ويهيب بالامم الإسلامية بعد تذكيرها بمجدها الغابر الا تيأس فلتتمسك بدينها ومثلها ، ولا يأس ما دام يسري فيهم « دم اولئك الآباء الشم الاباة » :

وأبلغ أمــة بالشرق كانت تظل الشرق من كيد العداة
وكانت للعـــلا فيه منــاراً محطاً للعـلوم وللغــات
بان يتمسكوا بالدين حقاً وأن لا يعبأوا بالترهات
وأن لا ييأسوا ما دام فيهم دم يسري من الشم الاباة
فمولد أحمد في كل عام يجدد للعهـود الماضيات

أليس هذا الشعر ، إذا قيس بالعهد الذي قيل فيه جيداً ، بل رائعاً ؟ أليس الاستاذ احمد محمد صالح محقاً عندما انتشى بهذا الشعر الحار فخاطب قائله منشداً :

شوقي ! اجدت فليت شعر ي ما تقول وتفعــل ؟ !

قال صاحبي :

ولكم تعاقب على منبر ذلك الندى شباب وشيوخ . هزوا المجتمع بروائــع اشعارهم وأحاديثهم ، فلم ندع مناسبة الا واهتبلناها لنذكي الشعور ونلهب الحماس. ولعل اطرف ما اذكره ، والدليل الاكيد على ان انتهاز تلك المناسبات الدينية على عظمتها وجلالها كنا نهدف به ايقاظ هــذا الشعور الوطني العارم ،

ان كان شاعرنا فى احـدى تلك الليالى الخالدة فتى مسيحى من حى المسالمـــة بأم درمان !

ولنعد الى القصة من اولها ، فقد اعد النادى حفله التقليدى لاستقبال العام الهجري الجديد ، ١٣٤١ هـ ، وغصت الدار بالجموع ، كبار الاعيان وكبار الموظفين والعلماء ، وبعض الإداريين الإنجليز يحتلون الصدارة ، كما هي عاداتهم في هذه الاحتفالات .

قلت اكان حضورهم لاجل ابداء شعور المشاركة، ام للرقابة واثبات وجودهم حتى ينثنى من تحدثه نفسه بالجموح والتطرف ؟

قال : لقد اصبت ، فانما كان الهدف من مجيئهم ان يرقبوا الموقف عن كثب وليبعثوا فى الحفل جواً من الإرهاب يثنى الجامحين .. وهيهات !.

واستطرد يقول : وانى لارى اليوم في مقدمة الجالسين في الصف الاول مولانا فضيلة الاستاذ اسماعيل الازهرى مفتى السودان رحمه الله ، ومن العلماء ارى العالم الجليل المرحوم الشيخ ابو القاسم احمد هاشم طيب الله ثراه .. وغيرهما من علية القوم والشباب المثقف وجماهير من عامة الشعب .

وتطلعنا كالعادة إلى المنصة عندما اعتلاها سكرتير النادى لتلك الدورة وكان الشاب المرحوم ابراهيم اسرائيلي فالقى كلمة رصينة حيا فيها الحاضرين وألمح الى المناسبة الدينية تاركاً المنصة لشاعر الليلة .

وفي تؤدة واناة تقدم شاب ابيض اللون حسن الهندام ، وسرى بين الجالسين تساؤل : من الفتى؟ ودار الهمس مرة اخرى، فتى مسيحى اسمه صالح بطرس.

اما نحن فكنا نعرفه زميلا في الدراسة وموظفاً فى مصلحة البريد ، متعلقاً

بالادب مولعاً بالشعر ، سوداني الوطنية ، عربي النزعة ، وهذا ما حدا به لخوض المعركة مع زملائه بغض النظر عن اختلاف الدين ليجعل من مناسبة الهجرة وسيلة لإرضاء نزعته العربية المتحررة .

ونرهف اسماعنا لهذا الفتى المسيحي الذي اخذ في صوت واضح النبرات يتلو شعره :

يا من رأى طوق الهلال وقد بدا ... يهدي لنا عاماً اغرّ مشهرا
اكرم بطلعته وبهجة نوره ... اذ بشرتنا ان سنحمد مخبرا
شبهته لما بدا متجلياً ... في افقه ملكاً تبوأ منبراً
وغدت تحف به النجوم كأنها ... حفل لتسمع في الخطابة اسطرا
يمضي على هام القرون مجدداً ... عصر الشبيبة لا يمل من السرى
انت الذي تهب الخيال لشاعر ... حتى يرى فوق المجرة طائرا
ولانت احدى بينات الهنا ... من ذا يراك ولا يسبح من برا
ادركت اسرار الوجود فحزتها ... ورأيت من آياته ما لا نرى
هل انت مخبرنا عن القوم الالى ... فلعلنا ان نستفيد تذكراً ؟

وينفذ الفتى المسيحي الشاعر الى طبته ، فيشدو بأمجاد العروبة وتتفجر عواطفه شعراً جيداً نطرب ونعجب له :

القوا الى الروع ، ها انا نافث ... بعض الحديث فهامس ذكر الورى
كانوا اولى همم تناجي رفقتي ... قد ادركوا ما أملوا بل اكثرا
هم نهجوا سنن الفضيلة واضحاً ... هم اخرجوا علماً غدا متفجراً
أخذوا بأعناق المكارم أخذة ... وتربعوا من عزهم فوق الذرى
يترفعون عن الدنية او يرى ... سيل الدماء على الاباطح انهرا
لا يرتضون الضيم شرعة مورد ... شأن الابي ، ولا الهوان معاشرا

شادوا لكم عزاً رفيعاً سمكه   وبنوا لكم مجـــداً اثيلا أكبرا

ثم ماذا ؟ لقد ذهب أولئك الأبطال الاشاوس فماذا فعلنا بعدهم ؟ وماذا تركنا من أمجاد لمن بعدنا ؟ بهذا التساؤل اختتم الشاعر قصيدته :

ذهبوا وقد أدوا الامانة حقها   ونمـا اليكم ذكرهم متعطراً
انا غبرنا بعدهم فى هجعـــة   شتان ما بين الثريا والـــثرى !
يا عام انا آمـــلوك لخـــيرنا   املا ينيل الحظ فيك موفراً

ويزايل المنصة ونحن نتبعه بالتصفيق والهتاف ، ويجلسه كبار العلماء بينهم في اجلال واكبار .

هكذا كان شاعر النادى لعيد الهجرة عـــام ١٣٤١ هـ الشاعر صالح بطرس فتى مسيحى يتقد حماساً للعروبة ، ويعتز بأمجادها ويفتخر بتاريخها وهو موقف يشعر ابناء هذا الجيل بمدى تلك الوشائج القومية التى كانت تربط بين الفئة المتعلمة فى هذا البلد .

وصالح بطرس هذا ، عرفناه من قبل بقصيدة اخرى لا تقل روعة عن هذه في مناسبتها ومدلولها .

فالذين عاشوا فى ذلك العهد يذكرون ان مسجد ام درمان الكبير والذي ما زال فى مقره ظل بناؤه ناقصاً لفترة طويلة ، وكانت التبرعـــات تجبى له فى كثير من البطء . وكان مما يحز في النفوس ان يظل هذا المسجد فترة طويـــلة وبناؤه غير مكتمل .

واثار هذا الموقف المشين شاعرنا الفتى المسيحي صالـح بطرس ، فبعث الى الحضارة بهذه القصيدة ينعى فيها على المسلمين تباطؤهم في اكمال مسجدهم .. !

وقد كان لهذه القصيدة اثر كبير في تحمس الناس لإكمال بناء المسجد ،وهي·

يا مسجداً مطلت بنوه بعهده — حتى غدا وهو الحسير المعدم
بدأوك جوداً بالصنيع واحجموا — ما كان اولى ان ذاك يتمم
بينا تشيّد اذ وقفت كأنك الطلل — المحيل عفاه هام مرهم
عريانَ ، رأسك لا تزال تضج من — حر ومن قر لوجهك يلطم !
وعلك هامية الرباب مرنّة — ومن السوافي الهوج ما هو اقتم
قد لوحت شمس النهار بحرها — من جانبيك ، ففي شبابك تهرم !
لو كنت تنطق بالشكاة لهالهم — منك العويل وانة لا تكتم
لكنما أبديت حالك صامتاً — فرثى الصوامت اذ قسا المتكلم
اترى المساجد في القديم تشاد في — أبهى الشكول فمذهب ومرخم
فيها من التحف العجيبة معجب — مستملح ومن الطراز منمنم
لبست من الذهب الأصيل كرائماً — وحوت من الاحجار ما هو أكرم
قد لونت بفسيفساء تزال في — كر العصور بهيجة لا تعتم
ونراك تعجزهم بأن تبنى بآ — جر وتسقف (بالعروق) وتردم!
أمنارةَ الدينِ الحنيف تحيةً — من شاعر لك قد غدا يترحّم

ترى هل يذكر المصلون في هذا المسجد اليوم ان الفضل في حث الناس لإكمال بنائه لشاعر مسيحي ؟

ألا رحم الله صالحاً ، فقد ذهب وهو في الشباب ، وكنا نؤمل أن تمتد به الايام ليرى ان الاهداف والمثل الكريمة التي آمن بها قد اخذت تتحول الى حقائق ماثلة ، وان العروبة التي تغنى بها منذ اربعين عاماً ودفعته وهو المسيحي عقيدة ان يحيي هجرة سيدنا محمد ﷺ. ويتغنى بمفاخر العرب ، ويتحسر على مسجد للمسلمين تلكأوا في بنائه، هذه العروبة أوشكت ان تلتقي مشاعر ودياراً لتكون قوة من قوى الخير والسلام .

شاعران ولورد

الزمان : ٢٦ ابريل ١٩٢٢ –المكان سراي الحاكم العام(سابقاً)بالخرطوم... الزائر الكبير لورد ألنبى نائب جـــلالة ملك بريطانيا العظمى فى مصر يتوسط البهو وقد التف حوله زعماء البلاد واعيانها وقد جيء بهم من مختلف اقاليم السودان من مشايخ ونظار وعمد واعيان ورجال دين وفي مقدمتهم الزعماء الروحيون الثلاثة ، السيد على الميرغنى والسيد عبد الرحمن المهدى والشريف يوسف الهندي ليجتمعوا بالزائر الكبير .

وفي العاصمـــة الوطنية يشتد ويتعالى الهمس حول زيارة اللورد . وكان الصراع السياسي بين مصر وانجلترا قد بلغ اشده . مصر تريد استكمال حريتها واستقلالها وينادى قائد ثورتها سعد زغلول بأن السودان جزء لا يتجزأ من مصر وثورة الشعب المصرى مشتعلة محتدمة .

وفى السودان ايضاً قلوب تتجه صوب مصر تعتز بثورتها وتؤمل فيها الكثير وتتغنى ببطولة سعد ، ولكن هـــذا النفر يجتمع خفية وفي حلقات سرية فقد كانت المجاهرة بمثل هذا الشعور جريمة نكراء جزاؤها التنكيل والتعذيب .

الآذان مرهفة لالتقاط كل كلمة تلقى فى هذا الاجتماع التاريخي ، ويقف لورد النبى في زهو القوي المنتصر ليخطب المجتمعين قائلا :

« لقـــد بلغنى ان بعض اهالي السودان يخشون ان تكون علاقة بريطانيا العظمى في رقى هذه البلاد فى المستقبل اقل مما هى عليه الآن ، ولكن الحكومة

البريطانية لا تنوى شيئاً من ذلك قط .

وإثباتاً لقولي هذا لا ارى شيئاً افضل من أن اعيد على مسامعكم ما صرح به رئيس الوزارة البريطانية في مجلس الأمة يوم ٢٨ فبراير ١٩٢٢ لما كانت مسألة زيادة استقلال مصر على بساط البحث إذ قال :

« اما السودان فأمره يهم الامبراطورية البريطانية جداً ولذلك يجب ألا تكون الاشارة اليه وجيزة . لقد اقتضى بذل مجهودات بريطانيا العظمى ومصر معاً لانقاذ هذه البلاد الواسعة الارجاء من الخراب والدمار ، وقد بذلنا معاً منذ الفتح اي منذ اكثر من عشرين سنة من يومنا هذا مهج الرجال وبدر الاموال لاعادة الامن الى نصابه وجلب الرخاء الى بلاد ستكون يوماً خصيبة وآهلة بالسكان بقدر ما هي الآن قاحلة خاوية . فحكومة جلالة الملك لن تسمح أن يمسي هذا الرقى الذي نالته البلاد الى الآن او ذلك الرقي الأكبر الذي نأمل ان تناله في المستقبل مهدداً ، ولا يمكنها ايضاً ان توافق على اي تغيير في مركز السودان السياسي مما قد يمس ولو قليلاً سلامة الملايين الكثيرة من الاموال الانجليزية التي بذلت في سبيل رقيه وما يعود عليه بالفائدة العظمى

وليس هناك من ينكر ان لمصر حقاً في الحصول على اوثق الضمانات في ان رقي السودان لن يهدد ولن يؤثر على مقدار ما تأخذه من ماء النيل الآن او على قدر ما تحتاج اليه من ذلك الماء لزرع جميع اراضيها ، وحكومة جلالة الملك على أتم استعداد لتقديم هذه الضمانات وليس فيها ما يعيق او يؤخر تقدم السودان » .

وبعد ان تلا لورد ألنبي على الحاضرين هذا النص من التصريح الرسمي الذي القاه رئيس الوزارة البريطانية في مجلس الامة اردف قائلاً :

« هذا ما قاله فخامة رئيس الوزراء واني اراه كافياً لأن يبعث اليكم

الاطمئنان ، فلذا اؤمل اذا ما عدتم الى اهلكم ان تقولوا لهم الا يخافوا ان تتخلى بريطانيا العظمى عنهم » .

وعندما انتهى لورد ألنبي من القاء كلمته نهض سيادة السيدعلي الميرغنيوبعد عبارات المجاملة والترحيب للزائر الكبير قال ما نصه :

« ان السودان بلد قائم بنفسه ، وشعبه شعب قائم بنفسه يتطلب رقياً قائماً بنفسه على الاسلوب الذي يلائمه » [١] .

قال صاحبي : وكان خطاب السيد علي في ذلك الوقت يمثل اسلوب الحكيم الحذر ، فهو لم يدخل في لب النزاع وانما اكتفى بوجوب الحفاظ على الشخصية السودانية التي تتطلب رقياً يلائمها .

وهو قول لا يرفضه أحد .

وكان طبيعياً ان يحاول شعراء ذلك العهد تسجيل هذا الحدث السياسي الضخم ، كل من الزاوية التي ينظر بها اليه وفق اتجاهات المجتمع .

فالمعتدلون الذين رأوا في زيارة اللورد اللنبي فرصة ليطالبوه بزيادة الاصلاح في مناحي الحياة السودانية المختلفة ورفع حالة التأخر عنها ، هؤلاء عبر عنهم الشاعر عبد الله محمد عمر البناء احسن تعبير في قصيدته التي رفعها للورد ألنبي وفيها يقول :

هي الاخبار آفتها الرواة ... ويصقلها التثبت والثبات
وفي الحدثان آلام ، ولكن ... لنا في كل حادثة عظات
تغلغل بيننا ـ للجبن داء ... اصيب به الأطبة والرقاة .

(١) حضارة السودان العدد ٩١ بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٢٢ .

فلا شباننا جدوا فنالوا   وقد خارت كهولهم فماتوا !
ولا ادري اهم للقطر بشرى   ولا ادري أهم فيه نعـاة !
فما لنفوسهم ذلت فظلّت   يلذ لهـا من الخبز الفتات
وما للناهضين بها استراحوا   وهم في يوم أزمتها الحمـاة
وهم في يوم زينتها رجـاء   وهم في يوم شدتها الكماة
وهم في يوم ظلمتهـا بدور   وهم في نحر حاسدها الرماة

بعد هذا التقريع للشبيبة والشيوخ الذي قصد به الشاعر استنفار الهمم ودفع الشباب للعمل والطموح ، يلتفت فيحيي اللورد مستدراً عطفه على البلاد:

تراءت مشكلات الدهر فينا   وارجفت المعاهد والجهات
وجاء اللورد يرفل في ثياب   تضم بهـا المنافع والشكاة
اذا ما قيل قد اوفى ألنبي   تطمأنت الأمور الجانحات
ألا يا حـامل السيفين. إنا   نفوس للمعـالي جائعات
دخلت (القدس) يوم دخلت برآ   رفقاً في الأمور لك انصلات
وسرت على جلالك فوق ارض   بها حجج النبوة مشرقات
ولم يعجزك ان حييت فيها   ان قامت هناك المعجزات
وسرت بها يروقك في ثراها   رجال للهدى احيوا وماتوا
فهل احرزت من عظة نصيباً   وخير الواعظين بها رفـات

ويحسن الشاعر التعبير عن حال القطر وما يعاني من فقر وتأخر فيقول :

مررت على الديار وجزت فيها   بواد ارض ساكنه موات
فبعض من تكاتفهم عـراة   وبعض من ملابسهم عراة !
فهل للساكنين بهـا نصيب   تعود به على الشعب الحياة
وهل اوليت هذا القطر خيراً   فتحسده البقاع الناهضات

وهل قررت ان يبقى ويرقى　　تسير به الامور الصاعدات
وعهدي ان ايـديكم جميعاً　　عوامل في الحوادث ناصبات
وانك إن عطفت أفضت فينا　　أيادى تستقلّ بها الهمات

ويتساءل الشاعر كيف ينهض قطر ليس فيه تعليم وقد جفاه (مع المحامين الاساة) يشير بهذا الى حاجة السودان الى مدرسة للطب واخرى للحقوق لتخرج الأطباء ورجال القانون .

لنا بالطب جهل اي جهل　　وإن الجهل من شعب ممات
وكيف يحوز قصب السبق قطر　　جفاه مع المحامين الأساة !
شباب القطر في لهف وشوق　　الى سبب تزال بـه الاذاة
هم القوم الذين على هداهم　　يهذب ناشيء وترى فتـاة
ومنهم (كاتبون) وهم كرام　　ومنهم «حاكمون» وهم قضاة
بأيديهم ، وان كانوا قليـلا　　مفاتيح القلوب الحاكمات

ويختتم البناء قصيدته مفاخراً بقومه معتداً بهم ويطلب الى اللورد ان يجنح الى سياسة الود واللين وحسن التفاهم :

وفينا اذ نسام الهون عزم　　منيع لا تفـل له شبات !
وفينا فطنة كملت وطابت　　وفينا حين تبصرنا أناة
فضع مجد البلاد على وداد　　تقاد بـه القلوب النافرات
على حكم التسامح والتغابي　　تدين لك النفوس الجامحات
على حسن التفاهم من رجال　　كهول قرّح وهم لدات
بالجود جاحهم وايقن　　بأن الامر تصلحه العدات

ولكن ذلك النفر الذين تهفو قلوبهم الى مصر ويستمدون الالهام من ثورتها القائمة . لم يروا في مجيء اللورد ألني للخرطوم في ذلك الوقت الا محاولة اخرى

لتمكين السياسة الانجليزية التي تهدف لفصل السودان عن مصر والانفراد بحكمه.

وينشىء احد الفتية من اعضاء جمعية الاتحاد السرية قصيدة يضمنها شعورهم الوطني ازاء تلك الزيارة ، وان كانت قصيدة البناء قد وجدت طريقها ميسراً للنشر على صفحات جريدة الحضارة ، فإن شاعر الجمعية السرية يعلم مدى ما يتعرض له من تعذيب وتنكيل ان عرف امره هنا ونشرت القصيدة تحمل توقيعه .

فلا يجد امامه غير طريق واحد ان يبعث بها في خطاب خاص ، وبغير توقيع الى الدكتور محجوب ثابت في مصر ، وقد كان المرحوم محجوب ثابت معنياً بشئون السودان مولعاً بالتعرف الى شئونه والى ابنائه ، وكان يقول انه سوداني ولد في دنقلا .

ويصل الخطاب الى يد محجوب ثابت في مصر ... ولكن دعني اضع بين يديك هذه الوثائق لتتحدث .

ويعمد الشيخ الى الذكريات كما اسميه ، وفي رفق وحذر يناولني قصاصات نال منها البلى لصحيفة الاهرام المصرية ، وثبت فيها ناظري وانا اقرأ في هدوء وتمعن .

(الاهرام العدد نمرة ١٣٧٥٥ بتاريخ ٢٦ مايو ١٩٢٢) وفى صدر الصحيفة قرأت ما يلي :

« تلقى حضرة الاستاذ الكبير الدكتور محجوب ثابت قصيدة من احد شعراء السودان صدرها بالكلمة الآتية :

سيدي الدكتور ، قد قرأت ما تخطه يدا كم الكريمتان بخصوص مسألتنا الحيوية وهي « المسألة السودانية » ، ولعمري ان عملكم لعمل المجاهدين الابرار

فرأيت وانا احد ابناء السودان ، ان اخصكم بما استطيع من شعري الذي لا يمكنني ان اسميه شعراً الا لما نعرفه نحن معشر السودانيين من تجاوز اخواننا المصريين عن غلطاتنا واني ارجو ان تتكرم بنشرهـا في احـدى الجرائد اليومية .

وتقبل فائق احترامنا

(. . .)

تحت هذا العنوان « المسألة السودانية » كان المرحوم الدكتور محجوب ثابت يكتب عدة مقالات في جريدة الاهرام .

عزيزي الفاضل رئيس تحرير الأهرام .

أرسل اليكم هذه القصيدة المعبرة عن وجدان منشئها أخينا السوداني الذي حيل بيننا وبين معرفة اسمه بالقوانين العرفية التي يعيش تحت نيرها هو واقرانه منذ ربع قرن لتساعدني على بلوغ طلبه بنشر صوته الشعري ليتردد صداه في اسفل الوادي ساعد الله الكنانة على جمع الشمل بين القطرين الشقيقين اللذين لا ينفصلان ابداً مهما حاول المستعمرون ومن غلب الطبيعة قهر . . .

فليحيا إخواننا السودانيون احراراً وليعش النيل حـراً ولتحيا مصر والسودان .

(الدكتور محجوب ثابت)

ويلي هذا قصيدة الشاعر وقـد استهلها بقوله ، مخاطباً المستعمرين في شخص لورد أللنبي :

أيها القوم لا تجرُّوا الذيولا ... يأنفَ الحرُّ أن يعيشَ ذليلا
سمتمونا العذابَ، ضيقتم الأ ... رض علينا حتى هوينا الرحيلا !
إن أردتم إصلاحنا، قد فعلتم ... فاعذرونا اذا مللنا الدخيلا
أبهذا الزعيم أودى بنا الفقر ... فعطفاً فقد صبرنا طويلا !
فقبيح ان نرتضي الذل دهراً ... ونرى مالنا لكم مبذولا
كل يوم تبدو بثوب جديد ... من دهاء فحسبكم تبديلا
علمتنا الأيام ما قد جهلنا ... ه فلسنا نطيق عبئاً ثقيلا
تلك عشرون حجة بعد خمس ... قد تقضت وما شفيتم غليلا
فادعيتم نشر الحضارة والعر ... فان والشعب ما يزال جهولا
ما اكتسبنا الا الشقاء كسانا ... سملاً بالياً وجسماً نحيلا !

ماذا يريد ألنبي ؟ وماذا دون في مذكراته عن ذلك الجمع الذي حشد له في جو من الإرهاب ؟ أيريد ان يفصم ما بين مصر والسودان من علاقات ؟ بهذا يختم الشاعر قصيدته :

ويح قلبي ماذا يروم ألنبي ... يوم وافى يجر سيفاً صقيلا ؟ !
جمع الجمع، أرهب القوم حتى ... أصبح السيد النبيل ذليلا !
أتراه يريد يفصم حبلا ... بين مصر وبيننا موصولا ؟
ولماذا تراه يملي عليهم ... ونراه مدوناً ما قيلا ؟
جل من مَلّكَ الدخيل فجرّ ... الذيلَ واستمطر العذاب الوبيلا

وأعدت له صحيفة الأهرام في رفق وانا اسائله، من يكون الشاعر ؟

فأجاب انه توفيق صالح جبريل احد مؤسسي جمعية الاتحاد السرية آنذاك .

لقد بذلت (المخابرات) جهداً غير يسير لتعرف صاحب هـــذه القصيدة عندما نشرت في الاهرام وانتشرت في السودان ، ولقـــد كانت الاهرام الصحيفة المصرية الاولى لدى السودانيين وقـــد افسحت صدرها للكثير من الأقـــلام السودانية التى كانت تناصر الثورة المصرية وتؤيد سعداً في موقفه من الانجليز .

ولكن المخابرات فشلت في التعرف اليه فقد كان افراد تلك الجمعية احذق من ان يتركوا اثراً مكتوباً بين ايديهم ينم عن جهودهم واعمالهم .

معركة تعليم الفتاة

ما أشبه الليلة بالبارحة !

بهذه الجملة استقبلنى محدثى وهو يشير الى مجموعة من الصحف المحلية تتحدث عن هذا النشاط الذى يحسبونه جديداً ، هذا النشاط الذى يدور حول مكانة المرأة فى المجتمع وفرص تعليمها في المراحل المختلفة . ان هؤلاء يرددون ما كنا نردده منذ عام ١٩٢٠ فان هذه النهضة النسوية الحالية قد وضعت لبناتها الأولى في ذلك العهد البعيد ودارت في سبيل ذلك معارك قلمية غنم منها الادب فى ذلك الحين غنماً عظيماً .

وانى لأذكر مساء الخميس ٩ ديسمبر عام ١٩٢٠ كأنما حدث بالأمس ، ونحن نسير جماعات جماعات نحو مدرسة ام درمان الاميرية لنشهدتمثيلية يقوم بها طلبة كلية غردون تدور فكرتها حول تعليم المرأة ، موضوع الساعة فى ذلك الوقت ، وكانت مثل هذه الليالي التمثيلية لندرتها تلقى اهتماماً واقبالاً عظيمين .

وقد اشتهر جماعة من شباب الموظفين والطلبة باجادة هذا الفن وطـار لهم صيت بعيد ، اذكر فى طليعتهم المرحومين الاستاذين صديق فريد وعرفات محمد عبدالله . والاساتذة عبدالرحمن على طه وعلى بدري وعوض ساتي وعلى نور (المهندس) وابو بكر عثمان وغيرهم من فتية ذلك العهد ...واذكر ان كلمة (تشخيص) كانت تغلب على ألسنتنا اكثر من كلمة (تمثيل) .

ودلفنا الى فناء المدرسة في ذلك المساء وقد اكتظ بعدد كبير من المشاهدين

يتقدمهم كبار الموظفين من بريطانيين وسودانيين ومصريين وسوريين ، وفى وسط الصف الاول وبين حفنة من البريطانيين كانت تجلس (مس إيفانس) التى استقدمت حديثاً من مصر خصيصاً لتتولى الإشراف على اعداد تعليم الفتاة فى السودان .

وكان المجتمع ينقسم الى فريقين ، الفريق الذي يدعو الى هذه البدعة الجديدة (تعليم البنات) وينظر الى مس ايفانس في اهتمام وتفاؤل ،والفريق الآخر الذي يرى ان هذا النشاط سيفضى بنا الى افساد حياتنا الاجتماعية ، ويضيف هذا الفريق امعاناً في حربه ، ان تعليم المرأة خدعة استعمارية لكي تخرج على تعاليم ديننا وتقاليدنا الكريمة .

وكانت هذه الافكار المعارضة تجد استجابة واسعة النطاق بين صفوف الشعب ، وفى تلك الليلة التى احتشدنا لها ، ترامى الينا ان الشاعر عبدالله عمر البناء سيلقى قصيدة يناصر فيها تعليم المرأة ويحيى مس ايفانس الفتاة الانجليزية التى استقدمت لتضع اسس تعليم الفتاة السودانية .

وبدأ التمثيل وابصارنا عالقة بالمسرح وانتهى الفصل الاول واسدل الستار . وصعد الى المسرح الشاعر الشاب عبدالله البناء في زى المشايخ الانيق ، فاستقبل بعاصفة من التصفيق ، ثم ارهفت الاسماع لما يقول ، واستهل قصيدته بهذا الغزل :

برزت وقد تبلت فؤادك زينبُ ... حسناء تصبي للحليم وتسلبُ
هيفاء قد عقد الحياء لسانها ... وغدا الدلال لها رقيباً يحجب
ترنو فترسل للعقول صوارماً ... وتميس في ثوب الدلال وتسحب
واللفظ مثل السحر يستلب النُّهى ... كالخمر الا انه لا يشرب
والشّعر مثل الليل الا انه ... لم يبد فيه لمن تأمل كوكب

والوجه مثل الشمس الا انه تلقاء ليل الشَّعر ما ان يغرب
هي كالحياة لمدنف او كالحيا لمؤمل لكنها هى اعذب
هي كالسعادة لفظها متيسر سهل ومعناها قصي اجنب
هى كالفضيلة متعب مرتادها تدنو ويدركها الدلال فتعزب

وبعد هذا الغزل الذي كان يعجب رواد الأدب فى ذلك الوقت ، فيصفقون ويهتفون ، يخلص الشاعر الى غرضه فيقول :

كل المروءة في ابتعاد المرء عن سبل الهوان فانما هي معطب
فذوو النفوس الطامحات هم الألى جدوا وراء المكرمات وقربوا
همم الرجال هي التي بمضائها ترقى البلاد ويسهل المستصعب
هذي خلال الخير قد جمعتها مترنماً ، هل منكم من يطرب؟
والمرء ان عشق المروءة ناشئاً نهضت به والمرء فان اشيب
والطفل ان غذيته بلبانها كملت خلائقه وطاب المكسب
والام اول غارس فى النفس ما ترقى به او تبتلى وتعذب
فعليك بالأم الرفيقة انها هى مرشد ومعلم ومهذب

ويقسو البناء ويعنف على الام الجاهلة فيخصها بهذه الصفات المقوتة :

واهجر سبيل الجاهلات فانما بالجهل تمتهن البلاد وتخرب
هن اللواتي جارهن مروع مما يقلن وقولهن مكذب
هن اللواتي زوجهن مهدد بالفقر ينفق ماله او ينهب
هن اللواتى دينهن مضيع هن اللواتى طفلهن مترب

وكان لا بد للبناء وهو يدعو لفكرة جديدة - تعليم المرأة ، يعرف كثرة معارضيها فى ذلك الوقت من ان يغالى فى تبخيس المرأة الجاهلة وان يصفها بالخرق والكذب فدينها (مضيع) وطفلها (مترب) وجارها (مروع)

ليحبب الى الناس تعليم بناتهم . وبمثل هذه المغالاة فى تبخيس المرأة الجاهلة نراه يرسم صورة رائعة أخاذة تبهر الناظرين للفتاة المتعلمة فيقول عنها :

وعليــك بالمتعلمات فإنمـــا ترجو ملائكة الجمال وتخطب
القانتـات العابدات السائحـــا ت المستفزّ كمالهن المعجب !
يجررن اذيالَ العفاف تحنفـاً فالريب يبعد والفضيلة تقرب !
ويرى بهن الطفل فى أطواره ما يرتقي بخـلاله ويهـــذب
يغذونه بالعـلم قبل فطامـــه والعلم اقرب للعـــلاء واجلب

وابتسمت معجباً وانا استمع للشيخ وهـــو يردد فى حماس (القانتـــات العابدات ..) الخ بمثل ما كان يردده البناء فى ذلك المساء من عام ١٩٢٠ ، فقد هزتنى هذه الاوصاف القرآنيـه يضفيها البناء على المتعلمات القانتات العابدات السائحات .. ولولا ان القافية قيدته لأكمـــل الآية القرآنية حتى .. ثيبات وابكاراً .. !

ولم يكن بد – كما قال محدثى – من ان يستعير البناء هذه التعابير القرآنية ليحبب تعليم المرأة لرجال ذلـك الجيل الذين كان التمسك بأهداب الدين اوضح مظاهرهم ولان دعاة محاربة تعليم المرأة قد اخافوا الناس بفرية ان التعليم سيهدم اخلاق الفتاة .. ولهذا كان البناء بارعاً كل البراعة رائعاً كل الروعة وهو يضفى على المتعلمات هذه الصفات القرآنية المحببة .

ويبلغ البناء الذروة فى التشويق للفتاة المتعلمة في هذه الابيات :

من يستهين بشادنٍ في لفظه خنث ، وفى خلواته يتأدب ؟!
يملى فينثر من درارى ثغره در العلوم المستطاب ويكتب
والوجه أزهر والحياء يزينه والوجه أقمر والبنان مخضب

تلك المنى، لا ما يؤمل خامل　　　هو جاء يرضيها الحقير وتغضب

ومثل هذه الفتاة المتعلمة الحلوة الساحرة الوجه واللسان والبيان هي الق رفعت (بني التاميز الى افق العلا) فملكوا البسيطة ... وجاءوا « بايفانس » لينا ليستضاء بنورهـــا لعلنا نجني ثمرات مـــا غرسته في مصر ... هكذا نال البناء :

تلك التى رفعت بني التاميز في　　　افق العلاء فأوغلوا واستوعبوا
ملكوا البسيطة، شيدوا عمرانها　　　نشروا السلام، فقربوا وتقربوا
رفعوا منار العلم في اوطاننا　　　وجروا على ما يرتضيه ودربوا
حتى اذا حمدوا من الأبناء مـــا　　　غرسوا وطاب لهم جني ما جربوا
ناطوا بتربيـــة النساء هداهم　　　بذلوا النفيس مع النفوس ورحبوا
جلبوا «ايفانس» ليستضيء برأيها　　　متعلم، ويرى الفـــلاح مؤدب
ولعـــل مرتاد السعادة يجتني　　　ثمرات ما غرست بمصر ويحطب
ولعل هـــذا القطر بعد خموله　　　يحيا ويذكر في البلاد ويحسب
من يفعل الحسنات يجن جزاءها　　　وداً تدين بـــه القلوب وتجذب
والخير باق مـــا تطاول عهده　　　والشر تدركـــه الفناء فيذهب

وعند ما جاء ذكر (ايفانس) على لسان البناء، اخـــذ الجمع الحاشد يتجه نحوها بأبصاره وهي صدر الحفل، كان البعض ينظر اليها شذراً غاضباً ويوده اقتلاعها من مقعدها وطوح بها بعيداً ! ... والبعض ينظر في امل وتفاؤل ... مع ذلك فقد ادمينا أكفنا بالتصفيق اكثر من مرة لهذا الشاعر الفتى الذى كان لعب بألبابنا بسحر بيانه !

قلت : اكان هناك عداء حقيقي لتعليم الفتاة ؟ قال لعل للمعارضة اكثر من جـــه، فقد كانت جماعة منا غير قادرة على التعبير عن مشاعرها الوطنية ضد

الاستعمار ولم تكن في حالة تسمح لها بالحديث عنه الا همساً خافتاً جداً ، كانت هذه الفئة تجد في محاربة مثل هذه الافكار التي تخرج من الرجال الحاكمين ارضاء وتنفيساً عن حريتهم المكبوتة .... وهناك من كان يكره تعليم الفتاة عن صدق وايمان وهم يمثلون آنذاك الاغلبية الساحقة من سواد الشعب ، وفي صفوف هذا السواد كانت تجد تلك القلة الحانقة مجالاً واسعاً لتوسيع شقة المعارضة .

ولقد تفرقنا تلك الليلة وقد فعلت قصيدة البناء فعلها في نفوس الكثيرين ، فقد كانت اقوى دعاية لتعليم الفتاة ... وقد شهدنا السيد حسين شريف رئيس تحرير الحضارة يهم من مقعده ويتناول القصيدة من البناء، فما شككنا في انها ستحتل الصدارة من العدد القادم... ولقد صدق حدسنا فقد تحلت بها الحضارة في عددها الذي صدر يوم السبت ١١ ديسمبر ١٩٢٠ فكان هذا النشر ايذاناً بانتقال المعركة الى صفحات الحضارة ووجد الشعراء والكتاب في هذا الموضوع الخصب مادة ثرة ، فلم يكد يخلو عدد من الحضارة من مساجلة فيه ، وان كانت الحضارة قد حرصت على اعطاء اكبر قدر من الفرص للمؤيدين .

فنقرأ اولا للشيخ حسن عثمان بدرى قصيدة جاء فيها :

المرء يسعى جاهداً	طول الحياة ويدأب
يأوي الى بيت بلا	سكن يسير ويطرب
ويبيت طول بهيمه	قلق الحشا يتقلب
وكأن بالفرش الوثير	عقارباً تتسرب

ويخلص الى انه شكا ما يلاقي الى صديق مجرب فنصحه ان يتزوج فتاة متعلمة وان ينصرف عن الجاهلة ، فالمتعلمة :

فهي الملاك ببيتها	فيه المسرة تخطب
تلقاك في خلق يكاد	من اللطافة يسكب

ولها على فرش العفاف رزانـة تستعذب
وبشاشة ونضـارة وملاحة وتحبب
وتبسم يزجى السرور الى النفوس ويطرب

وينادي الشاعر الغنائى خليل فرح قائلا :

انصفوها من حياة نصفها حائر والنصف جسم جاهل
علموهـا انهـا مدرسة لحياة ما اليها طائل

ومن بين طلبـة كلية غردون قسم القضاة الشرعيين ينبرى الطالب مدثر البوشى ويدلى بدلوه مع المؤيدين شعراً :

فمن يبتغى اسداء امته يداً فياليت يبلغ قصيده ذلك المهدى
يهذبهـا حتى يحس بأنهـا أمينة بيت الزوج والمال والولد

ويحس الشاعر عبد الله البناء ان القضية وقد كثر فيها الاخذ والرد تحتاج الى تعزيز فينشر قصيدة مطلعها :

فؤادى على اثر الفريق مروع وطرفى قريح بالنوى ليس يهجع
وحزن مقيم لا يريم مكانـه وصبر على إثر الأحبة مزمع

الى ان يقول :

أعد نظراً في الامر فالصبح للورى وإن انكر الاعمى يضيء ويسطع
وضع مع جمال الأم حسن خلالها تجد ملكاً براً يحـن ويرضع
مهاة تجيد القول ديناً وحكمة فيا من رأى الحسنى على الحسن توضع

ولكن قصيدته هذه لم تكن في قوة الاولى التى تلاها فى حفل التمثيل ...

ولم نجد شاعراً يقف في صفوف المعارضة ، اما الناثرون فكثير ، كان اشدهم ايذاء للدعوة فتى كان يرمز لاسمه (م . ع . ع .) ولعله محمد عثمان عيسى الذي اشتهر بعد هذا فى كتاباته بالحضارة بتوقيعه المعروف لادباء ذلك الجيل (ابن رجاء) ، وانه ليتخذ اسلوباً قاتلا اذ يحاول ان يجد من الاحاديث الدينية واقوال الفقهاء ما يصد به الدعوة ، ففي مقاله الذي نشرته الحضارة (٣٠ ديسمبر ١٩٢٠) نراه يستهله بهذه العبارات :

قال صلى الله عليه وسلم (علموهن المغزل وسورة النور) وقال الأعشى فى صبحه (لا تعلموهن الكتابة والخطابة ، فدونكم وهذا الباب اتركوه موصداً مغلقاً فلعمري لو عالجتهم نقبه لتقعوا فى هوة عميقة) ..

ويأبى السيد حسين شريف الا ان يعلق على هذه الرسالة التي احس بخطورتها وان كان ايمانه بحرية الرأى لم تجعله يرفض نشرها ، فكتب فى ذيلها يقول :

(... ان القرآن والحديث وسيرة نساء النبى والصحابة والعرب في الصدر لاول من الاسلام وحاجة العصر وقواعد الاجتماع والعمران كلها تشير بتعليم المرأة)

ويشتد اوار المعركة ، فيعلو صوت الشاعر حسيب على حسيب الموظف بالمحاكم الشرعية مهيباً بالمتقارعين ان يكفوا فقد آذوا الفتاة بهذه المقارعة ، وانها اخذت تذوب حياء ويعلو خدها الخفر !

دعوا فى خدرها ذات الدلال فقد أرهقتموها بالمقال
رأيت شعورها الحساس مضنى على هذا الجمود عن المعالى
تذوب ، وقد تناظرتم ، حياء بفحش اللفظ أو هجر المقال
ويعلو خدها خفر ينادى الا يا للنساء من الرجال !

ويتهمهم بأنهم يعشقون جمال الفتاة ولا يعشقون صلاحها وان اسم البنات صار حبيباً للشعراء والكتاب منذ العصر الخوالي :

زعمتم تعشقون لها صلاحا ... وظني ان ذا عشق الجمال
فان اسم البنات غدا حبيباً ... الى الكتّاب فى العصر الخوالى
والا ، فيم انتم والعذارى ... وايراد السؤال على السؤال ؟
وشر الجهل ليس به خفاء ... وخير العلم اشهر من كمال
ومسألة السفور غدت قديماً ... لدى الكتاب مشكلة النضال
وما أحد لها يدعو فماذا ... يريد الناس من قيل وقال ؟
احباً فى مناجاة الغوانى ... ترى ؟ ام ذاك زهد فى المعالي؟
بلى فالعلم عندهم كريم ... ولكن المتيم غير سال !

ويبدي الشاعر اخيراً عجبه كيف ينشط الكتاب والشعراء للجدل في موضوع تعليم الفتاة ويصمتون ازاء الخطوب الجسام التي تكتنف البلاد :

دعوها فهى تؤلمها كثيراً ... سهام المصلحين بلا اعتدال
عجبت لصمتهم فى كل خطب ... وان ذكر البنات دعوا نزال !

يدور كل هذا الجدل فى الوقت الذى اقدم فيه رجل عظيم على اتخاذ خطوة جريئة فأنشأ اول مدرسة اولية للبنات فى السودان عام ١٩٠٧ ، انشأها في داره فى رفاعة وناله فى سبيل ذلك ما نال أصحاب الرسالات ، ذلكم هو الشيخ بابكر بدرى طيب الله ثراه [١]

(١) العجيب أن الشيخ بابكر بدري لم يجد المعارضة من السودانيين فحسب ، بل ان مصلحة المعارف نفسها كانت تتوجس خيفة من فتح مدرسة البنات في ذلك الأوان ولكنها تحت الحاح الرجل العظيم ، بعثت بخطاب التصديق ممهوراً من جيمس كرى اول مدير للمعارف يقول مانصه: (عليك ان تفتح المدرسة في بيتك الخاص وباسمك الخاص) !! كأنها بهذا تتنصل من مسئولية المدرسة !

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة حقاً ، فما زال الجدل محتدماً ، الا انه كان بالامس حول انعلم الفتاة أم لا نعلمها ؟ وقد كسبت الفتاة هـــذا الحق ، ولو قدر للذين غادروا الحياةمن رجال ذلك العهد أن يشهدوها بين دور العلم المختلفة من المدرسة الاولية حتى الجامعات فى السودان وخارج السودان لقرت أعين بعضهم ولذعر بعضهم واستكبر الامر . ! كيف لا يستكبر وقد كانت تلك المعركة المحتدمة من أجل تعليمها فى المدرسة الاولية فقط ولا شيء سواها ؟ وكان هـــذا النزر اليسير فى نظر اكثرهم طفرة ملعونة لا تحمد عقباها !

وتنتقل المعركة اليوم حول حقوق المرأة والمطالبة بمساواتها بالرجل .. سنة التطور .. ولو امتدت بنا الايام نحن .. ولو استطعنا ان نسمع ما يقوله ابناؤنا من بعدنا لرأيناهم يسخرون من معركتنا هذه مثلما نسخر اليوم نحن من معركة جيلنا السابق ، هل يعلمون الفتاة ام لا يعلمونها ؟

وهكذا الحياة صراع بين قديم وجديد .. ولا يلبث الجديد حتى يصير قديماً منهزماً في صراعه مع الجديد وهكذا دواليك .

الا ما اشبه الليلة بالبارحة حقاً . !

لون من الأسلوب العلمي

للطالب إسماعيل الأزهرى

تعودت كلما نضب معين الذكريات ان اغشى دار هذا الشيخ المهيب الحلو الحديث فاجد عنده افانين من الذكريات واكداساً من الأوراق التى نال منها الدهر فهو لا يمسها الا في رفق وأناة. وكم من مرة حدجنى بنظرات قاسية لأني تعجلت مد يدي اليها بغير جذر وكادت القصاصات الفانية تستحيل الى نثار بين أصابعى !

وجلست اليه أجره الى ذكريات الماضى الذي لا يمل ترداده، ومن عادتى ان أترك له اختيــار الموضوع بغير توجيه منى الى ناحية معينة ليسوق الحــديث كما يشتهي ويهوى .

قال وهو ينظر بعيداً ، اراك تسرف فى الحديث عن الشعر والشعراء ولا يروق لك الا تسجيل هذه الناحية من جوانب المجتمع فى عهدنا ، فماذا ترى لو خرجت بك اليوم قليلا وحدثتك عن بعض الطرائف العلمية ، واطلعتك على صور من معالم التفكير العلمي في ذلك العهد ؟

قلت ذلك ما اريد ، فهات ما عندك

ونهض الى حيث اعرف انه يخبىء ذلك الكنز الثمين من مذكرات وقصاصات الصحف التى طال عليها العهد وعاد بشيء منها وجلس حيث كان ... وفي حذر

بالغ تناول قصاصة اخذ يعالج فتح طياتها في بطء وعناية حتى نشرها على المنضدة امامه ودعانى للاقتراب منها ففعلت .

قال : هذه قصة شغلت الرأى العام آنذاك وزاد من الاهتمام بها ما كان يسود الأذهان من جهل وخرافة . وأنا اترك لك قراءة القصة كما نشرتها جريدة حضاره السودان ، وامعنت النظر فى القصاصة المطبوعة واذا بها منتزعة من العدد الصادر يوم ٢٦ مايو سنة ١٩٢١ بعنوان ضخم (بئر غريبة) جاء تحته ما يلى :

(جاءنا من مكاتبنا من دنقلا ما يلي :

في أواخر شهر ابريل الماضي نزل احد الاهلين داخل بئر مهجورة لحاجة فيها فغاب مدة استدعت اخاه ليكشف خبره ، ولكن هذا الثانى لم يخرج ايضاً فتبعهما ثالث فرابع فخامس فسادس والكل لم يخرجوا ! ولما نزل السابع خرج بثلاث جثث ، ونزل بعده الثامن الا انه لم يخرج كما خرج سابقه ، وفى الآخر تدلى ابن شيخ البلدة ليطلع على حقيقة امرهم ولكنه ذهب ايضاً مذهبهم ولم يخرج . وحينئذ كان الخبر قد بلغ مركز الخندق فحضر الملازم ثاني حمزة افندى عبد الرحمن فأنزل في البئر كلباً بقصد اجراء التجربة فيه اولا ، وبعد قليل اخرج الكلب بواسطة الحبل الذي ادلى به فوجده ميتاً فأتبعه كلباً ثانياً فكذلك خرج ميتاً ، ثم انزل فانوساً ولكنه خرج مطفئاً . فما قولكم في هذه البئر الغريبة ؟) .

ورفعت رأسي بعد قراءة القصة كما روتها الحضارة ، ... فقال وهو يبتسم : انك تجد الآن الاجابة سهلة ميسورة لانتشار العلم والمعرفة ، بل ان تلميذاً صغيراً يستطيع اليوم ان يجيب على التساؤل عن هذه البئر الغريبة ، اما نحن فى ذلك الوقت فإن التفكير في هذه البئر الغريبة كان حديثنا الشاغل وصار الناس يتناقلون امرها فى مجتمعاتهم ... وما عساهم يقولون غير انها (مسكونة) وان الجن قد

قضوا على هؤلاء الذين اقتحموا مسكنهم ..

ولكن ... كان بين الحفنة الكريمة من طلبة كلية غردون الذين تحدثنا عن بعضهم كشعراء وادباء من يتتبع مثل هذه الظواهر فيحارب الخرافة والجهل وينشر الحين بعد الحين في جريدة الحضارة توجيهات اجتماعية يصحح فيها الاخطاء ويعالج مشا كل المجتمع .

ومرة اخرى اخذ محدثي يعالج قصاصة نال منها الدهر حتى بليت وهي ايضا من جريدة الحضارة بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٢١ ، وفي اعلاها عنوان واضح يقول (بئر دنقلا) ، واخذت اتلوها في هدوء وتمعن .. ان كاتب الكلمة طالب في الكلية اراد ان يدلي بكلمة العلم في موضوع البئر التى شغلت الناس ، وكيف لا تشغلهم وقد مات في جوفها ثمانية رجال لم يدرك الناس تعليلا لموتهم الا ان الجن قضت عليهم .. !

ولم يكن هذا الطالب غير اسماعيل الأزهري - رئيس اول حكومة وطنية - ولعله وقد مضى على الحادث ما يقارب الاربعين عاماً قد نسي الآن البئر والمقال .

واني لأنقل هنا نص مقال الطالب اسماعيل الازهري لجريدة الحضارة (١٦ يونيو عام ١٩٢١) كلون من الاسلوب العلمي لذلك العهد :

سيدي رئيس تحرير الحضارة . بين اعمدة العدد ٤٤ الصادر بتاريخ ٢٦ مايو رسالة من مكاتبكم بدنقلا بعنوان (بئر غريبة) خلاصتها (وأورد خلاصة القصة كما جاءت في رواية المراسل) ثم استطرد يقول :

وكأني ببعض القوم يذهبون في السبب لتلك الخرافة بأن البئر مسكونة يعني يسكنها نفر من الجن تجري على ايديهم تلك الافاعيل الغريبة وما زالت هذه الخرافة في ادمغة المتهوسين .

أقول لهم : ان السبب هو اختناق اولئك المساكين بحمض الكربونيك ،وهو غاز لا يخلو منه مكان ، وجميع الكائنات تنفثه بحركة الزفير في الهـــواء بنسبة اربعة اجزاء منه الى عشرة آلاف جزء من الهواء ، وهـو ينتج من احتراق أي جسم يشتمل على الكربون وهو غاز لا لون له ولا طعم ولا رائحة ولا يساعد على احتراق واذا تواجد مع الهواء في مكان رسب الى اسفل ، وهناك طرق شتى للحصول عليه ويستعمل في أغراض مخصوصة . وإذا وضع حيوان في حوض من ذلك الغاز يشاهد له تضايق ثم تقف حركته ويعقب ذلك الموت . وكذلـك اذا وضع في نفس الحوض مصباح او شمعة متقدة فإنها تنطفيء لاحتياجها كالإنسان الى الاوكسجين الذي يساعد على الاحتراق .

وكثيراً ما يوجد غاز حمض الكربونيك ، في الآبار المهجورة وهو ليس ساماً وانما يحصل منه الاختناق لعدم وجود الهواء اللازم للتنفس داخل طبقاته المتكاثفة في قاع البئر فقبل الدخول في تلـك الآبار المهجورة يجب انزال مصباح او شمعة متقدة للتحقق من وجوده او عدمه كما صنع حضرة الملازم ثاني حمزة أفندي عبد الرحمن على ما جاء بتلك الرسالة فإذا استمرت الشمعة مثلاً متقدة دل على عدم وجوده واذا انطفأت كان ذلك دليلا على وجوده.

ولإزالته يصب قليل من محلول الجير في البئر ثم تنزل الشمعة المتقـــدة فإذا استمرت متقدة فالبئر قد طهرت ونظفت واذا انطفأت صب المحلول مرة اخرى وتنزل الشمعة مرة ثانية وهكذا حتى ينظف من ذلك الغاز ثم تستخرج جثث المساكين .

١٩٢١/٦/١٤ اسماعيل الازهري – طالب بالكلية

وانتهيت من تلاوة القصاصة وأنا اردد ، حيا الله هـؤلاء الرواد الأول الذين كانوا يكافحـون في سبيل مجتمعهم وأمتهم في كل ميدان وهم في باكورة الصبا وفجر الشباب .

وقال محدثي وأنا اقدم له القصاصة فى رفق وحذر ، أراك قد نظرت الى الجانب العلمي وحده وفاتك ان تتدبر معى هذه الشجاعة الخارقة التى مثلها هؤلاء الرجال حول البئر .. فبالرغم من جهلهم بما فى داخل البئر وتأكدهم من ان من ينزل منهم لن يعود ، فقد أخذوا يتدلون واحدا بعد واحد كلما ابطأ عليهم من نزل !..وقد اخرج السادس منهم جثث ثلاثة رجال ومع هذا فقد نزل بعده رجلان آخران ولم يعودا !. وأحسب أنه لولا ان وصل الخبر للمركز وجاء هذا الضابط وفعل ما فعل لما بقي فى القرية رجل .. ولابتلعتهم البئر جميعاً ، فكلما نزل منهم أحد ولم يعد وطال به المكث تدلى بعده آخر وهو يعرف أنه كرفاقه . لن يعود ! — الا ان الواجب يحتم عليه ان يتدلى الى قاع البئر ليعرف مصير رفاقه السابقين وليحاول انقاذهم ان استطاع الى ذلك سبيلا او يناله ما نالهم من سوء .

تضحية ونكران ذات وشجاعة في اداء الواجب . . ولا تقل انه الجهل !

القصيدة الثائرة

الشريف يوسف يشكو البناء

ألا أسمعك قصة قصيدة كان لها دوي في مجتمعنا آنذاك وقد حظيت بما لم تحظ به قصيدة اخرى من السيرورة والاهتمام ؟

بهذا ابتدرني محدثي ، فابتهجت ودنوت منه وانا أقول ،من اجل هذا اسعى الى دارك جاهداً ، عداك الردى !

واعتدل فى جلسته شأن من يهم بالتحدث عن شيء ذى شأن ، وقال :

صار من المألوف ان يحتفى الخريجون بالمناسبات الدينية فيلقون الشعر الذى يحفزون به الهمم ويتلون الخطب التي توائم هذا المعنى ، وفى عام ١٩٢١ على ما أذكر ، القى الأستاذ عبد الله عمر البناء ، وهو فى عنفوان الشباب وزهو الصبا قصيدة ثائرة كان لها دوى وأى دوى ، فتن بها المجتمع وتناقلها الرواة ، بل خرجت من حدود السودان الى العالم العربى الخارجى فاختارها (١) صاحب كتاب (شعراء العصر) وقد جمع فيه شعر نخبة ممتازة من شعراء البلاد العربية كمصر والعراق والشام ، اختارها كمثل لما وصل اليه الشعر فى السودان من مستوى عظيم .

---

(١) هو الاستاذ سعد ميخائيل الذى كان موظفاً بمصلحة البريد بالسودان والذي اخرج كتاب (شعراء السودان) .

وقد بدا البناء قصيدته بهذه المناجاة للهلال :

ياذا الهلال عن الدنيا او الدينِ حدث فإن حديثا منك يشفيني
طلعت كالنون لا تنفك في صغر طفلا ، وانك قد شاهدت ذا النون
سايرت نوحاً ولم تركب سفينته وأنت أنت فتى فى عصر (زبلين)[1]

ثم يطلب البناء من الهلال ان يحدثه عن اخبار الاعصر الاولى ليبهجه فان اخبار العصر الذي هو فيه تبكيه! هو كعادته من شعراء هذه الفترة يثير مشاعرنا بتذكيرنا بأمجاد العرب وعهودهم الذهبية السالفة ، ويقارن هذا بما كنا فيه من قهر وكبت وهو في هذا ينقل أحاسيسه في جرأة غير مألوفة اطلاقاً فى ذلك العهد :

خبر ملوكاً ذوي عزّ وأبهة إن الملوك وان عزوا الى هون
وارمقْ بطرفك من بغداد داثرها واندب بها كل ماضي العزم ميمون
سلها تخبرك كم ضمت مقابرها من ذي حفاظ . بذل غير ممنون
سل دار عاتكة عن شأن عاتكة فيها ، وعن سائل فيها لهرون
وسل زبيدة عن قصر تبوأه بعين الأمين حسام الشهم مأمون ؟
سلها عن الجيش جيش الله أين مضى وكيف جرد من ماض ومسنون ؟
اخلى منابرها من في مقابرها من كل متضح الآثار مدفون
وقبلها ابك دمشقا انها فجعت بسادة عمروا الدنيا اساطين
وسل معاوية عن شاتميه فكم عفا واعطى برأى منه مرصون
يأسو جراح مقال ليس تؤلمه بالمال ، والمال من احدى القرابين
هي السياسة تأليف وبذل ندى واللين والصفح كل المجد فى اللين
وعهد طيبة فاذكر فيه كل فتى جم الإباء من الشم العرانين
واذكر ليالي للفاروق أرقه فيها التقى وحنان للمساكين
وكم تفجر فيها المصطفى كرماً عطفاً ورفقاً لبادي الفقر محزون

(١) زبلن منطاد الماني كان اعجوبة ذلك العهد .

أني بكيت على ماض تكفل للمجد (م) الاثيل بفخر غير ممنون

وبعد ان طوف الشاعر البناء في آفاق التاريخ العربي مستعرضاً مفاخره ومآثره ذاكراً أقياله وقادته ، يعود الى قومه ، الى احبته يثير نخوتهم ويعجب لهم كيف يرضون بالدون والمجد لا تدنو مراكبه من الجبان ؟ ويطلب اليهم في شعر سلس عذب صادق أن يجمعوا شملهم وينبذوا التفرقة .

احبتي ودعاء الحب مرحمة — لا يحزننكم بالنصح تلقيني
فرب قول غليظ اللفظ ، باطنه — رحمي ولين بفظ الروح مقرون
ترضون بالدون ، والعلياء تقسم لا — تدين يوماً لراضي النفس بالدون !
والمجد ينأى فلا تدنو مراكبه — من الجبان ولا ينقاد بالهون !
تفرق ، وتوان ، واتباع هوى — ان الهوى لهوان غير مأمون
والحادثات تريكم كل آونة — أن التقاطع من شأن المجانين
بليتم وبلايا الدهر ان نزلت — فالصبر يكشف منها كل مدفون
يا أمة جهلت طرق العلاء فلم — تسبق لغاية ممقول ومخزون
فللمدارس هجران وسخرية — وللمتاجر ضعف غير موزون
وللمفاسد اسراع وتلبية — ولا التفات لمفروض ومسنون

وهنا يعمد الشاعر فيرسم صورة صادقة لبعض طوائف المجتمع وشخصياته ، في ايماء يشير ولا يبين ، وفي سخرية مريرة عرف بها الشاعر واشتهر :

والناس في القطر اشياء ملفقة — فإن تكشف فعن ضعف وتوهين
فمن غنيٍّ فقير في مروءته — ومن قوي بضعف النفس مرهون
ومن طليق حبيس الرأي منقبض — فاعجب لمنطلق في الارض مسجون !
وآخر هو طوع البطن يبرز في — زى الملوك واخلاق البرازين !
وهيكل تبغته الناس عن سرف — كالسامري بلا عقل ولا دين !
يحتال بالدين للدنيا ليجمعها — سحتاً ، وتورده في قاع سجين !

لقد اختلف الناس انذاك في تطبيق هذه النعوت على شخصيات معينة من كبار رجالات مجتمع ذلك العهد ، وأخـذوا يتجادلون من هو الغني الفقير في مروءته ؟ ومن هو الطليق حبيس الرأي ؟ وأيهم طوع البطن يبرز في زي الملوك واخلاق البرازين ؟ وايهم عناه الشاعر بهذا المعنى الساخر ؟

وهيكل تبعته الناس عن سرف　　كالسامري بلا عقل ولا دين
يحتال بالدين للدنيا ليجمعها　　سحتاً وتورده في قاع سجين

ان رجال الدين في ذلك العهد الذي قال فيه البناء هذا الشعر اقوى قوى المجتمع واشدها نفوذاً وسلطاناً ، فلا عجب ان تثور ثائرتهم لهذا الشعر الذي عرض بهم لأول مرة وفي محفل عام شر تعريض . وقبل ان نوغل في سرد ما احدثه هذا الشعر وما ترتب عليه بالنسبة للشاعر ، نورد بقية القصيدة ، فبعد هذا النقد الساخر من الشاعر لبعض شخصيات أو طبقات المجتمع، يعود فيتحدث الى احبته ، الى مواطنيه ، فيتعذر لهم بأن نفسه فاضت بالشجون فلم تبخل عليهم بمكنونها وانه ليهز منهم سيوفاً في مضاربها ليحارب البغي والفساد :

احبتي هي نفس هاج هائجها　　من الشجون فلم تبخل بمكنون
هززت منكم سيوفاً في مضاربها　　عون الطريح وارهاب المطاعين
ان الحياة لمضمار اذا ازدحمت　　به الرجال تردي كل مفتون
لها وسائل ان شدت اواصرها　　تبين المجـد فيهـا أي تبيين
تواضع وتوان واتبـاع هوى　　والصبر والحزم ازكى في الموازين
فأحسنوا انما الإحسان واسطة　　للعالمين بـه في كل تمكين
ثم انشروا من شريف العلم انفعه　　فانمـا هو معنى كل تمدين
العلم زين وبالاخلاق رفعته　　ان قارنته يد في خير تزيين
ان الخلائق ان طابت منابتها　　كانت لكسب المعالي كالبراهين

وانتهيت مع صاحبي من تلاوة القصيدة وتدبر معانيها ، وعدت استحثه

ان يقص علي ما ارجأه من الحديث عن الإثارة التي احدثها شعر البناء عن الذين يحتالون بالدين للدنيا ... الخ . ولم يتعجل الحديث وقد وضع راحة يده على جبهته كمن يسترجع صوراً اهتزت رؤاها لبعد الزمان ، ثم انطلق صوته في هدوء وبطء وهو يقول :

لست ادري ما الذي اثار الشريف يوسف الهندي انذاك فظن انه المعني بهذه السخرية ؟ والشريف يوسف رجل ذكي واسع الافق ، وكان ذا شخصية قوية آسرة ، وذا نفوذ قوي في المجتمع ولدى حكومة السودان .

قال بعضنا : ان في نفسه شيئاً من البناء قبل انشاء القصيدة ، فلما جاء في شعر البناء هذا التعريض الساخر برجال الدين ظن انه يعرض به . وقد يكون هناك من بين المقربين اليه – وقد احسوا بغضب الشريف على القصيدة والبناء ، من اخذ يؤيد له الظنون والشكوك التي حامت في نفسه من انه المعني بما جاء فيها عن رجال الدين ولم يطق الشريف يوسف صبراً ، فشكا البناء الى رجال الحكومة مطالباً بمحاكمته على الابيات التي تضمنها شعره باعتبارها تعريضاً وسخرية وقذفاً .

ورفع الحاكمون القصيدة لمستر هيلسون ليقول كلمته في هذا الاتهام الخطير والمستر هيلسون انجليزي مستشرق كان يعمل في قسم المخابرات ويدرس التاريخ للطلبة في كلية غردون يعرف اللغة العربية الفصحى، وله فيها مساجلات ونوادر مع اساتذة اللغة العربية السودانيين في ذلك الوقت ، وقد رأيناه يكتب مقدمة كتاب (العربية في السودان) للأستاذ عبدالله عبد الرحمن بأسلوب عربي مُبين ، وله محاولات في نظم الشعر العربي وفي انشاء (الدوبيت) السوداني ولكنها محاولات فاشلة ، دون المستوى بكثير .

وقد رأى رجال الحكومة ان يرفعوا امر القصيدة لهذا المستشرق تفادياً للحرج فيما لو قدمت لاستاذ سوداني حتى لا يتهم .

وعكف هيللسون على تفهم القصيدة وتحليل معانيها ، والقلة المثقفة الواعية ترقب النتيجة مشفقة .

وجاء حكم الرجل ، وكان عادلاً يدل على حسن تفهمه للشعر ومعانيه ، قال ان ما جاء في القصيدة من نقد يعتبر نقداً عاماً لا يعني احداً بالذات ، ولكن من رأى انه يشبهه يمكن ان يدعيه لنفسه – وشبه ذلك بالقبعة الطائرة ، ليس لها صاحب ، فمن وجدها على مقاس رأسه يستطيع ان يدعي ملكيتها – ويقول انها له !

وكان هذا فصل الخطاب في القصيدة ، وتناقلها الرواة فيما بينهم وتناشدوها في مجتمعاتهم الخاصة اذ صادفت هوى في نفوسهم .

قال صاحبي ، وهو يختتم حديثه : ان اشد ما عجبنا له ، كيف خانت الشريف حصافته التي عرف بها وذكاؤه اللماح فأثار هذه المعركة التي لم يكن من مصلحة احد اثارتها ، فما ضره لو تغاضى عنها كما تغاضى الآخرون ممن شملتهم معاني القصيدة ؟! ولكنها اخطاء الكبار ، كبيرة مثلهم ! واصدر البناء بعد هذا ديوان شعره ، فخص الشريف يوسف بقصيدة مدح رائعة . . وكذلك فعل مع بقية الزعماء الروحيين كالسيد علي والسيد عبد الرحمن وقد خص الاخير بأكثر من قصيدة .

نسمات الربيع

كان حديث الشيخ اليوم عذباً شهياً وهو يقص علي طرائف ذكرياته ويعود بنا الى سرادق الحكومة بأم درمـان لأشهد معه الحفل الرسمي الختامي لعيد ميلادالنبي (صلعم) عام ١٩٢٣ م — ١٢ ربيع الأول ١٣٤٢ هـ وقد اخذ الشعور الوطني في اعقاب هذا العام خاصة يزداد وضوحاً .

قال وهو يستجمع شتات أفكاره :

انفلت الى داخل السرادق بعد لأي فقد كان الحشد حوله ضخماً ، والجنود يحيطون بالمكان ، ورجال الدولة وعلى رأسهم الحاكم العام داخل السرادق ، اما نحن فقد كنا نعلم ان عدداً من شعرائنا قد تهيأ لهذه الليلة ، فتجمعنا من كل حدب وصوب كما كان العرب يتجمعون في عكاظ يستمعون الى شعرائهم في غبطة وإعجاب واخذت اجيل الطرف بين الجالسين والجموع الواقفة المتراصة وكم كان مبهجاً منظر طلبة غردون بجلابيبهم البيضاء وعمائمهم التي امتازت بطريقـة مستحدثة في وضعها وتكويرها .

كنت اعرف من بينهم عدداً من اولئك المتطلعين الذين كانوا ينشرون شعرهم ومقالاتهم في الحضارة ، فهذا الفتى يطل روحـه المتوثب من خلال نظراتـه الصارمة وقد كور عمامته في وضع غير متسق ، وذلك الفتى الضاوي النحيل والذي يبدو اطول من رفيقه قامة ويخالفه في انه يرتدي الزي الافرنجي فخرج بهذه الظاهرة عن عداد الطلبة . انهما يتبادلان الحديث ويهمس كل منهما في اذن الآخر الحين بعد الحين — اني اعرفهما — اما الفتى ذو الجلباب فهو توفيق احمد

البكري اما (الافندي) الضاوي الصارم النظرات فهو عبيد حاج الامين . وكان هذا اخر عهدي بها ، فقد خف توفيق الى القاهرة مستخفياً ليستزيد من العلم في معاهدها فكان بهذا اول طالب مع رفيقه بشير عبد الرحمن – يقوم بهذه المخاطرة العنيفة والتي اقلقت الاستعمار ايما اقلاق . اما عبيد فقد قاد الثورة الوطنية سافرة بعد فترة قصيرة من تلك الليلة هو ورفاقه قادة (اللواء الابيض) فاعتقل وسجن ثم نفي الى بحر الغزال ليقع فريسة الاوبئة ويموت ويحتوي الجنوب جثمانه الطاهر ! .

السرادق يموج بالخلق ، وفي بعض الاركان تخفى بعض الشبان وقد امسكوا باقلامهم واوراقهم .. ماذا يريدون ؟ ، سنعرف امرهم بعد حين !

ونتجه بابصارنا الى المنصة وقد خف اليها ابن بجدتها الشاعر البناء فيصمت الناس حتى لا تحس بوجود احد ، وينطلق الشيخ الفتى عبد الله البناء ينشد قصيدته :

ربيع الخير يا سر الحياة	سقاك الله صوب المعصرات
فقد أضحت بك الايام بيضاً	وقد أصبحت نبراس الهداة
تفتق فيك زهر الفضل غضاً	وصار الخير يمطر للجهات
وانك كالربيع هدى ونوراً	وأسنى بالبها والمكرمات

ويطوف البناء كعادته ، بالمستمعين بين عهود الاسلام وبطولة العرب فيذكي الحماس ويلهب الشعور ، ثم يعود ليزيد من اذكاء الحماس والهاب الشعور ، فيندب حال أمته التي اضاعها الجهل ، ويتساءل فيم هذه الطبول والاعلام ونحن لم نقتف اثر الاسلاف ؟

الا يا أمة ضاعت بجهل	وباءت بالاذى والموبقات
علام حملت في الدنيا طبولاً	وأبواقاً نواعق صارخات ؟

ثم يندد بما في هذه الليالي من بدع ، فيذكر اللواتي يتمسحن (بالصاري)[1] ومن يحوم حولهن من الشباب الغزل :

لدى الرايات تلقاه صريعاً لدى «الصاري» بأيدي الباغيات

ويتساءل متحسراً :

فهل إحياء دين الله جمع لارباب الخنا والموبقات ؟

ويقابل الناس هذه الثورة الجامحة من شاعرهم بالرضا والاستحسان متجاوبين معه بهتافهم وتصفيقهم كلما راقهم جانب من القصيدة .

ويخب الى المنصة شاعر اخر في زي المشائخ ، نقابله مقابلة حارة ، انه صنو البناء وقريعه الشاعر عبدالله عبد الرحمن ، وهل يخلو مثل هذا اليوم من البناء وعبد الله عبد الرحمن ؟ انهما كفرسي رهان في هذا الميدان . ونرهف اذاننا لنلتقط ما يفوه به الشيخ ، واذا به يستهل قصيدته قائلا :

لسحرت القلب مما تسجعين يا هتوف الدوح ، والسحر فنون
لا عدا مغناك منهل الحيا وتخطتك عيون الراصدين
غردي ما شئت أن نحيا به جددي بالله عهد الراشدين
وانثري الدر على اسماعنا وانظمي الامداح فيما تنظمين
انظمي الامداح في خير الورى صاحب الآيات والذكر المبين
إن لي في كل عام وقفة في ربيع تستفز السامعين

بلى ، أن لشعرائنا في كل ربيع وقفة يهزون بها المنابر ويثيرون المشاعر

(١) علم طويل يقام في وسط ساحة الاحتفال يلف بالاقمشة الملونة الزاهية يحمل في اعلاه علماً وبضاء اضاءة خاصة ، وكان العامة يتبركون به في ليلة عيد النبي .

يربطوا حاضرنا الضعيف بذلك الماضي المجيد ، وليحس الأبناء بمسئوليتهم إزاء لتاريخ وهم احفاد من صنعوا التاريخ :

فلئن َفلّ الردى من غربنا   لبما كنا نرد القـــاسطين
وبما كنا غياثـــاً يستقى   بضحوك السن منا في السنين
يوم كانت في الدنا بغـدادنا   كعبة الآمال في دنيا ودين
وجنان العـــلم في اندلس   مؤتيات أكلها في كل حين
ولدين الله فيهـا آيـــة   جنتان ، عن شمال ويمين
وبنـو زيان فيها انجم   وأبو حمـو أمير المؤمنين
ملك افعـــاله ناطقـــة   انه في حب طه لا يمين ...

وبهذا التذكير بالماضي العزيز ينهي الشاعر قصيدته ، بـــين دوي المصفقين والمهللين ، فقد كان الشعب يلتهم مثل هــذا الشعر الذي يذكره بأمجاده الغابرة التهاماً ويرى فيه متنفساً لما يعاني من قهر وكبت .

ويسرع الى المنصة فتى انيـــق دقيق في زي الافندية ، قصير الخطى قصير القامة وينطلق صوته في قوة ووضوح وهو ينشد :

نادِ القوافي فإن لباك شاردها   فصغْ بديع معانيها بإمعـــان
اني تعهدتُ فيه ان اعيد بـه   في مولد المصطفى ايام حسان

وبهذا الاستهلال البارع يجذب الشاعر قلوب المستمعين اليه ويتساءلون من الفتى المعجب .. ؟ انه عثمان هاشم احد الفتية الناهضين العاملين في الحقل الوطني السري .. ان عثمان لا يلبث الا فترة قصيرة من هذا اليوم ، حتى يشد الرحال ايضاً مستخفياً الى مصر فكان بهذا من الرعيل الاول الذي هرب الى القـــاهرة التماساً لحياة اسعد .

مهلا – من هـــذا الطالب بجلبابه الابيض وعمامته البيضاء المكورة.وهو يحاول الوصول الى المنصة ؟ ان ظهور هذا الطالب قـد احدث مشكلة ، فان بعض المشرفين الرسميين على الليلة يصرون على اقصائه ، او ان يقدم لهم ما يريد القاءه مكتوباً لتطلع عليه اللجنة اولا ثم تسمح له او لا تسمح .. ولكنه يردهم بأنه لم يكتب ما يريد القاءه وانما سيلقيه من الذاكرة ..ويتعقد الموقف، والفتى الطالب يتهيأ للالقاء ، والجماهير تكاد تختطفه وتضعه في المنصة ، فقـد ساءها هذا التعرض ..

ويبرز الرجـــل الطيب السمح المرحوم عبد الخالق حسن مأمور مركز ام درمان ، وكان اخر مأمور مصري لهذه المدينة – يبرز هذا الرجل ويقول للجنة الاحتفال انه يتحمل مسئولية ما يلقيه هذا الفتى .. رعاه الله – لقد كان رجلا محبوباً حلو المعشر ... بكته المدينة بما لم تبكه لغريب او قريب عند ما فاضت روحه الى بارئها بعد اشهر معدودات .. وكان يوم موته بعثاً للحركة الوطنية السافرة ، فقد خطب على قبره مؤبناً صديقه الفتى المتوثب توفيق وهبه القاضي كان ذلك يوم ١٩ /٦/ ١٩٢٤ ، وما كادت الجماهير الغفيرة تواريه الثرى وتنصرف عائدة حتي غلا مرجلها وهتف اول الهاتفين الحاج عمر الشيخ التاجر بأم درمان يسقط الانجليز .. عاش سعد . وهاجت الجماهير وانتظم موكبها في مظاهرة ضخمة كانت ايذاناً ببدء الثورة ...

وصمت محدثي برهة .. ثم استأنف الحديث . لننظر لهذا المأمور المصري وهو يتحمل المسئولية ويأذن للطالب ان يلقي ما يشاء ، والانجليز يحتلون صدارة الحفل يرقبون الموقف بالهدوء والبرود الذي عرفوا به ويرصدون ما حولهم في دقة وحذر .. الفتي يتقدم الى المنصة ، انه مدثر البوشي ، الطالب بقسم القضاء الشرعي بالكلية .ليس في يديه اوراق كمن سبقه من الشعراء ، لقد حفظ قصيدته عن ظهر قلب واخذ يتلوهـا من الذاكرة .. كان يلقي شعره وجسده يختلج انفعالاً ، ويحتد وينفعل ، ويبدأ انشاده :

نأتْ بكَ عن ذات الحجاب الرواسم   فقلبك مقسوم وبينك قاسم
مدامع تذريها من البين مثلما   همت من حصار المرسلات غمائم
جراح باعماق النفوس نغرنها   وهيهات منها ما تفيد المراهم
انين ولا كالثاكلات ومهجة   براها حنين قلدته الحمائم
عيون ولا كالمرهفات تألبت   عليها جيوش الهم والهم لازم
ترفق فما يجدي البكاء ولا ارى   من الخير ما يلقاه في الناس نائم
ارانا هجرنا الدين والدين معقل   فما خير سيف لم يؤيده قائم
ارى البدعة الحمقاء ارخت سدولها   على السنة الغراء اين الصوارم ؟
ارى شرعة الإسلام رثت حبالها   وراحت بامواج الخطوب تلاطم
ارى زهرة الدنيا وشرخ شبابها   تبدل بؤساً . بئس تلكَ المغارم
ارى ما ارى مذ سادفي الناس واهن   وخارت عن الاقدام منا العزائم

هنا تشتد ثورة المجتمعين ويشتعل حماسهم ويطلبون المزيد من الشاعر .. ويعدي الحماس الشاعر فيرتفع صوته متهدجاً وهو ينشد .

سلام على الدين الحنيف وفتية   على عهدهم ترعى النهى والمحارم
تبدل ماضينا ولم تبق سنة   وصار لنا مما نعد المواسم
اذا شئت يا ذات الثنايا تشاهدي   بنيك على مر الليالي فهاهم
اغاروا ، وقد انجدت ، لما تحولوا   عن العهد واستولى القياد سواهم !

ونصفق طرباً لهذا المغني ونحدق بابصارنا في الانجليز الحاكمين في غيظ وحنق.. لقد استولوا على القياد منا لما ضعفنا وهنّا .. الشاعر يستمر في القائه ، ضارباً على هذا النغم المثير لمشاعرنا ...

فبينا هم للامر والعرض سالم   اذا بهم يفضون والانف راغم
يقال رجال ، لا وربك انهم   جديرون حقاً ان يقال الفواطم !

نفوس أبت فعل الجميل لاهلها ... وايد الى الاعداء نعم اللهازم !
فما روع العلياء الا عمائم ... تساوم فينا وهي فينا سوائم !

لست ادري كم مرة طلبنا من الشاعر ان يعيد هذه الأبيات ، لقد كنا نصرخ فيه بصوت يرعد .. أعد .. أعد .. ! ويا لنا من تلك (العمائم) التي كانت تساوم في امرنا مع المستعمرين — ويا لنا من ذكريات هذا الماضي الأثيل التي يلاحقنا بها كل شاعر ..

أجل نظراً في من مضى من رعيلنا ... فهم عند ناب النائبات ضراغم
تخلى لهم عن امره الدهر خاسئاً ... وسلم دولاب الحياة الاعاجم
رحى الحرب في ايديهم وزمانهم ... حليف وان هم سالموا فمسالم
اذا نال من في الغرب سوء تراكضت ... سوابحه واهتز في الشرق عالم
اديروا علينا كأس ذكرهم عسى ... نريكم اخا البأساء في البؤس ناعم
كأن لم تكن تغني مغانيهم ولم ... يبوأ سرير الملك منهم خضارم
فيا نعم عيش بالشآم وامرة ... ببغداد حيتها السعود البواسم
وكائن ترى بالنيل من متملك ... وبالسند مندوب الخلافة حاكم
وقد نبغت يوماً بأندلس لنا ... شئون أبانت للفرنجة .. ما هم .
وحسب العلا أنا عقدنا لواءها ... فصار لها بعد الخفاء معالم
اطلي صروح من آل هاشم ... فقد ساد قدماً في الخلائق هاشم
وكيف يداني الناس محمد احمد ... واحمد نودي حيث جبريل واجم
من الناس ، لكن هم صنائع بره ... ومن ملكوت الله ، لكن سماهم
ملائكة الرحمن احراسه ومن ... مقاتلة الانصار جند مقاوم

وبهذه القصيدة الثائرة ينفض الاجتماع ، ونحن ندير الاحاديث بيننا ونتكهن بأن الشاعر الطالب لن ينتهي امره بسلام .. وقد صح ما توقعناه ، فقد استجوب واوشك الحاكمون ان يعتقلوه .. لولا شفاعات بعض المقربين .

ونجوب ساحة المولد نستمتع بمشاهدة الفتيات الحسان يتخطرن في خفر وحياء ولا اكتمك ، لم تردعنا سخرية البناء في قصيدته تلك الليلة عن بدع المولد ،وعن نحر الفضيلة (عند الصاري) والحسان يتمسحن به تبريكاً كل تنشد تحقيق امنية .. زوجاً ، او طفلا ، او عودة غائب حبيب ! ونحن نسير وراء مواكب الظباء وهن يجبن أطراف الساحة في خفر وحياء ، فما كان حسان ذلك العهد يعرفن هذا التبرج الماجن الذي تعب منه فتيات اليوم . وكان حالنا معهن في ليلة الميلاد من كل عام كحال عمر بن ابي ربيعة وهو يستقبل ركب تلك ، ويودع ركب اخرى من حسان العرب عند مكة في موسم الحج ، ولا يكون منا ومنهن غير هذه الصبوة البريئة والنظرات الساجية الحبيبة وكما كان ابن ابي ربيعة يودعهن بحسرة الشاعر الهائم بالجمال ، كنا نحن ايضاً نودعهن في اعقاب تلك الليلة بتلك النظرة الوالهة ، اذ لن نراهن الا في مثل هذا اليوم من عامنا المقبل ، ونرسل من اعماقنا اغنية الوداع واسراب الظبا يغادرن الحفل في اعقاب الليل ومنشدنا يتعقبهن في صوت رخيم شجي ..

بي عودة يا مولد الحبيب في ام درمان [1] انا لي حبيب !

وتلتئم حلقاتنا صباح الغد لنستأنف حديثنا عن شعراء الليلة . . ونجتمع بأولئك الرفاق الذين قضوا ليلتهم بالخرطوم يحتفلون مع اهلها ليلة الميلاد الاخيرة ونسمع منهم في اعجاب بالغ كيف أن الحشود في سرادق الحكومة هزتهم هزاً قصيدة الشاعر الثائر صالح عبد القادر ، ونهيب بهم ان يسمعونا اياها .. وتمتد ايديهم الى جيوبهم حيث يخرجون اوراقاً متناثرة كتبوا فيها القصيدة عند القاء الشاعر .. كما فعل اخوة لهم هذه الليلة في ام درمان .. ويكملون جمع القصيدة، ويقف هذا الفتى المرهف الحس ليتلوها علينا مقلداً صالح عبد القادر في اشاراته وايماءاته وحرارة القائه :

---

(١) ام درأمان لغة في ذلك العهد لام درمان ويعنون بها انها ذات الدر والأمان .

يا صاحب القرآن نظرة مشفق — الدهر خان وحلت البأساء
عطفاً على الإسلام ان شعوبه — اجتيحت وقد لعبت بها الاعداء
عاثت به ايدي الطغاة فبدلت — أزياءه فتجاهل العلماء
مـا اضعف الاسلام فيما بيننا — عز النصير وضلت الآراء
حمل الزمان عليه حملة قادر — والقائمون بأمره ضعفاء
لو لم يكن ديناً قوياً لانمحت — آثاره مذ خانه الأمناء
لكنه باق على حالاته — رغم العدا مهما اليه اساءوا
بالفضل قد شهدت له اعداؤه — (والفضل ما شهدت به الاعداء)
دين لنبي محمد دين الهدى — والناس احرار لهم ما شاءوا

ويصب الشاعر ثورته على الاوضاع القائمة في ابيات ملتهبة ، ولا عجب ، فصالح يعمل في الحقل الوطني السري كبعض هؤلاء الفتية الذين اتخذوا من هذه المنابر في مثل هذه المناسبات الدينية سبيلا الى نشر الوعي وبث كراهية الاستعمار في نفوس الشعب .

يا امة هضم الزمان حقوقها — كم نبهتك بوعظك الحكماء
لعبت بك الايام لعب مقامر — فتنبأت بمصيرك الخبراء
ما نلت من احداث دهرك راحة — ومن الحوادث راحة وعناء
حظ الممالك والشعوب تقدم — لكن حظك شدة وعناء
فبأي حكم قد هويت ولم تزل — فيك الحياة وتحكم العقلاء
وبأي ذنب قد قتلت ولم يزل — فيك الشعور وتنطق الشعراء ؟
ومن العجائب ان تموت بلادنا — جهلا وفيها السادة العلماء !
يا قوم قد لعبت بكم اهواؤكم — ولحتفكم قادتكم الاهواء
نمتم وما نام الزمان وان من — طلب العلا ما لذه الاغفاء

خارت عزائمكم فمات شعوركم والله يفعل مـــا يرى ويشاء

* * *

ولا تقف ثورة الشاعر صالح عند حد ، وانـــه ليرمي المسلمين بالجبن وانهم خانوا رسالة الإسلام .

هل اوهن الإسلام الا اهله ما أيدوه لانهم جبناء
خانوا عهود الله لما استهجنوا سنن النبي فبدلوا ما شاءوا
عقدوا على هدم الشريعة وحيهم قد افسدوا ما اصلح الآباء

ان الشاعر يضرب هنا على الوتر الحساس وهو يشير الى خلا المساجـد من المصلين والى بيوت الدعارة التي فتحت علناً ممـا لم يكن يعرفه السودانيون من قبل الا في عهد هؤلاء الحاكمين الذين لا يولون الدين في حكمهم حقه من الاحترام فيسمحون بالدعارة العلنية وكان هذا شيئاً جديداً في المجتمع .. وانهـا لاثارة خطيرة بين قوم شديدي التدين والايمان .

ما للمساجد لا تؤم حزينة تبكي عليها السنة السمحاء
وديار فسق فتحت ابوابها علناً وبات يؤمها الابناء !
الله اكبر كم سعت ابناؤنا نحو النساء وكلنـا شهداء
يا معشر الاسلام عفواً لم تكن ترضى بهذا همة شماء

ويلتفت الشاعر الى علمائنا الاجلاء فيسألهم عن رسالتهم في نصرة الدين وينعي عليهم ضعفهم واستخذاءهم ..

اهل الشريعة ما الذي نرجوه قد عظم المصاب . بكم يطول رجاء
هـذي شريعتكم تئن لضعفها وجميعكم بدوائها خبراء

الدين دين الله . هذا قولكم لكن نسيتم انكم نصراء
يا رحمة الله العلي تنزلي فالمسلمون جميعهم ضعفاء

وفي ايمان عميق يأخذ الشاعر في هذا الابتهال والمناجاة :

يا صاحب الشرف الرفيع ومن له انتسب العلا والعزة القعساء
ماذا اقول وفيك كل فضيلة لهجت بها الكتاب والشعراء
نور بدا للعالمين به الهدى فتفننت في وصفه البلغاء
يا معجز الحكماء والبلغاء والفصحاء عفوا هكذا العلماء
بالحق قلت وانت اصدق قائل استشهدت بحديثك الحكماء
نطقت بك التوراة وهي قديمة واستبشرت بظهورك القدماء
وبك الحواريون قدماً بشروا وتواترت بمجيئك الانباء
بلغت ما اوحى اليك وما انثنيت عن الهدى اذ كذب السفهاء
ما خفت جباراً وكنت مؤيداً حتى علوت وبالخسارة باءوا
أعلنت دين الحق بالترغيب والترهيب فانقادت لك الآراء
صلى عليك الله ما ليل دجا او ما بدا فجر ولاح ضياء

قصة كتاب :

ويفتتن الناس بهذا الشعر الذي قيل في تلك الليلة الثائرة ، ويود كل منهم لو حصل على ذلك الشعر ليقتنيه كأنفس ما يقتني . ويحقق الفتى سليمان كشة ورفاقه الذين سجلوا الشعر خفية حين القائه فيخرجون هذه القصائد في كتيب صغير يسمونه (نسمات الربيع) .. واذا بهذه النسمات الرقاق اللطاف تنقلب بعد فترة قصيرة اعصاراً جائحاً يوقظ النوام في وادي النيل شماله وجنوبه ، ويزعزع الحكم الاجنبي الاستعماري زعزعة تسلبه ذلك الاطمئنان الذي كان ينعم به .

اما كيف جمعت هذه القصائد وكيف طبعت في كتاب خرج على الناس في

تلك الايام القاسية ؟ فإن لكل هذا قصة طريفة يحدثنا بها مخرج الكتاب سليمان كشة في مذكراته التي سجلها فى مجلة (مرآة السودان) فيقول :

كُنّا قد كوّنّا (جمعية الاتحاد السوداني السرية) ومن اغراض هذه الجمعية بث الثقافة ونشر التعليم .. وفي نوفمبر ١٩٢٣ كنا نحن اعضاء شعبة ام درمان من الجمعية قد قررنا ان تدخل الجمعية ميدان النشر وان نخصص لها اسم (الرابطة السودانية) وان يكون النشر باسمى لانى لست موظف حكومة . اما المسائل الفنية والمالية الخاصة بالنشر فكان مسئولا عنها يوسف افندى الريح الموظف بالمساحة (رحمه الله) لبعده عن الشبهات الحكومية ولعدم معرفة جل اعضاء الجمعية به ولثقتي فيه وتثنية صديقى عبيد حاج الامين

ووجدنا ان لو استطعنا فجمعنا كل القصائد التي تقـــال فى ليلة المـــولد هذا العام وطبعناها وبعناها لكانت الفائدة مزدوجة .. ولكن كيف الحصول على القصائد ؟

كان مشروطاً على الذين يريدون القاء قصائد في ليالي المولد ان يقدموا نصها مكتوباً للمراقبة ، ولا يسمح لاحدهم ان ينطق الا بما نال الموافقة . . وكان الجازفون يقدمون شيئاً ويقولون شيئاً ، ونحن فى حاجة الى ما يقولون . وقد كان من بين الاعضاء بأم درمان الذين حضروا بحث هذا الموضوع (القاضى) احمد بابكر بدرى فأشار علينا بطريقة كانت ناجحة وهي ان يكلف ستة من اعضاء الجمعية – وقدم نفسه ليرأس ثلاثة منهم – فيكتب كل منهم صدر كل بيت يقال ، كل على حدته ويكتب الثلاثة الآخرون العجز .

واختاروني رئيساً لاصحاب العجز فاخترت الزميلين الشيخ محمد العمرابى (عضو الشيوخ سابقاً) والمرحوم عبيد حاج الامين ،واختار احمد بابكر بدرى الاساتذة البدري الريح (رحمه الله) والمرحوم الامين على مدني وعلى ما اذكر

محمد عثمان عيسى (ابن رجاء) (وهو التوقيع الذي عرف به وهو يكتب في الحضارة) ونجحت الخطة ، هـؤلاء هم الفتية الذين شهدناهم متخفـين داخل السرادق وهم مكبون يسجلون خفية ما يسمعون) ولما قارنا وجمعنا كل ما كتب كونا مجموعة القصائد وهي كل ما قيل ، فنسخناها في كتاب صدرناه بهـذا الإهداء (الى كل من وضع لبنة فى تشييد صرح النهضة الادبيـة ، الى النفوس الطامحة للرقى والتقدم - الى القلوب النابضة بحب البلاد ، الى الضمائر الحية النقية، الى المخلصين الاوفياء ، الى القائمين بواجب الجامعة القومية والرابطة السودانية ، بل الى شباب البلاد الناهض وزهرته اليانعة ...).

بسم الله الرحمن الرحيم

(البلد الطيب يخرج نباته باذن الله) شعب عربي كريم يدين بـدين الاسلام الحنيف دين الاخاء والحرية والمساواة ، هطلت عليه من سماء العروبة قطـرات أنعشت روح الاجداد فازدهرت جنة ادبائه واينعت وهذه فاكهة من ثمارهـا قيلت فى الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الاول سنة ١٣٤٢هـ ذكرى للمـولد النبوى الشريف . وقد حدا بي الى جمعها ما حازته من استحسان فأحببت ألا يفوت النائين استنشاق هذه الزهور التي تتسرب رائحتها الى الافئدة والقـلوب فتعشقها والذكرى تبعث الذكرى .

ثم دفعت تلك الكراسة الى الزميل يوسف الريح فراجـع وضعها وبوبها وحملتها الى مطبعة حضارة السودان وكانت في عمارة (ديفز براين) والآن مقر (سودان شبنج) وبوجود المرحوم السيد حسين شريف اتفقت مـع رئيس المطبعة السيد سليمان منديل الصحافي المعروف - وكان موظفاً ومديراً للحضارة ومطبعتها - على طبع الف نسخة من تلك الرسالة (نسمات الربيـع) ودفعت القيمة واستلمت الايصال ، كل هذا وأصحاب القصائد على غير علم بما جرى ولا الحكومة ورقابتها تدرك شيئاً ، حتى اذا استلمنا الـبروفات للتصحيح رأى الأخـوان انه من الصحيح أن نجعل كل شاعر يصحح قصيدته حتى نأمن الخطأ .

وكانت مفاجأة للشعراء – وقابل كثير منهم حصولنا على قصيدته باندهاش وخشى بعضهم عواقب نشر أبيات قالها وكانت الرقابة قد حذفتها ، ولكني جعلتهم كلهم يصححون ويوقعون .. وكان الاستاذ منديل يحسب اني عرضتها على الرقابة ونلت تصديقاً بالنشر ، وكنت احسب أن لا رقابة على المطبوعات وان كانت ، فتلك من واجب المطبعة ولا شأن لي بها .

فلما تم الطبع والتجليد وأرسلت النسخة الاولى منه الى الرقابة نبه الرقيب المطبعة الى انني لم اعرض هذه القصائد على الرقابة ولم آخذ تصديقاً بالطبع وأن الغلطة ليست غلطة الناشر بل المطبعة اذ عليها ان تجد امضاء الرقيب وأمره بالنشر حتى تبدأ الطبع .

فلما حضرت لاستلام النسخ شرح لي المرحوم السيد حسين شريف الموقف وأفهمني ان الرقابة تعترض على بعض ابيات وترى عدم اذاعتها وانها على استعداد ان تشترى منك الألف نسخة بمائة جنيه وتحرقها او تعيد طبع الكتاب على نفقتها بعد حذف الابيات، ولقد رفضت نيابة عنك الحلين وأفهمت الرقيب انك استلمت مائة نسخة بأمري وتحملت ما يترتب على ذلك ، وانه يريدك فاذهب اليه وفاوضه بالتي هي احسن

وذهبت اليه فوجدته والحق يقال رجلا دمث الاخلاق، باش الوجه ، مهيب الطلعة ، ذلك هو صمويل عطية .. وقال لي ان هذه اول رسالة تطبعها مطبعة الحضاره ويتقدم بها شاب مثلك قليل الخبرة بقانون المطبوعات وقد سبق ان تحمل السيد حسين شريف مسؤولية بدء التوزيع ، فخذ هذه الورقة واستلم بقية نسخك .

وتسلمت الكتاب وجعلت ثمن النسخة منه عشرة قروش وأرسلناه الى اعضاء جمعية الاتحاد في الاقاليم فمنهم من باع النسخة بخمسة وعشرين قرشاً ومنهم من اشترى النسخة بجنيه وكان المبلغ الذى حصلناه أساساً صحيحاً لمالية جمعية

الاتحاد السودانى السرية .

ولما كانت صلتي الودية مع المرحوم الضابط على عبد اللطيف متينة ولكنه لم يكن عضواً فى الاتحاد معنا لفرط تطرفه ، فقد زارنى فى منزلي بام درمان عقب توزيع النسمات محتجاً ومنبهاً الى اللهجة التى سلكتها فى المقدمة اذ قلت (شعب عربى كريم) واراد هو ان اقول (شعب سودانى كريم) اذ لا فرق بين عربي وجنوبى ، فأكبرت ذاك منه وظللنا بعدها صديقين على اساس مصلحة السودان وان لم تجمعنا احدى الجمعيتين فلم أكن احد اعضاء اللواء الابيض ولم يكن هو أحد أعضاء الاتحاد السودانى ، وان كنت من اعضاء حلقة الاتصال بين الجمعيتين خصوصاً بعد نكبات اعضاء اللواء ...) .

هكذا ، وفي مثل هذه الاجواء خرج من المطبعة اول كتيب سودانى ، فى تلك الفترة ما قبل عام ١٩٢٤ اذا استثنينا (كتاب شعراء السودان) الذي أخرجه سعد ميخائيل وهو شاب مصرى كان يعمل موظفاً بمصلحة البوستة بالخرطوم وجمع فيه نماذج من شعر بعض الشعراء السودانيين .

جندي مجهول

أرباب محمد عثمان

ولم تكن العاصمة وحدها التى تحتفى بعيد ميلاد النبى فى كل عام ، فقد جاءت انباء الاقاليم بان الاحتفالات اقيمت فى حلفا وعطبرة ومدنى والابيض وكوستى وان الشباب الثائر قد هز اركان تلك المدن بأشعاره وخطبه الثائرة ، وينقل الينا ان من اشد خطباء الاقاليم حماساً وثورة ، زميلنا ارباب محمد عثمان ...

ونظر الى وقد قرأ فى وجهي التساؤل .. من يكون ارباب هذا ؟ وتأملني ملياً قبل ان يواصل حديثه .. لك ان تسأل من يكون ارباب ، ولو عشت في عهدنا لكان سؤالك كفراً ، ولكنها الحياة ، الخلود فيها اسطورة عذبة .. وقد كان ارباب ملء الاسماع والابصار ، فتى يتقد وطنية ويشتعل حماساً ، مـلأ صفحات الحضارة بمقالاته القيمة في الادب والاجتماع ، وكان ذا نظر ثاقب وقلم جرىء ، عف فيما يعـالج من المشاكل ، تأثر به الكثيرون والتفوا حـوله معجبين .

ولد فى جزيرة توتي ، اكمل تعليمه الابتدائى وعمل موظفاً فى السكة الحديد، ولكنه كان قارئاً نهماً ، كثير الاطلاع ، فبرز اسمه بين كتاب الحضارة وكان له مكان مرموق بين العاملين فى اذكاء الشعور الوطنى .

والقت به ظروف العمل الحكومي ذلك العام فى مدينة كوستى فالقى خطاباً

في سرادق الحكومة في الليلة الاخيرة للمولد كان مثار الاعجاب ، وضاق بـه مفتش المركز ومن حوله ذرعاً .. واخذ يتحين الفرص للانتقام منه .

وتوقف برهة من الحديث وعلت وجهه ابتسامة مشرقة ثم اتجه الي ليروي هذه النادرة .

وفي يوم من ايام تلك الفترة خف مفتش المركز بكوستي الى المدرسة الاولية في زيارة خاطفة ، وكان ناظرها الشيخ نجم الدين رحمة الله –رحمه الله، فاستقبله في احترام بالغ ، وطاف به فصول الدراسة ، وفي احداها اتجه المفتش للتلاميذ وسألهم قائلا :

من هو اعظم رجل في الدنيا اليوم ؟

وكان يترقب اجابة ترضي السياسة التي كانوا قد فرضوها على التعليم ، فقد حشدوا اذهان التلاميذ بأسماء كبار عظماء الانجليز ، وفرضوا على المعلمين ان يحفظ كل تلميذ عن ظهر قلب اسماء كبار رجال الحكم من الانجليز في السودان من حاكم السودان العام حتى مفتش المركز الذى هم فيه . وكان في خلد المفتش ان يأتي التلاميذ باسم احد هؤلاء الحاكمين ان لم ترتفع وتسمو عقلياتهم الصغيرة فتنطق باسم ملك الانجليز اجابة على ذلك السؤال .. وتحمس تلميذ صغير اخذ يلوح بأصبعه في حماس وهو يردد كعادة التلاميذ كلمة افندى .. افندي : افندي ! .. في قوة واصرار ، فاشار اليه ان يجيب .. وارتفع صوت التلميذ الصغير وهو يقول : سعد زغلول . !

وصعق الملتفون حول المفتش الذي احتقن وجهه من شدة الغضب ، وخرج من المدرسة ثائراً مهتاجاً ، والناظر يحاول ان يهدىء ثورته ويبرىء نفسه ومدرسيه من تهمة تعريف الولد بزغلول وان ذلك مما سمعه من وسطه ! . متعللا بان اسم سعد اصبح على كل لسان بعد ان اشعل ثورة مصر .. وعاد

المفتش الى مكتبه ليبرق بنقل الناظر والمدرسين في الحـــال . ولكن اياديه في المدينة تشير كلها الى ارباب محمد عثمان وانه يتصل بالناس سراً وبصغار الموظفين وغيرهم متحدثاً عن الثورة في مصر ووجوب مساندتها فى السودان وان يعمل الناس على محاربة الانجليز فلا يسمحوا لهم بالانفراد بحكمه ، ويسمع الكثير عن ارباب وتجمع له صحف الحضارة وفيها ما كتب ارباب ، لم يكن فيها شيء عن السياسة ولكنها تشف عن روح متمرد ثائر على المجتمع .. ويهم به . ولكن المقادير تكون اسرع فيصاب الفتى بالحمى السوداء ، وينقل الى الخرطوم وهو يهذى ، ويستقبله اصدقاؤه فى لهف ولوعة ولا يمهله المرض الا قليلاً ثم تنطوى تلك الصفحة النقية البيضاء ، ويطوى الثرى شبابـــه الغض وآماله العراض ويتبارى الادباء والشعراء يندبونه على صفحات الحضارة ويقولون .. ان ارباب سيكون من الخالدين .. ألم اقل لك ان الخلود في الحياة اسطورة عذبة ؟ انك لتسألني ولما يمض على موته سوى ثلث قرن من يكون ارباب ؟ فكيف اذا جد سير الدهر اكثر من هذا ؟

او كان صديقه وزميله توفيق احمد البكري الطالب آنذاك بكلية غردون وهو يبكى أربابًا على صفحات الحضارة (١٤/ ١٢ / ١٩٢١) بهذا الرثاء يظن ان الدهر سيجعل اثره بدداً فلا يعرفه احد بعد بضع سنين ؟ . لقـد بكى توفيق رفيقه على صفحات الحضارة وهو يصيح :

(وا أربابا‌ه .. ! رحمك الله ايها الجسم الطاهر والشباب النـاضر والروح المتقدة والرجل الحر .. مات ارباب وهو في شرخ شبابـــه وضحوة صباه . لم يقضى لبانة من عمره ولم يمهله الموت ليفيض علينا من سحره الحلال وقلمه السيال وادبه الجم ورأيه السديد – قضى وهو في العقد الثالث من عمره وكذلك عمر نواضر الازهـــار ، فهمد فى بيت موحش بعد ان لاح فى سماء الادب قمراً ونوراً وهاجاً .

فيا سنة مرت بإعداد نعشه		لأنت علينا أشأم السنوات
حطمت لنا سيفاً وعطلت منبراً		وأذويت روضاً ناضر الزهرات
وأطفأت نبراساً واشعلت انفساً		على جمرات الحزن منطويات

ورثاه مكاوى يعقوب بقصيدة صدرها بقوله :

(كان رحمه الله ركناً من اركان النهضة الحديثة . وقف نفسه ونفيسه فى سبيل ترقية الافكار واستنهاض الهمم وبث الروح الحية فى نفوس الناشئة حتى كاد يكون زعيماً لو لم تصبه المنية ...

أعدّ ذكره، لم يبق لى غير ذكره		يخفف عني ما تكنّ الجوانح
وليس بعينى من دموع أريقها		عليه وقد قامت عليه النوائح
فأنسانها قد غاض بالدم والحى		واطرافها بالنزف بيض قوارح
مضى فمضى فى اثره كل شيق		وشرخ شباب بالاماني طافح
فوا لهفى لو امهلته يد الردى		فيبلغ من دنياه ما هو طامح
وتنعم نفس حرة طالما شقت		بأمتها اذ داهمتها الفوادح
أأرباب قد غادرتنى غير منذر		ببين . فاين العهد اين التصافح ؟
أحين تعاهدنا على خير امة		وصإلاحها ، قد طوحتك الطوائح ؟
فيا لشباب غاله الموت مسرعاً		ويا نجم سعد غيبته الصفائح !
فمن يرتجى يوماً لكشف ملمة		وليث الحمى عن جانب الحى نازح
ومن يستضيء الناشئون بنوره		ووجه الهدى سهم الاسرة كالح
ومن يحمي عرض الدين من كل قاذف		ويدرأ عنه ما يرين التسامح
فيا وطنى لا زلت تشكو على المدى		من الثكل لا يبقى رشيد وطالح ؟
أيذهب أرباب ولم تبك فقده		فأي مصاب بعد ذا الرزء فادح ؟

نعم ايها الشاعر الباكى ، مضى ارباب ومضيتم بعده فوجاً بعد فوج ، جنوداً صادقين مخلصين مهدتم الطريق وعبدتموه لمن جاء بعدكم ، فـلا يقلقكم – وما فى حياتـكم الاخرى – قلق – ان لم يعد يذكركم الناس ..

فالخلود في الدنيا اسطورة عذبة ! .

الهاربون إلى مصر

فى خريف عام ١٩٢٣ شهدت محطة الخرطوم للسكة الحديد خمسة شبان يتجاذبون الحديث همساً ويرقبون ما حولهم فى حذر بالغ وقد انتبذوا مكاناً قصياً عن المسافرين والمودعين .

وأذن للقطار ان يتحرك فامتدت ايدى ثلاثة منهم تشد على ايدى الفتيين الآخرين في حرارة وتأثر ، ثم وثب الاخيران وثبة اللص الحذر الى عربة من عربات الدرجة الرابعة واندسا فى غمار المسافرين ، وتحرك بهما القطار متئداً وهو يبتعد شيئاً فشيئاً من محطة الخرطوم ثم اسرع منطلقاً وهو لا يعلم انه يحمل طلائع ثورة واستهلال عهد جديد !

وعاد الرفاق الثلاثة بعد ان تبعوا القطار بابصارهم حتى توارى ، لتقلهم «المعدية» لأم درمان ومن اعماق قلوبهم ينبعث دعاء حار ان يكلأ الله المسافرين فلا ينكشف امرهما حتى يبلغا غايتهما .

كانت كلية غردون تضم عدداً من الشباب المتوثب المؤمن برسالته نحو وطنه وكان لهم أثر بارز في المجتمع ، فهم يسهمون بخطبهم وأشعارهم في مختلف المناسبات كعيد ميلاد النبى وهجرته والعيد وغيرها من المناسبات الدينية التى كان يستغلها المثقفون ويحتشدون لها تنفيساً لما كانوا يلاقون من كبت وقهر .

وعرف النشاط السري السياسي طريقه الى اولئك الطلبة فى معقلهم العلمى ، فكان منهم فريق تنظمه جمعية الاتحاد السرية وكونوا حلقة سرية تجمعهم لهذا الغرض ، وكان منهم جماعة تؤيد (اللواء الابيض) وتشايع نشاطه وتغذى

مجتمعها بأفكاره ومبادئه

وضرب الانكليز منذ البداية ستاراً حديدياً حول اولئك الطلبة ، وكبتوا محاولاتهم للتفكير فى اى استزادة من العلم.. وكان التطلع للهجرة خارج السودان للحصول على مزيد من المعرفة والثقافة جريمة نكراء .

وفي هذا اليوم الذى أتحدث عنه ، فى خريف عام ١٩٢٣ وارهاصات ثورة ١٩٢٤ بدت تنذر بخطر جسيم – اخترق الستار الحديدي المضروب على كلية غردون لاول مرة، وانطلق القطار لا يلوي يحمل ذينك الطالبين المتخفيين صوب مصر مهد الثورة والثقافة ، وهما توفيق احمد البكرى وبشير عبد الرحمن .

وكان الشبان الثلاثة الذين شهدوا هذا البعث التاريخى لأول مرة في محطة الخرطوم ووقفوا يودعون الفتيين المغامرين، عبيد حاج امين «دينمو» الحركة الوطنية آنذاك وكان من مؤسسى جمعية الاتحاد السودانية التى كان من اهدافها ارسال الطلبة السودانيين خفية الى مصر للتزود من العلم ، ثم اشترك في تأسيس جمعية اللواء الابيض وقاد ثورتها المعروفة والاخران الاستاذ توفيق صالح جبريل الشاعر وعضو هذه الجمعية ايضاً ، وكان الثالث سليمان كشة احد مؤسسى جمعية الاتحاد.

وكان الحادث مفاجئاً لم يتوقعه الانجليز ولم يعرفوه فى حينه حتى تمكن الطالبان الهاربان من الوصول الى القاهرة واحتواهما منزل صاحب الفضيلة الشيخ محمد نور الحسن احد علماء السودان فى الازهر الشريف فأكرم وفادتهما .

وجن جنون الانجليز وغضبوا لهذا الحدث وحسبوا له الف حساب، فحاولوا بشتى الطرق ارجاع الطالبين. وكان للانجليز نفوذ قوي في مصر التي لم تستكمل استقلالها بعد ، فشنوا عليهما حرباً شعواء وسدوا امامهما منافذ الرزق والمعونة وحرموا على اخص اهلهما ارسال اى قدر من العون اليهما وضربوا عليهما رقابة صارمة ، فعاشا – ومن جاء بعدهما – على الكفاف وما دون الكفاف .

نعم ، لقد تحقق ما خافه الانجليز . فما زال القطار يحمل كل عطلة مدرسية للطلبة فوجاً بعد فوج متخفياً بشتى الطرق ، فمنهم من يكره على العــودة من الطريق بعد ان يلقى عليه القبض شأنه شأن عتاة المجرمين الذين يطاردهم القانون ولا غــرابة فقد عرف الانجليز منذ البداية ان هروب الشبان السودانيين لمصر وتلقيهم العلم في دورها انما يخلق منهم رجالا مناهضين لسياستهم عاملين لتفويض استعمارهم ، ولهذا فقد عاملوا الهاربين الى مصر معاملة المجرمين الخارجين على القانون . ولقي الأولون منهم عنتاً وارهاقاً لا سبيل الى تصويره فى هذه الكلمات .

ست سنوات منذ ان تحرك القطار بصاحبينا توفيق وبشير — وقد لحق بهما زميل ثالث سنعرف امره بعد حين . وهم يكافحون فى قاهرة المعز في سبيل العلم فما يكادون يجتازون عقبة حتى تستقبلهم عقبات ، والطريق طويل والزاد قليل والانجليز لهم بالمرصاد . !

وأرهق السعي وطول الطريق وبعد الغاية أحد الصاحبين ، توفيق احمد البكرى وكان منذ الكلية شاعراً مرهفاً غرداً ، فانبعث صوته شجياً ندياً يرسل للصحاب فى السودان هذا الشعر الباكى :

بكى فى الدجى والناس لايسمعونه وهل تنصت الأسماع للحسرات ؟
شكى ما يلاقيه . فنفس حزينة ووجدٌ رماه الدهر بالعثرات
تناوحه الآلام من كل جانب وتعتاده الأحزان مختلفات
فهوّم يسقيه الكرى من كؤوسه وطافت به الاحلام مشتجرات

ثم ماذا ، ماذا رأى هذا الغريب المهوم تطوف به الاحلام ؟

رأى ربعه المأهول بدله البلى واصبح قفراً موحش العرصات
كأن لم يكن مغنى الجمال وصورة تمثل حسناً رائع الجنبات

وصوح من بعد النضارة زهره   وغاض معين سائغ النشوات
تلمس اتراب الطفولة والهوى   فلم يبق منهم نافخ الجمرات
وأنصت تسترعيه نأمة صائح   صدى الوهم مردوداً بكل فلاة
وعاثت به أيدي الزمان وامعنت   فلم تبق حتى الخسة النكرات
فريق باكناف النوى غير آيب   وآخر جهد العيش والنكبات
وأين؟ واطباق الثرى حزن اعظما   غدون باطباق الثرى نخرات !
فهيهات ، لا أمر اللقا ميسر   ولا هالك في القافلين بآت
تبدل ذاك الروض اشواك حاطب   رأمسى مقر الرقط والحشرات
كأن لم يناج فيه الف متيم   يناغي حبيب الروح فى الخلوات
ولم تتلاق فيه كل وسيمة   بكل جميل فاتن القسمات

ويبلغ الأسى بالشاعر الذروة وهو يرى أباه على بعد المكان شيخاً فانياً تقوس ظهره يناجيه في حنو واشفاق ويرجو عودته – وليعذره علماء اللغة فى (عصاته) هذه :

رأى شيخه الفاني تقوس ظهره   يدب ويمشى ممسكاً « بعصاة »
يمد اليه كفه فى ضراعة   مهدلة الاطراف مرتعشات
بنى ..! لقد هد البعاد تجلدى   وامسيت شيخاً ابيض الشعرات
إلى ..! وحسبى منك ما قد لقيته   شقاء ووسواساً وطول شتات
تعال ! ، أتوفيقاً اصبت على النوى   او انك عان مخفق الرغبات
كفاك بعاداً تطلب المجد جاهداً   فكل نصيب فى الحياة مؤاتى
هلم ..! وحدثنى الذى قد لقيته   ولا تخف حتى اسوأ الهفوات

يا للشيخ الحزين الملتاع ، ويا للفتى الحالم المرتاع ، انه يمد يده فى غمرة احلامه ليصافح يدى والده المرتعشتين ولكن ...؟

فمد يميناً فى المنام محيياً   اباه .. ولكن بعد من فوات

تولى كطيف في بهاء وهالة تشع بنور رائع الخطوات

ثم ماذا ؟ لقد مضى طيف الشيخ في بهاء وهالة يشع منها نور رائع ؟ ويحاً للفتى . ! فهذه امانيه التي كابد في سبيلها ما كابد تلوح له اشبه بتماثيل الفن الاغريقي روعة وجمالاً ولكنها حطام متناثر ...

ولاحت اليه في السماء وهديه دمى كدمى الاغريق منكسرات
اهذى امانى التى قد اجدتها صياغة عقل راجح الخطرات ؟!
طويت شبابى ابدع النفس صوغها وكن فخاري في ربيع حياتي ؟
وارسل فى ليل الحوادث صرخة تراءت لها الاحلام مضطربات !

ثم ماذا ايها البلبل الغريد ..؟ ايها الفتى الذي يغالب ظالماً لم يعرف التاريخ عتى منه واقسى ... الاستعمار ..!

هو البلبل الغريد اصبح روضه وافنانه الخضراء جد موات
واقفر من عذب الاناشيد صوته واضحى صموتاً واهن النبرات
لقد كان كالسحر الحلال نظيمه جديث الهوى او نشوة النفحات
وكان اذا غنى وارسل صوته تهيب له الاوصال منتعشات
فيا ويحه من عابس متحسر كثير هموم النفس والعبرات
ويا شد ما اصمى العمى قلب شاعر رقيق الحواشى ساحر النفثات
سيشدو ، ولكن فى انين وترحة ويسلو ، ولكن خائر العزمات
ويملأ فى فجر الشبيبة روضة انين جريح دائم الزفرات

ولم ترع الاحلام وحدها لصيحة الشاعر ، وانما روع ايضا رفاقه في السودان اولئك الذين رأوا في هجرة توفيق ورفاقه الى مصر انتصاراً للاحرار ضد الاستعمار . ولقد افرعهم هذا الشعر الباكي الحزين فانطلقوا يتبارون فى تأسية الشاعر وبعث الامل في نفسه واحياء موات امانيه .

وهتف به اول الهاتفين صديقه وصفيه توفيق صالح جبريل ، ومن أحق منه بالإسراع الى تأسية الشاعر وهو احد اعمدة جمعية الاتحاد السرية التي عملت لدفع هؤلاء الطلبة الى مصر هاربين من قيود حكومة السودان ليتزودوا بسلاح العلم.؟ إذن فواجبه ان يشد من أزر الفتى فهو ورفاقه بمصر أمـــل من آمـال البلاد المرجوة .

وسماه (الاسد الباكى) وليس (البلبل النائح) فقال :

أرى الأسد الباكي يقلب طرفه وحيداً كئيب النفس فى الظلمات
وينصت كالمصغي لدقات قلبه ويرعى نجوماً لحن مضطربات
جيوش من الاحزان بدد شملها بسيف من الصبر الجميل مواتى

ويمضي ليقول ان بكاء الشاعر ليس عن ضعف وإنمـــا ليفرج من كربة ليغذ السير بعدها فى قوة وصلابة .

بكى الشاعر الباكي يفرج كربه وما أبلغ التعبير بالعـــبرات
ولم يبك عن ضعف فإن بكاءه حنين إلى مجد تعـــثر آتى

وينبرى له شاعر آخر هو الاستاذ محمد أحمد المحجوب وكان آنذاك مهندساً حديث عهد بالتخريج ، ولم يلتحق بكلية الحقوق بعد ، فيقول :

يا شاعراً تبكي ومجـدك آتي أسقيتنى خمراً من العـــبرات
أرسلت دمعك من فؤادك فائضاً فجرت دموع الصحب منهمرات

ويعمل على بعث الأمل جديداً نضراً فى نفس الشاعر الباكى :

لا تحسب العليـاء سهلا نيلها او أنها تأتي مـــع الرغبات
وإذا تحطمت الدمى من شاعر سيعيدهـا المثـال مكتملات

فأعد لمتحفك الجميـــل جماله   وأعد بربك صادق العزمات

ويتناوله أكثر من شاعر في مثل هذا المعنى تزخر بقصائدهم مجلة النهضة السودانية لصاحبها المرحوم محمد عباس ابو الريش ، وصاحبنا فى القاهرة تهــتز مشاعره لهذا الوفاء . وتفيض نفسه بهذه الأحاسيس النبيلة ويمسك بقلمه ليبعث الى رفاقه بهذه الابيات :

مَراحك ، لو أنّ الحياة رخيةٌ   وكأسك ، لو ان الزمان يعينُ
تداويتُ بالسلوان حتى مججته   وأبتُ وفى قلبى اسى وشجونُ
سواء لديّ الموت فى دار غربةٍ   او انى فى ارض (الدويم) دفين ا

ويذكر حنينه إلى وطنه والقيود التي تقعد به عن لقياه ، فقد حرم الإنجليز على أولئك الطلبة الهاربين لمصر العودة لبلادهم إطلاقاً .. تشفياً وانتقاماً وسداً للطريق أمام غيرهم :

هو الشاعر الباكى يردد صوته   أنيناً ، وفاضت من شجاه عيون
ولولا جناح هيض من جنباته   لآب وجنتــه هنـــاك غصون
يهمّ فلا يقوى ، ويرتد هابطاً   الى الارض فى قيد الشقاء سجين

ثم ينثنى فيذكر هؤلاء الرفاق أو هذه البلابل التى تجاوبت مع أغاريده :

وجاوبه من كل خضراء شاعر   بلابل دوح جَرْسهن رنـــين
فأرهف سمعيه لهنّ وهاجـــه   دعاء طيور مثلـــج ورصين
وواسينه حتى أهـــاب لرشده   فيالـــك طير بالوفـــاء يدين

ويؤكد لاولئك الرفاق الذين ودعوه خلسة فى محطة الخرطوم والذين وضعوا وصحبه آمالهم أن يكونوا قوة من القوى الوطنية الواعية لتحرير البلاد . انه ما زال على العهد ثابتاً أميناً :

وليس وإن مالت بأعطافنا النوى يفرقنا يوم الحفاظ خئون
وإني على العهد القديم لحافظ وإني عليه ثابت وامين

قال صاحبي :

حقبة من العمر ، بقيت أطيافها الرائعة تعمر قلب كل من عاشها تؤنس حاضره الموحش بشذا عطرها العبق .

حمداً لله ... ان ابناءنا يشقون طريقهم للعلم انى شاءوا ، تفتحت لهم دوره فى مشارق الارض ومغاربها دون حسيب او رقيب .. وانهم اذ ينعمون بهذا عليهم ان يذكروا زملاءهم الرواد الاوائل الذين كانوا اول من حطم السد الذى ضربه الإنجليز حول التعليم فلا ينفذ منه احد الى مشارف النور فى اى بلد مستنير الا لقي من الرهق والتضييق ما جعل اقرب اهليهم يعجزون من ان يمدوا لهم بضعة قروش تسد مسغبتهم وهم قيد ايام منهم .. وحرم عليهم ان يعودوا الى أوطانهم ليروا أهلهم وذويهم فكان النفي والتشريد ضريبة على كل من يغادر السودان ليغترف من مناهل العلم في القاهرة .

ولو لم يفعل الاستعمار إلا هذا لكان وحده كافياً لإدانته بجريمة فرض الجهل والتأخر عنوة على هذا الشعب .

ولكن النفي والتشريد لم يرهبا شباب ذلك الجيل فتسللوا خفية مفتنين في التخفي .

ولنعد الى مذكرات أحد اولئك الطلبة المتسللين، الاستاذ الدرديري احمد اسماعيل الذى لحق بزميليه الهاربين بعد فترة يسيرة وقد ظن الإنجليز أن ما قاموا به من ارهاب في جو الطلبة وما أحاطوا به الطالبين الهاربين في مصر من عنت وتضييق سيسد الثغرة ، فكان هروب الطالب الدرديري احمد اسماعيل عقب

هذه الإجراءات لطمة قاسية جعلتهم يفكرون تفكيراً جدياً في فتح آفاق جديدة من التعليم في بعثات ينظمونها الى بيروت ، وقبل ان نتحدث عن بعثات بيروت ، نذكر طرفاً من مذكرات الدرديري لانها تعطي صورة صادقة لما كان يحدث في اجواء الطلبة في تلك الفترة :

(وفي سنة ١٩٢٢ او ما قبلها بدأت تباشير حركة وطنية للنهوض بالسودان وكانت تعمل في الخفاء .. وشجع رواد تلك الحركة الميمونة الزميلين المرحوم بشير عبد الرحمن وتوفيق احمد البكري بالهجرة الى مصر لطلب العلم فذهبا ، وكانا الرائدين اذ بعد عطلة الصيف او الخريف في سنة ١٩٢٣ عاد الطلبة من مدنهم وقراهم وسمعنا بهجرة الزميلين . ومنذ تلك اللحظة قررت ان ألحق بهما – وجاء امتحان النقل من السنة الثانية للثالثة وكنت أول فرقتي ، وجاء موعد اختيار الدفعة الثانية لمدرسة كتشنر الطبية فوقع عليّ الاختيار فرفضت لأني كنت معتزماً الهجرة (ولأوفر) مكاناً لمن كانوا يريدون فأصر المستر بودال فرضخت مؤقتاً .

ولما جاءت عطلة صيف ١٩٢٤ بدأت تباشير الحركة الوطنية بقيادة جمعية اللواء الابيض وقامت اول مظاهرة بأم درمان فسمعت بالنبأ وعدت من بلدي في الحال بنية السفر الى مصر او الاتصال بإخواننا الطلبة في العاصمة المثلثة فاتصلت أولاً بالاخوين المرحومين عبيد الحاج الامين وعرفات محمد عبد الله من جمعية اللواء الابيض وكان همزة الوصل الاخ والزميل صالح باخريبة .

وكتب المرحوم عبيد حاج الأمين لمصر للزميلين بشير وتوفيق فكانت اجابتهما مخيبة للآمال لانهما كانا يعيشان على الكفاف ويجاهدان جهاد الابطال للدراسة ليلاً بأمعاء خالية – فاتجه الى ان أبقى وان ننظم حركات اضرابات في الكلية كجزء من اللواء الابيض فاتصلت في ذلك الوقت بالطلبة الذين بقسم المهندسين ويقيمون بالكلية للتمرين مدة الصيف – وأذكر ان لم تخني الذاكرة – منهم الاخوين علي

نور وعمر الريح ، وأذكر اني اتفقت مع المهندس على نور على ان نكون قسما للواء الابيض ، وكنت اجتمع ايضاً بالاخ المرحوم محمد عباس أبو الريش مؤسس مكتبة النهضة السودانية والمرحوم ادريس عبد الحي الطالب بالمدرسة الحربية آنذاك ليقوم كل منا بدوره فى اشعال روح الثورة فى مدرسته .

وفي ذات يوم وعلى حين غرة ذهب الصديق صالح باخريبة الى منزل العم مصطفى كشة بحثاً عني ، وعلمت بذلك فذهبت اليه في منزله فناولني ثلاثة جنيهات على انها من المرحوم الزعيم عبيد الحاج الامين ومن مال اللواء الابيض لأقوم الى مصر في اليوم التالي وكان يوم الاربعاء في آخر يوليو سنة ١٩٢٤ على ان يقوم المرحوم عرفات محمد عبد الله بأكسبريس الجمعة ونلتقى فى الشلال ، فاستقللت الدرجة الرابعة ووصلت الشلال واقمت في « الجبل » بقهوة أفترش الثرى ليلتين كاملتين ولم يبق معي غير ٧٥ قرشاً .

وجاء المرحوم عرفات وذهبنا الى مصر فكنت ثالث طالب ، والتحقنا ثلاثتنا بمدرسة فؤاد الاول الثانوية في اكتوبر سنة ١٩٢٤ - وفى ١٨ نوفمبر ١٩٢٤ قتل السردار السير لى ستاك في القاهرة فألقى القبض علينا ، وكان ان تبع ذلك انقطاع اخبار السودان عنا ، وكان هناك ما يشبه الستار الحديدي ، وكان التعب ، وكانت الحياة الشاقة اذ كان اكثر الناس عطفاً علينا يبتعد عنا لمضايقة البوليس السرى .

وفي سنة ١٩٢٦ كان الدكتور علي ماهر وزيراً للمعارف فالتمس من صديقه وزير الاوقاف فى ذلك الوقت محمد علي علوبة باشا عمل مساعدة لنا فكان ان قرر لكل منا ٧٥ قرشاً في الشهر كنا ندفعها اجرة (الشقة) التي كنا نعيش فيها (رقم ١٤ حارة الجداوي بباب الخلق) وكانت هذه الشقة محجاً لكل السودانيين يتتبعون اخبار السودان وتكتب المقالات هنالك من المرحوم عرفات والمرحوم فرغلى ، وتوفيق وبشير وكل من يدلى بدلوه فى اذكاء نار الحركة الوطنية بقيادة

وكيل جمعية اللواء الابيض بمصر الاستاذ عرفات محمد عبد الله .

ولا ننسى فضل اخواننا المصريين من ضباط الجيش الذين خدموا في السودان وساهموا في مساعدتنا وفي مقدمتهم المرحوم الصاغ محمد عوض واللواء احمد الصاوي والاميرالاي علي علي موسى وغيرهم . وكان الشيخ محمد نور الحسن خير عون لنا اذا لم نأ كل اللحم او نأ كل اكلا مغذيا الا حينما يعود في الاجازة ليسكن معنا ، وكان غذاؤنا (عيش وطعمية وسلطة لبن او طحينية) .

وفي اكتوبر سنة ١٩٢٧ تكرم طيب الذكر المرحوم الامير عمر طوسون بعمل اعانات شهرية لنا نحن الثلاثة (توفيق وبشير وكاتب هذه السطور الذي كان يتقاضى اربعة جنيهات بجانب الكساوي التي كانت تقوم بها دائرة سموه في بداية كل عام دراسي) .

وفي هذا الجو القاسي الذي كان يعيش فيه الرواد انبعث ذلك الشعر الباكي من توفيق احمد البكري :

بكى في الدجى والناس لا يسمعونه   وهل تنصت الاسماع الحسرات ؟

وبعد فترة صمت التفت الي يقول :

وان كان توفيق قد عطر احواءنا بمثل هذا الشعر الحي ، فان رفيقه بشير عبد الرحمن كان يبعث الى ارض الوطن ألواناً من الغناء الشجي تحمل لوعة الغريب وشجو المستهام الذي يرى على البعد طيوف احبابه في ارض « التاكا » حيث مهد طفولته ومسرح اهواء شبابه ! ، ولئن اشجت « الدويم » توفيقاً في غربته ، فقد الهمت « التاكا » بشيراً هذا الغناء الشجي الذي ترنم به الناس في كل بقعة من السودان :

مين مثلك في علاكا   يا الساكن جبال التاكا

دا سنا البدر من سناكا — وجنى النحل من لماكا
العواذل يوم لقاكا — ماتوا بالهم من دراكا..
انا الفريد في وفاكا — وانت الوحيد في جفاكا

★ ★ ★

جالس فى عروشه — هزمتنى جيوشه
الله بيني وبينه — دا السحر من عينه
والقمر فى جبينه — دا السلاح رموشه

★ ★ ★

العفافة انيسه — ما في مطمع لجليسه
غير عفافه وسماع نغم حديثه

★ ★ ★

اذ تمنع بدلاله — وتحصن بجماله
وصدق الواشي ومقاله — والبشائر يوم وصاله
سهران والنجوم غابت خلتني — وسواجع الروض ابكاها حزنى
يا كروان هل خففت عني — انا الولهان وانت الصدى لحزنى!

ودمعت عيناه وهو يشدو بالاغنية ومرت امامنا صور افواج من الطلبة يهرعون الى القاهرة فتحتضنهم ، ويكمل الرعيل الاول دراسته وفى مقدمته توفيق وبشير ، وابواب وطنهم موصدة في وجوههم فترة طويلة ، ويتخرج بشير مهندساً زراعيا وينقل الى اسوان قريباً من حدود موطنه ، ولكن المنية تعاجله ولم تكتحل عيناه برؤية وطنه ولم يشف غليل وجده بين جبال التاكا !

ويبكيه صديقه وصفيه توفيق صالح جبريل ، وكما ودعه خفية عند الخرطوم ، والقطار يسرع به ورفيقه نحو القاهرة ، يودعه اليوم ملتاعاً وقد اسرعت به المقادير الى عالم الخلود بهذا الشعر :

ما بين مسرى غدرة ورواح ذهب « البشير » لعالم الارواح
عهد توغل فى السنين وما انمحى كبقية من ومضة المصباح !
قلبي المعذب دائم خفقانه ابداً يرف كعالق بجناح
لام العواذل عزلتى عن صحبتى رهداً ، وصدى حسرتى بالراح !
والبعد عن صوت الغوانى فى الدجى لسماع صوت البلبل الصداح
ما لى اخى غير الرثاء تبثه انفاسى الحرى وفيض جراحى
ان تصغ (اسوان) اتاها سحرة اسوان من « كسلا » بصوت نواح
وارتد « للقاش » الحزين ميمما فى (التاكة) السمراء كل نواحي
توفيق ؟ اين بشير كم ضحيتما ومنحتما السودان خير كفاح
هاجرتما والامن غير ميسر بربوعنا ، والعلم غير متاح
لا تبتئس ان المآتم ان تقس متأملا لشبيهة الافراح
اقدم اخى نذكر معاً ما قدمت ايديكما للشعب من اصلاح
(هدلستن)[1] ان زال او (روبتسن)[2] ولى مليئاً بالحقود وقاح
ولئن هوى (هاو) أيأتى بعده يا ليت شعرى خاتم الاتراح ؟
أعلمتما ما كان بعدكما وما فعلت باهلينا يد السفاح ؟!
اودى (باربعة)[3] صدور فى الوغى يا ويحهم القوا صدور رماح :
فى حفرة من بعد ان اصلوهموا ناراً توقد فى النهار الضاحى !

---

(١) هدلستون كان حاكما عاما للسودان فى عهد الاستعمار ومثله هاو .

(٢) وربرتسون كان سكرتيراً ادارياً .

(٣) الضباط الاربعة الذين قتلوا فى معركة نوفمبر ٢٤ ودفنوا فى حفرة واحدة .

ومضوا (بسر الختم)[1] بعد صفيه رب (اللواء الابيض)[2] الوضاح
للسجن ، للتشريد ، لا لجريرة ما الذود عن اوطانهم بجناح
ان خلد التاريخ ذكر بطولة للعاملين فما له من ماحو
اذكر (بشير) اخاك اذ جزت البلى واذا شجاك تبلج الاصباح
آهات محزون اليك تزفها نفحات ريحان ونشر اقاح
تغشاك في وادي الخلود وانـ ـت منطلق بآفاق دضئن فساح

(١) سر الختم صالح جبريل شقيق الشاعر واحد الضباط الثوار عام ٢٤ .
(٢) علي عبد اللطيف ،

العائدون من بيروت

ولم يجد الانجليز بداً من ان يعملوا شيئاً لصد هذا التيار الجديد نحو مصر فاخذوا يقلبون وجوه الرأي وقد ادركوا ان السودانيين لن يظلوا بعد هذا محبوسين في القمقم، فرأوا ان يوفدوا بعض المدرسين الشبان الى الجامعة الامريكية في بيروت .

وقد حسبوا ان بيروت بعيدة عن هذا الشعور الوطني الملتهب الذي اخذ يغلي في مصر ضد الانجليز .

واختاروا اول بعثة من ثلاثة اساتذة هم السادة عبد الفتاح المغربي ومحجوب الضوي وعبيد عبد النور .

وغادروا السودان في شهر سبتمبر عام ١٩٢٤ وانتظموا في دراستهم بالجامعة الاميركية في بيروت في شهر اكتوبر من ذلك العام. وفي شهر سبتمبر عام١٩٢٨ عاد الاساتذة الثلاثة بعد ان حصل كل منهم على درجة جامعية من هناك .

ولا اكتمك فقد هزتنا الفرحة لعودتهم ، فقد كنا متعطشين لارتياد مناهل العلم، وكانت عودتهم حدثاًجديداً في مجتمعنا من حقنا ان نحتفي به. وسأحدثك عن الحفل الذي اقمناه والشعر الذي رويناه.. ولكن لك ان تسجل للتاريخ ان بعثات بيروت التي بدأت عام ١٩٢٤ وانتهى امرها عام ١٩٣٤ ، لم يزد عدد الذين اوفدهم الانجليز طوال هذه العشر سنوات عن ١٤ مدرساً فقط ! ولك ان تقدر اي تقتير كان مفروضاً علينا في اجواء العلم .

وهناك طالبان فقط سمح لهما بعد اخذ ورد ان يتلقيا تعليمهما في جامعة بيروت على نفقة اهلهما ، وهما المغفور له الأديب المعروف معاوية محمد نور ، والأستاذ عبدالله عشري الصديق ...

قال محدثي :

وفي مساء يوم الجمعة ١٤ سبتمبر عام ١٩٢٨ توجهت وفود الخريجين صوب ناديهم العتيد ليحتفوا بالعائدين من بيروت ،وبعد ان تكامل عقدهم ، وكان - كما هي العادة - يتوسطه كبار رجالات الانجليزوعلى رأسهم المستريودال (١)الذي لا يجهله احد من ابناء جيلنا ولا يجهل مدى اثره على المعارف وحكومة السودان في كل ما يتصل بالتعليم ومشاريعه .

وبعد ان تحدث بعض الخطباء كالسيد عبد الكريم محمد ناظر مدرسة الخرطوم الابتدائية وامين افندي الحسن المدرس بالكلية وهو من الأساتذة السوريين ، جاء دور الشعراء ، فكان اولهم الشاعر المهندس عبد الرحمن شوقي الذي استهل قصيدته بقوله :

انا مضنى بهوى هندٍ وَصبْ ... وهوى هند على القلب وصبْ
لا تلمني في هـــواها إنـــه ... ليس يدري الحب إلا من أحب

وهو مطلع لا يستفزنا ولا يثير مشاعرنا فنتابعه في صمت وهو يقول :

انمـــا هند بلادي لا ارى ... غيرها خــلا ولا حباً يحب !

وهنا تعترينا نشوة فنصفق طويلاً . فقد كان كل شيء عن حب البلادوالفداء للوطن يهزنا ويشجينا ... ثم يخاطب الأساتذة الثلاثة العائدين فيقول :

جئتموا كالنصر والفتح معاً ... لتشيدوا آس اركان الأدب

---

(١) كان مديراً لكلية غردون القديمة ومن دهاة المستعمرين .

جبتم الآفاق في نيل العـــلا   وحلبتم شطر دهرى فاحتلب
بـكم طارت دمشق فرحـاً   وسروراً بـكم اهتزت حلب
وبلبنان تغنى بلبـل   وفروع الأرز مالت من طرب
وسرت في النيل من منبعه   فرحة الظافر تجري للمصب !
أنتم الفجرُ بـــدا متشحاً   ثوبه الباهي الموشى بالذهب
انتم نصر بـلادي هـــذه   لا يحوز النصر الا من غلب
فادركوا شعباً قضى من جهله   جـــاء يبكي واليكم ينتحب
علموه العـــلم احيوه بـــه   فهو منـــكم واليكم ينتسب

ونتطلع الى المنصة بعده لنرى الأستاذ الشيخ عبد الله عبد الرحمن الشاعر المعروف ، وهو يجيء بلون جديد من التكريم والإطراء انه يقول للمحتفى بهم انه سيدخر ثناءه وتقديره حتى يرى ما يؤدون من اعمال نافعة لبلادهم ، ويستهل شعره قائلاً :

هاجت وفادتكم في القلب اشجانا   وعاودتنا بهذا الحفل ذكرانا
اخوان بيروت حيا الله مقدمكم   وكنتم يوم نغشى الهول اعوانا
عدتم كما عادت الأجسام صحتها   فهز من عطفه السودان جذلانا
(نادي المدارس) حيتكم معاشره   واوطنتكم مع الألباب اوطانا
املي عليّ اياب الأكرمين بـــه   شعراً يقوم على الإخلاص برهانا

ثم يواجههم بأنه سيحتفظ لنفسه بنطق الحكم لهم او عليهم حتى يرى لهم (في الخير رجحانا) ونحن نصفق له عقب كل بيت :

قد كرموكم فقالوا العلم منبثق   من دركم فنشقنا منه ريحانا
اما انا فبنطق الحـكم محتفظ   حتى ارى لـكم في الخير رجحانا !
ولا اقول لـكم مرحى مجاملة   حتى تشيدوا من الأعمال بنيانا !
ها قد حصلتم على العلم النفيس فهل   احرزتمو خلقاً نعلو به شانا ؟

وهل افدتم من الشامى همته   وهى التى فرعت في الجو كيوانا
فعصركم يا شباب الحى ذو ولع   بكل ندب ذكى القلب يقظانا

ثم يقول اخيراً :

ان كرموكم فمما يأملون بكم   علماً ينير من الأوطان اذهانا
حتى اذا قمتمو بالواجبات لها   قلدتكم من رصين الشعر نيشانا

وفى خطى قصيرة متلاحقة يهرع الى المنصة شاعر شاب خفيف الظل ، عذب الشعر يعمد الى السهل الممتنع منه ويلطفه بالدعابة المحببة ،نستقبله بتصفيق حاد وفى القاء جذاب ينشدنا الشاعر المهندس على نور الذى عرف فيما بعد بشاعر المؤتمر :

هزّ اليراع وألف   واذا عرفت فعرف
والعلم ليس كمثله   ما يقتنى ، فتثقف
واذا بدأت الدرس لا   تتركه حتى تكتفي
وارحل الى طلب العلو   م الى السماك وطوف
فإذا وصلت الى ذرا   ذاك المقام الأشرف
وعلمت من سر التقد   م ما استبان وما خفى
فاعمل على رفع البلا   د وكن بها البر الوفى
واذا تخلف مقعد   عنها فلا تتخلف
ان العلوم حياتنا   وبها نشيد ونحتفي
وارى (المعارف) افلحت   اذ اوفدت من تصطفي
هذا (عبيد) الم يكن   مثلا الى من يقتفى ؟
هي رقة فى طبعه   جاءت بغير تكلف !
(محجوب (تايبست) العلو   م عرفت ام لم تعرف !
مسك الدفاتر باعتناء   مسكه للمصحف !

ويضج الحاضرون بالضحك لهذه الدعابات ، ويختتم الشاعر قصيدته بالرجاء الى رجال الانجليز ومن السير جون (مفي) حاكم السودان آنذاك ان يرسلوا في البعثات اكثر من خمسة واربعين ويبدو ان هذ الرقم كان امنية غالية ! وهو كذلك فى عين ذلك العهد .. ويا له من عهد !

انا لنطلب من رجال الانجليز ومن (مفى)
ان يرسلوا للعلم خمسة واربعين ونيف !

ويهز الشعر المستر (يودال) فيقف ليؤكد انهم سيوفدون قريباً جيشاً ضخماً لبيروت ... !

وينفض الحفل وفي ذهننا هذا الوعد بالعدد الضخم الموعود ... ويتكشف الوعد عن ثلاثة آخرين . ! لا خمسة واربعين ونيف كما امل الشاعر فى الانجليز (ومفي) ..!

ويسبح محدثي قليلا فى تأملاته وترتسم على وجهه ابتسامة تنقلب الى ضحكة عذبة صافية ثم انبرى يواصل حديثه وما زالت الابتسامة تعلو وجهه .

قال : تذكرت ونحن فى ذات النادى في يوم من عام ١٩٢٧ جئنا نودع البعثة لبيروت وكانوا ثلاثة كراماً ، وهم السيد اسماعيل الأزهري - اول رئيس وزارة سودانية فيما بعد - والمرحومان محمد عثمان ميرغنى الذي صار عميداً لكلية التجارة بأم درمان ، وحمزة احمد الذي توفى وهو فى شرخ الصبا ولم يكمل البعثة.

وكان رجال البعثة الأولى قبل ايفادهم لبيروت يرتدون الجبة والقفطان وعلى رؤوسهم العمم والطرابيش المغربية ، وفي بيروت ألقوا بهذا الزي جانباً وارتدوا الزي الافرنجى وعادوا به للسودان فكانوا مصدر التعلق والتندر ..!

وفي هذا اليوم ونحن نودع البعثة الثانية وقد توسط الحفل الأستاذ اسماعيل

الأزهري بجبته وطربوشه المغربي ، داعبه الشاعر عبدالله عبد الرحمن في هذا الحفل قائلا :

المرء في الدنيا هلال له — في كل يوم رحلة نائيه
ما كل من فارقنا نال من — فؤادنا المنزلة الساميه
لكن (اسماعيل) تهفو له — قلوبنا من غير ما ناحيه
ما كدر الأصحاب يوماً ولا — طباعـــه بجفوة جافيه

ويتحدث عن الزي الجديد في جزع ويخاف ان يصيب إسماعيل ما اصاب رفاقه الأول فيترك الجبة جانباً ليرتدي البدلة فيقول :

يا ليت شعري ان اتى عائداً — وقد رمى القفطان زاويه ؟
يظلّ في بذلته رافـــلا — ام يستعيد الجبة الزاهيه ؟
ارجعْ لمـا كنت فيما مضى — شيخاً له اثوابه الضافية
بيروت تستقبل شباننا — فليهنأوا بالبلدة الراقية !
وليهنأوا بالعلم في معهد — قطوفه للمجتني دانيه

ثم يودع افراد البعثة الثلاثة مؤملا ان تتلوها بعثة اخرى :

في ذمة الله وفي حفظه — ثلاثـة متلوة تاليه
تالية لمن خلا قبلها — متلوة بالبعثة الآتيه
فيا الخابيروت انت الذي — منه البلاد نفعها راجيه
فنوهوا بالشام من ذكرنا — فإنـكم (حمادنا الراويه)

ولكن فرحتنا بهذه البعثة لا تكمل اذ تختطف المنية احد اركانها الثلاثة ، فتى في مقتبل العمر ومن خيرة المدرسين الذين كان يرجى منهم الكثير ... الأستاذ حمزه احمد ، ترى ماذا لو امتدت به الأيام ؟

وتبكيه البلاد وتمتلىء اعمدة (الحضارة) بمراثيه ، وأذكر من بينها هذه المقطوعة التي صورت ابلغ تصوير مدى مـــا احسه المجتمع المثقف من حسرة على ذلك الأستاذ ، وهي للشاعر حسن عمر الأزهري الذي يعرفه الأدباء (بابن عمر) :

اذا مدح الناس امرءاً بعد موته — فحمزة مشكور الحياة حمدها
ومن يفتقد ميتاً لمـــال فانما — فقدنا به الآمال اورق عودها
تملك اعداد النجوم فضائلاً — وقد عاش اياماً قليلا عديدها
يجود بمـــا ضنت به كف حاتم — ومن يوق شح النفس فهو سعيدها
يهذب من هذي النفوس خلائقاً — كما هذب الأشعار قدماً لبيدها
بكت حمزة منا عيون قبائل — بأعين ثكلى بان عنها وحيدها
لأنك في السودان انسان عينه — وانك من هذي الحياة وريدها
سقى تربة ضمتك انواء ثرة — ولا برحت رحمات ربي تجودها

واكرهتنا الذكرى الحزينة لقطع حديثنا برهة ، ولكن صديقي لا يلبث ان يرن صوته كأنه يثأر لنفسه من الماضي . . .

تأمل . . . كان الإنجليز يخشون طلب العلم في القاهرة حتى لا تعدي فتية السودان ثورة مصر ، وحسبوا ان في بيروت النجاة ، فسمحوا لنا بأن نختفي ببعثاتنا الى جامعتها بعد ان تولوا الاختيار وحدهم ، ونسوا ان السودانيين كلهم تنتظمهم عقيدة واحـدة ، فما كاد يجد الجد وتحين ساعة الخـلاص حتى واجهوهم بقوة وصلابة ، ولم يكن ابناء بيروت بأقل قدراً في الكفاح من ابناء القاهرة ، ولا اقل منها ، من لم يذهب لبيروت او القاهرة . وحسبك ان تعلم ان من ابناء بيروت السيد اسماعيل الازهري .

قلت لهذا قال العرب قديماً :

(من مأمنه يؤتى الحذر) !

وضحكنا معاً . . .

بينَ الجدِّ واللهو

- ١ -

(... ويحَك ! ، من أنبأك بخبرها وأي شرير دفع بك لتنكأ جرحاً ابرأه الزمن ؟ قلت : كلنا يعرف امرها فانها لم تكن كالفتيات العابثات .. لقد كانت دنيـــا وحدها جمالاً وذكاء ورقة وعذوبة ، ونعلم ان دارها كانت ملتقى الادباء والشعراء والفنانين ... تشجي وتروي وتلهم !

كانت دارها حلقة من حلقات الفن والأدب ولولا ان قعدت بها قلة الثقافــة وفقدان التعليم لما كان شأنها باليسير في تاريخ ادبائنا وفنانينا ... وضحك معجباً كأنما زهاه ثنائي على صاحبته، وصمت هنيهة كأنما يعبر فى هذه اللحظات عشرات السنين ليعود القهقرى الى مسرح الصبا وفتنة الشباب حيث كانوا يعقــدون تلك الجلسات الحلوة الصاخبة في دار (فوز) ! — هكذا كانوا يسمونهـــا — تلك الجلسات التى الهمتهم الشعر والفن كأحسن ما يكونان فى ذلك العهد .

والتفت الى يقول : بلى لقد كانت فوز فوق ما سمعت وعلمت ، تسمــع الى الشعر والنقاش الادبى فلا يخطئها الفهم وتشارك فى ذلك بذكائها الفطرى اللماح .

وماذا على لو حدثتك عن جلسات وان كان طابعها اللهو الا انها اثمرت أدباً وفنا وهيأت نفوساً للعمل الجاد الشاق في سبيل هذه البلاد ؟ ، فلقد كان قــوام تلك الجلسات العذبة الخصبة شباب متوثب ، بدأ يصارع الاستعمار مع انعــدام التكافؤ في وقت لا يدور فيه الحديث عن الاستعمار الا همساً ...

قلت : من اجل هذا جئت لأستمع اليـك فقل ... فاعتـــدل في جلسته وارهفت اذني لأسمع :

هـا نحن داخل الدار التي نسقت بيد فنان صناع ، واي يد ابرع من يد فوز في التجميل والتنسيق ... وهذه فوز تطالعنا بوجهها الضاحك وفتنتها الطاغيـة تملأ الجو مرحاً وانساً ...

دعني اعرفك ببعض الجالسين ... الا ترى هـــذا الاسمر الفازه المنطلق الاسارير ؟ انه فنان الجيل الملهم : خليل فرح ... وهذين اللذين بجانبه يعابثانه : توفيق صالح جبريل ومحيي الدين جمال ابو سيف ، اما ذلك الفتى الذي يبـــدو كالحالم وفي يده اوراق يمعن النظر فيها فانه الشاعر مكاوي يعقوب ، لعله يراجـع قصيدة سيدفع بها للنشر ، وسنقرأ هذا الشعر الذي جعله يحترق ويذوي .. في ديوانه (آمال وآلام) .

هناك آخرون .. دعهم ! فقد يحرجهم ان نسميهم الآن ، ولنقل عنهم انهم (الغاوون) الذين لا بد من وجودهم حيثما وجد الشعراء والفنانون !

ان (فوز) تتوق الى صوت (الخليل) فتتوسل اليه بعينيها الساحرتين ان يقول شيئاً .. انها لا تتحدث ولكن عينيها تفصحان عـــن رغبتها ويفهم عنها الخليل ما تريد ويمسك بالعود ويعبث باوتاره في رقـــة وعذوبة ويصيح به محيي الدين .. انشدنا ما لحنته من شعر عمر بن ابي ربيعة ... والخليل اول فنان سوداني يلحن الشعر العربي ويغنيه فيضيف بذلك ثروة جديدة للغناء السوداني وينطلق صوت الخليل صافياً عذباً مع نغمات العودليغني مقطوعة ابن ابي ربيعة :

أعبدة ما ينسى مودتك القلب ولا هو يسليه رخاء ولا كرب
ولا قول واش كاشح ذي عداوة ولا بعد دار ان نأيت ولا قرب
وما ذاك من نعمى لديك اصابها ولكن حباً مـا يقاربه حب

ويتملكنا الطرب وتهزنا النشوة فنستزيد الخليل من ترداد الابيات، وتنسجم فوز وقد أخذت تنقر باصابعها الرقاق المنعدمات على المنضدة متمشية مع اللحن فتحدث بذلك موسيقى حلوة ساذجة ولكنها شديدة الأسر !

ويمضي صوت الخليل قوياً رائعاً وينساب من بين انامـــله على العود توقيـع ساحر أخاذ وهو يغني :

وعبدة بيضـــاء المحاجر طفـلة   منعمة تصبي الحلـيم وما تصبو

ويهجس في اذهاننا جميعاً يومذاك خاطر واحد ، أعبدة ام فوز ؟ — رحـم الله الخليل لـكم أشجانا وأطربنا ! :

ولست بناس يوم قالت لاربـع   نواعم غـر كلهن لهـــا ترب
ألا ليت شعري فيم كان صـدوده   أعلق أخرى ؟ ام على به عتب !

لقد سجل الخليل فيما بعد هذه القصيدة في (اسطوانة) افتتن بها الناس ... ولست ادري ان كان بعضهم لا يزال يحتفظ بها ، فهي ثروة فنية تاريخية .

وتدور فوز بيننا تسقي بعينيها ويديها شهداً وخمراً ! .. ويعلو صوت محي الدين وهو يعابث الرفاق قائلاً : ألا اسمعكم آخر ما استحدثه توفيق من شعر ؟ ونلتفت اليه مرهفي الاسماع ، وينظر محي الدين الى فوز وهي تخطر بيننا ... تمهلي ! فان هذا الشعر قد استوحاه منك قائله .. فتضحك في خبث وهي تنظر الى توفيق نظرة عرفان بالجميل ويرتفع صوت محي الدين وهـو ينشد لتوفيق هذه المقطوعة :

وتـدير الراح غانية   حسنها كالبدر متسق
حليها نفس مهذبة   وشباب ريق لبق
فاذاما اسفرت سبحت   نحوها الارواح تستبق

أو تغنت بيننا خشعت حولها الآذان والحدق
ونجوم الليل ذاهـلة كجفون هدها الأرق

بلى والله – ان ابصارنا لتعلق بها وقلوبنا لتهفو حولها كلما أنساب الغناء من فمها ... وكأنما كانت مقطوعة توفيق .. ايحاء لنا أن نطلب الى فوز أن تغنى .·. ولم يكن بد من ان تستجيب ..

كان حبيباً الى قلوبنا ان تسمعنا اغنية حديثة أنشأها خليل فرح يصف فيها هذه الجلسات المرحة .. ويذكر كيف سلك طريقه من الخرطوم حتى وصل دار فوز.. ويسرع الخليل الى عوده فيصلحه، وينطلق صوت فوز حلواً صافياً وهى تغني للخليل :

دير كؤوسك وانشْدنى بابْ . حبيبي زينـة الشبابْ

***

أسقنيها الصافيه أمْ حباب دق كأسي وقل لي حباب
يومنا صافى وخالى الضباب يا نديم كيف مرح الشباب
نحن جينا قصاد الضباب بق ّنور (الموردة) أمعباب
ديك مشارع (خولةورباب) وديك بيوتن تحت الضباب
فى محطة (شوق) العتاب قف قليلاً نطوى الكتاب
داك رسولنْ هدا جانا تابْ رب هون ليك المتـاب

وننفجر ضاحكين عندما يصور الخليل فى أغنيته كيف جاوز (بناية مركز أم درمان) حيث كان يقبع البطش والجبروت ، ممثلاً فى (الذئاب) البشرية :

خبى كأسك ما ينوبنا ناب كل خشم المركز (ذئاب) ؟

وتمضي فوز في الغناء ، والخليل يدنو في قصيدته من دارها رويداً رويداً حتى اذا هلت له هتف بالتحية من الأعماق :

السلام الحـــالي ومذاب　　　في الثنايا الغر العـــذاب
يطفي نار الشوق والعذاب　　　(فوز) قول امين قلبي ذاب
مدت ايده وقالت حباب　　　يا حباب اخوان الشباب

ويعتز (خليل) برفاقـــه ، الحافظين للسر غـــائبين ، ويأتون بالعجب حاضرين مجتمعين :

نحن صحبة واخوان نجاب　　　لي دعانا المولى استجاب
ان مرقنا، السر في الحجاب　　　وان قعدنا اخوانك عجاب !

* * *

جدنا جملة وكنا الغضاب　　　خيرنا عم وبلغ الهضاب
يا أم بنانا زانوا الخضاب　　　ناولي كاسك حلو الرضاب

ويقف الشيخ هنيهة عن الحديث ويرسل بسمة تملأ وجهه وتجمع تلك التجاعيد التي رسمها الزمن .. ثم يذكر كيف كان احد الرفاق ما يكاد يملأ قلبه وعينيه بهذا الجمال والفن حتى يطلب الى فوز ان تعد له مكاناً للصلاة ... ثم يأخذ في صلاة العشاء ويطيل في تلاوة القرآن حتى اذا ما فرغ دخل علينا وهو يقول ، لقـد شكرت الله على هذه النعمة !

ويوشك الفجر ان يطل ونحن انشط ما نكون اجساماً واذهاناً ، ونفترق على وعد باللقاء .

وينفرد منا شخصان نعرف ما هدفهما ، انهما محيي الدين جمـــال وتوفيق

صالح جبريل من دعامات تلك الجمعية السرية (الاتحاد) وقد دأبا احياناً على اعداد منشورات يحضان فيها على كراهية الحكم القائم ، وكانا مع بعض اعضاء آخرين ، يقومان بإلصاق تلك المنشورات عند الغسق في امـاكن عديدة بالمدينة .

وتشرق الشمس ونسمع ان البوليس قد عثر على منشورات فانتزعها رانه يجد في البحث عن مصادرها ... فنضحك ساخرين ، فقد حفظنا السر فى حجاب مكين ويهمس فى مسامعنا من الأعماق صوت (فوز) يغنى :

نحن صحبة واخوان نجاب
لى دعـانا المولى استجاب
ان مرقنا السر في الحجاب
وان قعدنا اخوانك عجاب !

قلت : كيف استطعتم فى ذلك العهد ان تطبعوا منشورات سياسية ، ومن أين لكم المطابع ؟

فقال : حقاً لم تكن هناك وسائل للطباعة كما هى الآن مثل « الرونيو »... كانت هناك اداة بدائية فى بعض مكاتب الحكومة يسمونها (البالوظـة) ، كنا نختلسها لطبع نشراتنا . بل انى لأذكر جيداً كيف كان الضابط عبدالله خليل وهو احد الشبان الثائرين فى ذلك العهد يتولى طبع هذه النشرات ، ثم يوزعها على خلايا الجمعيات السرية المتصلة بها لتقوم بالصاقها على الأماكن المعينة وارسالها بالبريد احياناً الى الأفراد المعنين من المسئولين .. لقد كان هناك جنود كثر يعملون فى صمت وصدق .. وقـد كان الضابط عبدالله خليل احد هؤلاء الجنود الذين عملوا فى صمت وصدق فى تلك الفترة القاسية الحرجـة من تاريخ نضالنا الوطنى .

بين الجد واللهو

- ٢ -

لم اكن في حاجة لكي ادفعه للحديث هذه المرة ، فقد أثرت كوامن شجوه ببعث الذكريات العذاب التي وجد في ترديدها على مسمعي متنفساً لمشاعره المكبوتة .

واتخذت مجلسي منه حيث كنت افعل مرة ، واستلقي هو على مقعده الوثير ليبدأ الحديث هادئاً مطمئناً ، ولكنه سرعان ما ينفعل خلال سرد الذكريات فتتخذ جلسته اوضاعاً مختلفة ويهب احياناً واقفاً ليردد شعراً او أغنية وهو يذرع الغرفة محاولاً ان يقلد ذلك النغم الساحر الحنون ، ثم ورق عيناه بالدموع وهو يردد اللحن الذي ينحدر الى سمعه عبر السنين بصوته الاجش ! لأكاد احسبه ما يزال يظن نفسه في دار فوز تغنيه بشجي الحانها وتطالعه بوجهها المرح الضحوك .

وبدأ الحديث بصوت هادىء مطمئن ..

كانت ظروف حياتنا كموظفين تحتم علينا ان نغادر جنة فوز كارهين، ولكنا كنا حريصين كل الحرص ان نحدد موعد اجازاتنا في وقت واحد لنصل ما انقطع من تلك الاجتماعات فنجدد العهد ونذكر ما استحدثنا من جديد في عالم الشعر ، ونستمع الى خليل فرح يطربنا بما استحدث في عالم الفن .

دعني اقدم لك وجهاً جديداً ، قد تكون قرأت له كثيراً على صفحات

الحضارة ، يكتب عن الأدب والاجتماع ويبشر برسالة جديدة في الشعر .. انه الاستاذ الامين على مدني وهو ايضاً قطب الرجى في جمعيتنا السرية (الاتحاد) ينحو في أدبه منحى ادباء المهجر وقد استأثر اسلوب جبران خليل جبران بلبه ، فنان رقيق الحاشية دقيق الحس، يجد في جلسات فوز احياناً غذاء لروحه وحسه ومشاعره ، فيتردد صدى هذا في كتاباته الوجدانية التي ضمنها كتابه (اعراس ومآتم) .. لهفي عليه - لقد اعد هذا الكتاب للطبع ولكن الايام لم تمهله فمات قبل ان يرى كتابه مطبوعاً ، وقام صحابه من بعده بهذه المهمة وقد كان الكتاب يحوي صوراً دقيقة من فنه وادبه .

دعنا من هذا .. انه بيننا في هذه الجلسة يشع فيها المسرة والفرح ، ولكنا نفتقد شاعراً آخر كان ملء الدار حيوية وادباً .. مكاوي يعقوب ، فقد خلا مقعده بيننا الا ان رسائله تترى علينا تحمل الحنين واللوعة والشوق في شعر سلس عذب، ونستهل جلستنا تلك بأن يتلو علينا محي الدين احدى قصائد صاحبنا مكاوي :

ديار الحمى هل لي اليك سبيل	فقد طاح بي بين وعز قفول
رحلت برغمي والضرورة هكذا	تغالب غايات الفتى وتحول
تركت مغاني اللهو والانس والهوى	فلم يبق لي شيء اليه اميل
فان انس َلا انس َ ليالي جرت بها	حوادث حب بيننا وفصول
ليال تعاطينا المودة والهوى	كؤوساً يغنينا بهن (خليل) !
فيا معهد الاحباب هل لي عودة ؟	اليك ، فاني بالفراق عليل
اجدد حظي من هوى متقادم	يكاد باسباب الفراق يزول
وانقع من انفاس روضك غلة	فتخبو بقلبي لوعة وغليل
ويعتادني بعد الشقاء هناءة	فأستام وجه الدهر وهو جميل
هبطت ربى النيلين اسيان باكياً	وعهدي بها ملهى لنا ومقيل
لئن راقني فيها مناخ ومنظر	فما راق في عيني اخ وخليل

أرود بطرفي لا ارى غير معجم بجالي ، فكم قال علي وقيل !
ولست غريباً فيهم غير انني شقي ، واخوان الشقاء قليل

وانصت الرفاق في اسى وشوق الى هذا الشعر الباكي يبعث به مكاوي من رض الكنانة وقد نزح اليها ، واردفت اتلو عليهم مقطوعة اخرى بعث بها الي ي رسالة خاصة والخليل يعبث باوتار عوده ليصلح من امرها قبل ان نبدأ مرح لليلة . وشرعت اتلو عليهم مقطوعة مكاوي وهو يعاتبنا على البعد وقد وهم نا نسيناه :

يا نازحي الدار لا شوقاً ولا كلفاً تهفو قلوبكم يوماً بتذكاري ؟
أئن اصبت بسهم البين دونكم أهملت حتى انمحى رسمي وآثاري
ما كان مثلي ينسى او يخان له عهد اذا طوحته بعض اسفار
طال الفراق فلا طيف ولا خبر منكم يخفف من همي وافكاري
اذا ذكرتم يثور القلب ملتهباً شوقاً فاطفيه من دمعي بمدرار
لا كان ذلك من بين فجعت به فيكم ، وصالح آمال واوطار

★ ★ ★

يا فتية في ربى النيلين طاب لهم مثوى ونزهة أسماع وابصار
فمن مغان شذت افياؤها عبقاً الى (ترام) الى (ناد) الى (بار) !
بالله ادعوكم ان ضمكم سمر وخضتموا في احاديث واخبار
وجاد مطربكم والكأس دائرة من كف احور يجلى آية الباري
ان تذكروني وتحسوها على نخبي علي اشاطركم في بعض اسماري
وارعوا عهودي واستبقوا اخا ثقة كما عهدتم وفياً غير غدار

★ ★ ★

ويأبى الامين علي مدني، كشأنه وكان ناقداً لاذعاً ، إلا ان يحاول نقد بعض جوانب هذا الشعر ، فيثور على بعض التعابير ، وينعى ضعف الأسلوب في بعض الأبيات ويحتدم الجدل بينه وتوفيق ومحيى الدين، ونرسلها ضحكة عالية عندما نرى خليل فرح يحمل مقعده ويهم ان يلقي به في وجه الامين في حركة تمثيلية مضحكة . لقد أراد ان يذكرنا بمشهد مماثل حدث منذ ايام فى نادى الخريجين بأم درمان عندما ألقى الامين محاضرة عن شعر الأستاذ عبد الله محمد عمر البناء الذى كان ملء الاسماع والابصار والقلوب ، وشعره فى نظر الكثيرين كأنه تنزيل من التنزيل ... وصاح الامين فى محاضرته ليقول للناس: ليس هذا بشعر ! انه صناعة وتقليد لا روح فيه ولا شعور ..! لقد كان حديثاً جريئاً لم يحتمله بعض المستمعين وضاقوا به ذرعاً ، وهجم عليه استاذ مثقف من انصار البناء وهو يحمل مقعداً وهم بإلقائه على الامين لولا ان تداركه الناس ... ولكن الامين ظل يردد ويصيح : ليس هذا بشعر ، انه مسخ مشوه ، انه تقليد !

وعلى صفحات الحضارة ينبرى له استاذ شاب ، من خيرة مثقفى الشباب ، الاستاذ عبد الرحمن على طه المدرس بمدرسة أم درمان الابتدائية آنذاك ، ويرد عليه موضحاً الخطأ فى المحاضرة ويكشف عن الجوانب المشرقة فى شعر البناء ، ويرد عليه الامين معتداً وتدور بينهما ملحمة فى النقد يوقفها السيد حسين شريف رئيس التحرير وقد رآها احتدمت وشطت ولم تأخذ سمتها الموضوعى ، ولكنها تركت دوياً فى مجتمع المثقفين !

ونترك الحديث عن الشعر جانباً ، وتتعلق أبصارنا بالخليل وفوز ، وبتلك النظرة الامرة الآسرة تتناول فوز العود وتقدمه للخليل ايذاناً بالغناء ، وتخشع قلوبنا وأبصارنا كما قال توفيق ، ويأخذ الخليل العود ويسمو بنا عن هذا العالم الفانى .

وأغاني الخليل شيء جديد جديد ، فهى تلسم بهذه المعاني الرقاق والتصوير

البارع وبانتقاء الالفاظ الملائمة للمعانى تسعفه فى ذلك ذخيرته اللغوية فقد كان كثير الاطلاع على الشعر العربى .

ونلح على فوز أن تغنينا للخليل (بلى جسمى) وهى من اغانيه الرائعة ، ويشرق وجهها بابتسامة وضيئة ، كأنها تقول ان كل شعر وكل لحن انما استمد وحيه منها ، وينطلق صوتها الساحر والخليل يصاحبها بأنغام العود فتغنى :

بلى جسمي وفتك جفاك   يا حبيبي أما كفاك
ايها الظبى فى صفاك   يا أخا البدر فى صفاك
انا راضٍ بحكم فاك   انا باقٍ على وفاك

* * *

قل لى بالله إيه خفاك   قل ، وعلمْ عتابى فاك !
المعذبْ بنار جفاك   فهو قلبي الذى اصطفاك !

* * *

بالذى بالذى براك   وبرى الغصن والاراك
لم خلفتنى وراك   اترى بعد ذا اراك !

* * *

شفنى شفنى هواك   وكوى مهجتى نواك
هو من ذا الذى غواك   عن وصالى ؟ اذن سواك ؟

* * *

أنت كالبدر فى علاك   انت كالروض فى حلاك

انت كالطفل في ولاك   انت للعالمــين هـلاك

ولم يتمالك الشيخ محدثي نفسه فقد هب واقفاً وهو يردد كل مقطع من هذه الاغنية بصوته الاجش العميق وهو يقطع الغرفة جيئة وذهاباً وقد اغرورقت عيناه ! لقد نسي وجودي وحسب ان الزمان عاد به القهقرى وانه يستمع الى فوز تردد بصوتها الساحر على مسامعه الحان الخليل والرفاق حوله في نشوة وجذل بوجوههم النضرة وشبابهم الفتي .. وتركته يعيش في جو ذكرياته يردد من ابيات الاغنية ما حلا له ان يردد وهو يترنح في مشيته .

لهفته للشيوخ من ذكريات الشباب !

واجهده الترداد ، فتهالك على مقعده كمن آب من سفر بعيد ... ونظر الي نظرة اعتذار فقلت والله ما سعدت بشيء مثل سعادتي بما تنقل إليّ من جو ذلك العهد بحديثك الشائق وبهذه الانفعالات التى لا تقوى على كبحها.

وقال بعد جهد .. كانت ليلتنا تلك من الليالي التي يضن الدهر بأمثالها ، ولم يكن بدعاً ان اجد صداها فيما بعد في شعر توفيق صالح جبريل في هذه القصيدة التي نظمها للخليل وفوز إثر ليلتنا تلك:

حرك بعودك هذه الا   رواحَ واسترعِ الوجود
واعطف عليه فإن في   آفاقه معنى الخلود

* * *

بعثت بنظرتها سعاد (م) الحب في قلب ذوى
وتجاهلت ، فرأيت في   أعماقِ عينيها الهوىَ

* * *

سبّحْ بعودكِ تسبح الا رواحِ لتسمع النغم
واعطف عليه فإن في اعماقه معنى القدمْ

* * *

مالي احاول صدها فتعود ذكراها اليْ ؟
وتلوح لي ، فأردها فتطل من قلبي عليّ !

* * *

غرّد بعودك ها هي الاشجار تنصت والمياه !
واعطف عليه فإن في أنفاسه معنى الحياه

* * *

زدني غناء .. لا تنمْ ؟ وارحمْ فؤادي المستهام؟
قد فاض من هذا النغم معنى المحبة والسلام ؟

نعم لقد فاض من تلك الالحان أسمى معاني المحبة والسلام .. وها نحن قبل ان نفترق نرهف اسماعنا لندير احاديث (الجمعية) ويقص علينا توفيق في سخريته المرحة ، وكان قد عين في وظيفة نائب مأمور بمدينة أم روابة عهد اليه ان يعد الاحتفال التقليدي بعيد ملك الإنجليز ، وقد جرت العادة ان يقام في ميدان عام في كل مدينة ويحاط الميدان بالزينات والاعلام المطلوبة لكي يتم الاحتفال .

وظل وصديقه باشكاتب المركز ، المرحوم عابدين عبد الرؤوف الخانجي ، وكان من اعضاء الجمعية السرية ايضاً ، ساهرين ليلة الاحتفال يدبران امراً — فقد عز عليهما ان يرفعا بايديهما اعلام الاستعمار تخفق تمجيداً لحكم الإنجليز .

وفى الهزيع الاخير من الليل دب الى مكان الاحتفال شبحان اخذا يقتلعان الاعلام الإنجليزية ويمزقانها شذر مذر ويلقيانها للرياح ؛ ولم يتركا علماً انجليزياً واحداً مرفوعاً ؟

واشرقت الشمس على منظر عجب جن له جنون المفتش البريطاني فى المركز.. وكان المأمور (توفيق) قد سبق الى مكان الحادث في ثلة من جند البوليس وقد اصطنع الحزم الإدارى المرجو ، للبحث عن المجرمين الذين ارتكبوا هذه الجريمة الكبرى والاولى من نوعها .. والمفتش الإنجليزى محتقن الوجه منفوش الشعر ضيق الصدر بكل من حوله يرسل العبارات النارية هنا وهناك وبوده لو اطلق الرصاص على جميع سكان المدينة انتقاماً للشرف البريطاني المثلوم .. وما درى ان مأموره الحازم الذي يقوم بالتحقيق في همة والغضب المصنوع يلوح على وجهه هذا المأمور وصاحبه الباشكاتب هما الشبحان اللذان تخفيا فى اعقاب الليل وصنعا بالأعلام البريطانية ما صنعا !

وقيد الحادث ضد مجهول ! فمن كان يخطر بباله « أن حاميها حراميها » ؟! ويا لها من أيام !

بين الجدِّ واللهو

- ٣ -

لقيته وهو يهمهم ببيت شعر لتوفيق صالح جبريل طالما ردده على مسمعي وهو يتأوه :

نقطة « نفسية » خمدت　　　هل سيحيا ذلك الرمق ؟

قلت لم لا يحيا ؟ بل انه ما زال حياً باقياً ما بقيت الحياة ، وها نحن نعيش مع ذكرياته منذ اكثر من ثلث قرن من الزمان فتتمثل لنا جـــديدة جذابة رائعة . . .

قال نعم ، لكأني بالرفاق حولي نسمر في دار فوز اعذب السمر ، ونقوم بواجبنا الوطني خير قيام .

ولو عرفتم في اى جو كان يعمل أولئــك الشباب الميامين واى سيوف من الارهاب كانت مصلتة على الرقاب لأكبرتم لهم تلك الجهود ولخلدتم ذكراهم بين أكرم الخالدين في التاريخ .

الله يعلم أى عناء كانوا يلاقون وهم يبنون الحركةالوطنيةوينشرون الوعى . . . كانت نشراتهم السرية يحملها البريد الى كبار الزعماء وكبار الموظفين منذرين ومحذرين من السير وراء الخدعة الانجليزية الاستعمارية التى ترمي الى انفــراد الانجليز بحكم السودان والوصاية عليه .

بجانب هـــذا كانوا يحملون للشعب أفكارهم الثورية ضد الاستعمار بتلك النشرات التي كانوا يلصقونها خفية على الأعمدة والجدران وفي الأماكن العامة .

ولا تحسبن ان هـذا العمل الخطير كانت تقوم به هذه العصبة التي احدثك عنها في دار فوز وحدها ، فقد كان لهم زملاء واعوان وفرق سرية اخرى كلها تعمل جـــادة مخلصة بغير خوف او ملل . وهناك رجال اللواء الابيض الذين واجهوا الاستعمار جهرة في شجاعة فذة .

ولم تكن جلسات رفاقي احيانـــاً في دار فوز الا استجمامـــة يستمدون منها الزاد .

وانا لنقضي الليلة جلسة ممتعة في دار فوز احتفاء بصديق آب من سفر بعيد، فتى كان يلتهب وطنية ويتقد شجاعـــة ، احد الخمسة الأوائل الذين انشأوا (جمعية الاتحـاد) ، ابراهيم بدري الذي اوشكنا يومذاك ان نختـاره رئيساً للجمعية لولا ان حدث ان انضم الينا عضو جديد فيه صرامـة وجد وابتهجنا بانضمامه ايما ابتهاج ، ذلك العضو هو السيد خلف الله الحاج خالد (وزير الحربية السابق) واحد فتية ذلك العهد الثائرين ، وبانضمام خلف الله رأينا العدول عن اختيار ابراهيم بدري رئيساً للجمعية فتركت على النهج الذي سارت به خلايا سرية لا يتجاوز افرادها الخمسة ، يديرها جهاز أعلى من الخمسة المؤسسين ومن رأوا ضمهم اليهم من ممثلي الخلايا . . .

وكانت واسطة عقد جلستنا تلك الليـلة ابراهيم بدري ومن حوله يلتف الرفاق المرحومان الأمين علي مدني وعبيد حاج الأمين وتوفيق ومحيي الدين جمال وكشة .

قلت ان نشرات اعضاء الجمعية السرية بخلاياها المتعددة قد توالت على بعض الشخصيات السودانية ... وعلى الصحافـة المصرية لتنشرها ، وكانت هـذه

النشرات تقلق الانجليز وقد بثوا عيونهم حول بعضنا [illegible] . . . وقـد قام البوليس بعدة هجمات على منازل بعضنا وأوسعونا تفتيشاً بحثاً عن دليل يؤيد الاشتراك فى ارسال تلك النشرات ، ولكنا كنا اشد ما نكون يقظة وحذراً فلم يحتفظ اى منا بوثيقة او بيانات فى حوزته ... اذكر من بين من حوصرت منازلهم للتفتيش الضابط عبد الله خليل الا انه ورفاقه كانوا يحفظون اوراقهم السرية فى دار صديقهم ابراهيم اسرائيلي الذى لم تكن عليه شبهات .

ولم نكن نعدم بعض الموظفين المخلصين الأمناء القريبين من الإدارة والامن الذين كانوا ينبهوننا خفية الى اتجاه الرقابة فنزداد يقظة وحذراً . ومـا زلنا نتندر بقصة ابراهيم بدري يوم علم ان البوليس موشك أن ينقض على منزله وكانت في حوزته بعض اوراق للجمعية ، فهرع الى ود نوباوي حيث كان يقطن الاستاذ الامين علي مدني (رحمه الله) ولم يجد الامين ... ولقيته والدته وهي امرأة برة عطوف فناولها تلك الاوراق واوصاها بحفظها وديعة عندها ... واخذتها مطمئنة واخفتها وهي لا تدري ماذا تحمل من اسرار لو عثر عليهـا البوليس لكان ابنها الامين اول الهالكين ... !

ويثلج صدورنا ان احد افراد الاسرة المالكة في مصر ينزل ميدان الكفاح ويناصر الشعب المصرى فى ثورته ، ذلك هو الامير عمر طوسون ، ثم نراه يخص السودان بجانب غير قليل من اهتمامه ... فنجد في نزول هذا الامير الى المعركة مع ما عرف من افراد البيت المالك من صلف وكبرياء وترفع عن الشعب نصراً جديداً لقضية الحرية في وادي النيل .

وفى جلستنا تلك تقرر ان نكتب للامير رسالة عن طريق صحيفة الاهرام نعاهده فيها والشعب المصرى على العمل المخلص لتحرير الوادي من الغاصبين .

ويخب الشيخ الى كنزه المخبوء كعادته عندما يدعم قصته بالوثائق ويقدم لي عدداً بالياً من جريدة الاهرام نشر في صفحته الاولى الخطاب التالي :

حضرة الفاضل رئيس تحرير جريدة الاهرام .

سلاماً واحتراماً – نناشدكم بحق الاخلاص وواجب الصحافة وبما يترتب او ينتج من توثيق عرا الرابطة السودانية المصرية اثبات هـــذا الكتاب المفتوح بجريدتكم لاطلاع سمو الأمير والشعب المصري عليه :

الى سمو الامير الجليل طوسون

ان ما بذلتموه من المجهود العظيم في سبيل مصلحة السودان، وما اتيتم به من سديد الآراء ومحسوس البرهان لضمان المستقبل الزاهر لنا وما اثبتموه من ان السودان ومصر قطر واحد لا يقبل التجزئة ولا التدخل الاجنبي حـــدا بحزب الاتحاد السوداني ان يقرر في جلسته المنعقدة بتاريخ ١٠ نوفمـــبر سنة ١٩٢٢ تبليغ سموكم بأن في السودان حركة وطنية اساسها القومية الصادقة وغايتها تأييد الشعب المصري وان لا ينفصل السودان عن مصر بأي حال من الاحوال .

ورغماً عن سعي الانجليز المتواصل وكثرة جواسيسهم وبحثهم للقضاء على تلك الحركة فان الجمعيات السياسية كل يوم في ازدياد في الاعضاء ونشاط في العمل وقد لا يمـــر يوم الا ويتلقى فيه المواطن منشوراً عن الدسائس الاستعمارية واستبداد الانجليز .

فاقبل يا سمو الامير سلوكنا على نهج الحق والعمل لصالح السودان ومصر بدل تنميق عبارات شكرنا لسموكم وابناء مصر المخلصين .

فليحيا وادي النيل حراً من اسكندرية شمالاً الى ما بعد بحيرة البرت جنوباً وليحيا الاخلاص .

أم درمان : ١٩٢٢/١١/١٠ (سكرتير جمعية الاتحاد بأم درمان)

واستطرد يقول :

وبمثل هذا اللون من الكتابات كنا نسهم فى اذكاء روح الحماس فى الشعب المصرى فى المعركة العنيفة التى كان يخوضها ضد الانجليز فنشعره بأن في السودان قوة وطنية تقف معه وتعمل لنفس الهدف ، اى اقلاق الانجليز فلا تطمئن نفوسهم .

وأدنى مني مجموعة من تلك النشرات السرية وبعض قصاصات الصحف المصرية وكلها تعكس نشاطهم الوطنى الصادق فى تلك الفترة . ولكنى نحيتها عنى جانباً بعد ان تصفحتها وقلت : كنتم تروحون على انفسكم في فترات الجد القاسية بجلسات عطرة في دارفوز ، وقد استهللت حديثك اليوم معي قائلاً انكم تحتفون الليلة بعودة الغائب ، الا تعطر جلستنا هذه بشيء من تلكم الليلة ؟

وضحك حتى بدت نواجذه وسرى الجذل بين جوانحه ، وقال هناك الكثير مما يقص ويروى ولا غرو فقد كنا فى ريق العمر ونضرة الشباب ، ومتى خلت فترة الشباب من العبث واللهو واى منا لم تستبد به في الصبا نشوة الحب وتأسره فتنة الجمال .

وسبح ببصره بعيداً كمن يصيد اطيافاً من الافق البعيد — واخذ يروى في صوت خفيض أخذ يعلو شيئاً فشيئاً - هي بيضاء رعبوب ، يونانية المنبت ، سودانية النشأة ، غربية الهوى .

فتنة طاغية وجمال فذ .. كان حظنا منها ان نراها من بعيد وهي تخطر عابرة الطريق في زهو المدل بحسنه ، لا تنظر الى احد وينظر اليها كل احد ...

ورآها الخليل ، الشاعر المفتون بالجمال المأخوذ بسحره ، وتربصنا بطريقها اكثر من مرة نتأمل هذا الجمال الفاتن ونسبح الله الخالق المبدع ونتبعها بانظارنا

وقلوبنا حتى تختفى ... ونعود مرة أخرى – بل مرات ومرات ، نرقب مطلع هذا البدر من خلال (دور الحى الافرنجى بالخرطوم) كما كان يطلق عليه .

واختلى الخليل الى فنه يستلهمه والى عوده يناجيه ، وفي جلسة في دار فوز ولدت أغنية جديدة تصور هذه الفتنة الطاغية التي تسعى بين دور الحي الافرنجي بالعاصمة فتأسر القلوب وتعبث بالنهى !

وجلسنا نستمع للأغنية من الخليل في خشوع بددته نشوة الطرب فعربدت جوانحنا وأجسامنا ونحن نستمع اليه وفوز يوقعان لحن هذه الاغنية :

فوق جناين الشاطي وبين قصور الروم
حيّ (زهرة روما) وابك يا مغروم

* * *

دره سالبة عقولنا ولبسوها طقوم
ملكة آسرة قلوبنا تبيت عليها تقوم
الطريق ان مرت بالخلوق مزحوم
كالهلال الهلّ الناس عليها تحوم
شوف عناقد[1] (ديسة) تقول عنب كروم
وشوف وريدة الماثل زي زجاجة روم
القوام اللادن والحشا المبروم
والصدير الطامح زي خليج الروم

* * *

---

(١) عناقد ديسة يعني شعرها الذي عقصته كعناقد العنب .

خلي جات متبوعة الصافية كالدينار
في القوام مربوعة ، شوفه عالية منار
موضة واخر موضة ، هيفا غير زنار
روضة داخل روضة غنى فيها كنار
الجبين الهل ضو فوقو فنار
منه هل الشارع منه بقه ونار
طلعه ما بتتقابل زي لهيب النار
تحرق البتهابل ، والبعيد فى نار

وتلقف الناس هذه الأغنية معجبين وأطلقوا على فتاة الاغنية (زهرة روما) .

وشقيت الفتاة بسبب هذه الاغنية .. كانت لا تستطيع أن تسير في الطريق إلا وتجد نفسها محاصرة بين صفين على جانبي الطريق من المعجبين ، والشفاه تهمس باسمها .. زهرة روما ! والابصار محدقة بها من كل جانب .

وفي هدوء الليل كان بعض الشباب الواله من فتية الخرطوم يحجون الى دارها ويطوفون حولها وهم على دراجاتهم أو ارجلهم وينشدون بأصوات حلوة :

فوق جناين الشاطىء وبين قصور الروم
حى زهرة روما ، وابك يا مغروم !

ووصلت الاغنية إلى مسامع الفتاة ووعتها حرفاً حرفاً .. وزهاها هذا الإعجاب من فنان سودانى .. أليست من الغوانى اللواتى يغرهن الثناء ؟!

وعرفت اقاصى اقاليم السودان من امر هذه الفتاة ما عرفته العاصمة ، ولم يكن رسول التعريف الا اغنية الخليل .

ولكم كان يضحكنا اولئك الرفاق الذين كانوا يمدون الينا من الاقاليم وما

يكاد يستقر بهم المقام حتى يكون في مقدمة مطالبهم ان نسير بهم الى الحي الذي تقطنه زهرة روما ليشهدوا هذه الفتنة وليتحققوا او قل ليتذوقوا اكثر معانى الأغنية وليباهوا زملاءهم في الأقاليم اولئك الذين قعدت بهم ظروفهم فلم يزوروا العاصمة ليروا ملهمة اشهر اغنية في ذلك العهد ! .

لست أدري هل أشقى الخليل تلك الفتاة بأن جعلها تعيش مضطرة وراء ستار فرضته على نفسها بعد ان تعذر عليها ان تشق الطريق دون ان تضيق بفضول المارة ونظراتهم الملتهبة الموجهة نحوها ؟! أم اسعدها بأن جعل قلوب الألوف من الشباب تهوي نحوها معجبة فصارت اشهر جميلات عهدها ؟

ومهما يكن فقد كان الخليل فناناً مرهف الحس رقيق الشعور كان عسيراً عليه ان يرى ذلك الحسن الطاغي ولا تنفعل في نفسه احاسيس الفنان الأصيل .

قال صاحبي ...

ولقد رأيتها منذ عهد قريب بعد ان انفض سامرنا وغيب الثرى من غيب وبقي من بقي يجتر هذه الذكريات ، رأيتها وهي أم رؤوم وعلى وجهها رغم مرّ السنين هالة من نور وبقايا القارورة العطر النادر بعد نفاده .

كيف صبرنا على الفراق هذا العهد الطويل ؟ كيف ؟ وقد كان فراق بضعة ايام يلهب مشاعرنا وينطق محيي الدين جمال ابو سيف بهذا الشعر الرائع حنيناً للرفاق والى جلسات الخليل وفوز ؟

يا أيها الطيف الملم تحية — من مدنف بك وامق مشتاق
يهوى لقاك ولو كلمحة بارق — عجلى ، تنير النفس بالإشراق
أقصتني الايام عنك فجبتها — سرياً على متن الصبا الرقراق
وقطعت بيداً لو تغلغل غورها — جند الابالس ضلّ في الآفاق
كيف اهتديت وماضللت كأنما — أسمعت خفق فؤادي التواق !
لاكنت يا صبح الخميس ولا بدت — منك الغزالة بالسنا البراق
لوددت لو أن الليالي كلها — تدنى الى بطانتى ورفاقى

ووددت لا شمس النهار مطلة يوماً، ولا ذهب الأصيل بباقي
فأعيش في كنف الظلام تسودني فيه السكينة والجلال الواقى
وتعيدلى ذكرى مراتع جيرتى ومآلف الأهواء والأشواق
حيث الحضارة والنضارة والصبا ومجال آمال الشباب الراقى
مع فتية عقدوا الوفاء لواءهم برواجح الأحلام والأخلاق
وتعهدوا غرس الولاء بمجمع جمع القلوب على هدى ووفاق
وتقاسموا نوب الزمان بأنفس خلصت نجيا من ريا ونفاق

* * *

قلت أستحثه على المزيد : انه لشعر سلس عذب .. لكم ألهمتم تلك الايام !. فنظر الي طويلاً ثم عاد يتحدث وحده كأنما يستأذنني ان يخلو الى نفسه ، فخرجت مستأذناً وهمهمته تدوي في أذني وهو ينشد :

يقظة نفسية خمدت هل سيحيا ذلك الرمق ؟!

بين الجد واللهو

- ٤ -

ما كاد يطمئن بى المقام واجلس متجهاً اليه حتى فاجأته قائلا : اما هـــذه المرة فانى سأكون مستجوباً وماعليك الا ان تقول الحق كل الحق ولاشيء سوى الحق !! .. وضحك قائلاً لم يبق الا ان تحضر لي مصحفاً لاقسم عليه : اتريد ان تشكل لى محكمة وقد نجانا الله من المحاكم فى ذلك العهد السيء !

قلت من اجل هذا جئت لاتحقق من بعض الامور ، فقال سل ما بدا لك ولن تجد منى سوى الحق ولا شيء غير الحق .

قلت ترامى الينا من بعض الثقات ان بعض اعضاء جمعية الاتحاد قد نكص على عقبيه واستطاع (قلم المخابرات) ان يقتنصه ويستخدمه جاسوساً عــلى اخوانـــه ويقولون ان هؤلاء كانوا من بعض الافراد المؤسسين للجمعية ، فما قولكم ؟

واعتدل في جلسته واشعل غليونه في بطء كأنما يريد ان يهيىء لنفسه فرصة للتفكير قبل ان يجيب ثم رفع بصره الى وقال :

كان هذا مع الاسف حقاً ، وقد بدأ الخيانة شخص واحد كان له مكان مرموق بيننا ثم جر اليه صديقاً آخر ، وسرعان ما انكشف امرهما بين الرفاق وعرف امر اتصالهما بصمويل عطية ، ذلك الداهية السورى وقطب الرحى فى مكتب المخابرات لحكومة السودان .

وقد رأى بعضنا ان يحل الجمعية ما دام الفساد دب الى بعض اعضائها خفية التنكيل بالآخرين ، إلا ان الاستاذ ابراهيم بدرى كتب لنا رسالة طويلة – وقد علم بالنبأ – يطلب الصمود في الموقف وعدم حل الجمعية ، واذكر ان ختم رسالته بهذه الابيات من الشعر تأييداً لوجهة نظره ، وقد كان ابراهيم شاعراً مقلا كما يعرفه المتصلون به :

عهد قويٌ لم تزده الـ حادثات سوى ازدياد
ويحوطـه القصد الشر يف وأشرف القصد الجهاد
من أجل فرد خـائن تبغون حل (الاتحاد) ؟
والمـرء يقطع زنـده خوف التسمم والفساد !
أعمـاه حب الاصفر الر نان عـن نهج السداد
خان البلاد ومـا درى أن الخيانـة شر زاد
مهلاً عليه فسوف ير سف في قيود الاضطهاد
ويرى نتيجة مـا جنت كفاه من ضرر العباد

ونصمد فى موقفنا ونسير بالجمعية في خطها المرسوم ، والعجب أن هـذا المارق اسدى لاكثر اعضاء الجمعية اكثر من يد في موقفه الجديد ، فقد كانت وطنيته الكامنة في قرارة نفسه تهيب به ان يضلل قسم المخابرات كلما احس ان هناك اتجاهاً سيئاً نحو رفاقه ، فكان يدرأ عنهم الشبهات وكثيراً ما يتخذ من مكانته عند صمويل عطيه درعاً يقيهم ما كان يراد بهم من تنكيل ...

قلت ، لديّ سؤال آخر ، لقد ولدت جمعيتكم (الاتحاد) أولاً ثم اعقبها مولد (اللواء الابيض) فرأينا بعضهم يسرع فينضم للجمعية الجديدة والآخرين يتخلفون ، أكان بينكم خلاف فى هذا الامر ؟

فأجاب فى صوت هادىء كانت هناك وجهتـا نظر تتجاذبان الذين كانوا

يعملون في الحركة الوطنية السرية ، إحدى وجهتي النظر تقول ان البلاد لم تتهيأ بعد للنشاط السافر ضد الانجليز ، وكان انصار هذا الرأى يخافون ان ينكشف امر هذه الحفنةالقليلة المجاهدة فيقضيعليهم الانجليز دفعة واحدة ويقبر نشاطهم الى حين طويل ويمكن القول ان وجهـــة النظر هذه تمثل الجانب المتزن من افراد الجمعية .

اما الجانب الثائر منهم فقد كان يرى ان لا بد من مواجهة المستعمرين بملحمة سافرة مهما تكن النتائج ، وحجتهم في ذلك ما كان يقوم به الانجليز من نشاط قوى ملحوظ وذلك بتجنيد الموالين لهم ليعلنوا فصل السودان عن مصر وبقائه تحت الوصاية الإنجليزية حتى يبلغ رشده ، ويضيف هذا الجناح الثائر ان لا بد من رفع صوت المعارضة عالياً وبكل الطرق المشروعة لإفساد المؤامرة .

وعندما ولدت جمعية اللواء الابيض انضم اليها هذا الجناح الثائر من اعضاء الاتحاد ، اما الجناح الآخر فقد وقف منها موقف الصديق العاطف وان لميشترك فى حوادثها اشتراكاً عملياً ، والى هؤلاء يرجع الفضل كل الفضل فى اغاثـــة اسر الذين نكبوا في حوادث ٢٤ من اعضاء اللواء الابيض فكانوا يجمعون المعونات المادية فيما بينهم سراً ويبرون بها اسر المسجونين والمنكوبين في تلك المعـــارك الوطنية ، وقـــد بذلوا في هذا السبيل بذلاً سخياً وبرز منهم افراد الى حد الإعجاز ، واستطاعوا ان يعملوا على تخفيف الضائقة عن اسر منكوبي الحركة الوطنية عام ١٩٢٤ .

واني لاذكر مثـــالا صغيراً ما زال يتراءى مـــاثلا امامى كلمـــا مرت بى ذكريات هذه الفترة وذلك عندما كنا نعمل على ايصال المعونة لاسر مسجوني ١٩٢٤ ، فقد باع الضابط عبدالله خليل – رئيس الوزراء فيما بعد – وكان من العاطفين المؤيدين لتلك الحركة باع هذا الضابط الصغير حصانه الوحيد ليقدم ثمنه معونة لأسر الشهداء !

وكان عبد الله خليل وبعض الشباب العامل فى الحقل الوطنى آنذاك يقومون بجمع تبرعات شهرية للأسر التى نكب عائلوها فى ثورة ١٩٢٤ .

وقد اتجه الانجليز بدورهم الى محاربة (اللواء الابيض) وانصرفوا عن جمعية الاتحاد ولم يحفلوا بمن بقى فيها من الاعضاء .

قلت متسائلا : هل لى ان اعلم اى الاعضاء كان يقود الجناح الثائر بينكم ؟ ولم يتمهل هذه المرة وانما اجاب مسرعاً ، كل الشباب كان ثائراً ، الا ان « عبيد حاج الأمين » رحمه الله كان أمة وحده فقد كانت طاقة وطنيته ضخمة ، لقد اسس مع حفنة من اصدقائه بادىء ذى بدء وهم توفيق صالح جبريل ومحيي الدين جمال ابو سيف وابراهيم بدرى وسليمان كشة النواة الاولى لجمعية الاتحاد السرية التى انتظمت فيما بعد جموعاً ضخمة من الرجال العاملين المخلصين اذكر منهم محمد صالح الشنقيطى (الذى صار فيما بعد رئيس أول جمعية تشريعية فى البلاد) وكانت داره محجة للشباب الثائر آنذاك ، وبا بكر قبانى ، ومحمد العمرابي .. الخ . ولكن طبيعته الثائرة الجامحة ضد الاستعمار جعلته يضع يده ايضاً مع على عبد اللطيف ليكون معه وثلاثة آخرهم صالح عبد القادر وحسن صالح المطبعجى وحسن شريف الخلية الاولى للواء الابيض .

وكان عبيد فتى أقرب للطول نحيف القوام ، انيق الهندام ، واسع العينين يشع منها بريق الذكاء ، يتحدث مسرعاً وفى اقتضاب ، لم يكن خطيباً ولا رجل جماهير وهذا جعله يكرس جهده لرسم الخطط السرية للجمعية ، وترك الجانب الخطابى والشعبى لعلى عبد اللطيف الذي كان اكثر شهرة منه بين الجماهير ، وقد تخرج فى السنة الثانية فى كلية غردون القديمة (ثانوى) وعمل موظفاً فى الحكومة . والتفت اليّ يقول إن خير ما أعرفك به لعبيد أن اطلعك على بعض رسائله الىّ بخط يده فإنى احتفظ بها كأثمن كنز .

ومد يده إلى كنزه العجيب واختار من بينه ورقتين انتزعها فى رفق وحذر

ومد إلي إحداهما وهو يقول: أرسل إلي عبيد هذه الرسالة عقب ان القى الإنجليز القبض فى مستهل حوادث ٢٤ على الضابط زين العابدين عبد التام والسيد محمد المهدي الخليفة فى حلفا وكانا فى طريقهما الى مصر وقد عرف الإنجليز انهما موفدان من قبل جمعية اللواء الأبيض ومعهما عرائض الولاء لمصر — التى قيل ان الجمعية جمعتها من السودانيين — رداً على العرائض التي جمعها الإنجليز من السودانيين تأكيداً لولائهم لبريطانيا وايثارهم لها بحكم البلاد منفردة .

واخذت اتلو خطاب عبيد ، واوجه بعض الاسئلة مستفسراً عما غمض على منها :

الاخ العزيز .

تحية طيبة : انا مشغول ، مشغول جداً - ارجو ان تجمعوا ما امكن من النقود وترسلها للأخ اليوزباشي عبد الله [1] ليرسلها للاخوان بمصر (يقصد الطلبة الذين هربوا لمصر) .

فى يوم (١٩٢٤/٦/١٧) كانت هناك مظاهرة ضخمة جداً دبرت عندما ذهبنا لنقابل الوفد الذي ارسلناه لمصر وارجعته الحكومة من حلفا ، وقد حاول بعضهم ان يحملنا على الاعناق فرفضنا .

وفى الحال حضر البوليس الذى كان مختبئاً خلف مدرسة الطب ، وفي داخلها المستر ولس وقد امر حكمدار البوليس ان يفرقنا والا فيستدعوا الجيش الانجليزى الذى كان مستعداً شرق الاسبتالية .

لقد هتف المتظاهرون لسعد زغلول والملك «فؤاد» ونصراء الوطنية وابطال السودان باسمائهم .

---

(١) عبد الله خليل

ومن الغريب ان الحكومة لم تسألني بل امر المفتي (الشيخ الطيب هاشم احد عمداء اسرة الهاشماب المعروفة والتي ينتمي اليها عبيد) ان يزجرني . وقد قدم لي المفتي عرضاً منهم ان اكون نائب مأمور في السنة القادمة ولكني رفضت بشدة . قد بلغني اليوم انهم قد ينقلوني ولا اعرف إلى اين . تحياتي لكم .

١٩٢٤/٦/١٩ اخوك عبيد

وأعدت اليه خطاب البطـــل العظيم وانا اغالب رغبتي في ان اقبل التوقيع إكباراً . ومد اليّ يده بالرسالة الثانية :

عزيزي المفضال ... السلام عليكم

أرسلت الكلمة لمصر لتنشر في الاهرام ولا ادري لماذا لم تنشر حتى الآن وقد شكا الى بعض الإخوان من ان الجرايد لا تنشر لهم الا قليلاً وقـد نشرت (اللواء) ما بعثت به اليها أخيراً .

عقد لي مجلس تأديب لاني ارسلت تلغرافاً للصحف المصرية دون ان اعرضه على المخابرات (هـ هـ هـ) (تهكم وسخرية) !

وقد قرر مجلس التأديب رفتي من خدمة الحكومة وهـذا ما كنت أنتظره من زمن بعيد لأتفرغ لواجبي نحو بلدي كما أريد ... (!)

كنت انوي السفر للكنانة ولكني لن اذهب فقـد أودع علي عبد اللطيف السجن وأشعر أن مسؤوليتي قد تضاعفت .

الإخوان بمصر يحتاجون لمال فارسل لعبد الله [1] ما يمكنك ارساله وسيعمل على ان يصل المال اليهم .

---

(١) عبد الله خليل .

معذرة فان وقتي لا يتسع للاسهاب – تحياتى لك . اخوك .

عبيد ١٩٢٤/٧/٢٠

قال محدثي : هاتان الرسالتان تصوران لك أى شخصية فذة كان ذلك الفتى الذى قتله الاستعمار ظلماً وعدواناً إذ لم يكتف بسجنه بل ارسله منفياً الى (واو) ليموت بفعل الاوبئة التي كانت تعج بها تلك المنطقة ، وقد تحقق فعلاً للاستعمار ما اراد ، اذ مات عبيد متأثراً (بالحمى السوداء) وجن رفيقه في المنفى وصنوه في الجهاد (على عبد اللطيف) وقدر له ان يعيش فاقد العقل حتى فارق الحياة !

وصمتنا فترة طويلة وأنا ادير فى ذهنى صوراً شتى لتلك البطولات الحقة .. ترى ما نصيب عبيد حاج الامين وزملائه اليوم من التكريم ؟ ولقد ضننا عليه حتى بإطلاق اسمه على شارع من شوارع عاصمة بلاده التى جاد بروحه من اجلها !.

أما محدثى فقد كان يعيش فى جو ذكرياته اذ ما لبث ان فاجأنى قائلاً : اتعرف ان الخليل فرح شعراً عربياً جيداً ؟ وانه اهدى لعبيد فى تلك الفترة قصيدة وطنية ما زلت احفظ اكثرها عن ظهر قلب حتى اليوم ؟ قلت اذن فاسمعنى ، وانطلق ينشد :

وقفٌ عليك وأن نأيتِ فؤادى ... سيّان قربى فى الهوى وبعادى
يا دارَ عاتكتى ومهدَ صبابتى ... ومثارَ أهوائى وأصلَ رشادى
كم فى سمائك للنبوغ وفى ثرى ... واديك كم للعبقرية وادي
لك كالطبيعة في الخمائل روعة ... وعليك من سحب الجلال هوادي
إيه فديتك يا بلادي . ألمّي ... من حاضرٍ بين القلوب وبادي
فعلى كلا الحالين نحن ودائع ... كودائع لك فى السحاب غوادي

رعياً لآباءٍ قضوا شوقاً ومـــا خفيت عليهم منك بيضُ أيادى
وافى الربيـع وفى ربوعك فتيةٌ كانوا بطلعتهم ربيـع النـــادى
زهرٌ كأن وجوههم من نبلها زهر الكواكب للعيون بوادى
أبناء يعرب حيث مجـد ربيعة وبنو الجزيرة حيث بيت أياد
متشابهون لدى العراكِ كأنمـــا نبتت رماحهم مـــع الاجساد
ماذا يقـــول المرجفون وكلنا فى الله والأوطان أهل جهاد
أصحاب مائدةٍ وأسرة مـنزلٍ ونتاج باديةٍ وفتيـــة وادي !
هذى ديارهم وتلــك ربوعهم فسقى ثرى واديك صوبُ عهاد

قلت انه لشعر رصين معجب ، لقد ادركت الآن لماذا كانت أغاني خليـل فرح تسمو عن المستوى المعروف بكثير فقد كانت ثقافته العربية معيناً ثراً أتاح له ذلك السمو على أقرانه مؤلفى الأغانى والفنانين .

قال نعم ألا ترى أغانيه تعيش حتى اليوم جديدة رائعة يجـــد فيها أبناء كل جيل صدى صادقاً لما يعتمل في نفوسهم من مشاعر واحاسيس، لقد فتنا فيذلك العهد بقصيدته الرمزية (عزة في هواك) وما عزة الا بلاده التي احبها وفتن بها وما زالت هذه الاغنية تتردد على كل الشفاه كأنما أنشئت اليوم ..

وهوم على مقعده ، وبصوته الاجش العريض اخذ يغنى :

عزّ فى هـــواك نحن الجبـالْ لى البخوض صفاك نحن النبالْ

* * *

عز ما بنوم الليـل محـــالْ أحسّب النجوم فـوق الرحالْ
أخلق الزاد كملْ أنا حالى حال متينأعود أشوفظبياتنا الكحال

* * *

عزّ ما سليت وطن الجمـال ولا ابتغيت بديلٌ غـير الكمال
وقلبى لي سواك ما شفته مـال خذيني باليمين أنا راقد شمال !

* * *

عزّ في الفؤاد سحرك حـلالٌ ونار هواك شفا وتيهك دلالٌ
ودمعى فى هواك حلو كالزلال تزيدي كل يوم عظمة أزداد جلال

* * *

عز جسمى صار زي الخـلال وحظي في الركاب صابو الكلال
وقلبى لسه ما عرف المـلال اظنه ود قبيل وكريم الخلال

* * *

عز ما نسيت جنة بـلال وملعب الشباب تحت الظلال
ونحن كالزهور فوق التـلال تشابي للنجومْ وانا ضافرْ الهلال!

* * *

عز شفتِ كيف نهضوا العيال وجددوا القديمْ صرفوا الخيال
روحك ام سماح سرى كالسيال شجى الفؤاد وحيا مسود الليال

* * *

عز ما اشتهيت نوم الحجـال ولا السوار بكى وفي يمينه جال
وعز فى الفريق لى ضيق مجـال قبيلةِ بتْ قبيلْ ملأ الكون رجال

* * *

عزّ في حزّا الخرطوم قبال وعزّ من جنان شمبات حبال
وعز لي ربوع ام در جبال وعزه فى الفؤاد دوى يشفي الوبال

* * *

وهب واقفاً محدقاً في وجهي وهو يقول منفعلاً : لو سمعتها آنذاك من فوز لطار لبك شعاعاً .. وابتسمت وانا اجمع اوراقي واعابثه قائلاً : ارى ما يزال لبك باقياً ولم يطر وقد سمعتها من فوز ! واسرعت قبل ان ينالني بسوء !

بين الجدِّ واللهو

- ٥ -

قال الشيخ .. كانت حياتنا تسير هادئة مطمئنة رغم ما كنا نحس به من رقابة ضد نشاطنا الخفى وقد عرفنا كيف نضلل هذه الرقابة ونفسد خططها .

وجاءنى ذات يوم خليل فرح وتحدث الى وهو يحاول اخفاء ابتسامة حائرة .. سأدعوك معى الليلة الى ليلة حمراء فى عرين الأسد .. ولم افهم ما يعنى حتى اخذ يقص على ما حدث ...

كان الشعور الوطني قد اخـذ يلتهب ... ونشطت جمعية اللواء الأبيض فى اخراج المواكب التي تتظاهر هاتفة بسقوط الاستعمار وحياة وادي النيل . . . وانتشرت الأغانى الوطنية تذكى حماس الجماهير وتلهب عواطفهم الثائرة ، وكانت للخليل اغنيات وطنية اشتهر أمرها وذاع صيتها وفي طليعتها اغنيته :

نحن ونحن الشرف الباذخ
دابى الكر شباب النيل

ووصل خبر الأغنية وصاحبها الى (قلم المخابرات) الذى كانت عيونه منبثة فى كل مكان تحصي كل شيء عدداً وكان يشرف على هذا الجهاز السرى آنذاك — بجانب الانجليز ، نخبة من السوريين تميزوا بالدهـــاء والطيبة وعلى رأسهم (صمويل عطيه) .

وذات يوم ، تلقى الخليل امراً ان يذهب الى مقابلة السيد صمويل عطيه . واسرع يلبي الطلب ، وهل كان في مقدوره ان يتخلف ؟ ولقي الرجل في مكتبه فتفرس فيه هنيهة ثم حياه وامره بالجلوس على مقعد بجواره فجلس ، ففاجأه قائلا بغير مقدمات ، اريد ان اسمع منك اغنيتك المشهورة :

نحن ونحن الشرف الباذخ

قال هذا وهو يحدق في وجه الخليل يحصي عليه كل خلجة او انتفاضة ، وادرك الخليل بسرعة خاطفة حقيقة الموقف ، لقد بلغ امر الأغنية للرجل الأول في المخابرات وهو الآن يستجوبه ليتحقق مما سمع ...

ولم يهتز الخليل ولم يضطرب بل اجاب في هدوء واطمئنان : إن المكاتب يا سيدي لا تصلح للغناء ، ثم ان عودي ليس معي وقد تعودت الا اغني بدونه ، فإن شئت ضربنا موعداً حيث تريد لاسمعك ماترغب في سماعه من اغانيّ .

وذهل صمويل لهذه الاجابة التي لم يكن يقدرها ، واحسّ انه امام رجل عظيم وضربا موعداً ، وكان الموعد في دار صمويل عطيه نفسه ... ومن هنا دعاني الخليل لأصاحبه ليغني في عرين الاسد .. ودخلنا الدار واستقبلنا الرجل استقبالاً حاراً كريماً وقد دعا بعض اصدقائه الشرقيين ليستمعوا معه لهذا الفنان السوداني ، وكان سخياً اذ حفلت المائدة بكل شهي مستطاب من طعام وشراب . . .

ولا اطيل عليك ، فقد غنى الخليل غناء شجياً رائعاً وطرب القوم واستبدت بهم النشوة واستعادوه الاستماع الى عمر بن ابي ربيعة (أعبدة ما ينسي مودتك القلب) ، حتى اذا بلغت بهم النشوة الذروة اطمأن الخليل واصلح من عوده والتفت الى صمويل قائلا ، هذه بغيتك ، وارتفع صوته قوياً اخاذاً وهو ينشد :

نحن ونحن الشرف الباذخ
دابي الكرْ شباب النيل

***

نحن الصَّوْلة ونحن الدولة
نحــن َبرَانا نحمي حمــانا
نحن نموت ويحيــا النيل !

***

يا نزلانا امرقــوا الزمّــة
كيف ينطاق هوان الأمة ؟
زُروا حلوقنا ،وشالوا حقوقنا
ديل عاوزين دمانا تسيل !
ما فيش تاني،مصري سوداني
نحن الكل ولاد النيــل

وانطلقت اقوم له بمهمة (الكورس) فقد اعداني بشجاعته – بل شاركني في مهمة الكورس بعض الضيوف الذين بدا عليهم الاعجاب بما يسمعون .

وتفرقنا عند منتصف الليل وقد شد صمويل بكلتا يديه على يدي الخليل مثنياً ومعجباً .. ومات التحقيق عن مصدر الاغنية منذ تلك الليلة .. ولعل الرجل قد أعجب بالفنان الشجاع فضن به على الانجليز .

وانتظمتنا دار فوز بعدها ، وكيف نطيق البعد عنها وهي منا قيد النظر

تتحفنا كل آن بجديد من فتنتها وفنها ، فكنا نراها كلما سعينا الى دارها جديدة الرواء وقد اعدت مجلسها بذوق رفيع كالذي تمناه حافظ ابراهيم :

يا غلام ! المدامَ والكأس والطا　　س وهيّىء لنا مكاناً كأمس

الرفاق هم الرفاق ، والوجوه التي عرفناها من قبل ... ان منهم اليوم من هو في قمة المجد ... ومن هم في قمة الثراء ، واخرون ايضاً في قمة البأساء ... شأن البشر والحياة .

ونبدأ بالتساؤل عن اخواننا الغائبين فما كانت تطيب لنا جلسة دون ان نلم بذكراهم ... و كانت رسائل الغائبين ترد الينا بغير انقطاع وتهزنا هذه المقطوعات التي يبعث بها الينا مكاوي يعقوب تشوقاً وحنيناً وينشدنا احد الرفاق قصيدة مكاوي التي سماها « آلام وآمال » وقد اصدر ديوانه فيما بعد يحمل هذا الاسم :

تذكّر أيام الحمى فتألمـا　　واصبح يهذي حسرة وتندما
غريبٌ يعاني لوعة البين والهوى　　بعيداً عن الاحباب يذري الاسى دما
اصيب بسهم البين في ميعة الصبا　　ففارقهم مستوهن العزم مرغما
واذا شام من تلقائهم ومض بارق　　تحطم من احشائه مـا تحطما
وبات بليل يعلم الله هـوله　　يعلل بالآمـال قلبـاً مؤلمـا
يقول لعـل الصبح فيه مبشر　　برجعي ، فيأتي الصبح أدهى وأشأما
ولن ترجع الايام عهد أحبـة　　به عبثت أيدي البلى فتصرما
وقفنا به آلامنـا وعهودنا　　تدور بـه الايام بؤساً وانعما
فـلله أياماً لنـا ولياليا　　بدت في كتاب الدهر وشياً منمنما
كذلك حالي في اغترابي فإن أؤب　　أؤب بفؤاد بين جنبي أكلـما
ونفس ترى الدنيا لديها رخيصة　　فليست تبالي ان تعيش وتسلما
وكم قائل والحزن ملء فؤاده　　أما نستطيعُ اليوم ان نتقدما

فقلت له شمر ، فاما منية نلاقي ، وإما ان نجل ونكرما
واياك لا تيأس فما اليأس عادة لمن رام ان يرقى الى المجـد سلما

ونشرب نخب ذكراه وندير انماطاً من الحديث الشهي وننشط لسماع فوز والخليل ، وللخليل اغنية جديدة ، كان يدندن بها منـذ ايام ، ولقد كانت اغانيه كما قلت جديدة على مجتمعنا معنى واداء ، ونسمع منهما في هدوء الليل وسجوه :

ميل وعرّض كثر أمراضي
في هواكم بالهوان راضي

ويلتفت الى الشيخ ليقول : أسمعت هذه الاغنية ؟ قلت : نعم ، وانا صغير في الكتاب .

ونزع منظاره وحدق فيّ ثم انفجر ضاحكاً وهو يقول: صغير في الكتاب؟... يا مكار !

قلت : أليس لها قصة في حياة ذلك الفنان ؟ قال: نعم فكل اغنية لها قصة في حياته ، اما هذه فنستها نبعت من حلقة من حلقات الرقص ...

فقد كانت بيوت الاعراس في عهدنا مسرحاً مباحاً لاستعراض الفتيات الحسان وهن في حلبة الرقص ، وكنا نغشى بيوت الاعراس بغير حساب اذ لم يكن غشيان حلبات الرقص في بيوت الاعراس امراً معيباً ... وكثيراً ما كان العريس يحتفي بنا احتفاء خاصاً فيهيء لنا جلسة مريحة نستطيع فيها ان نشهد الرقص ونسمع الى المغنين يصفقون للفتيات بأيديهم تصفيقاً ينسجم واللحن وتوقيع الرقص ... ولم يكن هناك شيء في أيدي المغنين من ادوات الفن الحاضرة الا التصفيق فقط مع اللحن المنبعث من اصواتهم . . شيء ساذج الا انه كان مطرباً لشباب ذلك العهد خاصة عندما تنضو الفتاة الثوب عن رأسها وتلقي بجيدها للوراء وتبرز صدرها في وضع فاتن وهي تدنو رويداً رويداً في خطوات تتسق ولحن الأغنية من حلقة المغنين والشباب يلتهمونها بابصارهم .

وفي حلبة رقص كهذه ، رأيناها وفتن بها الخليل ، ولم تكن الا هذه النظرات البريئة وأحاديث القلوب التي تم عنها الأسارير ... وظللنا نتردد على حلبة الرقص في تلك الدار كل مساء حتى انتهى العرس وانفض السامر واختفت الفتاة الا من قلوبنا وخواطرنا ، واخلد الخليل الى عوده وفنه وأخرجها اغنية من الاعماق ، احتفلنا بميلادها تلك الليلة في دار فوز ، وكان الخليل يغني ونحن نقوم له مقام (الكورس) او (الشيالين) بلغتنا في ذلك الزمن ... وفوز تملأ الجو عطراً ومرحاً ورقصاً ..

ونهض الشيخ الى منضدة صغيرة فأدناها وهو يهمهم بالاغنية ويقرع المنضدة باصابعه على نغمات اللحن وانطلق بصوته الاجش يقلد الخليل وهو يغني : ميل وعرض ...

والتفت الي آمراً ان اقوم له بمهمة الكورس ، فقلت احشفاً وسوء كيل ؟ اتسمعها انت من الخليل وفوز واسمعها انا منك ومني ؟ ... واعداني مرح الشيخ وهو يغني وأصابعه توقع اللحن على المنضدة ، وانطلق يؤدي الاغنية كما سمعها منذ اكثر من ثلاثين عاماً :

جن ليلي وهاجت اعراضي سح دمعي وجاشت اغراضي
هذا بعض البي عدا امراضي وانت داري وغاضي ماك راضي

* * *

بالي جسمي ومن زمان قاضي ها هو حبك بين انقاضي
هدّ روعك اوعه لا تقاضي وما بشارعك ما بكوس قاضي

* * *

لسّه تايه في الدلال ماضي هل تناسيت حبنا الماضي
فوق صحيفة قلبي كم ماضي ماضي خاتم لحظك الماضي

* * *

المضلل رشدي يا هادي والمكتر في الهوى سهادي
الجبين الفي الظلام هادي والقوام السيده متهادي

***

يا حبيبي فــيم تعذيبك طول عذابي وهجري ما بفيدك
روحي في ايدك قل وحاة ريدك امتي ضاعت ؟ يا سلامة ايدك

***

يا للشيخ عندما تعبث به الذكريات، لكم بعث في نفسي الشجي صوته الهادىء العميق ... اين رفاق الامس وحلبات الرقص يلهو فيها الشباب لهواً بريئاً محبباً ! ألا ما اسرع ما تمر الايام !

بينَ الجدِّ واللهو

- ٦ -

رحم الله المتنبي حين قال :

ذكر الصبا ومراتــعُ الآرام جلبت ِحمامي قبل وقت ِحمامي .

فلقد أشفقت على الشيخ هذه المرة وهو يقص عـليّ ألواناً من ذكريات الصبا وأفانين من لهو الشباب وفي عينيه رقراق من دمع يجول . قال :

كان مجتمعنا في تلك الفترة قبل اكثر من ثلاثين عاماً خالياً من هذه الملاهي العامة التى يؤمها الناس ويجدون فيها متنفساً ، كان مجتمعنا جافاً إلا من تلك الجلسات الخاصة التي تعقد في الدور خلسة لانتهاب المسرة ، فلا دور للرياضة ولا أندية ولا حدائق عامة . وكانت هناك دار وحيدة للسينما وكانت صامتة لم تنطق بعد . يؤمها بعض الصبية والشباب احياناً ، وينظر اليها الشيـــوخ شذراً كأنها رجس من عمل الشيطان !

ودورنا وشوارعنا في عاصمتنا الوطنية مظلمة الا ما ينبعث من مصابيح الغاز فالكهرباء ليس لها من اثر الا عام١٩٢٨ ، والماء نجلبه من الآبار بعضها آبار خاصة داخل المنازل وبعضها عام على جانب من شارع ما ليستقي منها الناس .

والمواصلات داخل المدينة بالحمير فقط، ولم يعرف التاكسي طريقه الى المدينة وقد كانت اول عربة تاكسي تشهدها أم درمان عام١٩٢٨ وصاحبها رجل يوناني.

وكان من المناظر المألوفة ان تجد في المحطة الوسطى بأم درمان مجموعة من الحمير المسرجة الملجمة وقد طوحت على بعضها (الفراو) الزاهية بمختلف ألوانها ، وحولها المكارون كل يقف بجانب حماره، فما يكاد يستهل (زبون) حتى يتسابقون عليه ويمتطي (الزبون) الحمار متجهاً الى الحي الذي يريد والمكاري يخب خلفه حتى يبلغ به غايته !.

بجانب هذا كان سراة المدينة وأعيانها يتبارون في اقتناء الحمر الجيدة خاصة والمستوردة من « بربر » التي اشتهرت بتوليد نوع ممتاز منها ، ولكم نشاهد هؤلاء العلية من سراة المدينة على حميرهم تركض بهم نحو دار للعزاء أو مشاركة في فرح أو استجابة لدعوة خاصة ، وقد ساروا في طوابير صغيرة تظهر من هنا وهناك متجهة الى مقر الدعوة ... وخارج الدار تحتشد هذه الحمر وقد امسك بها العديد من الصبية ... واحياناً تجد بعض الدور قد أعدت في بناء السور حلقات مستديرة من الحديد ألصقت في السور متراصة على ابعاد متناسبة استعداداً لاستقبال الزوار في المناسبات الكبيرة التي يقيمها رب الأسرة حتى اذا جاء المدعوون او الزوار لم يحتاجوا الى صبية لحفظ الحمير اذ يربطونها في تلك الحلقات ويدخلون الدار مطمئنين !.

وفي أم درمان ترام واحد يسير بالبخار ، يشقها من المحطة الوسطى حتى مشرع أبو روف ليصل بالركاب الى (معدية شمبات) وخط آخر من المحطة الوسطى يقل الركاب الى حيث تقوم الآن حديقة الريفيرا وهناك يغادرون الترام ليأخذوا (المعدية البخارية) للخرطوم حيث ينزلون عند حدائق المقرن في ارتقاب ترام البخار الآخر الذي يقلهم للمحطة الوسطى بالخرطوم .

كانت العاصمة المثلثة عدا الخرطوم تشكو فقدان النور والماء والمواصلات الا ما وصفت ولست استطيع ان اصور لك مدى تدافع الرجال شباباً وكهولاً وصبية ليشاهدوا اول بسكليت يطوف بالمدينة وكان لأحد كبار الموظفين البريطانيين

كان الناس يحدقون فيه معجبين، اما الصبية والشباب فكانوا يركضون خلفه حتى يصل الى (المعدية) عند محل حديقة الريفيرا الحالية ، وكذلك كان يفعل صبية الخرطوم عندما يهل عليهم من هناك !.

اما السيارات الخاصة فلم تكن الا لقليل جداً من كبار الموظفين البريطانين، وكان اكثرهم يستعملون الخيل في تنقلاتهم من بيوتهم الى المكاتب الرسمية ، كان هذا حتى بعد عام ١٩٢٨ بقليل .

ولا تسخر مني اذا ذكرت لك ان المدينة كلها كانت تحتفي احتفاء عظيما (بالحوليات) وتحتشد لها احتشاداً لامثيل له ، وخاصة تلك التي كان يقيمها خلفاء السادة الميرغنية .

الا اننا كنا نعنى عناية خاصة بحضور حولية السيد احمد بن ادريس التي كانت تقام في حي (الموردة) وفي هذه الحوليات تنتشر حوانيت الحلوى والألعاب المختلفة بجانب حلقات الطرق الصوفية العديدة وتمتلىء الشوارع حتى تضيق بسيول الجماهير — وتقف النساء على جانبي الطريق وحول حلقات الاذكار من بعد قريب متلثمات الا ما يومض من العيون وتهتز له قلوب الشباب ، ولكنهن كظباء مكة صيدهن حرام !

ولم تكن عنايتنا نحن خاصة بحضور حولية السيد ابن ادريس للحشود الضخمة التي كانت تجتمع لها فحسب بل لحرصنا للاستماع لهذين الأستاذين المصريين اللذين كان مقيمو الذكرى يستقدمونهما من مصر لتستمتع الجماهير بصوتيهما الرائعين .. وكان خليل شديد الاهتمام والتعلق بهما حتى اذا اشعنا رغبتنا في الاستماع اليهما وهما ينشدان هذا الشعر الصوفي الحلو ، عملنا على الانفراد بهما في دار خاصة وشرعا يعلمان خليل فرح التوقيع على (العود) ومن هذين الرجلين الفنانين الصوفيين تلقى الخليل اول دروسه في العزف على العود وهو اول مغن

سوداني يتقن العزف على العود عزفاً رائعاً أخاذاً فكان البون بينه وبين مغنيي ذلك العهد بعيداً شاسعاً سواء في ثقافته العامة ام ثقافته الفنية .

ولعل مصدر هذا الفارق أنه كان يعيش بين مجموعة منتقاة من المثقفين الذين صقولا ذهنه وفنه فتسامى إلى آفاق عليا فنظم بجانب الأغاني شعراً عربيًا جيدًا ينم عن ثقافة عربية حسنة.

وظلت حياتنا تسير هادئة حيناً صافية حيناً مضطربة حيناً ما حتى كانت الكارثة يوم فوجئنا بأن الخليل قد اصيب بذات الرئة .. وتلقى الخليل النبأ في شجاعة فائقة واعد العدة للسفر الى مصر للراحة والعلاج :

وفي دار فوز أقمنا له ليلة الوداع ، ويا له من وداع باكٍ . وان كان قد أرغمنا بشجاعته على ان نضحك وان نمرح وملء قلوبنا شجن مرير حتى اذا اوشك الليل ان يدبر امسك الخليل بالعود ونظر الينا نظرة حانية ثم قال الا اسمعكم اغنية الوداع ؟ لقد بدأت انظم بعض ابياتها ولعلي اتمها في القاهرة وارهفنا اسماعنا واخذ هو يدندن كعادته مع نغمات العود ويردد :

ما هو عارف قدمو المفارق — يا محط آمالي السلام

ثم يلتفت الى فوز والى الرفاق ويغني :

يا جميل يا نور الشقايق — أملا كأسك واصبر دقايق
مجلسك مفهوم شوفو رايق — عقده ناقص زول ولاتام ؟!

أتراه كان ينعي نفسه تلك الليلة ؟ اما تراه يتساءل تساؤل الحائر الملتاع فيقول : ايها الجميل الفاتن ، إملأ كأسك ، ولكن لا تدن منها ! اصبر قليلاً وتفقد الرفاق ، اما زال عقدهم مكتملاً ام خلا مكان احدهم فنقص العقد واحداً ؟ !

ونودعه عند الفجر وفي نفس كل منا غصة ولوعة .. ويسافر الى القاهرة يلتمس الشفاء ، ولا شفاء ، فقد تمكن الداء الوبيل من صدره واحس بدنو اجله ، فأكمل هناك قصيدة الوداع (ما هو عارف قدمو المفارق) وفيها تلك الصور الوجدانية الرائعة لهذا الغريب الملتاع وهو يرقب طائرة البريد بين السودان ومصر فيذكر وطنه ويأسى لحاله

يا بريد الجو فوق حالق ميل على الروح ليها خالق
قل لي كيف امسيت وانت عالق مقرن البحرين كيلو كام ؟

كان يتساءل ، وهو العارف : اي مدى بعيد بينه وبين (مقرن النيلين) في العاصمة حيث مشارف اللهو وملتقى الأحبة ، ويطوف في اغنيته ربوع وطنه حتى يقف خاشعاً خشوع متصوفي الوطنية عند ضريح الامام المهدي فينشق منه على البعد أريجاً عطراً :

في يمين النيل حيث سابق كنا فرق اعراف السوابق
في الضريح الفاح طيبه عابق السلام يا المهدي الامام

ويلح عليه اصدقاؤه في القاهرة ان يسجل بعض اغانيه في (اسطوانات) وتأبى عليه نفسه الكبيرة ان يتكالب ، فيسجل اغنيتين فقط ، احداهما قصيدة عمر بن ابي ربيعة التي اجاد تلحينها وتوقيعها .

أعبدة ما ينسى مودتك القلب ولا هو يسليه رخاء ولا كرب

لأنها تقترن في نفسه بتلك الذكريات الحبيبة مع الرفاق في دار فوز حيث انشدهم اياها لأول مرة ، ولكأنه إبن سُريج مغني الحجاز بعث من جديد يخلب القلوب بغنائه شعر عمرو.

والاخرى أرضى فيها مشاعره الوطنية فسجل (عز في هواك) التي تغنى

فيها بوطنه وهي من شعره الخالد - وفي هذه الاغنية يسكب ذوب نفسه في تلك (الآهات) المحرقة الموجعة التي كان ينفثها من الاعماق في ختام الاغنية ، والتي احس كل من استمع اليها ان الخليل قد شعر بالنهاية المحتومة .

ويعود الى بلده ، والعلة تنشب مخالبها في صدره وهو يغالبهـا بقوة عزيمته وصدق ايمانـه حتى صرعته وهو في مستشفى النهر بالخرطوم في يونيو عام ١٩٣٢ .

وحملته الجموع الزاخرة الباكية الى قبره واقيم له مأتم في كل قلب من قلوب أولئك الذين عرفوه فأحبوه والذين استمتعوا بفنه الراقي وهم كثر .

ويتبارى الادباء والشعراء في رثائه ويحتشد الخريجون في ناديهم بأم درمان يؤبنونه ويكرمون الفن والوطنية في شخصه ، ويقف الاستاذ عرفات محمد عبدالله ، صديقه وصفيه ومن زملائه في الكفاح فقد كان الخليل احد شباب عام ١٩٢٤ اذ جعل من فنه واغانيه ترانيم للحركة الوطنية شدا بها الحداة وغنتها الجماهير في كل مكان ، بكاه عرفات وتحدث عنه حديثاً عظيماً أسال العبرات ، وتعاقب الخطباء والشعراء اذكر منهم الاستاذ اسماعيل العتباني (صاحب الرأي العام الآن) والأستاذ محمد أحمد محجوب الوزير السابق الذي رثاه بقصيدة مطلعها:

حل في الرمس خليل واستتر   شاعر فـذ وفنـان اغر

وجاء فيها :

ملك الحب عليـه قلبه   ليس في الحب هوان او ضرر
عـلم الناس حجاهم قبلنـا   ان في الحب حياة للبشر
فعظيم من يناجي ربـه   في جمال الخلق او حسن الزهر
ويرى الكون جمالا باهراً   صنع جبار اذا شاء قدر

لو نظرنا لخليل برهـــة   لوجدناه عظيماً مستتر
كان في الحب صبوراً صادقاً   فهو بالحب تغنى واشتهر
كم تغنى بفتاة واحتسى   في كؤوس الحب ما يطفي الشرر
وتفانى في هواها زمنـــاً   يرصد الأشباح من خلف الحجر!
قد احب الكون في ذروته   وأتانا بالجميـل المبتكر
وأرانا في (ضواحيه)[1] هوى   وفنوناً من غرام وذكر
وأرانا نفس حر فاضل   يوم غنى (عزة) ثم انفجر!
بك يا عزة أعني موطني   ففداك النفس من ويل وشر
بعث الأقوام من رقدتهم   فتسامى للمعالي من عثر
ذاك يا اصحاب من نبكي ومن   فيـه للنشء حيـاة وعبر
فلنخلد ذكر فنان مضى   بعد ان خلد فتان الصور

اما الرفاق في دار فوز فكان لهم مأتم واي مأتم ، وبكاه شاعرهم مكاوي يعقوب بهذا القصيد :

أبى الله بعد البين ان تتلاقيا   وان تحظيا بالود الذي كان باقيا
تملك قلبينا فكان علاقـة   على الدهر تقوى كلما اشتد عاتيا
وما كنت في ارض الكنانة ناسياً   وما كنت في ارض الجزيرة ساليا
صبوت الى مهد الصبا فبكيته   اسى من صميم القلب يدمي المآقيا
تناشدنا ايامـه وعهوده   وترسل حبات القلوب اغانيا
ففي عز قلب شفه الوجد والنوى   يحن لأم درمان اسيان باكيا
دوت انـة منه فكانت مناحة   على عهدك الماضي تبذ المراثيا
فيبكيك من فرط التأثر فتية   على كمـد يرجون عودك ثانيـا
وعدت ولكن بعد ان غالك الضنى   عليلاً هزيلاً تطلب الموت شافيا

---

(١) يشير الى اغنية خليل -

في الضواحي وطرف المداين   يـلـّلا ننظر شفق الصباح

فيا لشباب هده الموت مسرعاً تساقط في ريعانـه متداعيـا
هوى نجمه حتى توسد حفرة وقدكان يغشى صفحة الارض زاهيا

وبعد فترة صمت طالت كدنا ننسى انفسنا ، عدت اسأله ألم يلتئم بعد سامركم في دار فوز ؟ قال نعم ، حدث ذلك اكثر من مرة بعد ان ظننا ان الجرح قد التأم ، ولكن كنا دائماً نحس بوجوده بيننا وبصوته الساحر يناجينا :

يا جميل يا نور الشقايق املا كاسك واصبر دقايق
مجلسك مفهوم شوفو رايق عقده ناقص زول ولا تام ؟

ولقد انتثر العقد وفقد واسطته وتفرقنا أيدي سبأ ، ولحق بالخليل من لحق وبقي من بقي يجتر غصص الذكريات :

قلت واين اليوم (فوز) .. قال في كنف رجل كريم عطوف غفر لهـا الماضي وكفل لها الحاضر وامن لها المستقبل فاخلصت له الود ، فهي اليوم كما قال ابن ابي ربيعـة :

واعجبها من عيشها ظلُّ عرفة وريان ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شيء يهمها فليست لشيء آخر الليل تسهر

فلا لقاء بيننا الا في هذه الخواطر ، لقد كانت ملاوة من العمر لم نبخل فيها على انفسنا وبلادنا بما يطيب .

ولقد خبت الشعلة وبقي منها رمق يلح علينا . .رمق كما قـال توفيق صالح جبريل :

يقظـة نفسية خمدت هل سيحيا ذلك الرمق ؟

إنفجار الثورة

قال صاحبي : ..

كان لا بد لهذا المرجل الذي كان يغلي في النفوس المكبوتة المقهورة ان ينفجر..

فقد صحونا ذات يوم في أم درمان وعلى التحديد يوم ١٩ يونيو ١٩٢٤ على نبأ أليم يحمل نعي عبد الخالق حسن مأمور أم درمان ، ذلك الرجل المصري الشهم الذي احبه سكان المدينة حباً عظيما ، فخف الى تشييع جثمانه عدد قدّره البوليس كما جاء في شهادة المستر ولس ملاحظ بوليس أم درمان أمام محكمة جماعة اللواء الأبيض بعشرين الف شخص ، وهو عدد إذا قدر بسكان المدينة آنذاك أيقنت انه يكاد لم يبق شخص قادر لم يخرج لوداع هذا الرجل النبيل . وما كاد جثمانه يوارى تحت الثرى حتى انبرى صديقه الشاب توفيق وهبي القاضي بالخرطوم والذي عرفناه جيداً في كثير من المناسبات خطيباً مصقعاً وممثلا بارعاً ووطنياً ثائراً ، انبرى يؤبنه في صوت مؤثر وعبارات صادقة بليغة فأشجى وابكى. وكان هذا آخر عهدنا به اذ أمر بمغادرة السودان مع عديد من الموظفين المصريين . وبدأ المشيعون ينصرفون وإذا بصوت الشيخ عمر دفع الله التاجر المعروف بأم درمان يرتفع في قوة وعنف وهو يهتف .. يسقط الإنجليز .. تحيا مصر . وكان هذا الصوت الداوي بمثابة الشرارة التي تلقى في الهشيم فسرعان ما تجاوب معه عدد ضخم من المشيعين .. وكانت اول مظاهرة تشهدها مدينة ام درمان .. وانفجر المرجل بعد ...

وتصدى رجال اللواء الأبيض للمعركة ونظموا جموعهم بحيث تخرج مواكبهم هاتفة من مختلف الانحاء ، وقد جعلوا قيادة هذه المواكب بالاقتراع بينهم فمن

خصه الاقتراع بالقيادة هيأ نفسه بالغد لقيادة المظاهرة والصمود امام البوليس فلا يختفي ولا يهرب مهما حدث حتى يلقى عليه القبض .

ونظمت قيادة لهذه الجمعية صفوف القيادة ، صفاً بعد صف ، في كل صف خمسة من القادة ، فإذا قبض عليهم حل بعدهم الصف الثاني وهو من خمسة ايضاً ، وهكذا .

وشهدت العاصمة المثلثة سلسلة من المظاهرات الوطنية بعضها ينظمه اللواء الأبيض وبعضها تخلقه ظروف جماهيرية في مناسبة ما . واخـــذت الاعتقالات تتوالى وامتلأت السجون والحركة تزداد قوة وعنفاً ، واودع عـلي عبد اللطيف وزملاؤه سجن كوبر .

وكان اروع مظاهرة شهدتها العاصمة تلك التي خرج فيها طلبة المدرسة الحربية في الخرطوم بملابسهم الرسمية يحملون السلاح مزودين بالذخيرة وذلك في صبيحة يوم السبت ١٩٢٤/٨/٩ حيث طافوا بأهم شوارع العاصمـة ، وكان الشعب يحييهم والنساء يزغردن ، وقد قصدوا منزل علي عبد اللطيف الذي كان معتقلاً هو وقادة الجمعية في سجن كوبر ، فأدوا لدار البطـل السجين التحية العسكرية وخرجت لهم زوجته وتلقتهم بالزغاريد !. ومنها اتجهوا الى سراي الحاكم العـــام ثم الى الخرطوم بحري حتى بلغوا سجن كوبر وهناك امام السجن وقفوا وادوا التحية العسكرية لسجناء الحركة الوطنية خلف القضبان.. ثم قفلوا راجعين الى داخلياتهم وتحصنوا بها . وكادت تحدث بينهم والجيش الإنجليزي الذي خف اليهم وطوق الداخلية ملحمة دموية مؤسية لولا جهود بعض الضباط الوطنيين الذين استطاعوا ان يتسلموا السلاح من الطلبة ، فسهل القـــاء القبض عليهم واعتقالهم لفترة في ماخرتين وقفتا بهم في عرض النهر حتى تمت محاكمتهم : وكان طلبة الحربية اثناء مظاهراتهم ينشدون الأغاني الوطنية التي انتشرت تلك الأيام وسنخصها بحديثنا فيما بعد .

وقد تولى الدفاع عن الطلبة اللواء محمد فاضـــل باشا (مصري) والاستاذ امين الشاهد (المحامي) وكان الاستاذ الشاهد يقوم بالدفاع عن المتهمين الآخرين من قادة اللواء الابيض ايضاً ولكن حكومة السودان ضاقت به ذرعاً فأمرتـه بمغادرةالسودان في اربع وعشرين ساعة واخرجته حتى حدود السودان مخفوراً!

ومن الخير – اثباتاً للتاريخ ، ان نثبت هنا نص الدفاع الذي اتفـــق عليه الطلبة وادلوا به عندما استجوبوا عن خروجهم في تلك المظاهرة :

« علمنا ان هناك مساعي ترمي لفصل السودان عن مصر والى تجزئة وادي النيل ، وعلمنا ان مليك وادي النيل (فؤاد الاول) حصل التعريض به في محكمة جنايات الخرطوم وعلمنا بالمظالم الاستعمارية التي تقذف بها يد الاستعمار في هــذه البلاد فأصبنا بها في انفسنا واموالنا وارواحنا واهلينا. وسمعنا بذلك كله وسمعنا بغيره فأردنا الانقف مكتوفي الايدي ولم نجد سبيلا ادعى للسلم واكثر مشروعية من الاحتجاج السلمي فخرجنا متظاهرين معلنين استياءنا هاتفين بحياة وادينا – وادي النيل المقدى ».

وقد ترافع عنهم اللواء فاضل باشا والاستاذ امين الشاهد ، وقد جاء في ختام مرافعة الاخير ما نصه :

« ...انني لا اطلب البراءة لان التلاميذ لم يكلفوني بطلبها، ولا اطلب الحكم عليهم فإن هذا يخص المدعي . ولكني اقول انهم كلفوني ان اقوم لدى حضراتكم برجاء . ان غاية ما يرجونه وكل ما تطمح اليه نفوسهم وقبل ان تقولوا كلمتكم – ذلك الرجاء هو الا تطعنوا في وطنيتهم او احترامهم للقانون » !

أما الاتهام وقد مثله البكباشي ماكدوجل من ١٠ جي أورطة سودانية ، فقد وجه التهم الآتية :

اولاً : أنهم رفضوا الفطور صباحاً وتوجهوا الى المظاهرة بالمدينــة وهم مسلحون بالبنادق والسنج .

ثانياً : انهم امتنعوا عن العودة الى قشلاقـــاتهم رغم المساعي والأوامر التي صدرت من ضابطهم الاعلى ولم يعودوا الا بمحض ارادتهم .

ثالثاً : انهم رفضوا تسليم البنـادق بعد عودتهم للقشلاق رغمـاً من الاوامر الصادرة اليهم من ضباطهم .

رابعاً: انهم بالاشتراك قاوموا سلطة عسكرية باتخاذهم محلات دفاعية بالمدرسة ونظراً لكونهم مسلحين بالبنادق والجبخانة عملوا شكل كردون حـول مباني المدرسة وانهم ومعهم الاسلحة والذخيرة كانوا مصوبين بنادقهم وهددوا جنـود الجيش الإنجليزي الذي كان حول المدرسة بالضرب بالنار اذا اقترب منهم احد.

مما ذكرته من الاسباب يجعلني اعتقد ان ما فعله التلاميذ يعتبر فتنة .

وقد كانت المحكمة العسكرية التي نظرت قضية طلبة المدرسة الحربية مكونة من (الاميرالاي توتس بك مدير الاشغال العسكرية رئيساً - الاعضاء - القائمقام كارليل بك من القسم الطبي ، القائمقام محمد بك يحيى قومنـدان ٤ جي المصرية البكباشي لورنس من فرقة خط الاستواء ، البكباشي كريـــج من بطاريـة اتومبيلات المدافع المدرعة، بكباشي محمد توفيق من الطوبجية المصرية ،بكباشي سرور رستم ۲۱ جي اورطة سودانية، بكباشي فكري ١١ جي اورطة سودانية بكباشي خلة عبد الملك ٣ جي اورطة مصرية وتولى مهمة نائب الاحكام العسكرية البكباشي ادير من السواري والبيادة الراكبة) .

وقد بدأت عملها يوم ١٩٢٤/٨/٢٧ وكان عدد طلبة الحربية ٥١ طالباً أدينوا كلهم بالسجن فترات كان اقصاها خمس سنوات ، ثم صدر العفو عن بعضهم بعد

ان قضى فترة في السجن ، وأعيدوا فيما بعد إلى العمل في خدمة الحكومة أخيراً في غير وظائف الجيش فاستوعبت مصلحة الزراعة عدداً منهم ، كذلـــك قسم الكتبة بوزارة الداخلية ووظائف اخرى مدنية مماثلة لهذه .

ولم يكد الحديث في المجتمع يهدأ بعض الشيء عن مظاهرة طلبة الحربية حتى فوجئت العاصمة بصوت الرصاص يدوي من الجانب الشرقي منها ، وعرف ان حفنة من الضباط والجنود أرادت ان تجتاز كبري النيل الابيض في طريقها للخرطوم بحري بغرض الاتصال بالجيش المصري الذي كان يتأهب لمغـادرة السودان نهائياً اثر الازمة الإنجليزية المصرية المشهورة عقب مقتل السير لي ستاك حاكم السودان العام بمصر وانذار انجلترا للحكومة المصرية بخروج الجيش المصري من السودان في اربع وعشرين ساعة .


عبد الفضيل الماظ

كانت القوة السودانية المتجهـة صوب الخرطوم بحري تتكون من نحو مائة جندي بقيادة عـدد من الضباط هم عبد الفضيل المـاظ وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وعـلي البنا وسليمان محمـد ، مزودين بالسـلاح والجبخانة ، وعند الكوبري وجدوا قوة من الجنود الإنجليز تسد الطريق كما وجدوا الكوبري مفتوحاً مما يتعذر اجتيازه .

واطلقت القوة الإنجليزية رصاصها في الهواء ارهاباً ، واسرع رجال القوة السودانية فتحصنوا بالجداول التي في

طرف الشارع وصوبوا نيرانهم الحامية نحو الجنود البريطانيين فأردوا عدداً منهم في الحال !

ودارت الملحمة بين الفريقين من نحو الساعة الخامسة من مساء الخميس ٢٤/١١/٢٧ حتى ضحوة يوم الجمعة ١٩٢٤/١١/٢٨ .

حسن فضل المولى

وقد نفدت الذخيرة من الجنود السودانيين قرب منتصف الليل فأخذوا يتسللون ويختفون. وقد استشهد داخل مباني المستشفى العسكري (مستشفى النهر) الضابط عبد الفضيل ألماظ بعد ان احتمى بهذا المستشفى وأخذ يصلي الجنود الإنجليز وابلاً من رصاص (المكسيم) ولما لم يتمكنوا من الاقتراب منه امرت الطابية الإنجليزية ان تلقى على المستشفى القنابل الثقيلة من بعد ، فهدمت جانباً من المستشفى على رأس البطل ! ، ووجدت جثته فيما بعد تحت الانقاض وهو ممسك بالمكسيم بكلتا يديه كأنه ما زال يواصل المعركة !.

وقد تمكن الضابط سيد فرح من التسلل في منتصف الليل بعد نفاد الذخيرة وعام النهر من شاطىء الخرطوم بحري حيث تخفى في زي البحارة وقد قدم له ملابس البحار احد عمال الوابورات ثم اتصل بالجيش المصري المرابط هناك وتمكن من الهروب معه الى مصر وظل مختفياً متنقلاً في القرى المصرية منتحلاً شخصية مغايرة حتى أبرمت معاهدة ١٩٣٦ الإنجليزية - المصرية واعلن العفو عن المجرمين السياسيين فأظهر نفسه وعفي عنه .

واعتقل بقية الضباط وقدموا لمحكمة عسكرية لم يعرف احد ما دار فيها

وحكم عليهم بالإعدام رمياً بالرصاص .. وهم الضباط حسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم، وسليمان محمد وعلي البنا .


ثابت عبد الرحيم

وفي اليوم الخامس من شهر ديسمبر ١٩٢٤ نفذ فيهم الإعدام. ويصف اليوزباشي قسم السيد خلف الله، وكان من بين الضباط المتهمين المعتقلين والذين جيء بهم ليشهدوا اعدام زملائهم تخويفاً وارهابا، يصف هذا المشهد الرهيب فيقول :

« في الفضاء الواقــــع بين ثكنات الجيش ووابور الماء ببحري رأيتهم قد ركزوا اربـــع خشبات كل واحــدة منها على شكل صليب، وعرفت في الحال انها خصصت لإعدام زملائي الضباط الاربعة . واحتشد كبار الضباط البريطانيين في العاصمة وعلى رأسهم هدلستون باشا الذي جاء فيما بعد حاكماً عاماً للسودان . كما احضر بالامر بعض الضباط السودانيين لحضور المشهد كل منهم يمثــل (بلوكا) وهم الضباط المرحوم احمد عقيل والمرحــوم بلال رزق وحامــد صالح الملك وعبد الله خليل، وكلهم في ازيائهم الرسمية وعلى بعد قليل من الخشبات المنصوبة لإعدام الابطال رابط عشرون جندياً سودانياً من فرقة السواري التي كانت ترابط في ثمبات خلال الثورة حفاظاً على الامن واستعداداً للطوارىء – وخلف هؤلاء الجنود رابطت قوة من جنود الجيش الإنجليزي مدججة بالسلاح وعلى اهبة الاستعداد للطوارىء فيما بعد لو


سليمان محمد

رفض جنود السواري اطاعة الاوامر او أي احتمال آخر ! .

وحوالي الساعة السابعة صباحا جيء بالضباط الأربعة تحرسهم ثلة من الجنود البريطانيين شاهري السلاح (بالسونكي) وقد قيدت أيدي الضباط بالسلاسل ، اما ارجلهم فكانت طليقة وقد ارتدى كل منهم حلته العسكرية وعلى رؤوسهم قبعاتهم تحمل علامات فرق الجيش التي كانوا بها وعلى اكتافهم (الدبابير) التي تشير الى رتبهم العسكرية وكان لباسهم الرسمي (ردى وسترة كاكي) .

كانوا يسيرون في خطى ثابتة ورؤوسهم شامخة عالية كأنهم يتحدون الموت وكانت أبصارنا تتبع كل خطوة من خطواتهم العسكرية الثابتة المنتظمة وبودنا لو نفديهم من هذا المنظر الرهيب !...

وتقدم صول انجليزي اسمه (جلبرت.) من الضابط حسن فضل المولى أولاً وقاده الى اول خشبة ونزع عنه قبعته ثم جعل ظهره موالياً للخشبة ثم مدد له يديه خلف الخشبة ودلاهما الى اسفل وربطهما عمودياً على الخشبة . وأخرج قطعة قماش كانت في جيبه وعصب بها عيني الضابط حسن ولف عليها بخيط رفيع ضماناً لتثبيت قطعة القماش على العينين .

كل هذا والضابط البطل الشهيد رابط الجأش مثلاً أعلى للثبات والرجولة فلم يغير وقفته العسكرية الشامخة ولم تختلج من جسمه قطعة ! ، وكان كل زملائه في مثل موقفه وشجاعته لم ينبسوا ببنت شفة ولم تتعثر خطواتهم وهم يتقدمون في خطواتهم العسكرية الباسلة نحو الاخشاب التي اعدموا مشدودين عليها ؟

وبعد ان تم ربط الضباط الاربعة على النحو المذكور وضع الصول جلبرت قطعة قماش سوداء مستديرة على منطقة القلب من جسم كل منهم (تحت جيب السترة من الشمال) ليصوب الجنود رصاصهم عليها .

واوشك الرصاص ان ينطلق ، واذ بنا نفاجأ بالصـــول الانجليزي يسرع مهرولاً نحوهم ويفك الوثاق من الضابط علي البناء وينحيه بعيداً ، ثم يقاد وهو مكبل في القيود . وعلمنا فيما بعد ان حكم الإعدام بالنسبة اليه عدل الى التأبيد ثم الى عشر سنوات سجناً .

وبقي الابطال الاربعة يرقبون لحظة التنفيذ الرهيبة وهم ارسخ من الجبـال ثباتاً ! ، لاحركة ولا اختلاجة ولا همسة ! – واطلقت كل مجموعة من الجنود رصاصها نحو الضابط المعنى دفعـــة اولى ... وهرع الطبيب الإنجليزي اليهم وكشف عليهم في سرعة فوجدهم ما زالوا احياء ... واعيـد الضرب وصوبت اليهم هذه المرة دفعتان من الرصاص فاستقر في جسد كل منهم عدد غير قليل من الرصاص ! ، وفي هذه المرة وجد الطبيب ان ارواحهم الطاهرة قد صعدت الى بارئها لتجد في رحاب جناته الواسعـة عوضاً عن هـذا الشباب الغض الذي وهبته راضية مطمئنة لوطنها ! ، ولكن الطبيب يشير ايضاً الى ان الضابط ثابت عبد الرحيم لم يلفظ انفاسه بعد وما زال فيه بقية من حياة .. ! فيفرد احد الضباط مسدسه ويصوبه نحو البطل وينهي حياته ببضع رصاصات من المسدس !...


قائد المظاهرة الحربية
الشناوي بملابس المدرسة

ووضعت جثثهم في لوري كبير كان معداً لهذا الغرض وفيه عدد من الجنـــود : (والمساجين) حيث أعــدت حفرة لدفنهم بغير ان يكون بجانبهم اي احـد من أهلهم أو ذويهم وحرم على أي منهم الاقتراب من تلك المقبرة التي سويت مع الارض إمعاناً في إزالة اي معلم يخبر عنهم ...

وحرم على أهليهم البكاء عليهم او تلقي العزاء فيهم ، وكان الجنود يطوفون بمنازلهم ليتأكدوا أن ليس هناك مأتم ومعزون !. وبكاهم أهلهم وأصحابهم في حرقة اليمة سراً وهم يتجرعون غصص الألم والمهانة والمذلة فقد حرموا قهراً من ان يندبوهم جهرة او يقيموا لهم مأتماً ! .. إلى هذا الحد من التنكر لأيسر المعاني الإنسانية بلغ الحنق بحكومة ذلك العهد وهي تحارب الرجال حتى بعد مصرعهم » .

ومثلما انتشرت المظاهرات في مدن السودان كعطبرة وبورتسودان وشندي ومدني والابيض واعتقل الكثيرون في هذه المدن ، فإن حركة الجيش هذه قد امتد أثرها إلى اكثر من معسكر في الاقاليم ، كان اعنفها ما فعلته ١٠ جي اورطة في تلودي بجبال النوبة حيث تمردت تمرداً تاماً واستقلت بزمام الامر في المدينة بقيادة ضباطها اليوزباشي خضر علي وم . اول عبد الحميد فرج الله وم . ثاني سيف عبد الكريم ، وقد اضطرت السلطات الى استقدام قوة الهجانة من الابيض لتعين على استرداد الموقف ، وبعد جهود سلمية عنيفة استسلم الثوار واعتقل الضباط الثلاثة وجيء بهم مخفورين للخرطوم حيث حوكموا بالسجن والفصل من الخدمة .

وثارت ايضاً ١٣ جي اورطة في واو — وفي الابيض حاول الضابط محمد سر الختم جبريل إثارة الجيش هناك فاعتقل وجيء به للخرطوم وحوكم بالسجن .

واعتقل عدد غير يسير من الضباط السودانيين من مختلف الوحدات بتهمة الاشتراك في تلك الحوادث وقضي على اكثرهم بالإقصاء من الخدمة العسكرية ، ووضع بعضهم مع الإيقاف — تحت الرقابة الشديدة .

قال محدثي ، وقد ظللنا فترة صامتين وقد طافت في أذهاننا صور شتى لتلك الانتفاضة الوطنية ونحن نستعرض احداثها المتفرقة المتحدة ... قال هناك صور

انسانية خلال هـذه الاحداث رائعة كل الروعة ، تهتز لهـا مشاعري تأثراً كلما تذكرتها !

اتذكر منها قصة هذا الضابط الذي تربطني به صلة ود وثيقة العرى ، وقـد كان احد الضباط الثلاثة الذين اعدموا رمياً بالرصاص .


الشناوي بملابس السجن

فقد جاء قبيل الفجر – بعد ان نفذت ذخيرته واحس بأن النهاية قـد قربت – الى دار قريب لنا بالخرطوم له به صلات قريبة ايضاً ، وقرع الباب وفتح له، ودخل الحجرة واضيء النور وكانت به آثار جروح من المعركة ، وحسب اصحاب الدار انه يريد الاحتماء، ولكنه طلب ورقاً وقلماً وظرف خطاب وكان رابط الجأش هادىء الاعصاب. وقدم له ما طلب ... واخذ يكتب رسالة لاحد اصدقائه الذين يثق فيهم وكان زميلاً له في الجيش ايضـــاً ..

أتدري ماذا كتب له .. ؟ – كان هذا الضابط البطل قد تزوج حديثاً من فتاة أحبها حباً خالصاً وكانا في مستهل عامها الأول من الزواج ، وقبيل الثورة عرف من عروسه والبهجة تملأ نفسها أنها حبلى .. وكان صراعاً قاسياً بين واجبـين ، واجب الأسرة وواجب الوطن ايفاء للالتزامات التي ارتبط بها مع رفاقـــه الضباط ! ، وآثر الاخرى ، وقاد الثورة الدامية ، وقاتـل الجنود البريطانيين ببسالة وايمان حتى نفدت ذخيرته ، فجاء الى دار هذا القريب بالخرطوم ليؤدي واجبه نحو أسرته على النحو الذي رتبه . وفي تلك الرسالة لذلك الزميل الصديق

كتب إليه يقول بعد ان اكد له في مستهل الرسالة بأنه فعل ما فعل عن ايمان وعقيدة وأنه يقبل نتيجة ذلك في رضاء تام ، خلص الى غرضه قائلاً :

(.. فلانه «يعني زوجه » حبلى ، وأنت خير من استخلفه عليها ، فرجائي ان تتزوجها يا اخي وترعى الطفل الوليد وبهذا تسدي الي خير يد واستقبل نهايتي مرتاح الضمير ..) ؟

وسلم الرسالة لأصحاب المنزل ملحاً ان تسلم يداً بيد لصديقه الذي عناه بها وودعهم وخرج وسار بخطى قوية عسكرية الى حيث السلطة المسئولة وقدم نفسه ليعتقل ! وكانت النهاية المحتومة .

واحسست بالدموع تجول في مآقي هذا الشيخ الوقور يحدثني هذا الحديث الرائع ... قلت هل تم الزواج المرجو ؟ قال كلا .. لقد أبت (فلانة) ان تخلف على البطل رجلاً ، وعاشت راهبة تعيش على ذكراه ! وولدت طفلا كان سلواها فكرست له نفسها حتى صار رجلا .. فملأ دارها بهجة وعوضها خيراً . . وما زالا في خير عيش (بأم درمان) .

قلت ، لكم في الواقع ما هو اروع من الخيال !

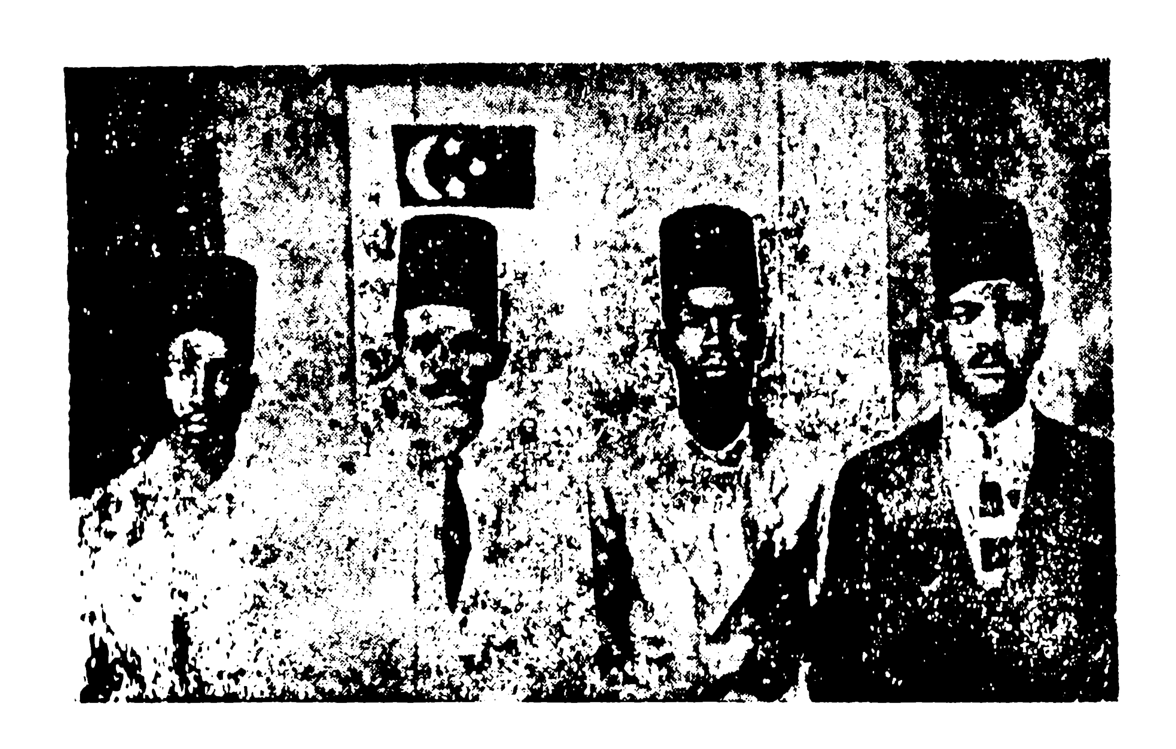
محاكمات اللواء الأبيض

وفي منطقة كوبر أقيمت محكمة كبرى علنية لمحاكمة قـــادة اللواء الأبيض وذلك في شهر فبراير ١٩٢٥ وكانت المحكمة برئاسة القاضي اوزبرن وعضوية الميجر برادلي والشيخ حسين الفيل وكان نص الاتهـام الذي وجـــه للمتهمين كما يلي :

« أولا -- انكم كل (المتهمين) في او حوالي المدة الواقعة ما بين شهر فبراير وسبتمبر ١٩٢٤ تآمرتم لارهاب الحكومة بواسطة القوة الجنائية وإنفاذاً لهذه المؤامرة كنتم جميعكم او البعض منكم اعضاء في جمعية غير قانونية في السودان غاية اعضائها المشتركة ارهاب حكومة السودان بواسطة القوة الجنائية او التظاهر بها، وبذلك ارتكبتم جريمة تحت المادة (٩٤) من قانون عقوبات السودان وضمن اختصاص محكمة كبرى .

ثانياً -- انكم كلـكم حوالى هذا التاريخ والمكان تعصبتم لترويج المظاهرات والجمعيات غير القانونية التي يزيد عدد اعضائها عن عشرة اشخاص والتي حصلت في اثناء تلك المدة في مدينة الخرطوم وغيرها من مدنالسودان او لترويجواحدة او اكثر من واحدة من هذه المظاهرات والجمعيات غير القانونية مع علمكم بأن تلك المظاهرات والجمعيات كانت ممنوعة قانونياً وبذلك ارتكبتم ذنباً يعاقب عليه بمقتضى المادة (٩٠) من قانون عقوبات السودان .

ثالثاً -- انكم (كل المتهمين) حوالي هذا الزمان والمكان بواسطة ألفاظ أو كلمات قيلت او كان في النية قراءتها او وضعت بقصد ان تتلى او بغير ذلك



اول صورة تاريخية لمؤسسي اللواء الابيض

في اليوم الذي ولدت فيه جمعية اللواء الأبيض (مايو ١٩٢٤) اتفق المؤسسون الخمسة (علي عبد اللطيف – صالح عبد القادر – عبيد الحاج الأمين – حسن صالح المطبعجي – حسن شريف) ان يقصدوا محل المصوراتي (أرام) المعروف في ذلك العهد ليسجلوا صورة تذكارية لهذه المناسبة التي كان لها ما بعدها في تاريخ البلاد . وشاء سوء الحظ ان يتخلف العضو الخامس حسن المطبعجي . وسجل ارام للتاريخ هذه الصورة الفريدة التي جمعت الابطال الاربعة مؤسسي اللواء الأبيض وقد ظهر في الصورة من اليمين حسن شريف – علي عبد اللطيف صالح عبد القادر – عبيد الحاج الأمين.

اردتم ان تثيروا عواصف الكره على الحكومة المؤسسة شرعاً في السودان وبذلك ارتكبتم ذنباً يعاقب عليه بمقتضى المادة (٩٦) من عقوبات قانون السودان .

او انكم حوالى هذا الزمان والمكان حرضتم على ارتكاب الجرائم المذكورة اعلاه وبذلك ارتكبتم ذنباً يعاقب عليه بمقتضى المواد (٨٢) و(٩٦) .

رابعاً – أتهمكم يا علي عبد اللطيف وصالح عبد القادر وعبيد الحاج الأمين وحسن شريف وحسن صالح واحمد مدثر وتهامي محمد عثمان ومحمد سر الختم ومحمد المهدي الخليفة ومحمد ادريس ومحمد عبد البخيت وعبد الله النور ونور الدين فرج وعمر دفع الله .

انه في او حوالى نفس الزمان والمكان كان في حيازتكم او انكم وضعتم كتباً او محررات شأنها اثارة الكراهية والإزدراء للحكومة والنظام المؤسس شرعاً في السودان وبث روح الحقد والعداوة بين طبقات الأهالي وبذلك ارتكبتم ذنباً يعاقب عليه بمقتضى المادة الآتية من قانون (البضائع المهربة سنة ١٩٠١) .

هذا وقد نفى كل المتهمين انهم مذنبون عندما سئلوا عن ذلك في المحكمة ويمكن ان نتخذ اقوال علي عبد اللطيف التي ادلى بها في المحكمة ليست كدفاع فحسب بل تسجيلا للأهداف والدوافع التي كانت ترمي اليها حركة ١٩٢٤ والمؤثرات التي دفعت بقيادتها للقيام بما قاموا به في ذلك العهد :

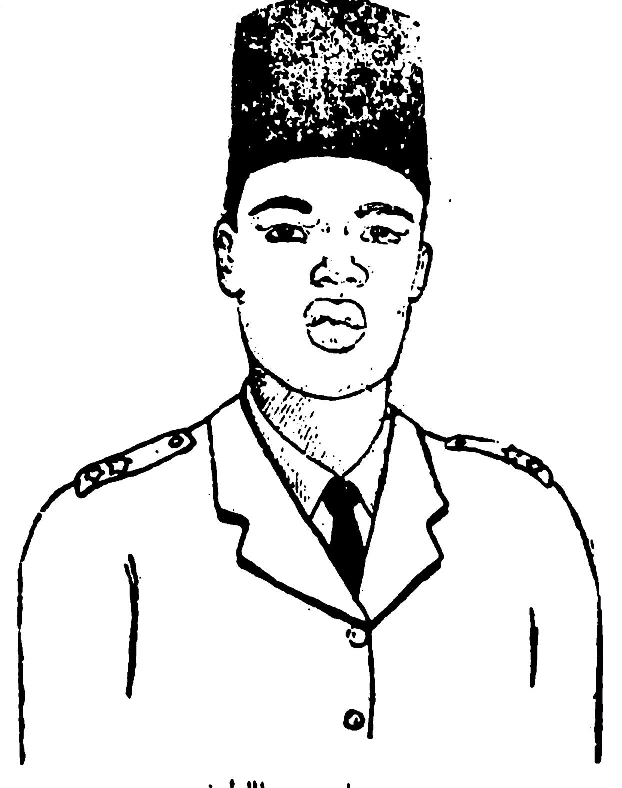
اجاب علي عبد اللطيف على الاسئلة التي وجهت اليه بما يلي :

« نعم انا رئيس الجمعية وقد قرأت في جريدة الحضارة عن اجتماع يونيو [1]

---

(١) يشير الى اجتماع خطير عقد في منزل احد أعيان مدينة أم درمان وقد ضم عدداً من الأعيان والعلماء أصدروا بياناً طالبوا فيه بأن يكون السودان تحت الوصاية الانجليزية وحدها حتى يبلغ رشده . ونشر البيان في جريدة الحضارة في شهر يونيو من ذلك العام .

وكنت أنا وصالح عبد القادر فقال صالح بعد أن ذهبت إليه في البوستة يمكن أن نرسل تلغراف [1] احتجاج موقعاً عليه من ٢٠ -- ٣٠ أفندي، ولكن لما ذهبت إليه لم نتحصل الا على خمسة امضاءات فقط ، وبعد ما نشر التلغراف (في الجرايد المصرية) وعرفه الجمهور ، كان يأتي الى كثيرون مؤيدين كما وصلتنا تلغرافات وجوابات من جهات مختلفة . ومشى العمل مدة ١٥ يوماً بدون نظام ، ولكن بعد ذلك وحدنا العمل ونظمناه وعملنا القانون وانتخبوني رئيساً للجمعية وصارت كل المخاطبات بعدها تأتي باسم الرئيس وانا قبلت الرئاسة واشتغلت بهذه الصفة » .



علي عبد اللطيف

واجاب عن صلته بالسياسي المصري المشهور حافظ رمضان رئيس الحزب الوطني في مصر سابقاً ، عندما زار السودان قبيل حوادث ٢٤ قائلا :

« ذهبنا انا وعبيد حاج الأمين وصالح عبد القادر وسليمان كشة ليتحرى سليمان عن اخويه [2] الطالبين بمصر ، فقابلنا حافظ بك رمضان بأودة المقابلة

---

(١) أرسل علي عبد اللطيف وصالح عبد القادر وآخرون تلغرافياً للحاكم العام احتجاجاً على السياسة التي ترمي لوضع السودان تحت الوصاية الانجليزية وكان شديد اللهجة .

(٢) يعني توفيق أحمد البكري وبتي عبد الرحمن اللذين هربا لمصر طلباً للعلم .

بالجراند أوتيل بالخرطوم فسأله سليمان كشه عن اخويه فقال حافظ بك انه لا يعرفهما ولا يعرف عنهما شيئاً ولكن اعطني عناوينهم . فاجابه سليمان بأنه سيكتب لهما لمقابلته عند عودته لمصر – وانا كنت قد ذهبت قبل ذلك مرتين لحافظ رمضان بغرض الاستفهام عن السودان وغرض المصريين لانه في ذلك الوقت كان الكلام كثيراً عن السودان ، وقد تحدثت مع الرجل في المواضيع السياسية وكان رجلا متحفظاً جداً » .

واجاب عن سؤال عن اغراض الجمعية وهل كانت تعمل لبحث مظالم الاهالي ، قائلا : ليس من اغراض الجمعية ان تبحث في مظالم الاهالي بل كنا معارضين للتغيير المطلوب اي ان يكون الانجليز



عبيد حاج الأمين

مطلقي التصرف بالسودان دون المصريين . وقد صرح البرلمان المصري بأن السودان جزء من مصر لا يتجزأ ، اما البرلمان الانجليزي فقال : « ان السودان جزء من الامبراطورية البريطانية لان لنا فيه مصالح مالية وزراعية ومسئوليات ادبية لا يسعنا ان نعرضها للضياع » وقد قرأت انا بنفسي مقالاً في التيمس عن تصريح مكدونالد (رئيس الحكومة البريطانية) بان ٩٢ ٪ من الاهالي السودانيين مع الانجليز . وهذا ما جعلنا نجهر برأينا لنصحح هذا الخطأ !

ورداً على سؤال عن المظاهرات اجاب : « المظاهرات عملت بمحض ارادة

العاملين والمجتمعون كانوا احراراً فيما يقولون ويفعلون ، ولم تقم المظاهرات الا بعد المنشور الذي صدر بمنعها لانهم تهيجوا وارادوا ان يظهروا شعورهم ، وكل واحد عمل مظاهرات على حدته . نحن نعلم ان المظاهرات ممنوعة ورغماً عن ذلك عملنا مظاهرات وحصل ذلك باغلبية الاصوات (في الجمعية) » .

ونفى انهم تسلموا نقوداً من مصر قائلاً : « لم تصلنا اي نقود من مصر بل كنا نجمع نقودنا من هنـــا بالخرطوم » وعن هتافهم في المظاهرات لملك مصر والسودان اجاب : « اعلله لكون مكدونالد قال وجريدة الحضارة قالت ايضاً ان السودان يصير جزءاً من انجلترا فذلك هيّج الناس. وقلنا نقاوم السودانيين القائلين باستئثار الانجليز بالسودان ، هذه كانت طريقتنا لابداء راينا – ففي حالة عدم ثبوت الحـــالة الحاضرة كنا نفضل المصريين على الانجليز ونريد ضم السودان لمصر » .

ولم تخرج اجوبة قادة الجمعية عن هذا الذي جاء في اقوال رئيس الجمعية علي عبد اللطيف ومن طرائف ما جاء في شهادة علي احمد صالح ، ما ذكره من انه كان مكتوبا على صور اعضاء الجمعية في منزل علي عبد اللطيف هذا الشعر :

الا يا هند قولي او أجـــيزي رجال الشرع اصبحوا كالمعيز [1]
الا ليت اللّحى كانت حشيشا فتعلفهـا خيول الانجليز ! !

وقد قام المستر بيلي نائب مدير الخرطوم بدور هام في هذه القضية اذ استطاع بمكره ودهائه ان يجعل من بعض الاعضاء « شهود ملك » فانقلبوا على زملائهم في المحكمة وادلوا بشهادات ضدهم .

وفي احدى الجلسات تعرض المستر بيلي لهجمات من الاسئلة المحرجة من امين

---

(١) الشعر لصالح عبد القادر

الشاهد المحامى ، واخذ الرجل يضطرب ويتلعثم فى اجوبته مما أظهر تلفيقه فى بعض اقواله ، واعجب حضور الجلسة – وكانت المحاكات تجرى مفتوحة ويحتشد لها خلق كثير – بما قام به المحامى من تضييق الخناق على المستر بيلى حتى كشفه .. وفى اليوم التالى انتشرت بين الجماهير هذه المقطوعة الطريفة اغنية للشاعر ابراهيم العبادى اراد ان يصل بها عن طريق التورية للتنديد بحالة المستر بيلى وهو يتلعثم ويضطرب امام الأستاذ الشاهد ! :



صالح عبد القادر بملابس السجن

خديك وعيونك ثم ثغرك شاهد لي آنا فى هواك واقعات كتار ومشاهد
كل ما أصورك أولى جمالك أشاهد أبقى أحير من (الشاهد) أمام (الشاهد)

(والشاهد) الأول يعنى به المستر بيلى والثانى الأستاذ الشاهد المحامى ! .

ولقد اخرج الاستاذ الشاهد من السودان قبل ان يؤدى رسالة الدفاع عن هؤلاء المتهمين الذين أدينوا بالسجن مدداً مختلفة . ونفى خمسة من قادة الجمعية الى واو ببحر الغزال وهم علي عبد اللطيف وعبيد حاج الأمين للذي زأر في وجه محاكمه قائلاً لا : « انكم تستطيعون ان تحاكمونى ولكنكم لن تستطيعوا الحكم علىّ ، فان هــذا للشعب وللتاريخ ! » وعلى البناء ومحمد عبد البخيت ومحمد المهدي الخليفة عبيد. وقد مات عبيد رحمه الله بواو متأثراً بالحمى السوداء ، وجن على عبد اللطيف ، وافرج عنه وزملائه الباقين عقب معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وانجلترا ، ولكن علياً لم ينتفع بهذا الافراج بعد ان سلب نعمة العقل ، ومات بمصر حيث كان نزيل إحدى مصحاتها.

ليس من السهل ان تتابع احداث ٢٤ بالتقصي والتفصيل فان هـــدا يحتاج الى كتاب وحده ، وإنمـا اريد ان اسجل ملامح عن الجوانب التي لم تنشر بهذا كنت اخاطب محدثي الذي صمت قليلا ، ثم قال . . من الخير ان نتحدث عن تلك الاغاني الوطنية التي كان يتغنى بها الشعب واجداً فيهـا خير متنفس عن مشاعره المكبوتة .

أغانى الثورة

كانت اصوات طلبة الحربية وهم يسيرون في مظاهرتهم الشهيرة تـدوي بالهتاف وبالأغاني الوطنية ، وكانت هذه الأغنية (يا ام ضفاير) فى مقدمة اغانى الثورة ذيوعاً وانتشاراً ، وزاد من ذيوعها وانتشارها ان طلبة الحربية يتغنون بها في حماس بالغ وهم يشقون شوارع العاصمة والجماهير تحيط بهم تبادلهم الشعور أو تشاركهم الترنم...

والقصيدة للأستاذ عبيد عبد النور ألفها فى مستهل حوادث ٢٤ عندما كان مدرساً بمدرسة ام درمان الابتدائية ... انه يهتف فى مطلعها بالفتاة السودانية (ام ضفاير) ان تقود الثورة مع اخيها وان تهتف معه بحياة الوطن :

يا ام ضفاير قودى الرسن — واهتفى فليحيا الوطن
اصله موتاً فوق الرقاب — كان رصاص او كان بالحرآب
البدور عند الله الثواب — اليضحى ويأخذ العقاب
يا الشباب الناهض صباح — ودع اهلك وامش الكفاح
قوي زندك وموت بارتياح — فوق ضريحك تبكي الملاح

* * *

وبعد ان يثير الشاعر همم الشباب ويدفعهم للتضحية ، فالموت امر لا بد منه ، فمن شاء ثواب ربه فليضح وليهاجم المستعمرين ، وستبكيه الملاح ويموت

سعيداً ، يقول لكبار رجال البلد متسائلا الى متى تصمتون ولم هـذا التكتم المشين ؟؟ ألا ترون ما نعانيه من فقر وعري ؟ وهؤلاء الجنود الذين سلطوهم على الاحرار وفي ايديهم العصي الغليظة والرفيعة (النبابيت والخيزران) ! يشير الى ما كان يلاقيه المتظاهرون على ايدي الشرطة :

يا كبـار البلد الأمين   السكاتْ دا بصح لا متين ؟
بينـوا لنا الرأي المبين   التكتم هسع مشين !

***

ما بتشوفوا الفقر اللعين ؟   والعـــرايا المتبهدلين ؟
والبيبكوا والصابرين ؟   والرزايا ؟ بتروح متين ؟

***

ما بتشوفوا الذل والهوان؟   مص دمانا ، وعقب امتهان؟
غنمونا وحفظوا الامان   بالنبابيت والخيزران !

***

قوه هايله: وسودان ضعيف   انجليزي : ومخلوق رهيف
طابيه: في قصاد زولاً نحيف   بطنه خاليه وإيمان نظيف !

***

ويتغنى الشاعر متحسراً على اراضي الجزيرة التي اشتريت من اصحابهـــا بالقوة والارهاب بعشرة قروش للفدان وكان هذا الموضوع مثيراً للجماهير ويقسم الشاعر بذلك الثرى العزيز بأن ارض الجزيرة ستكون لنا وحدنا ، وسنمشي اليها لنستردها مهما كانت صعاب الطريق (فوق نيران وشوك) :

يا جزيرة نيلنـــا السلامْ من قلوبـــاً حاباك تمامْ
ليهـا فيكْ آمالا جسام يا تتم ، يا يحدث كلام !

***

جونا ناس من بلد بعيد لينا ناظرين نظرة عبيد
قالوا لينا بصوت من حديد البيبعك يصبــح سعيد

***

إنت غاليه ، وهم رخصوك انت سمحه ، وهم وسخوك
انت لينا وحيـاة أبوك نمشي ليك فوق نيران وشوك

***

ويخاطب تراث الاجداد الغالي في ذلك الثرى العزيز . ثرى الجزيرة فيقول قري عيناً ايتها الارض الطيبة فقد هب لنصرتك الشباب (العيال) وقد رفعوا في يمينهم (الهلال) . ويعني بهم جماعة اللواء الابيض – اذ كانوا يخرجون في المظاهرات يحملون علماً ابيض عليه خريطة وادي النيل وفي اعلاها الهلال – هب هؤلاء الفتية لنصرتك فصاحوا صيحة اهتزت لها الجبال ، واضطرب حال الانجليز . وفاضت الشوارع بالبنادق والمدافع .

لي نصرتك قاموا العيال وفي يمين رفعوا الهلال
صاحوا صيحة وهزت جبال وغيرت ناس من حال لحال
الشوارع بتساءلن وبالعساكر يتمـايلن
البنـادق بتـلامعن والمدافع طبعاً ... يحن

(دار علمونا) كلية غردون ملتقى الشباب الطامح ماذا جنت حتى تغلق

ابوابها في وجه بنيها ؟ ، وتصير مقراً للجنود الانجليز ؟ ايتها الدار – متى يعود اليك بنوك ؟ لقد عرف المستعمر انـك النور الذي يضيء ظلام بلادنا فأطفؤوك عمداً . ؟ هكذا يتغنى الشاعر متحسراً على اغلاق كلية غردون آنذاك وجعلها مقراً للجنود الإنجليز :

(دار علمونا) ليه قفلوك ؟ — وللعساكر كيف حضروك ؟
من ولادك ليه فــــردوك — طال غيابن لي متين يجوك ؟
أنت عارفه ومـا بعرفوك — انت نورنا وعمداً طفوك
انت روحنا وفي النار رموك — ضحكوا لينا ونصبوا الشرك
واستبدوا وسووا القـــدر — وقـالوا نحن السما والقمر
وانت مش من نوع البشر — البقول : بم - يباع حجر !

يقول ان المستعمرين قد طغوا وزهوا علينا فقالوا انهم في السماء رفعة وانا لسنا من البشر ومن خـالفهم ألقموه حجراً .. وانهم هم اهـل الشرف التليد ونحن (نوبة وعيلة وعبيد) فمن خالفنا اشبعناه هماً وغماً ونكلنا به – ويصف انتقاءهم للمقربين منهم فهذا (خباص) ينقل لهم الأخبار – فهو يهمهم – وذلك (فتنى) يبذر التفرقة والفتنة بين الشعب ، سينال منهم المنى ! – وهذا لما يقترب بعد ، ليبقى حيث هو حتى يتضح حبه وولاؤه ثم يقترب منهم !

نحن أهـل الشرف التليد — وانتو نوبة وعيلة وعبيد
البخالف رأينـا السديـد — امانة يشبع غلبة ويزيد
انت (خباص) بتهمنا — وانت (فتني) نلت المنى
انت لسع ، خليك هنـا — لمـا تشبع من حبنـا !

ويختتم الأغنية هاتفـاً بحياة الوطن معلناً انهم سيصبرون على كل هـذا حتى النصر .

حـالة صعبة ومسرح فتن   دنيا فانية وفيهـا المحن
نحن نصبر لمن يجـن   هاتفين . فليحيا الوطن !

وفى أواخر اكتوبر من عام ١٩٢٤ والثورة ما تزال مندلعة ، سافر الاستاذ عبيد مع رفيقيه عبد الفتاح المغربى ومحجوب الضوي فى اول بعثة سودانيـة تلتحق بالجامعة الامريكية فى بيروت ، وحتى سفره كانت الاغنية مجهولة المولد واخذت تنتشر وزاد من اثرهـا ان تغنى بها طلبـة الحربية فى مظاهرتهم .. واخذت (المخابرات) تبحث وتتحرى ، وعلمت ان واضعها هو عبيد .. وكان عبيد بالجامعة فى بيروت ... ويشاء القدر ان تقيم الجامعة فى بيروت مسابقـة للخطابة بين طلبتها في حفل عام كان من بين حضوره الدكتور محجوب ثابت ، ويخطب عبيد وينال احدى جوائز الخطابة ويهب الدكتور محجوب من صفوف الجالسين الى منصة الخطابة فيعانق عبيد ويقبله في عنقه اعجاباً .

ويروج بيننا هنا ان عبيداً تغنى بقصيدته وان محجوب ثابت عانقه وقبله اعجاباً ولا يحتمل الانجليز كل هذا ، فيخف الى بيروت المستر يودال عميدالكلية وصمويل عطيه عميد مكتب المخابرات للتحقيق مع عبيد فى الاغنية . وعناق محجوب ثابت له اعجاباً وتقديراً ! .. ومحجوب ثابت من كبار الساسة المصريين الثائرين على الانجليز . ويجد الاستاذ نفسه في تحقيق عنيف فينكر نسبة الاغنية اليه ويصر على ذلك ، ويرد بأن الدكتور محجوب انما اعجب بخطابـــه وليس بالاغنية مستشهداً بمن حضر ... ولا ينقذه من الموقف الا تدخل عميد الجامعه الذى تحدث محتجاً للمستر يودال لتدخله بالتحقيق فى حادث وقع فى حرم الجامعة وهو حادث لا ترى فيه الجامعة وجهاً للتحقيق ويعود الرجلان بعد ان محضا النصح والتوجيه للفتى ...

وتتلقف الجماهير الثائرة اغنية لابراهيم العبادي ، وسعد زغلول يفاوض المستر مكدونالد رئيس الحكومة البريطانيه ،والصحافة تفيض بأنباء المفاوضات

سعد يصر على ان مصر والسودان بلد واحد وقضيتهما واحدة ، ومكدونالد يصر على ان البلدين منفصلان ولكل منهما قضية غير الأخرى ... والسودانيون الثائرون يريدونها قضية واحدة فلعل في هذا خلاصهما من الاستعمار الانجليزي، وهذه الاغنية لابراهيم العبادي تسير مع هـذا التيار وقد استهلها بوحدة البلدين تحت لواء واحد .

نيل مصر والسودان سوا ينساب تحت واحد لوا

***

ويقول لسعد . خبر مكدونالد بأن السودانيين عرب شجعان لن تخيفهم القوة (طيارة وجنود) فقد تمرسوا بالحرب وعركوها ...

يا سعد خبر مكدونالد	سودان عرب ، ما هم هنود
ما بتخشى طيارة وجنود	وسط العراك نصحي ونتود
سيبك من الضغط الشديد	وارجع الى الرأي السديد
ألفي الحرب قبـال يزيد	ما بتلفاه بي عدة وحديد
(يا بلدوين) رأيك تلف	والناس صحت ما بتنبلف
محور سياستك قاعد يلف	خايف يضربك من خلف

أرأيت هذه السخرية من بلدوين احد دهاقنة السياسة البريطانية ورئيس حكومتها .. لقد صحا الناس يا بلدوين وعرفوا حقوقهم فلن تستطيع (البلف) بعد هذا .. بل ان سياستك هذه ، سياسة البلف ستطعنك من الخلف يوماً ما .

ويعتز بشرقيته ويقول للغربيين ، نحن اهل الشرق قد اشتهرنا بالشجاعة ، اننا نقبل مدافع (الكروب) ولا نخافها ، فخير لكم ان تنصفونا وتردوا

حقوقنا قبل ان تبلغ ثورتنا اشدها ، مشبهاً ذلك باللبن يطول مكثه فيختر

نحن الشروق يا اهل الغروب　　نحن المشاهير في الحروب
بنقبل افـواه (الـكروب)　　ناصفونا قبال نبقي «روب»

وينشط قسم المخابرات كعادته للبحث عن مؤلف الاغنية ، ويكتشف انها لابراهيم العبادي فيتجه لالقاء القبض عليه والتنكيل به ، ويخف الرجل الكبير السيد عبد الرحمن المهدي ، وللعبادي واسرته صلة وثيقة بآل المهدي ، يخف لنجدته ويحميه من السجن ، على الا ينشد العبادي بعدها مثل هذه الأغاني .

ولكن الشاعر – والجماهير ثائرة من حوله – لا يطيق الصمت ، فيعمد الى التورية وسرعان ما يتلقف الناس اغنيته الجديدة

نظرة يا ظبيـــة السلام　　تبقى مـــن هجركم سلام

ويتغنى ببلاده ، وادي النيل ، فلتدم رياضة زاهرة ، وان يعود كسالف المهد ، خالياً من قيود المستعمرين :

دمت يا روضة الزهور　　تجري في خدودك المهور
تبقي زي سالف العصور　　خالية من ربقـــة المهور !

(ويكنى) (بالغرام) عن جيش الاحتلال في البــــلاد ، فيخاطب مصر (ان جيوش الاحتلال قابعة بيننا وصمتك عليها ليس بمستحب) وانه ليتمنى رشفة من النيل حراً من كل قيد ، وليعش الهلال رمزاً لنا ...

(الغرام) عامل احتلال　　والهجر هذا موش حلال
رشفـــة من نيلك الزلال　　وليعش حاجبك الهـــلال

ان هذا الاحتلال (الغرام) يخور عجله بيننا ، لقد ضلل أفكارنا ، نرجو بحق حرمة الجيرة يا مصر ان نكون سواراً لمعصمك (كناية عن التآخي والتمازج بين البلدين) :

الغرام عِجْله ذو خـــوار　　ضـّلل أفـــكارنا يا توار
نرجو بي حرمـــة الجوار　　نبقى لي معصمك سوار

لقد تملكنا السهد ونحن نفكر في أمرنا ، واضمحلت أجسامنـــا ، وانت يا مصر قريبة منا الا ان سوء حظنا جعلك في البعد مثل (زحل) ؟

العيون نومهن رحـــل　　والجسم أضحى فى محـــل
وأنت فى اقرب المحـــل　　حظي سوالا زى زحـــل

ويخاطب العبادي الانجليز الجاثمين على صدر البلاد قائلا ، عرفنا كم بالنفور وهو طبعكم الأصيل ، فلا ود بيننا ، فنحن ايضاً نصد عنكم ابلغ الصد ؟ وقـد آن لنا ان نسفر بعدائـكم فـــان قدور البغضاء والكراهية اوشكت ان تفور . . .

أنت صار طبعك النفور　　والصدود اضحى بى وفور
آن برقعنـــا للسفور　　والقدور أوشكت تفور

ولم تفت على جماهير الشعب وهى تتغنى بهذه الاغنية المعانى السياسية التى تتضمنها ففتنوا بها واولعوا بالتغني بها .

ومن من شباب ذلك العهد لم يتغن بأنشودة خليل فرح ... ؟

نِيلنا يا نيـــل الحيـــا　　حيـّـاك حيـّاك الحيا

ولقد كانت اغانى الخليل العاطفية والوطنية على كل لسان . واغنية (نيلنا) تغنى بها أيضاً طلبة الحربية فى مظاهرتهم ، وتغنوا بها وهم فى الباخرة معتقلين فى عرض النهر ...

يا أيها النيل ، يا من ماؤك عذب كالزلال ، ويا من لك في صدرك (شامة)

كالهلال (يريد بهذا التشبيه جزيرة توتى كالهلال على صدر النيل) قل لشهـــداء الوطنية نحن على اثرهم نكافح ونناضل دون بلادنا حـــتى نموت ونلتقى بهم فى الجنة :

يا نيلنا يا أب مـــا زلال   يا أب شامة في صدرك هلال
قول للسلف خلفاً حلال   نتلاقى فى جنـة بلال

أ كان الخليل يعني هذا التجمع الإفريقي الذي ينادى به ساسة اليوم في افريقيا وهو يهتف باننا كلنا من منطقة (برنو) في نيجيريا، اي من شاطىء الأطلنطى الافريقى حتى مصر (الريف ابو علال) سواء من كان من عرب البادية ام من شباب الحضر المدلل كلنا نعمل للحرية ، فنحن ابناؤها البررة ..

من (برنو) (للريف)أبعلال   عربان خلا ، واولاد دلال
نشّابا كلنـا يا لزلال   في حضنك اولادك حلال

ويخاطب النيل بهذا الغناء العذب :

يا مهبط النور والحيـاه   يا معدن الذوق والحيـا
ارواحنا دونك هاهيا   مبذولة تفديك زاهيـه

***

كم فيك مناظر لاهيه   كم امة بيك متباهيه
والجيرة جيرتك هانيه   من طاق فراقك ثانيه ؟

***

تالله ياوطن الصبـّــا   ياالعافيه يا روح الصبا
يفداك من قلبى الصبّا   بى مالى بى دم الصبــا

انا رانت والسما والدجن　　شبه المناظر في الدجن
لكن حبيبي اذا مجن　　زايد عليك لجنة وعجن

* * *

يا نيلنا يا أب طمى ماك بحر　　زايد . حلاتك في السحر
المقرن استحى وانحسر　　كايس يضمك في النحر ؟

* * *

وللخليل أغنية اخرى وطنية ثائرة استمعنا اليها في دار فوز عندما غناها لصمويل عطية في داره ...

نحن ونحن الشرف الباذخ　　دابي الكر شباب النيل

وقد اثبتت في غير هذا المكان .

وتشيع في الاوساط أغنية وطنية يعتذرمعرفة مؤلفها في ذلك الحين ،وهي لابي بكر محمد عبد القادر التربي يقول فيها :

هان　　ماليك أمـــان　　ليـــه　　يا زمـــان

* * *

يا هديل　　ما اخترت بديل　　وطني المظلوم　　وقتيل
فليحيـا　　النيل　　تحيـــا　　الاوطـان

* * *

ابو الهول　　امـرك مجهول　　سجن الاحرار مأهول
شبان وكهول　　تحيـــا　　الاوطـان

* * *

أحرار　　كم ذقنـا مرار　　بـــالاستعـــمار
تكرار　　يفنى السردار　　تحيا　　الاوطان

والاغنية كما هو واضح تتحدث عن السجن المليء بالاحرار ، والعجيب أن مؤلف الاغنية دعا فيها الى فناء السردار (استاك باشا) وما كادت الاغنية تنشد وتذاع بأيام حتى قتل السردار في شوارع القاهرة .

قلت ، وانا مكب أكتب هذه الاغاني والشيخ يعالج غليونه ليشعله من جديد ، اين شعراؤنا في تلك الفترة ؟ ألم توح تلك الاحداث لاحدهم بلحمة وطنية ؟ فأجاب وهو ما يزال يعالج غليونه ... كان السيف مصلتاً والاضواء مسلطة عليهم والشعر ليس كالغناء (فالاستدلال على صاحبه سهل) ، ولا تنس انهم كانوا كلهم موظفين في قبضة الحكومة التي كانت تراقب كلا منهم رقابة دقيقة وتحصي كل شيء عدداً ... ولنذكر ان الشعر للخاصة وما كانت تلك الجماهير التي تنتظمها المظاهرات في حاجة اليه ، كانت في حاجة الى شيء تتغنى به باللغة التي تحسنها ، فهب شعراء الاغاني وعبروا عن العواطف التي كانت تحدو ثوار الفترة للخروج على الحكم القائم ، والتجاوب مع ثورة مصر .

وشيء آخر ... قال ذلك في هدوء - ربما كان بعضهم يرى غير ما رأى انصار مصر من وجهة النظر السياسية ، فلا هو يريد السودان جزءاً من الامبراطورية البريطانية ولا قطعة من مصر ، جزء لا يتجزأ منها ... ربما ؟

يوم الملك

الزمان ، منتصف يناير ١٩٢٦ سراى الحاكم العام بالخرطوم فى حلة زاهية وقد استضافت نفراً من كبار رجالات الانجليز ، والفندق الكبير يموج ايضاً بكبار آخرين قدموا من انجلترا ومصر ليشهدوا هذا الحدث التاريخى ، افتتاح خزان (مكوار) ايذاناً ببدء اضخم مشروع لزراعة القطن فى افريقيا ، المشروع الذى بدات فكرته واقلامنا تنوشه من كل جانب وقد ركز دعاة الحركة الوطنية جل دعايتهم فى استفزاز شعور الأهلين الذين انتزعت اراضيهم وقدمت لهم ابخس التعويضات التي لم تزد عن عشرة قروش للفدان الواحد ..

الاستعدادات للحفل التاريخى على قدم وساق ، وجريدة الحضارة تمـلأ صفحاتها بأنباء هذه الاستعدادات الفخمة وتعلن اسماء كبار الزوار الذين دعوا من انجلترا ومصر ، فنعلم ان فى مقدمتهم اللورد لويد المندوب السامىالبريطانى فى مصر ، ذلك الرجل الذى اشتهر بالكبرياء وقوة النفوذ على السياسة المصرية والذى سيتولى رسمّياً افتتاح الخزان ونعلم ايضاً ان من بين المدعوين اسماعيل سري باشا وزير الاشغال المصرية وعبد الحميد باشا سليمان مدير السكك الحديدية، على ان الذي كان يهمنا بوجه خاص ان الدكتور محمد حسين هيكل الكاتب المصرى المعروف سيحضر الحفل منتدباً عن صحافة مصر .

والدكتور هيكل من الكتاب المصريين الذين لاسمهم رنين فى اسماع شباب الشرق العربى قاطبة ، كان يشرف على تحرير جريدة السياسة لسان حال حزب الأحرار الدستوريين وان كانت عواطف الأكثرية الساحقة منا مع الوفد

المصري – كنا نقرأ لهذا الكاتب المصري العظيم في شغف وامتاع – وكانت السياسة الأسبوعية التي يتولى رئاسة تحريرها بجانب السياسة اليومية مجلة المثقفين في كل البلاد العربية فما من مثقف واحد لم يكن يتوق للاطلاع عليها ومداومة قراءتهـــا ، وعلى صفحاتها كنا نقرأ لكبار كتاب ذلـــك الوقت من كل البلاد العربية .

لهذا كان لقدوم هذا الأديب الكبير من بين المدعوين لحضور حفل الخزان اهتمام خاص في اوساطنا ، الا انا ، مع الأسف ، لم نحظ بالاجتماع به ، فقد كان للظروف السياسية القاهرة في ذلك الوقت العصيب ، وما زالت حوادث ٢٤ ماثلة في الأذهان ، وموقف الإنجليز من المصريين في السودان لم يعد خافياً، وهو موقف عدائي سافر فيه تحفز وتربص بكل من تحدثـــه نفسه من السودانيين بإيجاد صلات واضحة بمصر والمصريين ، لكل هـــذا لم نستطع ان نبرز حقيقة مشاعرنا بزيارة هذا الكاتب الكبير بإقامة حفل او عقد اجتماع ادبي عام ، وقد احس هيكل نفسه بهذا الشعور ، ليس بين السودانيين فحسب بـــل بين بقية المصريين الذين سمحت بعض الظروف ببقائهم في السودان بعد كارثة ١٩٢٤ ، وقد وصف هذا الشعور المرير في كتابه (عشرة ايام في السودان) الذي اخرجه عقب هذه الزيارة .

لندع حسين هيكل جانباً الى حين ، ولننطلق الى سراي الحاكم العـام في مساء يوم ١٧ يناير ١٩٢٦ ، ان اكثرنا قد نسي هذا اليوم الذي كان من بين الاعياد التي يحتفل بها السودان احتفـــالات رسمية في كل المراكز والمديريات تخليداً لذكرى زيارة الملك جورج الخامس للسودان في طريقه للهند ليتوج امبراطوراً عليها حيث بقي سويعات في ميناء بورتسودان حشد له فيها عدد كبير من زعماء البلاد واعيانها للتشرف بالمثول بين يديـــه في تلك المدينة واظهار شعور الولاء والتقدير – وفرض هذا اليوم عيداً عاماً في كل انحاء البلاد منذ ذلك التاريخ .

لنمض الى السراي مع هـــذه الوفود الضخمة من الاعيان والزعماء الذين

استدعوا من جميع انحاء السودان للاحتفاء بهذه المناسبة ، ولكى يشتركوا ايضاً جميعهم وعلى رأسهم المندوب السامى اللورد لويد في افتتاح خزان (مكوار) بعد بضعة ايام ، او على التحديد في اليوم الحادى والعشرين من هذا الشهر .

ولندخل السراي مع الداخلين لنرى اولا كبار الانجليز الذين قدموا من لندن للمشاركة فى حفل افتتاح الخزان والبشر يعلو وجوههم وهم يحيون كبار السودانيين فى غبطة ...

بونهام كارتر السكرتير القضائى السابق للسودان ، جيمس كري الذي اقترن اسمه بنشأة التعليم فى السودان اذ كان من اوائل الانجليز الذين عملوا في محيطه ، المهندس الكبير مردوخ مكدونالد مستشار وزارة الاشغال المصرية وصاحب النصيب الاوفى فى الإعـــداد الفنى للخزان ، وهناك آخرون من بينهم بعض مديري الشركات الانجليزية الكبرى التى استورد منها كل ما احتاج اليه الخزان من آلات وادوات للعمل ...

نستمع الى الكاتب المصرى محمد حسين هيكل ، وهو يصف يوم الملك كما شهده فى ذلك التاريخ وصفاً دقيقاً رائعاً :

اصبحت الخرطوم يوم الاثنين (١٧ / ١ / ١٩٢٦) فى لباس العيد . كانت الرايات والاعلام ترفرف فى شارع فكتوريا (شارع القصر الجمهورى الآن) وفى مقدمة بعض الحوانيت والمتاجر ، وكان الحاكم العام قد دعا الى حفل شاي تقام فى سراية بعد ظهر ذلك اليوم عدداً يزيد على الثمانمائة من بينهم مائة وعشره من اعيان السودانيين ورؤساء القبائل والعشائر فيها ممن لا يقيمون فى الخرطوم، كما دعا اعيان السودانيين فى الخرطوم ودعا كبار الموظفين وكل ذى مكانة من غير السودانيين ، وبهؤلاء وبزينة العيد خرجت المـــدينة من صمتها الموحش بعض الشيء ، وكان اعيـــان السودانيين فى جببهم الحمراء والزرقـــاء المطرزة بالذهب وبسيوفهم المموهـــة اغمادها بالذهب اكثر مـــا خلع على منظر العيد بهجة وزينة ! .

وفي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم استقبل الحاكم العام وقليل من رجاله اللورد لويد مندوب انجلترا السامي الذي وصل ساعتئذ محطة الخرطوم قادماً من مصر ثم قصد واياه السراي. ولم يكن في انتظاره بالسراي غير عشرة من اكابر اعيان السودان صافحهم وقرينته ثم صعدا الى غرفهما .

ولما كانت الساعة الرابعة قد حددت موعداً لحفل الشاي حيث يقدم المندوب السامي اوسمة الشرف لاربابها هرع المدعوون الى السراي حوالى هذه الساعة ، ومنهم جماعة (الرسميين) ارتدوا ملابسهم الرسمية وتقلدوا نياشينهم واوسمتهم ، ومنهم اعيان السودان تقلدوا فوق عباءاتهم الحمراء او الكحلية المطرزة بالقصب المذهب سيوفهم الموشاة الأغماد بوشي الذهب والفضة ، ومنهم غير الرسميين وغير اعيان السودان من ذهبوا في ملابس كل يوم . وبذلك كانت حديقة السراي معرضاً لأكثر ما يمكن ان يتصوره الخيال من الازياء تبايناً واختلافاً ! . . فكنت ترى الردنجوت والطربوش لبسه الموظفون في الحكومة المصرية من المصريين والانجليز وقد حلى كثيرون منهم صدورهم بالنياشين المصرية ، وترى ملابس موظفي حكومة السودان المدنيين اتخذت من القماش الابيض وفصلت على صور (الجاكت) ، والعمامة والجبة والقفطان ارتداها الموظفون الشرعيون كالقضاة والمفتي وواحد او اثنان غير هؤلاء – والفراك والبنجور ومعها القبعة العالية على بعض اعيان السوريين أو الاروام المقيمين بالسودان . وجبب حكومة السودان الرسمية على اعيان السودان . وبين هذا الجمع المتقمش بأردية المقابلة عدد كبير في الزي العادي على مختلف اشكاله والوانه .

تزاحمت هذه الازياء المختلفة المتناقضة المجتمعة في هذا المكان وجعلت تتدافع نحو ساحة السراي . ذلك ان الحاكم العام والمندوب السامي جلسا الى منضدة فوق هذه الساحة وجلس حوليهما ضيوفهما . كذلك جلس عدد كبير من الموظفين والاعيان الذين تقرر الانعام عليهم بالاوسمة الى جانب من الساحة المحاطة (بدرابزون) والمرتفعة فوق ارض الحديقة بدرجات . وكان الحاكم العام قد

وقف يتلو البرقية التي ارسل بها الجلالة ملك انجلترا بالنيابة عن اهالى السودان ورد الملك جورج عليها . فلما أتم تلاوتها وتـلا ترجمتها فضيلة مفتي السودان ، وزع المندوب السامي الاوسمة على اربابها ...

وما كادت هذه المراسم تنتهي حتى انفرط عقد المناكب المتراصة وانقلب مدها نحو ساحة السراي جزراً في انحاء الحديقة الواسعة ، ونزل المنعم عليهم من عليتهم وانخرطوا فى سلك المدعوين تميزهم اوسمتهم . واحدث نزولهم الى الناس شيئاً من الحركة سببهـــا اسراع الناس اليهم يهنئونهم بمـــا حازوا من ثقة غالية ...

ثم زاد العقد انفراطاً وقصد كل الى مائدة من موائد الشاي المبعثرة عـلى نظام ظريف في انحاء المنتزه الجميل . وكان اهل السودان في ازيائهم المطرزة اكثر استرعاء للنظر من كل من سواهم ذلك بأنهم اهل البلاد وروح هذا الجو الصحو الذى يظللنا . على ان استرعاءهم لنظر الاوربيين كـان راجعاً لغرابة ازيائهم وحالهم اكثر منه الى اي معنى نفساني خاص ...

وكان معي صديق سوداني عرفته يوم نزلت الخرطوم له بكل هؤلاء الاعيان صلة ومعرفة ، فسار واياي يحدث بيني وبينهم من التعارف ما يسمح به المقام ولقد شعرت ، واحسبهم شعروا ، اثناء هذا التعارف القصير بإحساس الاحتياط والحذر الذى لاحظته على اخواننـا المصريين ممن قابلونـا فى حلفا وعطبرة والخرطوم ، فلم يزد ما تبادلنا وجماعة اعيان السودان في حديقة السير جوفري ارشر حاكم السودان العام على عبارات التحية البسيطة .

وجلست الى مائدة جلس اليها السيد احمد الميرغني (الاخ الاكبر للسيد علي الميرغني) وفضيلة الشيخ اسماعيل الازهري مفتي السودان وجماعـة آخرون وكانوا كلهم مثال الرقة وحسن الضيافة ؛ وفيما نحن جلوس اقبل السير السيد

على الميرغنى فقام الجميع تحية له واجلالاً واقبل كل من الحاضرين عليه يقبل يده وجلس الى جانبى فى وقار وهيبة . وفيما هو جالس كان اعيان السودان يقبلون عليه وينحنون على يده يقبلونها ظاهرها وباطنها ويرجونه الرضى عنهم وحسن الدعاء لهم . وكانوا كذلك يقبلون يد اخيه السيد احمد . ولكنني اشهد انى ما رايت ايماناً كهذا الذى رايته مرتسماً على وجوه الناس بادياً فى نظراتهم متجلياً في كل حركاتهم حين اتيناهم مسرعين في خشوع واجلال يقبلون يد السيد علي وينظرون من طرف كسير نظرة كلها الإيمان والإجلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء . ومن هؤلاء الأعيان شباب تلوح عليهم مظاهر القوة والاعتداد بالنفس . ومنهم كهول وشيوخ ترى على عوارضهم من الشيب بياضاً في سواد ، ولكل من هؤلاء الشبان والشيوخ سلطان على من يدينون له من القبائل والعشائر والسيد علي نحيف قصير القوام دقيق تقاطيع الوجه تنم عيناه ببريقهما الشديد عن كثير من الذكاء والدهاء ، وتطوق ثغره العربي الرقيق الشفاه ابتسامة دائمة تجعل محياه الجذاب دائم الاشراق . وتعلو جبينه قلنسوة اقرب في صورتها الى القلبق التركي الذي كان يلبسه انور باشا وان لم تكن سوداء مثله ... ويحيط بالقلنسوة عمامة يصعب تحديد لونها ولكن لها مع لون القلنسوة اتساقاً وتجاوباً حسناً .

ولعله أصغر من رأيت من اعيان السودان جسماً وان كان اكبرهم مقاماً ، وكان بمقامه السامي في غنى ان يتحلى بأي وسام من الأسمة خصوصاً بعد ما انعمت الحكومة فى هذا اليوم بمثل لقبه على كل من السير السيد عبد الرحمن المهدي والسير على التوم . . ومع ما كان بادياً من الحبور والبهجة على المنعم عليهم من اعيان السودان وموظفي حكومته فلا ريب ان اشد من كانت علائم الغبطة بادية عليهم في هذه الحفلة هم الانجليز سواء منهم من كانوا فى حكومة السودان ومن كانوا ضيوفاً او سائحين . ولم يستطع الصحفيون الانجليز الذين كانوا يدورون فى انحاء المكان ان يخفوا ابتهاجهم بما كان امامهم من مظاهر

عظمة الامبراطورية وتفوقهـــا . ولهم الحق وهم يرون مـــا لدولتهم من سلطان ومجد .

وينتقل الدكتور هيكل بعد هذا الى وصف شعور المصريين في هـــذا الحفل فيقول :

اما المصريون فكان يخالجهم شعور مبهم يختلط فيه الاسف بالالم بتأنيب الضمير . وكنت تراهم يسير كل منهم منفـرداً اكثر الوقت وينظر الى مـــا حوله بعين الغريب الحائر ولم يشذ اثنان من الباشوات المصريين نزلا ضيوفـاً بسراي الحاكم العام عن هـــذه القاعدة (اسماعيل سري باشا وعبد الحميد سليمان باشا) .

كذلك كنت ترى اختلافاً وتناقضاً في احساس المجتمعين في هذه الحفلة كما كنت ترى اختلافاً وتبايناً في ازيائهم .

وحوالى منتصف الساعة السادسة نزل لورد لويد وقرينته يطوفان بالحاضرين عموماً واهل السودان خصوصاً يتعارفون ويصافحونهم يداً بيد . قال صديق :

لعل من بين السودانيين من يرى زيادة في الاحترام واكرام الوفـــادة أن يهز يد اللورد واللادي اكثر من مرة ، ولو كثر هؤلاء المبالغون في الاحتفاء لشق ذلك على اللادي بنوع خاص !

فأجاب أحد الحاضرين .

ان كل شيء يا صاح مستحب ما دام فيه خدمة للامبراطورية ! وليدي لويد على رقتها واتصالها بالعائلة المالكة في انكلترا تسعد بمصافحة ثمانمائة يد ما دام في ذلك للامبراطورية سعادة وعظمة ! واذا شق عليهـا المبالغون في الاحتفاء

فتلك مشقة يوم له ايام هناء وراحة بعده ، وما مشقة يوم في نظر الانجليزي الى جانب مصلحة الامبراطورية الا تمام السعادة .

كانت الشمس قد انحدرت الى المغيب فبدأ الناس ينصرفون جماعات بعضها اثر بعض وانصرفت ومن معي ميممين احد الاندية ونحن نذكر عيد الملك يقام في الخرطوم تذكاراً لمرور جلالة ملك انجلترا وامبراطور الهند بها .



الى الخزان

في الساعة الثامنة والدقيقة أربعين من مساء الاربعاء ٢٠ يناير ١٩٢٦ تحرك القطار الذي أقل المدعوين لافتتاح خزان سنار من محطة الخرطوم وقـد امتلأ فناء المحطة بجموع زاخرة من الرجال والنساء ارتفعت أصواتهم بالتهليل والهتاف والزغاريد ، ليس ابتهاجاً بافتتاح الخزان الذي ما زال مجهـول الاثر في اذهانهم وتفكيرهم ، بل لان القطار يقل زعماءهم الروحيين وكبار رجال الدين والاعيان فاحتشد مؤيدو هؤلاء وأتباعهم يهتفون ويهللون .

وفي صبيحة الخميس ٢١ يناير وصل القطار الى مكوار [١] ، حيث تقـام فى الساعة الحادية عشرة صباحاً حفلة الافتتاح .

القطار يتهادى نحو هذه القرية الصغيرة التي قدر لهـا أن تكون النبع الذي يتدفق منه هذا المشروع الاقتصادي الضخم .

والجماهير تتدفق صوب هذه القرية السعيدة من كل صوب لا لتشهد هذا البعث الجديد فحسب بل لتشاهد أيضاً هؤلاء السادة الزعماء الروحيين الذين سعوا الى هذه المدينة الصغيرة احتفاء بافتتاح الخزان ... وسعت هذه الجماهير الغفـيرة لتسعد برؤيتهم .

ان هذه الحشود الضخمة تروع الكاتب المصري هيكل فيهتف :

---

(١) مكوار هو الاسم الذي كان يطلق على هذه القرية التي أقيم فيها الخزان ، وهـو اسم منشئها ــ وبعد الخزان غير اسمها إلى « سنار المدينة » .

(.. ماذا أرى ؟ .. ما هذه الالوف المؤلفة من خلق الله أهل السودان ؟ وما هذه الطبول والزمور وما هذه الزغاريد تشق عنان الجو وما هـــذا العيد الذي لبس فيه اولئك السود الابيض الجديد ؟ .. ما هذه الاعلام المصرية والانجليزية يلعب بها نسيم الصبح العليل ؟ ما أظن أكبر مدن أية دولة من دول الحلفاء كانت مائجة بالناس يوم وضعت الحرب الكبرى اوزارها موج هذه البقعة المحيطة بترعة الجزيرة وخزانها ؟ افحق ان اولئك كلهم جاءوا بباعث من نشوة الجذل والطرب يسعون لرؤية الماء ينزل في ترعة الجزيرة ؟ ام انهم حشروا اليه كما حشر المزغردات والهاتفـــون في الخرطوم ؟ وكما يحشر الناس في مصر زمراً للقيا كبير او تحية امير ! ؟)

وفي الزمن المحدد ، وتحت مظلة ضخمة أعدت للزوار ، والحشد الحاشد يحيط بهم من كل جانب جلس المدعوون ، وفي منصة خاصـة جلس المندوب السامي والحاكم العام وقرينتاهما وجلس معهم اسماعيل سري باشا الوزير المصري وجلس من ورائهم الشيخ محمد الطيب هاشم قاضي مديرية النيل الازرق الذي كلف بقراءة ترجمة الخطب من الإنجليزية الى العربية .

وابتدأ الحفل بخطاب من السير جوفري آرشر الحاكم العام جاء فيـــه : بعد ان رحب باللورد لويد وبقية المدعوين والزوار :

« ... إن العمل العظيم الذي نشاهده كاملا امامنا فى هذه اللحظة ما بلـــغ هذه النهاية إلا بفضل جهاد أناس كثيرين . فقد ظل مشروع ري سهول الجزيرة موضوع بحث المستشارين البريطانيين الذين تعاقبوا فى وزارة الاشغال المصرية من عهد السير وليم جارستين . فالابحاث الاولية التى بدأها المستر ديبوي اكملها السير مردوخ مكدونالد بمعاونة المرحوم اللورد كتشنر والسير ريجنالد ونجت والمرحوم السير لي ستاك واني لا اشك في ان الحاضرين يأسفون أشد الاسف لعدم تمكن السير مردوخ مكدونالد والسير ريجنالد ونجت من الحضور معنا فى هذا الاحتفال وقد

وصلتني اليوم الرسالة الآتية من السير ريجنالد ونجت ، عسى ان يكون افتتاح الخزان ومشروع الجزيرة فاتحة عصر فلاح جديد للسودان وشعبه » .

وقد تكرمت وزارة الاشغال المصرية فوضعت بغاية الإسخاء تحت تصرف حكومة السودان كل ما كان لديها من المواهب للقيام بتخطيط وانقاذ هذا المشروع العظيم ..

واني لانتهز فرصة وجود صاحبي المعالي السير اسماعيل باشا سري وعبد الحميد باشا سليمان هذا اليوم لاعبر لهما نيابة عن السودان عما نحن مدينون به لجميع الوزراء الذين تعاقبوا في وزارة الاشغال العمومية والمهندسين القديرين الذين جاءوا من مصر وكان لمجهوداتهم فضل في المعاونة على اتمام هذا المشروع .

وبعد ان اثنى الحاكم العام في خطابه على كل من اسهم في المشروع اختتم خطابه بهذه العبارات موجهاً الدعوة للورد لويد بافتتاح المشروع فقال :

« ولي الشرف ان ادعو فخامتكم الى تكريس هذا العمل الهندسي العظيم لخير السودان وشعوبه » .

وعندها نهض اللورد لويد فألقى خطاباً جاء فيه ، بعد عبارات التحية والترحيب والشكر :

« ... ان خزان سنار كما تعلمون ليس سوى جزء من مشروع عام لاجل ترقية وتحسين موارد النيل وقد أثبتت المباحثات الدقيقة التي أجراها الخبراء في الماضي ان مياه النيل اذا أحسن صيانتها وتوزيعها بالعدل والإنصاف يجب ان تكفي وتزيد عن احتياجات مصر والسودان الحالية والمنتظرة في المستقبل ومن دواعي سرورنا الخاص ان يكون حضرة صاحب المعالي السير اسماعيل باشا سري احد ابناء مصر المعروف بالنبوغ والشهرة حاضراً معنا اليوم وذلك نظراً لاشتراكه

شخصياً في اعداد هذا المشروع ، كذلك نتفاءل خيراً بوجود صاحب المعالي عبد الحميد باشا سليمان فإني واثق ان مقدرته وسعة نظره يبعثان على ازالة ما بقى عالقاً من سوء الإدراك للمسائل العلمية الخاصة بالمشروع .

اما والوقائع الجوهرية كما تعلمون فإذا ساد المفاوضات روح الحكمة السياسية فلا يجب ان تقوم صعوبة في سبيل الوصول الى تسوية تضمن ضماناً وافياً حاجة مصر ، وفي نفس الوقت تمكن السودان من السير في طريق العمران بقدم ثابتة حسبما تسمح موارده .

وللسودان فى احوال كهذه ان ينظر الى المستقبل بعين الثقة والطمأنينة وعسى ان يبقى العمل الذي افتتحه اليوم شاهداً على الفوائد الناجمة عن قيام الحكومة بعمل كهذا بغاية الحكمة والتبصر . ويجب ان يكون من نتائج هذا المشروع ليس فقط ازدياد رفاهية المزارعين الوطنيين بل يجب في نفس الوقت ان يعود بفائدة عاجلة مقابلة لرأس المال الكبير الذي انفق في انشائه .

واختتم كلمته بحديث قصير عن واجب قادة الافكار في السودان لكي لا يكون هذا التحسين المتعاظم في الامور المادية سبباً « في ضياع او انحطاط الافكار والتقاليد التى هى اساس اخلاق الشعوب .. »

ثم وقف اخيراً اسماعيل سري باشا والقى خطاباً هذا نصه :

« كان من بواعث سروري العظيم ان ادعى لحضور هذا الاحتفال الزاهر بافتتاح خزان سنار المعد لإحياء موات جزء عظيم من الاراضى السودانية بالري الصناعى الذي ما دخل ارضاً الا وزاد فى انتاجها كما هو معلوم . ومن بواعث الفخر لمصر ان تكون هى واضعة مشروع رى الجزيرة بواسطة كبار مهندسيها وفى مقدمتهم المرحومين السير وليام جارستين والسير آرثر ووب ومن تبعهما كالمستر ديبوي والمستر توتنتهام والسير مردوخ مكدونالد الذي تم على يديه تحضير

المشروع نهائياً واعداد تنفيذه . ولا حاجة لان اذكر ان كل هؤلاء من اعاظم المهندسين التابعين لوزارة الاشغال العمومية . وهذا واني ابدي هنا مزيد الشكر للسير جوفري آرشر على ما فاه به في هذا الخصوص . وقد اشرف مهندسون تابعون لوزارة الاشغال المصرية على العمل في مدة تنفيذه – ويمكنني ان ازيد مع الفخر اشتراك شخصي الضعيف في تحضير هذا المشروع .

هذا واني لأذكر هنا مع مزيد السرور لاهالي السودان الحاضرين معنا عطف الامة المصرية عليهم بهذه المناسبة السعيدة واخبرهم بأنها يسرها أن ترى السودان في بحبوحة من الرغد والسعة وأن يزداد أهله رفاهية وتقدماً في العرفان . ولا ريب عندي ان ما يجري من ماء النيل السعيد يكفي بل يزيد عن احتياجات مصر والسودان لريهما معاً اذا أحكم تدبيره بالاعمال الصناعية التي اولها هذا الخزان ... واني لأسأل المولى القدير المتعالي أن يوفقنا جميعاً للوصول الى أداء واجبنا » .

ويقول الدكتور هيكل ان خطبة سري باشا غير المنتظرة كانت باعثة لسرور المصريين الذين استاءوا قبل ذلك لعدم تمثيل مصر في هذه الحفلة التاريخية .

وبعد خطاب سري باشا نهض اللورد لويد الى منضدة وضعت عليها يد على شكل تمثال (آمنحوتب) متصلة كهربائياً بفتحات الخزان حتى اذا أدار اللورد هذه اليد انفرج باب الخزان وجرى الماء منه في ترعة الجزيرة . وقيل ان تلك اليد صنعت على مثال امنحوتب الذي حكم مصر منذ أكثر من ألفي سنة لما عرف عنه في التاريخ القديم من أنه أول من حاول بصفة جدية ضبط المياه لحسن ري الاراضي ، كما تذهب الاساطير الى انه هو الذي انشأ بحيرة موريس .

وفي هذه اللحظات التي ادار فيها المندوب السامي تلك اليد وأخذ الماء يتدفق هادراً من ابواب الخزان في ترعة الجزيرة ، وقف مطران السودان الاب جوين

والى جانبه الشيخ اسماعيل الازهري مفتي السودان فوق العين التي يتدفق منها الماء وتليا عبارات التبريك لهذا الماء الخصب المندفع الى اراض لم تكن تعرف الخصب ولا الزراعة من قبل .

ووقف الحضور جميعاً اثناء تلاوة صـــلاة التدشين التي فاه بها الاب جوين والخطبة المباركة التي القاها المفتي ، ومنهم (من يبتهل الى الله مخلصاً ان يبارك هذا العمل الفني المجيد ومنهم من ينظر بعين الحذر الى ما سيكون من نتائجه) .

(هيكل)

وبين ضوضاء الماء المنحدر ، ارتفـــع صوت الاب جوين والشيخ اسماعيل الازهري وهما واقفان على الخزان حيث الماء الهادر والريح تعبث بملابسهما الواسعة الفضفاضة يتلوان هذه الصلوات والادعية :

صلوات على محراب النيل

كان الاب جوين المطران الانجليزى يتلو ما نصه :

« اللهم القادر على كل شيء الازلي الابدى مبدع العالم وخالقنا جميعاً ، من جعلت نظاماً يسير عليه العالم اجمع وبلاد السودان ايضاً . نشكرك اللهم من اجل عبيدك تشارلس جورج غردون ، ولى اولفر فتزموريس ستاك ، ومن اجل جميع الذين عملوا في خدمة هذه البلاد وضحوا بحياتهم في سبيل تنفيذ خططك.

انا نشكرك للحكمة والنباهـــة اللذين وهبتهما الى اولئك الذين ابتكروا فكرة تسخير مياه النهر لخدمة الانسان وانا اذكر امامك بنوع خاص ، عبدك وليم جارستين وهربرت هوراشو كتشنر . اللهم انا نشكرك ايضاً من اجــل جميع الذين استغلوا لانفاذ هذه الاعمال ، ومن اجل الذى وضع رسومه ومن اجل مهندسه ومن اجل المقاولين والصناع واصحاب الحرف من جميع الملــل والنحل ومن اجل العمال الذين حفروا الارض ومن اجــل البنائين الذين بنوا الاحجار وبالاجمــالى من اجل جميع الذين وهبوا قواهم البدنيــة وخدمتهم وعقولهم فى سبيل هذا العمل وساعدوا بإنجازه ان كان ذلك بمعرفة منهم او بغير معرفة .

إنا نشكرك اللهم ونحمد العناية الصمدانية التي وهبتها بنوع خاص فى اشد اوقات الخطر اثناء ادوار البناء . ونحمدك فوق كل شيء من اجل الامطار التى ترسلها على الجبال فتسبب الفيضان وتهبنا المياه التى نروى بها الارض .

لك اللهم العظمة والقوة والمجد والظفر والجلالة .

كل ما فى السماء ومـــا فى الأرض هو لك ، الملك لك يا الهنا ، بيدك القوة والجبروت ، وبيدك تعظيم وتشديد الجميع ، وتهب القوة لهم جميعـاً ، نتضرع اليك بخضوع وخشوع أن تقبل شكرنا هذا باسم وبواسطة ربنا يسوع الذي علمنا أن نصلى هكذا .

أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض اعطنا خبزنا كفـــاف يومنا واغفر ذنوبنا كما نحن ايضاً نغفر للمذنبين الينا ولا تدخلنا فى تجربة وانقذنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد الى الأبد ـ آمين » .

ثم تلا الأب جوين هذه الصلاة الثانية :

أيها الإله القادر على كل شيء ، الازلي الذي لا يتغير ، الحكيم وحده ، وأب البشر اجمـع ، انا نضرع اليك ان تبارك هـذا الخزان ومشروع الري ، ليس فقط لأن ثروة الناس ونجاحهم سيزيدان بواسطتها ، بل لانه اذا استعمل الناس هـــذه الهبات التي هي منك كما يجب يزيدون حكماً وعلمـــاً ودينـــاً وصلاحاً حقيقياً .

انظر اللهم الى هذه البلاد بالرحمة واللطف وامنح بأن تسود الحرية والعدل والصلاح حيث كانت الشدة والاستبداد والظلم تطأ بأقدامها على شعبك ، قـــد قلت في كتابك المقدس ان سيأتي اليوم الذي بـــه يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل .

نسألك اللهم ان تعلم طرق السلام أولئك الذين كانوا مضطرين ان يعيشوا من الحرب في الزمـــان الغابر وامنحهم الاتحـــاد والوفاق ، وامنح بأن

يتمموا اعمـــال خلاصك العجيب بواسطة تأثير عنايتك الدائمة التي تعمل بيننا بدون أن نشعر .

دع العالم اجمع يشعر ويرى ان الامور التي نبذها جانباً قد عادت فارتفعت ، وان تلك الامور التي قدم عهدها تتحدد الآن . وبالإجمال أن جميع الامور تعود الآن الى الكمال بواسطتك يا منبع جميع الامور . لك البركة والشكر – امين

ليباركـكم الله ويحفظكم ، ليضيء بوجهه عليكم ، ويمنحكم نعمته لتنير لـكم انوار الحياة وليهبكم السلام من الآن والى الأبد – امين .

وبجانب الاب جوين كان فضيلة الشيخ اسماعيل الازهري مفتي السودان يقف عند الماء المنبجس من عين الخزان ويتلو هذا الدعاء :

« إنا نقف هذا الموقف لنرفع أكف الضراعة بالحمد والشكر لله الذي جلت قدرته وتعالت عظمته وارتفع شأنه وعز سلطانه على ما أولانا من النعم الجليلة التي منها اتمام هـــذا البناء الشامخ ومشروع ري الجزيرة العظيم فإن الشكر على النعم واجب وبه تزداد ، قـــال الله في كتابه العزيز (لئن شكرتم لازيدنـــكم) .

الحمد الله نحمده ونستعين به ونشكره فهو منشىء الكائنات بارىء النسمات مقدر الاقوات ونصلي ونسلم على رسوله الذي اتى بالهدى والبينات لاصلاح حال الناس في الحياة الدنيا والآخرة . فقد ورد (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبـداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) وعلى اخوانه من النبيين والمرسلين ومن نهج نهجهم القويم واهتدى بهديهم الى الصراط المستقيم .

أما بعد فإن الله خلق الانسان محتاجاً الى الطعام والشراب واللباس فهيأ له من الامور الكونية ما يكفل له بقـــاءه في هذه الحياة على اصلح الوجوه متى

استعمل فيها فكره ومواهبه التي فطره عليهـا . خلق السحاب والامطار ممدة للعيون والانهار التي بها حفظ حياته فقال في كتابه العزيز (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وخلق له الارض مستعدة لانبات جميع النباتات التي يحتاج اليهـا لنفسه ولانعامه (ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء) وترى الارض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج) الذي جعل لكم الارض مهاداً وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجاً من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لألى النهى) (الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء مـاء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم) (علم الانسان ما لم يعلم) واتاه الحكمة والعلم النافع (ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً فهداه الى انجح الطرق للاستفادة من هذه الانهار .

وستصير هذه البلاد بواسطة هذا العمل العظيم من اكبر البلاد انتاجاً وثروة وسيصير الشعب السوداني في رغد من العيش ونعمة ورفاهية .

ولله ذي الطول والاكرام الذي بيده الخير وهـو على كل شيء قدير الثناء والشكر الخالص على هذه النعم التي لا تحصى . ونسأله جل شأنه ان يبارك في هذا العمل ويديم النفع به لخير البلاد والعباد — امين .

اللهم اجعل هذا القطر امناً مطمئناً في سخاء ورخاء وعدل واشمله بعنايتك ورعايتك وامطر عليه شآبيب خيرك بفضلك وكرمك واحسانك انك سميع قريب مجيب الدعاء » .

وبانتهاء هذا التبريك والصلوات ، انفض الجمع الزاخر وانتهت حفلة افتتاح خزان سنار ..

وبعد أن استمتعت مع رفيقي بسويعات لطيفة في هذه الذكريات ، تارة

يجترها من الذاكرة واونة نعود الى كتاب (عشرة ايام في السودان) هيكل سألته ألم يوح هذا الحادث التاريخي الهام الى شعرائنا في ذلك العهد ؟

فأجاب ، لست ادرى كيف صمتوا عن هــذا الحدث التاريخي كلهم الا واحداً لم نشهده على منبر الا نادراً ولم يعتد الخطابة في المحافل وان كنا جميعاً نعرفه بالفضل والادب والانكباب على العلم ، ذلكم هو الاستاذ ابو بكر احمد عليم – طيب الله ثراه فقــد اهتز للمناسبة وانشأ قصيدة سأعرضهــا عليك بعد حين .

ولعل بقية شعرائنا اعدام الفتور الذي كان حتى ذلك الحين يقابل به هــذا المشروع وما قر فى اذهان اكثرنا بسبب الدعاية القوية التى قامت حوله من انه استغلال لأراضى السودان وامكانياته الزراعية لمصلحة الشركات الانجليزية .

واخذ صوته يردد همساً .. وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لــكم !

وابو بكر عليم رجل عــالم اديب ، اخرج كتاباً قيماً في شرح رسالة ابن زيدون ، وانه ليبدأ قصيدته عن الخزان بهذا الغزل التقليدي الذي تعود الشعراء ان يبدأوا به شعرهم فيقول :

وورديـة زانت نضارتها الخدّا لعوب بأرباب الحمى تسعر الوجدا
كأن بجفنيها قسياً نوافــذا تقد إذا شاءت صميم الحشا قــدا
وثغر كنور الأقحوانة نبتــه تخــال به ريق المدامــة أو شهدا
تسائلني مالي اراك جفوتنــا وبنت ولم تحفظ لنا في الهوى عهدا ؟
ألــم تر جسمي تقــاذفه النوى ووجهي من حر الهواجر مربدّا
وما بي هنات من جفاء وغلظــة ولكن ما أهواه مستصعب جدا

وبعد هذه المقدمة الغزلية يتحدث الشاعر عن نفسه في مثل هذه المعاني :

هويت اقتحام الصعب في طلب العلا　　لأحرز ذكراً يورث الفخر والحمدا
وجرعت نفسي الصبر مرّاً مذاقه　　بعضب من العزم الذي يفلق الصلدا

وينتقل في شعر رصين يمجد هذا الوطن الذي تنبت هضباته (الرند) ونهراه من ذهب وفضة) ..

عدمت فؤاداً لا يحــن صبابة　　الى وطن هضابه تنبت الرندا
ونهراه صيغا من لجين وعسجد　　وأشجاره كالزهر زان به بردا
تصوح من ايدي القساة نباتــه　　وأجدب حتى صار كالصخر لا يندى
وقدما سهام الفــاتحين عقيمة　　اذا ما رمت عن قوسها حصدت حصدا

ويقف الشاعر متأملاً عند هذه الأعجوبة الجديدة - الخزان -
فيذكر سيدنا سليمان وجنده من الجن ، ويسخر من فرعون الذي لو عاش حتى يرى الخزان لاستصغر دعواه ...

الا هل رأت عيناك مكوار بعدمنا　　اقامت يد الاقدار في نهره السدا
كأن سليمان الحكيم اقامـــه　　بتسخير جن يسر دون الصفا سردا
بناء يضل الفكر في كنه وصفه　　كطود رسا لم تر الأعين له نـــدا
يصادم تيـــاراً يهد اذا طغت　　اواذيه في اليمّ شم الذرى هــدا
كأن دوي الموج مرتطماً بـــه　　دوي جهام السحب إذ ارسل الرعدا
كأن مرور المـــاء بين عيونه　　مرور سهام لا تكل ولا تهـــدا
فظل زمـــام النيل طوع مراده　　يكلفـــه جزراً ويرسله مــدا
وعاج نمير المـاء ينساب عنوة　　على المرج حتى جلل الهضب والوهدا
وصيرّ من ارض الجزيرة روضةً　　تخال بساطاً سندسياً بهـــا امتدا
كأن نسيم الزهر بللـــه الندى　　اثار على ارجائهـــا المسك والندا
كأن مكاء الطير بين جنانهـــا　　حديث العذارى احكمت صوغه نشدا

لقد عد فرعون الكنانة نفسه الهاً ، لان النيل من تحتـــه انقدا
ولو عاش حتى شاهد اليوم ما ارى وما اثمر الخزان ازرى بمـــا عدا

ويهيب الشاعر بالسودانيين ان يجدوا ويستثمروا هذه الارض التي مهدت تمهيداً ، وان يتجهوا ايضاً للصناعة لترتقي البلاد ، ويطالب المتعلمين الا تستعبدهم الوظيفة فتكون هي قصارى آمالهم بل عليهم ان يتحرروا منها وان يتجهوا للأعمال الحرة ، وهي صرخة رجل واع في وقت كانت فيه الوظائف اقصى اماني المتعلمين ! :

لـــكم يا بني السودان اسهرت مقلتي لاكشف عن اسياف همتكم غمدا
فأنتم نواة الحي انبتهـــا الثري ثرى ارضكم ، لا غرو ان اثمرت سعدا
اثيروا خبيء الرزق بالحرث وأدأبوا على الزرع ان الارض قد مهدت مهدا
فإن الثراء الحـــر في باطن الثرى مقيم ، ولكن النجـــاح لمن كدا
وقوموا بتعضيد الصناعات ترتقي بلادكم بئس التواني ومــــا أجدى
ولا تستهينوا بالتجارة انهـــا ترب قليل المال ان احسن القصدا
وزينوا بحسن الاقتصاد حيـــاتكم تعيشوا على مر الزمان بـــه رغدا
فإن اخا الاسراف يهدم ما بنى ولم يجن من حسن الثناء سوى الصدا
ولا يشغلن حب التوظف بالــكم فــــلا خير في رزق يقيدكم قيدا
وفي ساحة الكسب الجزيل مناهل عـــذاب لحر مطلق يبذل الجهـــدا
نظيرك من تستغن عن فضل ماله عفافاً ، فإن تحتج اليه تكن عبدا
وقـــد تجتني ممن يعاديك خبرة تجنبـــك الفخ الذي مـــده رصدا
وتدرك بالحـــلم الامور موفقـــاً وتخطىء بالحمق الحزامة والرشدا
ومن سالم الناس اتقى شر ختلهم وعاش سليم الصدر مق طرح الحقدا

رحم الله ابا بكر بن عليم ، فقد كان شاعراً فحلاً ، الا انه كان مقلاً .

* * *

قلت اعابثه : اتراك قد اغفلت عامداً ان تذكر لي قصيدة الأستاذ حسن عمر الأزهري التي سخر فيها آنذاك من الخزان ، ومن الانجليز، وكان يعبر فيها عن وجهة نظر الشبان الذين كانوا يسيرون مع الثورة المصرية ويؤمنون باتجاهاتها ؟

قال نسيت ، وما انسانيها إلا الشيطان .. وكيف لا اذكرها وقد تناقلناها سراً نحفظها حتى طلبة المدارس ورددوها في مجتمعاتهم الخاصة ..

انه يبدأ قصيدته الساخرة – كعادتـــه – بترديد قولة نسبت آنذاك الى « سلاطين » الذي كان يشغل منصباً هاماً في حكومة ذلك العهد رغم انـــه نمساوي الجنسية وكان الانجليز غير راضين عن بقائه بينهم ، وكان هو ايضاً غير راض عنهم ، وكان يتحدث الى المقربين اليه من السودانيين عن خداع الانجليز وطمعهم ، وأنهم قوم لا يؤمن جانبهم ، وان السودانيين لمـــا يعرفوا عنهم غير النزر اليسير ، وشبههم بالجمل المدفون في الرمل لم يبد للعيان منه غير اذنيه ... وقد انتشر هذا المثل بين السودانيين وابتدأ به الأستاذ حسن ازهري قصيدته تلك قائلا :

جمل في الرمـــل مدفون وما ظهرت للعـــين الا اذناه
هكذا قـــال سلاطين لنـــا وسلاطين من القوم الدهـــاه

* * *

إجر يا نيل على مهـل فمـــا ماؤك العذب بمحبوب سواه
اجر يا نيل ولكن مسرعـــاً قبلما يعلوك خزان الميـــاه
سر وقل ان ينج سعد[1] ظافراً فلقد أودى سعيد بالفـــلاه
يا رعاك الله يا سعـد [2] ولا زلت تستفتح ابواب النجـــاه

---

(١) تضمين لمثل عربي مشهور (انج سعداً فقد هلك سعيد) .
(٢) الخطاب هنا موجه لسعد زغلول .

اذكروا السودان في استقلالكم   قبل مصر فهو ينبوع الحياه
كل من قـدم مصراً قبلنـا   خانه ان تقبض المـاء يداه

* * *

مصر والسودان شيء واحـد   كل قطر منهما يفدي اخـاه
كل قطر منهمـا ان لم يزل   يجذب الثاني فقل يا ويلتـاه

* * *

آه لو اسطيـع ابـدي نهضة   او تسوّى في يد الشيخ عصاه
لتوكأت على كل فتى   وتوكأت عـلى كل فتاه

* * *

لعب السكسون بي هل سلمت   كرة ترمى بأقدام عتاه !
اثقلوني ميرة واحتكروا   كل مشروع سوى باب السفاه
امسكوا عن قلمي بل امسكوا   لفظة تخرج من بـين الشفاه
فالتزمت الصمت حتى لم أقل   في كلامي غـير آه ثم آه !

وانطلق الرواة بهذه القصيدة ينشرونها في كل مكان ، وكانت من القصائد ذات السيرورة في المجتمع .

إلى بركات

ولكن حفل الخزان لا ينتهي عند سنار ، فان على ركب المدعوين ان يتحرك صوب بركات حيث يشهد الآلات الحديثة الضخمة التي أقيمت لأول مرة في هذه القرية الصغيرة لحلج قطن المشروع .

وفي تمام الساعة الرابعة يصل القطار الى بركات عائداً من مكوار بعد افتتاح الخزان مباشرة ويبدو هنا منظر حشود ضخمه ، اضخم من تلك التي لقيتنا في مكوار .. لقد قدر عددهم بأكثر من خمسة عشر الف رجل . ويتجه الزوار الى ساحة فسيحة وقد قام وابور الحليج وبه ثمانون دولاباً في وسط تلك الساحة ويقول هيكل ... « أليس عجيباً ان تمتد يد الحضارة لتقيم في هذه النواحي البادية هذه الآلات الضخمة العظيمة التي اتى بها من انجلترا على متون البحار قطعاً وهذه هي تدور الآن مكينات فخمة قوية تحلج مئات القناطير وتقدم لمئات السودانيين عملاً كانوا في غنى عنه بقناعتهم بعيش البداوة الهنيء ؟. ولكن انجلترا يجب ان تتغذى بالقطن لينال عمالها وأشرافها أكبر حظ يريدون نواله من المتاع بالحياة فيجب لذلك ان يخرج أهل السودان وغير اهل السودان على ما ألفوا منذ مئات السنين وان ينتجوا القطن وغير القطن كارهين لهذا المجهود او قيامهم به . فإذا الفوه والفوا ما يدره عليهم من ربح وما يوفره لهم في الحياة من نعيم استزادوا منه ما اطاقوا الاستزادة ، ثم تراهم بعد ذلك ولهم في الحياة مثل ما لعمال الإنجليز واشرافهم من مطامع ، ويومئذ لا بد من ان يكون احتكاك .. فتفاهم ، وذلك شأن النظام الفردي في الاقتصاد ! » .

ولقد صدق الرجل كأنما كان يقرأ عن ظهر الغيب ...

ويصف هيكل مشهد حفل المحلج فيقول :

« درنا في ارجاء وابور الحليج ثم خرجنا من باب غير الذي دخلنا منه فإذا امامه مصطبة كبيرة اقيمت عليها مظلة تحتها مائدة عليها معظم للصوت ومن حولها مقاعد اعدت ليجلس عليها المندوب السامي البريطاني وصحبه وليقوم بإلقاء خطاب ينوه فيه بأعمال الحضارة التي قامت بها بريطانيا في السودان على هذه الألوف من السودانيين الذين حشدوا له ، والذين لايعرف أحدهم من الإنجليزية حرفاً ولا يستطيع واحد في كل مائتين منهم أن يدرك – إن هو استطاع أن يسمع – ما في ترجمة هذا الخطاب إلى العربية – وأعدت للصحافة مناضد وضعت عليها أقلام الرصاص وبلوكنوت من ورق صقيل . كما مهدت للصحفيين من قبل كل وسائل العمل للاسراع في إرسال رسائلهم البرقية إلى انحاء العالم المختلفة يذيعون فيها أخبار هذا الاحتفال البريطاني في مناطق خط الاستواء بعمل من اعمال الحضارة العظيمة قامت به بريطانيا خدمة للحضارة في العالم ، وإن كانت خدمة تفيد أهل البلاد وتفيد بريطانيا نفسها .

والقى اللورد لويد خطاباً ابدى فيه اغتباطه بقيام هذا المشروع وافتتاح الخزان . وعد ذلك خطوة خطيرة لترقي السودان الاقتصادي ، ونوه بفائدة المشروع لأهالي السودان وتجارة جميع الأمم . وبهذا انتهى حفل بركات ، وانصرفنا عائدين الى القطار ، وخفف عن هذه الألوف التي حشدت نطاق النظام الحديدي الذي اوقفها في أماكنها صفوفاً فانطلقوا يعدون ملء سيقانهم ليملأوا هذا الفضاء الذي كان يفصل بيننا وبينهم حتى صاروا عقبة في سبيل وصولنا إلى القطار ، فلما وصلنا اليه بعد جهد ألفيناهم يحيطون به من كل جانب حتى تعذر الصعود اليه ، واضطررنا الى الالتجاء الى القائمين بأمر النظام في هذا المكان الذي تولاه هرج أي هرج ؟ ، وعجز حماة النظام عن معاونتنا فشققنا لأنفسنا الطريق بين هذه الجموع المائجة التي ظل لديها من الاحترام لنا ما توجبه عليها الروح الشرقية المتسامحة من اكرام الضيف وحماية الغريب .

فيم هذا الهرج والمرج ؟ وما هذا الضجيج التي تثيره هـذه الخلائق المندفعـة صوب القطـار في حماسة وجيشان ؟ .. صه ! ان لها من وراء اندفاعها لغرضاً سامياً عظيما . انها تلتمس بركات السيد علي الميرغني ...! » .

ويتحدث هيكل عن كيف يدخل زوار السيد علي ومحبوه الى داره التماساً للبركة مما يجد القارىء أثره في النقاش الذي دار بينه والأستاذ عبد الرحمن أحمـد على صفحات الحضارة .

وبانتهاء حفل بركات ينتهي حفل افتتاح خزان مكوار أو سنار وتبـدأ صفحة جديدة في تاريخ السودان الاقتصادي .

والذين حاربوا المشروع في ذلـك الوقت من المفكرين والكتاب وأثاروا الجماهير ضده لم يكونوا يجهلون النفع الذي يعود على البلاد بسببه ، وانمـا كانوا يحاربون الاستعمار ممثلاً في مشاريعه ايا كان أثرها على البلاد ، فحاربوا المشروع مستغلين قلة ما أعطى من تعويض لأصحاب الأراضي مثلما حاربوا فكرة تعليم المرأة مستغلين الأفكار الرجعية التي كانت تسود ذلك الوسط البدائي !

العاصمة منذ ثلث قرن

كما يصفها الدكتور هيكل

وعاد الكاتب المصري الكبير الدكتور محمد حسين هيكل الى القاهرة وأخرج كتابه (عشرة أيام في السودان) وقد أودع الكتاب مشاهداته وانطباعاته عن السودان في هذه الايام العشرة التي قضاها بين العاصمة .

وتلقف السودانيون المتعلمون هذا الكتاب في شغف ونهم ، انهم يريدون ان يروا صورة بلادهم ومجتمعهم كما رسمها هذا الكاتب الكبير ، واحدث الكتاب ضجة بينهم ، لم تعجبهم الصورة في بعض جوانبها فخيبت آمالهم ! وأحسوا بالصدق المرير في جوانب اخرى منها فقبلوه كارهين !

كانوا يريدونها صورة زاهية مشرقة.. ولكن الواقع وقلم الكاتب ، لم يسمحا للاشراق ان يطل الا من منافذ صغيرة ، وكان الجانب القاتم اعم واشمل .

ولقد طال الجدل بيننا ونحن نقرأ هذا الوصف للدكتور هيكل عن مدينة الخرطوم ، هو يطل عليها لاول مرة فيقول :

« .. وتدخل الخرطوم وهذه الصورة تملأ نفسك (صورة مدينة بسامة جذابة ، فيها الحدائق وأماكن النزهة والرياضة والمجتمعات الزاهية الزاهرة وكل ما يجلو صدأ النفس ويطرد هموم القلب !) فما كاد القطار يسير بك نحو المحطة واذا بك قد مررت بعد تخطيك كبري النيل الازرق بين الخرطوم والخرطوم بحري ببعض مبان للحكومة لا تحقق الصورة التي في نفسك ولكنها

مع ذلك لا تقضي عليها – فحول كلية غردون والمدارس المحيطة بها حدائق ظريفة تأخذ بالنظر . ولكن بعدها فضاء صحراويا لا بناء فيه ولا ماء! وتتلفت وانت بالقطار يمنة ويسرة فإذا كل ما حولك مبان قليلة الارتفاع بنيت من طابق واحد . فإذا وقف القطار رأيت ميداناً واسعاً ليس فيه شيء يزينه ورأيت امامه مثل تلك المباني القليلة الارتفاع وشعرت بهذه الصورة الجذابة الممتلئه بها نفسك وقد بدأت تذبل وتضمحل !

وفيما كنت بالسيارة في طريقي الى الفندق (الجراند اوتيل) اظهرت دهشتي من هذه الصورة التي تبدت لي من الخرطوم والتي لا تتفق في شيء مع ما كان مرتسما منها في خيالي – الشوارع واسعة حقاً وعرضها يزيد على ثلاثين متراً . وفيها الكهرباء حقاً تضيئها اذا جن الليل ، ولكنها شوارع غير مرصوفة والتراب على جانبيها كثير حتى ليغوص فيه عجل السيارة ونحن على ما يظهر في خير احياء المدينة الآهلة بأعظم سكان الخرطوم من الموظفين. ثم ما هذه المباني المحيطة بنا والتي لا ترتفع اكثر من طابق واحد ؟ وسألت صاحبي ما بالهم لا يرصفون الشوارع ؟ فقال : ان ذلك يكلف مليوناً من الجنيهات. وميزانية السودان كله لا تزيد على خمسة ملايين ، لذلك تكتفي الحكومة بتسيير الوابورات الثقيلة في القسم الاوسط من الشوارع الكبرى حتى يتمكن الناس من السير فيه !

وازدادت الصورة التي كانت مرتسمة في خيالي من الخرطوم ذبولاً حتى كادت تصل الى حد القبح ! حيث ذهبت في اليوم التالي أرود انحاء المدينة ، فقد انحدرت الى احياء أعدت لموظفين أقل من الاولين درجة ولبعض أعيان المدينة . كما انحدرت بعد ذلك الى الاحياء الآهلة بالسودانيين وتجارتهم والتي تقع بعد ميدان الجامع ، وهذا الميدان فسيح اعد لتقام فيه الحفلات ذات الصبغة الدينيه وأخصها حفلة المولد النبوي ، ومع ذلك فهو ميدان ترب تغوص القدم فيه الى حد يتعذر معه السير ويهدأ السائر التعب بعد قليل ! أما ما بعده من

الاحياء السودانيةالبحتة فتتجلى فيها مظاهر الفاقة القاتلة. ترى فجوات مفتوحة في بناء منخفض هي حوانيت الصناع والباعة ! وترى في هذه الفجوات جماعة السودانيين جلوساً وعليهم ملابسهم البيضاء أصبحت سمراء من الشمس والتراب وترى امامهم صناعات وطنية ضئيلة فإذا ازددت تغلغلاً الى ما بعد ذلك رأيت حوانيت من القش يعم ها رجال لا يكاد يسترهم من الملابس الا قليل . ورأيت بعدها (سوق النساء) عملت الشمس في وجوههن وأساريرهن فرسمت عليها من علائم البؤس وآثار الشقوة ما لا تفهم معه كيف ترضى احداهن احتمال هذه الحياة القاسية لولا ما في الحياة من سحر خداع يغري اشد الناس بؤساً وشقاء بأمل يوم نعمة ورخاء ! وتبيع هاتيك النسوة (الكسرة) وهي نوع قبيح من الطعوم ! كما يبعن الفلفل وبعض الوان الشقاء مما يطعم الفقراء .

ولا تطاوعك نفسك لتشهد من بؤس هاتيك واولئك اكثر مما شهدت فتعود ادراجك طالباً بعض ما يروح نفسك .

وكان معي صاحب مصري ظريف سار واياي الى ناحية الترام نركبه الى جهة (المقرن) وهو المكان الذي يقترن فيه ماء النيل الأبيض بالنيل الأزرق وتجري عنده السفن التي تقل الركاب المسافرين بين الخرطوم وام درمان .فقصدنا الى محطة الترام وانتظرنا، حتى اذا اقبل الفيته تراماً بخاريا تجره آلة ذات عجيج وضجيج من ورائها عربات عدة تكاد تبلغ الثماني او العشر واكثرها قذر تقوم فيه مدرجات يجلس عليها ركاب الدرجة الثالثة وبه عربتان هما عربتا الدرجة الاولى مفروشة مقاعدها بجلد او مشمع تود لو ان مكانه خشباً نظيفاً ! اجتاز الترام بنا الخرطوم من طرفها الى طرفها الآخر . اجتاز بنا احياء تختلف نعمة وبؤساً ولكنه كان يسير في شبه صحراء قل ان تقع العين فيها على سائر . فلما بلغنا مخازن الحبوب عند سكة الحديد وقعت العين على منظر ما احسبني رايت في الحياة اشد منه ايلاماً ولا اكثر منه دفعاً الى الإشفاق . منظر لن يستطيع الخيال وان غلا وبالغ في الغلو ان يصل الى تجسيد الالم الإنساني كما جسدته هذه

الحقيقة الناطقة بكل معنى القسوة الإنسانية الى جانب مخازن الحبوب ميدان فسيح من تراب ضارب لونه الى لون الرمل ، وفي هذا الميدان تمر الغلال من ذرة أو شعير الى المخازن . وقد يقع منها في أثناء مرورها ما يختلط بهذا التراب . لم أر ما سقط منها على الارض واختلط بترابها ، ولكني رأيت امرأتين كل واحدة منهن عارية أو تكاد فلا يسترها إلا خلق قذر يغطي بعض أسفلها ويترك الظهر كله والأذرع والرأس مكشوفة للشمس والهواء ! وكانت كل واحدة مقعية كما يقعي الكلب وتنبش الأرض بأظافرها ، وقد احدثت فيها فجوة كبرى وهي ما تزال دائبة على النبش وتلقي ما بين حين وحين شيئاً من التراب الذي يعلق بأظافرها وبيديها في غربال او منخل الى جانبها ! وسألت صاحبي ، ما بال النسوة أكببن على الثرى يحتفرنه بأظافرهن كما يحتفر الحيوان وجاره بمخلبه ؟ قال وفي صوته رنة هم وشجن ، هن فقيرات لا يجدن قوتاً وقد تعول احداهن طفلاً او اكثر وقد اقبلن يحتفرن التراب آملات أن يجدن فيه حبة ذرة أو شعير مما قد ينتثر ساعة حمل الغلال الى المخازن ، فإذا ظفرت احداهن بما حسبته حبة القت به في غربالها !

اي سواد لحظ الإنسان كهذا السواد ؟! هو أسود من تلك الوجوه الشقية والظهور العارية والشعر الفاحم في تجعده والتفافه ! ذلك منظر دونه كل ما رأيت من مناظر الفاقة والبؤس . دون هاتيك المتسولات يرتجين عطف كريم .. هو بؤس النفس التي تعف عن السؤال وترى في غايات الشقاء مع العمل نعمة الرفعة عن مسألة اللئام بل عن مساءلة الكرام » .

هذه الصورة التي رسمها الكاتب الكبير عن الخرطوم والتي اثارت بيننا ضجة انتقلت فيما بعد على اعمدة الحضارة .

قلت .. اترى انه قد غالى في تصوير حالة الفاقة التي كان عليها الناس وحط من مستوى مظهر المدينة فكان خيراً مما وصف ؟

فأجاب مسرعاً ، يقتضيني الإنصاف ان اقول انه لم يغل وانه كان اميناً فيما وصف عن مظاهر المدينة ، الا انه لم يقدر حداثة عهد المدينة وانه عندما زارها لم تتجاوز ربع القرن الا بسنوات دون اصابع اليد . وقد المع هو الى ذلك .

انظر اليوم الى الاماكن المقفرة التي وصفها هيكل وقد قامت فيها دور فخمة بعضها ذوات طوابق متعددة ، والميادين التي كان يتعذر فيها المسير غدت فيحاء زاهرة ومظاهر المدنية قد عمت اكثر الأحياء .. ولم يقل احد ان العاصمة قد اكملت زينتها بعد فما زال هناك الكثير .

(والديم) الذي وصفه هيكل قائلا « .. في هذه التكتلات المبنية من الطين والقائمة في ديم الوطنيين ترى شبهة الحياة السودانية المحيطة بالخرطوم وهي حياة شقية تتفق وما يقوم به اصحابها من اعمال ! ، والديم يبعد عن الخرطوم مدى غير قليل وهو يعيد الى ذاكرتك حين تراه صور (العزب) القديمة التي يقطنها (التملية) والمستأجرون في ارياف مصر ، والديم كالعزب القديمة لا منافذ لمنازله المكونة من غرف ارضية بابها هو الفتحة الوحيدة فيها . يدخل الهواء والنور والشمس كما يدخل الناس والدواب » !

هذا الديم لو بعث هيكل حياً وشهد ماذا قام فيه في مكانه من الوان العمران اذ قامت فيه اروع دور العاصمة لما صدّق عيناه .

أم درمان منذ ثلث قرن

ويمضي قلم الكاتب الكبير هيكل مصوراً مظاهر الحياة في عاصمتنا الوطنية ولننظر من خلال صور الكاتب كيف كانت عاصمتنا الوطنية تبدو للزائر في ذلك العهد ! :

« .. كان ذلك يوم الثلاثاء ١٩ يناير ١٩٢٦ .. وكنا عند المقرن حوالي التاسعة صباحاً ، وانتقلنا من الترام الى الباخرة وانتقل معنا كثيرون من السائحين ومع بعضهم عربة اتوا بها ليطوفوا أم درمان فيها (لم يكن بالمدينة تاكسي) كما انتقل مع جماعة من الاهالي الحمير والدواب. وظل هؤلاء في الطابق الاسفل بينما صعد الذين يدفعون اجر الدرجة الأولى الى الطابق ... وظلت الباخرة تستدير ازاء جزيرة توتي زهاء ساعة حتى اذا قاربنا الشاطيء وجه المسافرون ابصارهم صوب عاصمة الدراويش ... الا ان للذين يعجبون بالخرطوم لعذراً ! .. فهذه المدينة القديمة لا يزين شاطىء نيلها الأبيض ما يزين شاطيء نيل الخرطوم الأزرق من شجر .. ! بل يقع النظر عند مرسى الباخرة على رمال صحراوية انت مضطر لكي تتخطاها الى ان تغوص اقدامك فيها ! . فإذا جزتها بعد جهد وبلغت تراماً هو لترام الخرطوم صنو وتوأم ، صادفت عينك من المساكن والمباني ما يزور عنه بصرك لحقارته وقذارته ! ، ولكنك تشعر كلما سار الترام وتغلغل في المدينة انك فيمدينة سودانية حقاً ، وترى بعد برهة ان المباني الواقعة عند (الموردة) عنوان سيىء لأم درمان وان فيها مثل ما في الخرطوم من المنازل والمتاجر والمناظر وان لم يكن فيها ما في مقر الحكومة

من اضواء الكهرباء ومن مظاهر المدنية التي اقامها الحاكمون في مقر حكمهم للترفيه عن انفسهم ولتيسر لهم الحياة في جو وفي بيئة وفي وسط لم يألفوه .

نزلنا من الترام عند متجر مصري من اهل اسوان عرفناه في الخرطوم ولست اغلو ان قلت ان هذا المتجر وبعض المتاجر الواقعة الى جانبه اجمل وادعى للاحترام من اكثر متاجر الخرطوم . !

وقمت وصاحبي ارود عاصمة الدراويش لأرى بلداً سودانياً بالفعل . ما اكبر الفرق بينها وبين الخرطوم ...ان بها لأزقة ضيقة تنفر الخرطوم وشوارعها الواسعة من ضيقها وان بها من الصناعات الوطنية الحقيرة ما لا يتفق ومظاهر النظام الانجليزي . وكل ما استحدث فيها من شوارع وطرق واسعة لم يغير سحنتها كمدينة سودانية . وانظر الى الزقاق الضيق المسقوف بألواح من الخشب والذي يعيد الى ذهنك منظر الخيمية والفحامين بالقاهرة ! هذا هو مقام صناع المراكيب السودانية . . لا يستوردون الجلد مدبوغاً ولا يلجأون الى احدث الوسائل العلمية ، بل يكتفون اكثر الامر بإلقائه في الشمس حتى يجففه لظاها. ! انظر الى ذلك الشارع الكبير عنوان المدينة .. فهؤلاء العطارون قد برزت دكاكينهم في الشارع وجلس كل واحد منهم في هيبة ووقار كأنما هو قاضي الشريعة ! .. قف قليلا فمتع ناظرك بصناعة وطنية تجذب السائحين من الافرنج وغير الافرنج اليها . هذه صناعة العاج ، فهذه سن فيل قد جوفت ورسمت فيه فيلة تصغر واحداً بعد الآخر كلما قربت من ناحية السن الدقيقة ! وهذه زخارف ظريفة من العاج مموهة بالذهب او بالفضة ، ولكن هذه الصناعة الوطنية الظريفة ما تزال متأخرة عن مثلها في مصر تأخراً كثيراً وما تزال توضع في دكاكين لا سبيل لمقارنتها بمثل متاجر الخرطوم . دعك الى جانب هذا من كثير من مظاهر البؤس والفاقة مما جئنا على وصف بعض منه عند اسواق الخرطوم وعند مخازن

حبوب سكة الحديد . . ومع كل هذا فإن ام درمان مدينة حياة المدينة . وفي هذه الازقة والطرق والشوارع معابد تحدث عن اجيال ، ولهذه المباني القديمة غير المنتظمة تاريخ ، عدم انتظامها اول شاهد عليه . كلا – ليست ام درمان عزبة او مزرعة لمالك خططها كما شاء له هواه ! ، ولكنها قدس لقبور كدست فوق قبور ! . وهل في غير القبور حياة وحضارة ؟ بل انك لترى نفسك وانت امام فضاء عظيم فيها لا يفصل بينه وبين الطريق الا حاجز منخفض من بناء ، وقد شعرت بشيء من الجلال يملأ نفسك ومن الهيبة تفيض بها جوانحك ذلك حين تقف امام جامع المهدي حيث يوجد اثر قبره ! .. فهذا الجامع ليس كغيره من المساجد . ليس كمسجد الخرطوم ومسجد ام درمان وامثالهما مما ترى في بلاد المسلمين طراً بل هو فضاء منبطح مما لا تكاد تحيط العين به في نظرة لعظيم سعته ، وليس بينه وبين الطريق الا اسوار بلغ من قلة ارتفاعها انها لا تحجب ارض الفضاء الذي تحيط به عين الواقف على مقربة منها . لكنه جامع المهدي!. وبحسبك ان يذكر هذا الاسم حتى يمتلىء هذا الفضاء امامك بالصور والمعاني ، وحتى ترى بعين بصيرتك جيلا كاملاً من اهل هذه الاصقاع وقد حشد في هذا المكان وخرّ ساعة الصلاة ساجداً مؤمناً بأن إمامه وملكه رسول الله او خليفة رسوله او هو الذي تجسد لهدى الناس وخلاصهم ! ، اجل . ففي هذا الفضاء جمع المهدي اهل السودان جيلا بل اجيالاً .. وفي ام درمان كانت مئات الالوف مما زاد على المليون وعلى المليونين احياناً ! ، كلهم يؤمن بالمهدي ويرى فيه روح القدس ، وما يزال هذا الفضاء فضاء كما كان . ولئن دنسته اقدام لا تؤمن قلوب اربابها بقداسة المهدي مثل ذلك الايمان القديم فالشمس التي طلعت على المهدي وعباده ما تزال تطلع فتنبعث من اشعتها ما يحيي امام الخيال كل هذا المنظر القوي الحي ! ، منظر المؤمنين اشد الايمان المتعصبين اشد التعصب يحيطون بمعبودهم يجلونه ويقدسونه ! وما يزال السودانيون وغير السودانيين اذ يمرون بهذا المكان ويذكرون هذا التاريخ تمتلىء نفوسهم اكباراً واجلالا ، فاذا ذكروا

كيف اجلى المهدي جنود مصر عن السودان ، وكيف امتلأ رأسه بأحلام الغزو والفتح باسم الجهاد ، وكيف عاجلته المنون بعد ذلك ... اذن رأوا هذا الفضاء من الارض مملوءاً بالارواح ولتمثلوا فيه كل معاني ذلك العصر القريب منا والبعيد عنا والذي يخلع على ام درمان معنى اضاعت الخرطوم ما فيها من مثله بعد عمارتها على الصورة الحديثة التي نراها بها ! .. » .

وبعد ان يصور الكاتب البارع كيف امتلأت نفسه وجاشت بهذه المعاني الرائعة وهو يقف بجانب مسجد المهدي ، يعود بنا متجولاً في سوق ام درمان وتقف معه عند هذه الصورة الطريفة الفريدة التي اختفت نهائياً من حياتنا السودانية .

« .. ومررنا بسودانيات تبيع (الرهط) فوقف صاحبي يساومهن . والرهط لباس الفتيات يأتزرن به ما دمن ابكاراً . وهو حزام من جلد يبلغ عرضه قيراطين او ثلاثة قراريط ، تتدلى منه خيوط رفيعة من الجلد ، وهي كثيرة وكثيفة ، فاذا شدت الفتاة حزام الرهط على خصرها سترتها هذه الخيوط حتى ركبتها ! وليس يحضرني للرهط شبيه فيما تقع عليه عين أهل الحضارة الا لباس بعض الراقصات في الاوبرا وغيرها من المسارح الكبرى ! ، فاذا تزوجت الفتاة السودانية خلعت الرهط وأتزرت بالقماش مكانه ...

وترك هذا اليوم الذي قضيته في ام درمان في نفسي احسن الاثر ، فقد رأيت مدينة سودانية حقاً ، ورأيت حياة سودانية يشعر اصحابها انهم في بلدهم وان الغريب عنهم نازل عندهم وانه في حمايتهم وهم ليسوا في حمايته شأن السودانيين المقيمين في الخرطوم ! ، وهذه الحياة السودانية في ام درمان هي التي قضت على ما كان من محاولات للقضاء عليها كمدينة ولجعل الخرطوم كل شيء . بل ان من الناس من يعتقد ان الجسر الذي ينشأ الآن بين الخرطوم وامدرمان سيزيد عمارة هذه المدينة وسيعيد اليها كثيراً من سلطانها ايام كانت عاصمة للدراويش.

وما اظن احداً من السودانيين لا يغبط لهذا ويسر به بل احسب ان الذين شعروا حين مقامهم فى السودان بانعطاف قلوبهم نحوه ليشعرونك هذا الشعور وليحتفظون من ام درمان لا من الخرطوم – ذكر السودان الصحيح .»

ولننظر الآن كيف انتقل التعليق والجدل حول ما اثاره الدكتور هيكل فى كتابه هذا من خواطر وانطباعات عن زيارته للسودان الى جريدة الحضارة حيث قاد معركة النقاش استاذنا الجليل الشيخ عبد الرحمن احمد الذي كان يتولى تحرير جريدة الحضارة نيابة عن السيد حسين شريف .

عبد الرحمن احمد يهاجم

وفي صدر صحيفة الحضارة فى عددها الصادر بتاريخ ٩ ابريل ١٩٢٧ ، نشر المقال التالي للأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن احمد رداً عـلى بعض ما جاء فى كتاب هيكل :

« جمع حضرة الكاتب الكبير رئيس تحرير جريدة السياسة ومندوب الجرائد المصرية لحضور حفل افتتاح خزان سنار معلوماته وملحوظاته فى كتاب سماه عشرة أيام فى السودان تناوله المهتمون بشئون السودان لما لواضعه من المكانة والشهرة فى عالم الأدب .

تصفحته وقرأته بإمعان لعلى اجد صاحبه قد اخرج عن زيارته للسودان صورته الحقيقية التى تمثله خير تمثيل يلتقى بها الذين لم يساعدهم الحظ لزيارته فألفيت قلمه قد شط عن سواء السبيل فى وصف بعض الشؤون الأهلية فى ملاحظاته وصفاً شنيعاً بما يشتم منه رائحة الإهانة والتحقير وفوق ذلك فقد أثبت فى مروياته أموراً لا اصل لها إلا فى مخيلة من وصفوها لحضرته فأخذها عنهم بسلامة نية على ما نظن حتى أغار عليه بعض المفكرين والمطلعين على كتابه غارة شعواء لظنهم انه تعمد فيما كتبه الإساءة للسودان !

« .. قال حضرته فى السطر الخامس ص ٣٣ —وفهم (اى المصريين بعطبرة) علمنا ان المدارس الموجودة بالبلدة لا تقوم إلا بشئون التعليم الاولى وان خير

مدرسة فيها تابعة للأمريكان حيث يتعلم الطفــــل الى ما يقابل السنة الثالثة الابتدائية بمصر ثم يرسله اهله الى مصر ليتم التعليم بها » .

والحقيقة التي يعلمها المصريون وغير المصريين ان بعطبرة مدرسة ابتدائيـــة تعلم الاطفال الى مقرر السنة الرابعة الابتدائية وقدم كثيرون من تلامذتها لمصر .

وقال هيكـــل في (الخرطوم للنظرة الاولى) ازدادت الصورة التي كانت مرتسمة في خيالي من الخرطوم ذبولاً حتى كادت تصل الى حد القبح حيث ذهبت في صبيحة اليوم ارود انحاء المدينة (سطر ١٦ ص ٤٥) .

نحن نأسف جداً على ذبول خياله .. ولا نريـد نحن ان يبعد بنا الخيال الى المستحيل اذ ليس فى الإمكان انشاء مدينة كبيرة كالخرطوم تشبع خيـــال الكاتب والشاعر فى ظرف تسع وعشرين سنة ! .. وكان حقاً على زائر الخرطوم ان يقول (ليس فى الإمكان ابدع مما كان) ولكنه ابدع فى التحسر كما ابـدع في تصغير سوق الخرطوم في ملاحظاته حيث يقول « ترى فجوات مفتوحة فى بناء منخفض هى حوانيت الصنّاع والباعة فقد حمل الحوانيت المبنية بالآجـر الحديث فجوات واظن ان نظر حضرته ليس بجاد او كان على طائرة محلقة فى سماء الخرطوم فتراءت له الحوانيت كما وصفها بما لا ينطبق على الحقيقة !

ويقول ... « وتبيع هاتيك النسوة الكسرة وهى نوع قبيح من الطعوم » ! فتأمل كيف جعل طعام اهالى السودان كافة خاصتهم وعامتهم نوعاً قبيحاً من الطعوم ؟ – واظنه لا يعرف ذلك ، والا فهل يجوز لأحد ان يصف قوت قوم بالقبح مهما كان رديئاً ؟ وهل تخـــلو قرى مصر المتمدنة الراقية من امثـــال الكسرة ... كلا ! ، وحضرته اعلم الناس بها ولكننا لا نصفها بالقبح لانا نعـد كل قوت نعمة يجب الشكر عليها .

ثم انظر ص ٤٤ وصفه للمرأتين فقد ظن ميدان اسكلة المقرن ممراً للغلال من ذرة وشعير ، وقدر ان الحبوب تقع اثناء مرورهـــا وتختلط بالتراب ، فوصف المرأتين اللتين رآهما على التراب بالإقعاء والنبش ، ولو انصفه صاحبه الذي كان يرافقه لأخبره بأن ذلك التراب الملقى قد خرج من الغلال المغربلة بواسطة الغربال الموجود بمخازن الحبوب لتنظيفها من التراب والحصى ، وليست المرأتان اللتان وصفهما بالإقعاء والنبش من اصل عربي بل هما اما من اللائي ادمت يد النخاس اذنيهما ثم اخذتا جواز الحرية اخيراً من الحكومـــة فأعوزهما الكسل المستحوذ على الرق الى البحث عن القوت الضروري ، .. او هما من الفلاتة او التكارنة !.

فإن تعجب فأعجب ان يروي صاحب هــذا الكتاب عن احـــد مرافقيه روايات يمنعنا الادب ان نقول سخيفة مثل قول حضرته عمن اخبره عن زوار حضرة صاحب السيادة السيد علي الميرغني بأنهم « إذا دخـــلوا داره بالخرطوم دخلوا الى البهو الذي هو فيه زحفاً على ايديهم وسيقانهم وعيونهم ثابتة فى الأرض لا يرتفع منهم له نظر ! » وهذا محض افتراء من مخبره الجاهـل الذى لا يعرف عن السيد علي شيئاً قليلاً ، وفى يقينى أنه لم يزره مرة واحدة إن لم نقل انه لم يره البتة (وما آفة الأخبار الا رواتها) ! اذ ان السيد علي ينزه نفسه عن قبول مثل هذا الزحف ويربأ بها من الاتصاف بما يخرجـه عن مركزه السامي الى استعباد مريديه وتوابعه الكثيرين الذين شاهدهم حضرته بدرجة الزحف اليه عند زيارتهم لسيادته ! كما ان مريديه لم يكونوا في يوم من الأيام من الجاهلين الى حد الإشراك بعبادة ربهم .

على أن حضرته قد غلط غلطة تاريخية في نقـــله للخبر عن صاحبه الموظف الكبير بحكومة السودان حيث ذكر هذه العبارة « فقد ذهبنا من نحـــو خمسة عشر سنة لافتتاح خط كسلا .. » وفي الحقيقة ان خط كسلا فتـــح في ٣٠ مارس ١٩٢٤ .

هذا ما عثرت عليه فى الكتاب اسوقـــه للقراء والى حضرة مؤلفه بكل إخلاص وحسن نية يدل عليها عدم اتهامي لحضرته بل التمست للعــذر المزوج ببعض اللوم لتسقطه الأخبار من افـــواه الذين لا يتحرون الصدق فيما يقولون ، وعلى ميله الى الاطمئنان اليها بلا تمحيص وروية كأنه سائح انحدر من العـــالم الجديد الى السودان ! .

الدكتور محمد حسين هيكل يرد الهجوم

وما كاد الدكتور هيكل يقرأ هذا النقد لكتابـــه فى الحضارة حتى سارع فبعث اليها بهذه الرسالة :

سيدى رئيس تحرير حضارة السودان ، بعد التحية ، اطلعت في العدد ٥٥٧ من جريدتكم على المقال الافتتاحي الذي تعرض لكتابى (عشرة ايام فى السودان) وانى اشكركم على تنويهكم بذكر هذا الكتاب وإفراد مقال الجريـدة الافتتاحي لنقده وأبدى لكم عظيم اغتباطى ان لم يجد الناقد المقيم بالسودان غير هذه الهنات التى أخذها عليه وأعده واعدكم بأن اصحح فى الطبعة الثانية ما ورد عن مدرسة عطبرة وان التلميذ يصل فيها الى السنة الرابعة الابتدائية لا السنة الثالثة فقط كما روى لى الراوون . وان اصحح تاريخ افتتاح خط كسلا ليكون ٣٠ مارس ١٩٢٤ .

أما عن الكسرة ووصفكم بأنها طعام السودان جميعاً كافتهم (كذا) وخاصتهم وانها طعام اهل القرى في مصر فهذا ما لم أعرفـه الى اليوم والكسرة كما سماها لي من كنت معهم هى على ما وصفت فى كتابى .

وسواء كانت المرأتان اللتان تحتفران قوتها بجانب مخازن الغلال من الإماء أو الفلاتة او التكارنة ، فإنى لم اغير فيوصفى ما شهدت عيناى بعد نزولى الخرطوم اما ما ذكر من دخول اهـل السودان الى دار حضرة صاحب السيادة السيد علي الميرغنى فمستقي من مصادر لأصحابها بأهل السودان اختلاط وعلاقة قديمة .

ابدى لكم وللناقد عظيم اغتباطى ان اقتصرت الهنات التى اخذها على الكتاب الذى سجلت فيه ما عرفته خلال عشرة ايام تنقلت اثناءها في السودان عند هذه المسائل البسيطة . وكنت اود لو اكتفي بهذا الشكر والاغتباط لولا ما ذكره الكاتب فى اول مقاله من انه الفى قلمي (قد شط عن سواء السبيل فى وصف بعض الشئون الأهلية في ملاحظاتي وصفاً شنيعاً يشتم منه رائحة الإهانة والتحقير) .

ولعل الكاتب قد تعمد دس هذه العبارة لغاية خاصة ، فاني اربأ بذكائه وبفهمه من ان يكون قد اشتم شيئاً من هذه الرائحة في الكتاب كله بل انى لأربأ بذكائه وفهمه ان لا يكون قد ادرك ان الكتاب من اول اهدائه الى اهالى السودان شكراً لهم وتحية ، الى خاتمة عبارته مفعم بعبارات المودة والتقدير والإجلال والعطف ، ولعلكم اطلعتم على مانشره الكتاب ، ولعلكم رأيتم ما اقتطفته من رأي مواطن لكم هو اليوزباشي محمد صالح جبريل ونشرته فى مقال بصدر عدد السياسة الذى صدر فى ١٣ ابريل ١٩٢٧ وكنت اود نشر ما ورد لي غير ذلك من الرسائل، او ان ابعث لكم بها لتروا كيف فهم الناس جميعاً شعوري وشعور كل مصري بإزاء السودان، فلا يمكن ان يكون (قارىء)[1] الحضارة وحده هو الذى استشف من عبارات الكتاب ما لم يستشفه سواه الا ان يكون له من وراء تقديم عباراته التى أشرت اليها غاية خاصة وهذا ما وعدت الكتاب الى التنزه عنه اذا ما ارادوا تحقيق مصلحة السودان بإخلاص .

أم انه راى فى وصف المرأتين اللتين كانتا تحتفران قوتهما وفى وصف الكسرة ما طوع له كتابة ما كتب ؟ ان يك ذلك حقاً فلا استطيع الا ان اعتذر له عن خطئه ! فبؤس بعض الطوائف ليس قاصراً على الخرطوم ولا على السودان

---

(١) كان استاذنا الشيخ عبد الرحمن قد وقع مقاله الاول بامضاء « قارىء » ثم وقع المقالات التى تلته باسمه الصريح .

ولكنه عام في مصر وانجلترا وكل بلاد العالم . وسعي الإنسانية الحثيث انما يتجه للتخفيف من ذلك البؤس .. والتنبيه اليه اول وسائل الدعوة لتخفيفه ، كما وان وصف الداء اول مراحل العلاج . وكم أكون سعيداً لو اتيح لى ان اعود للسودان فلا ارى هذه المناظر التي وصفت ، وان ارى مكانها سعادة الناس جميعاً ونعيما ومقيما .

أرجو ان تنشروا هذه الكلمة فى جريدتكم وليس ذلك دفاعاً منى عن كتابى بل هو حرص على ما اسمى واثمن من ذلك بكثير ، هو الحرص على عواطف اهل السودان الصادقة التي جعلتني اشعر حين مقامي بينهم بأجمل ما يشعر به انسان لأهله وذويه

وتفضلوا بقبول فائق احترام المخلص (محمد حسين هيكل)

* * *

الشاعر المجهول

الشيخ ابراهيم التليب

أما هذه المرة فإن الحديث لم يكن عن شاعر من هؤلاء الشعراء الذين كان يتطلع اليهم المجتمع في المواسم الدينية والمناسبات العامة ليلهبوا الشعور ويزيدوا شعلة الحماس اتقاداً ، وانما عن شاعر انطوائي هادىء ، عرف في المجالس الأدبية الخاصة بشعره الجزل وبأحاديثه الحلوة ودعاباته المحببة ، فكان ريحانة كل مجلس يحضره .

والتفت اليّ محدثي يسألني ، أسمعت بنبأ هذا الشاعر المغفور له الشيخ ابراهيم التليب ؟ قلت : نعم لقد حدثني عنه مرة أستاذنا الشاعر الكبير محمد سعيد العباسي وقد قرأت مرثيته لهذا الشاعر واعجبت بها .

قال نعم لقد كان العباسي صديقاً حميماً للمرحوم ابراهيم التليب ، وانهما ليتشابهان في كثير من الصفات ، فكلاهما عازف عن ضجيج المجتمع فلم نرهما في تلك الفترة على علو كعبيهما في دولة الشعر يقتحمان المجتمعات منشدين شعرهما على الجماهير ، وكلاهما قد وهب صوتاً رخيماً اخاذاً فكانا اذا انشدا الشعر في جلساتهما الخاصة اخذا بمجامع القلوب وود المجتمعون لو لم يصمتا . وكان للتليب طريقة خاصة في الإنشاد حاول العباسى وخليل ان يسايراه فيها فعجزا ، كان تلحينه للشعر ممتازاً تعينه على ذلك حنجرة صافية كالذهب ! .

نهل الشيخ التليب من معين الثقافة العربية والدينية من مشايخ ذلك العهد

الأجلاء الذين كانت دورهم الخاصة مدارس عامة لنشر الثقافة الدينية والعربية ـ ومن اشهر الذين تلقى عليهم تعليمه : العالمان الشهيران بأم درمان الشيخ محمد البدوي والشيخ محمد عبد الماجد – رحمهما الله . فقد كانت دور هذين العالمين خاصة ملتقى للكثير من المتطلعين الى المعرفة من شباب ذلك الجيل ، تأويهم وتنفق عليهم وتقدم لهم العلم والمعرفة بلا ثمن ولا من .

وكان التليب رجلا لطيفاً حلو الدعابة ، مجدور الوجه ، ربع القامة ، يعنى كثيراً بهندامه البلدى . وكان الأدباء يحتفون به ويتناقلون اشعاره التي كانت تسيل رقة وظرفاً وان اتسم اكثرهـا بالطابع الصوفي . . كان متأثراً بشعراء الصوفية كالنابلسي وابن الفارض ومن نحا نحوهما . ولا عجب فهو نفسه كان يعد من كبار رجالات الطريقة التجانية ، وهذا مـا حدا الأستاذ الكبير محمد الحافظ التجاني العالم التجاني المعروف بمصر والسودان وبلاد المغرب ان يستولي على ديوان شاعرنا التليب ليقوم بطبعه في مصر ولكنه لم يوفق . والتليب على تدينه وتصوفه لم يكن بالرجل المتزمت بل كان مشرق النفس يرسلها على سجيتها في غير تبذل .

قلت : لقد شوقتني كثيراً لاطلع على نماذج من شعره فهل لك ان تقرأ على شيئاً منه ؟

وهب الى كراسة قديمة اخذ يقلب صفحاتها فى حرص وحذر ، وهو يقول : لقد كانت بينى وبينه صلة ود ومحبة فكان يخصني بالكثير من اشعاره ويبعث بها الي من اماكن مختلفة اذ كان كثير التجوال بين المدن والقرى وله فى كل منها اصدقاء كثيرون يحتفون بمقدمه ويلتفون حوله يستمتعون بأنسه الشهى وانشاده الساحر للشعر .

فهذه القصيدة بعث بها الي من « قرية البواليد » وقد كتب عليها بخط يده (نهار الاثنين ١٤ جمادى الاول سنة ١٣٣١ بقرية البواليد) ومطلعها :

إن لم أغض عن السوى أجفاني — حفظاً لعهدكمو ، فما أجفاني
وحدّثتُ عشقى فى هواكم خشيةً — ان يدخل الإشراك فى ايمانى
وتنزهت فيكم عقيدة خاطري — مذ ما تنزه قدركم عن ثانى
فلأتم قلبى بعشق جمالكم — كلفاً ، وهل لى فى الهوى قلبان ؟
لم لا وها هي مهجتي قد اترعت — لم يبق فيها موضع لفلان
يا سادة أنا من هواهم راتع — في روضة مخضلة الافنان !
كم ذا أكاتم عاذلي شغفي بكم — صوناً وأحمل لوم من يلحاني
يا من محاسنهم تلوح لصبهم — في كل ذى حسن وذي إحسان

ومن مدينة رفاعة (ضحوة الاثنين ١٠ صفر سنة ١٣٣٣ يكتب هذه القصيدة) :

غرامك يا حلوَ الدلالِ غريمي — وذكرك فى كل الزمان نديمى
ووجهك بستانى وخدك وردة — ألا كيف لا تجلي بذاك همومي
إذا ماس أعطافاً فأملود بانه — مكسر ألحاظ الجفون سقيم
بليت بفتان أغن مهفهف — وإن مارنا شذراً فلفتة ريم
يكلمني لفظاً وجفناً فأنثني — بهزة نشوان ، وشوق كليم
ويمزج لى جد الحديث بهزله — فأطرب من ناى لديه رخيم
ويبسم لى عند اللقا فيروقنى — تلألا در فى الثغور نظيم
فيا لوعة فى الصدر انى منشد — (نزلت مكاناً طيباً فأقيمى) !

وانه لتضمين لطيف (نزلت مكاناً طيباً فأقيمي) :

وهب ذات ليلة من نومه عند السحر وكان ذلك ليلة الجمعة ٢٩ ربيع الاول ١٣٣١ فكتب هذه الابيات ، ونلاحظ ان الشاعر لا يكتفى بتسجيل اليوم الذي انشأ فيه شعره بل يحدد الزمن ليلاً كان ام صباحاً أم فى الضحى ...

حسن عليك تهتّكي وتلافى   يا فاتنى برشاقة الأعطافِ
كم ذا تروع بالصدود وبالجفا   وتجد ياذا اللطف فى إتلافى
ما زلت أسعى فى وفاقك جاهداً   وأراك تسعى دائماً لخلافى
ملكت محبتك الفؤاد صبابة   وسبا هواك تجلدى وعفافى
موهت عنك بكل أهيف شادنٍ   مع أن شأنى فيك ليس بخافى

وهذه المقطوعة تحمل تاريخها بخطيده ، ٢٤ رجب ١٣٣١ بمدينة أم درمان:

أما وجمال منظره البهى   وضوء جبينه الزاهى الوضى
ونون حواجب في الخد أزرت   بتقويس الاهلة والقسى
وسيف لواحظ فى العين أمضى   وأقطع من فرند المشرفى
وسحر فى الجفون يخال ضعفاً   ولكن فعله فعل القوى
وورد فى حواشى وجنتيه   ندى فى حديقته جنى
ونار في الخدود ، حشاى منها   كما قالوا ، على جمر ذكى
وخمر من رضاب شعشعتها   مراشفه من اللعس الشهي
لقد سلبت محبته فؤادى   وأنستنى هوى هند ومىّ
أروح على تذكره وأغدو   فعال المغرم الكلف الشجى

وفى زواج صديقه محمد سليمان محمد عبد الماجد بأم درمان يصدح بهذه الانشودة :

أدر المدامةَ مطربى ونديمى   واصدح بناى من غناك رخيم
وامزج بترياق الرضاب سلافتى   حتى أداري علتى وكلومى
واجل القنانى كالعرائس علنى   أجلو بمرآة الجمالِ همومى
وأرقْ ـ فديت ـ دم الدنان وعاطنى   من راح كرْم حادث وقديم
ريم رمانى فى كنانة جفنه   بسهام عشق مقعد ومقيم

في خده الورد الجنيّ ، وقده كالغصن أينع في رياض نعيم
خدٌ به نار الخليل الا اعجبوا لم لم تكن برداً (لإبراهيم)[1]؟..
يا ذا الرشا رفقاً بمهجة مغرمٍ مضنى بسيف المقتلين كليم
ابداً يصرح في غرامك خالياً واذا بدا لاحٍ يشير ويومي
فتركته نشوانَ يطرب كلما غنى الحمام ولاح عرف نسيم
في كل حسنٍ من جمالك لمحة يصبو اليها قالبي وصميمي

وهذه المقطوعة من وحي ليلة في ام درمان في مستهل شهر شعبان ١٣٣٢هـ:

من لي به والحسن بعض صفاته قمر يفوق البدر في هالاته
غصن يغار الغصن من اعطافه ريم يراع الرّيم من لفتاته
ضرب الجمال رواقة بجبينه وجرت مياه الحسن في قسماته
ويميس من خمر الملاحة والصبا فيخال كالنشوان من كاساته
ويسل من غمد اللواحظ صارماً يفري دروع الصبر حد شباته
ما كان اطيب ليلة قضيتها اجني عقود الدر من كلماته
طوراً يعاطيني المدامَ وتارةً يجلو عليّ الراحَ من لهواته
فسكرت من طيب اللمى، ورضابة ازرت بعرف المسك في نفحاته

قلت لمحدثي ، هذا شعر لا ينزل عن مستوى شعراء تلك الفترة ، وان كانت الصناعة فيه اكثر وضوحاً ، وكان حرياً بصاحب هذا الشعر أن يكون لاسمه ما لزملائه من الشهرة .. فقال ألم أقل لك انه كان يفر من الاجتماعات ويتهيب الأندية والمنابر ، ولا يطمئن الا للخاصة من صحابه ينشدهم هذا الشعر الذى تحس فيه بشخصية قائله صافية وادعة ناعمة ...

رحم الله ابراهيم التليب فلولا ضيق موارد ثقافته العامة وتهيبه للمجتمع

---

(١) يعني نفسه مشيراً للآية « يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم » .

وانطوائيته لبذ كثيراً من شعراء ذلك العهد ...

وقد خلف ذكرى عطرة كلما أدار الحديث عارفــو فضله وأدبه من الذين اجتمعوا به واستمتعوا بملحه ، وما زال صدى صوته الرائع يجلجـل في آذانهم كلما ذكر التايب – وقد توفى بمدني عام ١٩٢٦ وبكاه صديقه وصفيه محمد سعيد العباسى بقصيدة مثبتة فى ديوان العباسى مطلعها :

عاد روض الكمال بعد اخضراره   يبساً ، واستحال حسن ازدهاره
فقــد الغابُ ليثه ، والمروءا   ت فتاها ، والسرح حامي ذماره
التقىّ الأوّاب حــلو السجايا   الصفىّ الوفيّ عند اختبـاره

ومنها :

شاعراً إن حسبـاه يروي   معجزات القريض عن بشّاره
فإذا راز من عصىّ القــوافى   فهى طوع اقتداره وابتكاره
عبقرىٌ يجلو المعانى كما يختا   رها فى البديع من مختــاره
لم يعقه عن نظم غض اللآلي   نـثره النيرات ضمن نثــاره
يقتنى من ديباجها الخسروانىّ   قشيباً ، والناس أسرى معاره
طاف كأس الردى عليه كما طا   ف على البيد أجــدل بمثاره
فتعــالى الإله خالق كأس   كل من فى الوجود صرعى خماره

الخريجون يخططون المجتمع

عبد الرحمن علي طه يفوز بجائزة مسابقة التربيه

نحن في شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٤ هـ مارس ١٩٢٦ وهذه الحفنة الكريمة من الطبقة المثقفة تعمل فى دأب وصبر لمواصلة رسالتها رغم الهزات العنيفة التى مرت بها منذ حوادث عـــام ١٩٢٤ حيث شن الإنجليز على المتعلمين حرباً عواناً لا هوادة فيها ، فأخذوا يحصـــون عليهم كل طرفة ، ويسجلون كل همسة ، ويأخذونهم بالشدة لدى اقل شبهة ، وشرعوا يفسدون ما بينهم وبـــين آبائهم واخوانهم زعماء العشائر من نظار ومشايخ وعمد ، ملقين فى روعهم ان الخريجين يريدون ان يسلبوهم نفوذهم ، ويوقعوا بينهم وقبائلهم ليجردوهم من مكاناتهـــم الموروثة ، ليقيموا مكان هذا حكومة من الأفندية مقرها الخرطوم ولطالما تندر الإنجليز بحكومة الأفندية هذه مع المشايخ والعمد امعاناً فى خلق وزيادة الجفوة بينهما ...

وصمدت هذه الفئة المؤمنة لكل هـــذه الحرب وسارت فى طريقها لا تلوى على شيء ، تبث الوعي وتبحث مشاكل المجتمع وتعمـــل لعلاجها ، فى حدود طاقتها ، وتقيم الندوات وحلقات النقاش والمحاضرات .

وفى هذا الشهر الذى أتحدث عنه شهد نادى الخريجين بأم درمان نشاطاً فريداً إذ أعدت جمعية التمثيل والثقافة سلسلة مسابقات تهدف الى بناء مجتمع جديد ، وقد خططت هذه المسابقات بحيث تكون كل مسابقة لطائفة ذات اختصاص

معين ، فواحدة للمدرسين واخرى للمهندسين ، وثالثة للقضاة ، ورابعة لذوى الثقافة العامة ... الخ .

وكانت اولى هــذه المسابقــات عن (تربية الطفل) اشترك فيها عــدد من المدرسين ، خاصة مدرسي مدرسة أم درمان الابتدائية . وكونت لجنـــة لفرز البحوث وتخصيص البحث الفائز بالجائزة الأولى .

وفي يوم الخميس ١١ رمضان ١٣٤٤ هـ ٢٥ مارس ١٩٢٦ ، أخذنا نتوافد على دار الخريجين بعد ان تناولنا الإفطار وأدينا صلاة التراويح ، وما كدنا نحتـــل اماكننا وتمتلىء ساحة النادى بجموعنا حتى خف الى المنصة رئيس النادى السيد حسين شريف والقى كلمة قصيرة حيا فيها المجتمعين واعلن ان البحث الذى فاز بالجائزة الأولىهو للأستاذ عبد الرحمنعلى طه المدرسبمدرسةأم درمان الابتدائية ودوى المكان بالتصفيق لبضع دقائق ثم طلب رئيس النادى من الأستاذ عبـد الرحمن ان يتقدم ويلقى بحثه على المجتمعين ، ويتقدم الاستاذ عبد الرحمن وكان شاباً مرموق المكانة ، قوي الشخصية وفي صوت جهير أخذ يتلو بحثه وقـــد بدأه بقوله :

« ايها السادة، كلنا او جلناقلنا ما جاءفى كتب التربيةوما دون فيمصادرها وما يأتي منها أحياناً على صفحات بعض المجلات والجرائد من افكار الفلآسفة وآراء المفكرين من علماء النفس والتربية فى هذا الصدد . وليس غرضى اليوم أن أستخلص لكم شيئاً من حديث (ملتون) او أقص عليكم ما رآه (سبنسر) او ابن المقفع (وافلاطون) وغيرهم من علماء التربية فى هذا الصدد ، كلا بل أعتمد بقدر الإمكان على تجاربي وما أشاهده دائماً من معاملة الناس إطفالهم فأنتقـد منها ما قبح وأريهمالطريقة القويمة لتحسينه ، واذكرهم بما جهلوه او اهملوه حتى يسلم الطفل من جراثيم تلك التربية العقيمة ... » .

ويسير المتحدث على النهج ، فيتحدث عن اهداف التربية التي ترمي اليها ونحن نعالج الطفل ، ويذكر واجبات الوالدين في هذا السبيل ، ويهجم على فكرة الزواج الباكر فيقول « ان عادة الزواج الباكر شائعة عندنا ، فمتى بلغ الولد الخامسة عشرة من عمره وكان والده على جانب من الثروة، فكر في قرانه وقالت الأم للأب : (خلينا النشوف جديد الولد الميتة والحياة ما معروفة ...) ويعقب المحاضر قائلاً « ان التجارب الطبية أثبتت ان مثل هذا الزواج الباكر مضر جداً بالنسل اذ يولد الطفل ضعيفاً عرضة للأمراض » ويطالب بإبطال هذه العادة الضارة ...

ويتحدث الينا بعد هذا حديثاً جديداً نوليه الكثير من اهتمامنا ونقاشنا ، والحديث عن المرأة الحبلى والرياضة ، فيقول :

« هناك غلطة أخرى شائعة بيننا وينبغي تداركها لأن لها علاقة عظيمة بصحة الطفل وذلك عندما يكون جنيناً في دور الحمل ، فالمرأة الحبلى عندنا لا تزاول عملاً ولا تريض جسما مطلقاً ، ولا تعني بغذائها ، بل تظل نائمة على الفراش كل يومها وهي تجهل تمام الجهل أن نمو الجنين في هذا الدور يتوقف على حركتها وحسن غذائها ، وأن الرياضة البدنية ولو قليلاً كل يوم تؤثر في دورتها فيستفيد الجنين كثيراً من وراء ذلك ... » .

ويطرق الاستاذ ناحية هامة ، تثير أيضا اهتمامنا وجدالنا ، اذ يهاجم بعض الأغاني الشائعة التي تدفع المرأة الى الخمول والكسل بدعوى أن في ذلك أنوثة وجمالاً ! فيقول : « قل لي بالله عليك ايها السامع الكريم ، كيف لا تسلك هذه الطريقة المضرة في التراخي والكسل والخمول وهي تسمع قول القائل :

خلي شوف تومتي الهلوعا تشتكي العتبة وطلوعا !

البيت لا يحتاج الى شرح ، وكلكم يعرف العتبة، فأين هذه العاطلة من غيرها

من النساء اللواتي يمتطين الجياد ، ويخترقن طبقات الجو على الطيارات ، ويسبحن تحت الماء بالغواصات ، ويأتين من الأعمال ما تندهش له فرسان الرجال !».

ويثير المحاضر ناحية هامة الا وهي اثر الأغاني في تربية المجتمع ، ويطالب مؤلفي الأغاني ان يطرقوا المعاني التي ترفع من مستوى المرأة وتوجهها الى حياة افضل بل انه ليقوم بتجربة عملية في هذا السبيل عن طريق أحد اصدقائه الذين يعملون في الحقل الغنائي ، فيقول :

« ... ولقد أدليت بهذا الرأي لبعض إخواننا المولعين بتحسين الغناء السوداني فأعجبه كثيراً وأخذ على عاتقه مهمة اصلاحه وقد أرسل اليّ أبياتاً اقتطفت منها ما يناسب المقام وهي كالآتي :

ماذا تفيد لبنى وسعاد ... ان لم تكن ذات اقتصادْ
في المعايش ذات سدادْ ... واحتفاظاً بالودادْ ؟
ماذا يفيدْ ورد الخدود ... والموت ورا شكل النهودْ
وصغارنا أفلاذ الكبودْ ... لا عناية بيهم في الوجود !
ماذا يفيدْ ورد الجبينْ ... وأطفالنا غبش مترّبين
يمسوا ويصبحوا لاعبين ... وعلى الشرور متألبين
لا تعشقوا العاطلة الهلوع ... التشتكي العتبة وطلوع
وتعشقوا الفطن الولوع ... بنظام منزلها وقنوع
أهووا الجمال لكن حرامْ ... أن تبتغوا سبل الوئام
مع جاهلة لا تحسن كلام ... او تدري تربية الغلام
ان شئتموا سبل الرشاد ... كفوا سهام الانقياد
ودعوا التعصب والعناد ... ربوا البنات ترقى البلاد
رقوا البنين غرر العيون ... رقوا العلوم رقوا الفنون
ودعوا الخلاعة والمجون ... فبتركها قد تفلحون

إنها أبيات لا بأس بها وقد غناها صاحبها بأنغام شجية تحببها للعامة وتجعلهم يتغنون بها كغيرها من الالحان السودانية ، ولا تكاد تقرع سمع المرأة حتى تفكر في اصلاح حالها وتبذل عناية جديدة لتربية أطفالها ..» .

ويعود المحاضر فيتحدث عن وجوب رياضة المرأة الحبلى فيقول : « انرجع بعد ذلك الى نقطة بحثنا الاولى وهي حمل المرأة الحبلى على الرياضة ، وانني لا أعني حملها على ما لا يتفق مع الشرع كما انني لا اوافق على حبسها في عقر دارها لا فرق بينها وبين سائر الأمتعة ولكن بين هذا وذلك مرتبة ، وان شئت ان تتبين مضار عدم الرياضة للمرأة الحبلى فانظر لها بعد الوضع بسنة مثلاً تجد معالمها قد تغيرت وان مسحة الجمال وماء الصبا الذي كان في وجهها قد بدأ يزول وكأنها بعد الوضع قد تقدمت عشر سنوات نحو الكبر ! » .

ثم يفيض المحاضر في الحديث عن الطفل بعد ولادته فيقدم عدة ملاحظات وتوجيهات قيمة كقوله :

« .. وينبغي ان تعرف الأم مواقيت الرضاع القانونية بحسب اختلاف عمر الطفل وأن تعلم أن معدة الطفل تهضم اللبن بسرعة . فلا تهمل إرضاعه في المواعيد المحدودة ، ومن الأغلاط المألوفة عند نسائنا ان الطفل اذا بكى لا تشك الأم ان بكاءه من الجوع فتسارع الى ثديها وتضعه في فيه ، وهذا خطأ فقد لا يكون بكاؤه من الجوع بل هناك اشياء اخرى يتأذى منها فيعبر عن ألمه منها بالبكاء والأم الجاهلة لا تبحث عن ذلك وانما تناوله ثديها فيتلهى به قليلاً ثم يشعر بأنه لم يف بحاجته فينزعه من فمه ويعود للبكاء !.

ومن الخطأ ان يرضع الطفل وهو في حالة غضب وتهيج كما من الخطأ ان ترضع طفلها وهي غضبى ومهتاجة » . ويحذر المحاضر من كثرة واختلاف الوصفات البلدية التي يعالج بها الطفل عندما يمرض ..

« .. يجب على الأم أن تنتبه عندما يمرض طفلها ولا تكل أمر شفائه لمبتكرات جارتها ، فإن كثيراً من الأطفال يموتون من كثرة اختلاف الأدوية التي تخترعها النسوة ، فكلما جاءت احداهن مسحت بيديها ورفعت ببصرها الى السماء شأن المفكر ثم تنطق قائلة ان طفلا أصيب بنفس المرض فأحضروا له شيئاً من ورق الخروع ، وقليلا من نبات الخلاء ، مزجاً مع جزء من روث البقر ، وألف منه مسحوق شفى الغلام بعده .! فلا تجد الأم الجاهلة بداً من الاستسلام. وبعد قليل ، تحضر زائرة أخرى ، فتنتقد رأي الأولى وتصف دواء جديداً ، وتنفذ الأم ارادتها مدفوعة بعامل الحرص على حياة طفلها ! ، وهكذا يكثر اختلاف الادوية حتى يعز شفاءه .. » .

ويطالب المحاضر من طلبة مدرسة الطب ان يقوموا بتنظيم محاضرات عامة يتحدثون فيها عن هذه العادات الضارة .

ويتحدث المحاضر عن أثر البيئة في تربية الطفل حديثاً ممتعاً ، ويعطي أمثلة يسيرة عملية لتنمية شخصية الطفل وتعويده الاعتماد على نفسه .. « ان تخصص له أدوات صغيرة يعلم منها أنها تتعلق به وتكون دائماً تحت تصرفه ، فأعطه مثلاً دولاباً او صندوقاً يضع فيه امتعته .

وعلى الوالد ان يعلمه الشجاعة «بأن يريه صور بعض المكتشفين يجوبون الفيافي ويخترقون الغابات الكثيفة لا يبالون بما يلاقيهم من عقبات . . وصوراً أخرى لبعض الفرسان يمتطون جيادهم ويمتشقون الحسام يذودون عن حوض بلدهم ويجودون بأنفسهم في سبيل الاغراض الشريفة . ! ويعلمه الوطنية من نزوح الطير من وكره ، وحنين النجيب الى عطنه ، والتجاء الهوام الى مساربها ، والحيوانات الى مرابطها ! ، كل هذه الاشياء ترى عياناً ويراها الطفل .! فإذا كان الطير يستميت في سبيل بيته الذي هو بمثابة الوطن فكيف بالإنسان ؟ وكيف يكون شعوره نحو وطنه مهبط الألفة الصادقة ومصدر الحب المكين . . ؟ » . وهكذا

يمضي المحاضر يعالج مشاكل التربية ، منذ اختيار الزوجة ، منددا في ذلك بالزواج المبكر موضحاً أضراره ، منتقلاً الى الجنين وهو في بطن امه ، مذكراً بطعامها المناسب وضرورة الرياضة لها في حدود وفي غير تبذل ، منتقلا بعدها الى الطفل بعد أن يولد ، وكيف نغرس فيه العادات الحميدة ، معالجاً بعض العادات السيئة التي اعتادت عليها الأسرة السودانية حتى يدخله المدرسة ، وهنا يفيض المحاضر في حديث أخاذ عن رسالة المدرسة والمستوى الذي يجب ان يتوفر في المدرس من حيث الاخلاق والمؤهلات التربوية والعلمية ، مناقشاً ذلك في فهم وسعة أفق .

وكأن الأقدار قد شاءت ان تحقق للمحاضر أهدافه فتجعله فيما بعد مشرفاً على اهم مؤسسة تربويه في البلاد – معهد بخت الرضا – ليقوم بإعداد جيل من المدرسين النابهين خلقوا المدرسة الأولية خلقاً جديداً على خير النظم التربوية التي عرفت فأدى لبلاده في هذا السبيل خدمة يسجلها له التاريخ كلما ذكر أفذاذ العاملين المخلصين في هذا الوطن . ونظل نستمع الى مثل هذا الحديث الشائق أكثر من الساعة حتى ينتهي المحاضر بين دوي التصفيق ونظرات الاعجاب والتقدير .

وقبل ان يزايل المنصة ينهض رئيس النادي السيد حسين شريف ويقدم للمحاضر ساعة جيب ذهبية وهي الجائزة التي خصصت للبحث الفائز ، فيدوي التصفيق مرة أخرى ولفترة طويلة، ويشد رئيس النادي على يد المحاضر شاكراً ومثنياً ثم يتجه الى المستمعين لشكرهم مرة اخرى وليعلن عليهم موضوع المسابقة الآتية وهي :

« ما هي افضل طريقة اقتصادية صحية لتحسين مباني الاهالي حسب حالتهم المالية وحالة الجو في الأقاليم ؟ » .

ويقول رئيس النادى « قد اخترنا هذ. الموضوع لاهميته وشدة الحاجة اليه

وجعلته اللجنة مفتوحاً للمهندسين » وأردف يقول : « إن الموضـــوع الثالث سيكون خاصاً للقضاة الشرعيين ، أما الرابع فسيكون مفتوحاً للجميـع » .

وينفض سامرنا وقد اوشكنا على السحور بعد أن استأنفنا النقاش في حلقات الانس في ساحة النادي ..

وظللت فترة طويلة وانا انظر ساهماً لهذا الشيخ الذي ظل يحدثني عن ذلك العهد هذا الحديث القيم ، وامتدت امامي صورة زاهية لهذا النشاط الذي هو موضع الفخر والإعجاب ، وابن منه نحن اليوم وقد كثر المتعلمون واتسعت آفاق الثقافة والمعرفة ؟ ، ومع هذا فإن المثقفين لا يقومون بنشاط يذكر في سبيل تخطيط مجتمعهم وعلاج نواحي الضعف فيه على نحو ما كانت تفعل تلك الفئة القليلة المباركة من خريجي الثلث الاول من هذا القرن ، فقد ادوا لبلادهم ما يذكرنا بقولة تشرشل في الحرب الاخيرة عن الطيارين البريطانيين على قلتهم يذودون عن الجزيرة ويواجهون في بسالة فذة تلك الغارات الالمانية العنيفة ويردونها على اعقابها قال « انه لم يحدث في التاريخ أن شعباً ضخماً احس بأنه مدين لحفنة قليلة من بنيه كما نحس نحن لهؤلاء الطيارين » .

وهذا ما يحس به السودان ايضاً نحو هؤلاء الرواد الاوائل .

وسألت محدثي : لقد عرفت الموضوع الذي خصص لمسابقة رجال التربية ، والآخر الذي خصص للمهندسين فما هو موضوع مسابقة القضاة ؟ والمسابقة العامة للمثقفين ؟

فأجاب : أما مسابقة القضاة ؟ فكان موضوعها « عادة الحلف بالطلاق وشيوعها في السودان ومضارها العائلية والاجتماعية وحكم الشرع في ذلـك » — اما المسابقة العامة للمثقفين فهي أن يكتبوا عن « متى دخـل العرب السودان ؟ وكيف دخلوا ؟ ومن اي الطرق كان دخولهم وما هي نتائج ذلك كله ؟ » .

ولك أن تسجل ان لجنة التمثيل والمحاضرات التي أشرفت على وضع وتنفيذ هذه المسابقات كانت من السادة : المرحوم حسين شريف – المرحوم عبد المجيد عبد الحميد (أحد القضاة الشرعيين السابقين) . اليوزباشي عبد الله خليل – عبد الرحمن علي طه ، وكان السكرتير العام للنادي المرحوم الاستاذ عبد القادر شريف احد رجال التعليم المعروفين – اما اعضاء لجنة النادى ، بالإضافة إلى من ذكرنا . فهم السادة احمد افندي ثابت وابراهيم افندي فرح ومصطفى حسنين ابو العلا وميرغني حمزة وحسن كرار .

أوّل فوج من الأطباء

في فرحة وغبطة تلقينا دعوة نادينا العتيد ، ان هلموا اليه أيها الخريجون وأعيان البلاد لنحتفي بتخريج أول دفعة من أطبائنـا السودانيين وكان ذلك في أعقاب عام ١٩٢٧ .

وسعينا الى النادي تحدونا فرحة طاغية فقد كانت امنية غالية ان تكون لنا مدرسة للطب ، وان نشهد في مستشفياتنـا فتية سودانيين يأسون جراحنا ويزيلون آلامنا ، فقد كان كل الاطباء حتى هذا التاريخ على قلتهم انجليزوسوريين ومصريين .

ونحن في الطريق الى دار النادي كنا ندير ذكريات غالية منذ ان قرر الانجليز عام ١٩٢٣ تخليد ذكرى اللورد كتشنر بمدرسة للطب ، مثلما فعلوا من قبل في تخليد ذكرى غردون بانشاء الكلية التي عرفت باسمه حتى عهد قريب ، فنشروا في صفحاتهم تلك الفكرة واخـذ كرام الانجليز يتبرعون للمشروع .. وانتقلت حركات التبرعات الى السودان أيضاً ، وبرز ذلك الرجل الشهم الثري ، احمد هاشم البغدادي ، فوهب ربع املاكه كلها في مدنية الخرطوم لطلبة مدرسة الطب .. والبغدادي رجل من (الأشراف) جاء الى السودان من بغداد وأثرى بين اهليه ، فدفعه وفاء الرجل النبيل الكريم المحتد ان يهب البلاد المـال الذي كسبه بين ربوعها ، فسجل ريع املاكه كلها لمشروع مدرسة الطب . ! ان احد شوارع العاصمة سمي باسمه ، ولكن الكثير من ابناء هذا الجيل يجهلون وهم يقرأون اسمه على هذا الشارع ماذا قدم هذا المواطن العربي من أياد ما تزال قائمة

حتى اليوم على اول مدرسة للطب في السودان . فان ريع املاكه الموقوفة مازال يهمي غدقاً على تلك المؤسسة وسيظل هامياً ما دامت تلك الاملاك قائمة ! .

وبرز جماعة من السودانيين يسهمون كل بما يستطيع .

وتجمع الخريجون يفكرون ، ماذا يفعلون ؟ إنهم اجدر طبقات الشعب كلها باحتضان المشروع وتقديم العون له .. ولم يطل بهم التفكير فقد رأوا ان يضربوا عصفورين بحجر ، ان يسهموا في نشر الوعي ، يقدموا عوناً مناسبا للمشروع الجديد ، وليس غير التمثيل ما يحقق لهم هذين الهدفين .

واهتدوا بتلك التجربة التي ما زال سكان ام درمان يتحدثون عنها ، يوم شهدوا لأول مرة في تاريخهم نخبة من شباب الخريجين تمثل رواية صلاح الدين الايوبي على مسرح نادي الخريجين مساء الخميس ٢٧ اكتوبر ١٩٢١ .

في تلك الامسية النادرة اكتظ النادي بكبار رجال الدولة من بريطانيين وسودانيين وغيرهم . لم يبق رجل مسئول لم يشرف تلك الليلة ، فقد كانت اول ليلة يمثل فيها الخريجون رواية . . وكان سكرتيز النادي احمد بشير الطيب يستقبل الزوار ، وقبيل بدء التمثيل وقف الاستاذ احمد عثمان القاضي نائب رئيس النادي وهو في عنفوان شبابه وكان خطيباً مصقعاً ثائراً فشكر الحاضرين ورجا منهم ان يتغاضوا عن هفوات الممثلين فانه لم يسبق لهم ان زاولوا هذا الفن من قبل .

كان النادي مكتظاً ، فلم يبق فيه موضع لقدم ، ورفعت الستارة وشهد الناس عجباً فهتفوا وصفقوا وطربوا ، شهدنا في تلك الليلة المرحوم طه صالح في دور صلاح الدين — وهو احد ابكار خريجي قسم الهندسة بالكلية ، واسماعيل فوزي في دور ولي عهد انجلترا (والد المرحوم الدكتور سعد الدين فوزي)وقد كان هذا الفتى من الكتاب المبرزين اشرف غير مرة على تحرير جريدة الحضارة ،

وعرفات محمد عبد الله الأديب الوطني المعروف رحمه الله في دور قلب الاسد ، ورفائيل الياس في دور ملك فرنسا ، وما كاد الستار ينزل عن الدور الأول من التمثيلية حتى دوى المكان بالتصفيق وهرعنا نحن الى ما وراء الكواليس لنشد على ايديهم مهنئين ، وهناك خلف الكواليس شهدنا الضابط علي عبد اللطيف وهو مندمج في اعداد لبس الممثلين وعرفنا من اخواننا انه هو الذي قام باعداد الملابس واحضار السيوف التي يقتضيها التمثيل ، ورأينا ذلـــك الفتى المصري الموهوب القاضي توفيق وهبي وهو يساعد في اخراج التمثيلية اذ كان من المهتمين بهذا الفن ، وكان محور النشـــاط كله في التمثيليات التي كان يخرجها النادي المصري وينفرد بها في ذلك العهد وبجـــانبه الشاب حسني احمد خليفة (القاضي الان بمحكمة ام درمان الاهلية) وكان يتمتع بصوت رخيم اشجى الناس تلك الليلة عندمـــا اخذ خلال فصول الرواية ينشد بصوت شجي القصيدة :

ان كنت في الجيش ادعى صاحب العلم فإنني في هواكـــم صاحب الالم !

وعلى غير عادة الشاعر عبد الرحمن شوقي فإنه لا يسمعنا شعراً عربياً خالصاً وانما يسمعنا زجلا رقيقاً على الطريقة المصرية يحض فيه على طلب العلم . وفي فترة ما بين الفصل الثاني والثالث اعتلى المسرح الشاب الفكه والذي مـــازال محتفظاً بروح الفكاهة على الكبر حتى اليوم عزمي سمارة ، فزاد من بهجة الليلة بفكاهاته الممتعة ، هذا بجانب ما كانت تضفيه على الجو موسيقى الحدود بأنغامها الشجية خلال فترات الاستراحة ..

ومرة اخرى عـــام ١٩٢٣ والخريجون يتساءلون كيف يسهمون في التبرع لمدرستهم الجديدة ، نادوا بصوت واحد لنعد تمثيليـــة صلاح الدين الايوبي مرة اخرى ، فقد كان الشعب مفتوناً بهـــا يود لو يراها كل يوم ، ثم ان الوعي قد زاد عما كان عليه عام ١٩٢١ عندما مثلت اول مرة وسيكون اثرها الوطني هذه المرة قوياً فان فيها تجـــاوباً مع ما يمور في صدور الجماهير من عواطف مكبوتة

توشك ان تنفجر .

ويكتظ النادي في ليلة ليس لها مثيل ، ويزيد من روعة التمثيل أن اسندت البطولة الى ابن بجدتها الممثل الذي فتن به الناس آنذاك ، المرحوم طيب الذكر الاستاذ صديق فريد .. لقد اخرج الناس عن طورهم وهو في دور صلاح الدين بقامته الفارعة وتكوينه الجسماني الذي تتمثل فيه الفحولة، لم نكن نهتف ونصفق فحسب ، بل كنا نصرخ ملء اصواتنا تجاوبـــاً مع صديق فريد في دور صلاح الدين حتى خيل الينا ان مجد العرب والاسلام قد عـــاد تلك الليلة ، وانا قد انتصرنا حقاً على اعدائنا الدخلاء المستعمرين،ولقد بكى بعضنا وانتحب تأثراً!.. حتى صبية المدارس الصغار كان كل منهم يحـاول ان يقلد صديق فريد في دور صلاح الدين ، ويود ان يخرج هذا البيت بالقوة والصرامة التي سمع الناس يرددونها مقلدين صديق فريد :

ان لم أصـــن بمهندي ويميني ملـكي ، فلست اذن صلاح الدين !

وخلال فصول الرواية صعد الى المسرح شاعرنا الفتى احمد محمد صالح وبشعره الرائع والقائه الممتع خلب الالباب ، ودعا الناس وحثهم للتبرع لمدرسة الطب ، وكان لا بد ان يرشو الانجليز ببيت او بيتين من الشعر شاكرا لهم ان عملوا على اقامة هذه المدرسة التى تتوق اليها البلاد ، فقد كان هذا الاسلوب ضرورياً جداً في تلك الفتره واني لأذكر منها على بعد المدى – وضياع الاصل من صاحبها – هذا المطلع :

أجل ، تعتريني اليوم هزة جذلان فأخطر في بردي خطرة نشوان
سنبصر (جـالينوس) بين ربوعنا غداً،(وابن بختشيوع)يصطرعان!

ويشكر استاك باشا حاكم عام السودان فيقول :

لإستـاك يوم الفخر سبق الى العلا اذا ماجرى الحكام في عرض ميدان

أمولاي قلدت البــلاد أياديــا   تفوق الدراري في عقود حســان

الى ان قال يستدر عطف المواطنين للتبرع :

وان شئتموا ان القي الدّلو معكمو   فهذي «تفاعيلي» لديكم و«اوزاني»!

وقد اثار تبرع الشاعر بتفاعيله واوزانه عاصفة من الضحك .

ويشفع الخريجون رواية صلاح الدين برواية اخرى وهي (عطيــل) ويحمل لواء هذا الفن الذي لعب بألبابنا هؤلاء الفتية الميامين وعلى رأسهم صديق فريد وعرفات محمد عبد الله واسماعيل فوزي، وطه صالح ، رحمهم الله ، فقد عطروا اجواءنا بأريج ما زال شذاه يفوح زكياً ندياً ، وامدوا مشروع مدرسة كتشنر بمادة سخية رفعت رأس الخريجين عاليــاً فحققوا هدفين عظيمين في آن واحد ، نشروا الوعي بتقديم هذه المثل الوطنية العالية في تلك التمثيليــات ، واسهموا باسم الخريجين في انشاء مدرسة تضم الى رصيدهم ذخراً جديداً ما احوجهم اليه !

ومن حسن طالع البلاد ان بدأ التفكير في انشـــاء هذه المدرسة واعدت معداتها قبل حوادث ١٩٢٤ الشهيرة التي قرر الانجليز بعدها عقاباً –لهذه البلاد– حرمانها من كل الوان التعليم حرماناً امتد الى عشر سنوات ، فاغلقوا المدرسة الحربية حتى لا يتخرج ضابط جديد ثم اغلقوا مدرسة العرفاء التي تخرج مدرسي المدارس الأولية ايذاناً بألا تفتح مدرسة اولية بعد ! ، كما قرروا الا يزاد عدد فصول المدارس الابتدائية القائمة فصلا واحداً ، ولا يضـــاف تلميذ واحد فوق العدد المقرر ! وهكذا ضربوا حصارا قوياً على التعليم فلا يزيد ولا يمتد ،فحسبهم ما لقوه من ثورة قادها واشعلهــا عليهم المتعلمون ! . ولو تأخر تفكيرهم في مدرسة كتشنر الى ما بعد الثورة لما أقدموا على انشائها في ذلك الحين .

ومرت سنوات الدراسة الاربع بكلية كتشنر وها نحن في نهاية عام ١٩٢٧ تسعى الى دار الخريجين بأم درمـــان لنلتقي مع هذه الوجوه الصباح ، وجوه إخواننا اول فوج من الاطباء لقد كان حقاً يوم عيد وفرحة بيننا !

وندخل النادي الذى كان حافلا بالخريجيين والأعيان وكبار الانجليز، كلهم يحيطون بهذا الفوج الأول احاطة السوار بالمعصم ، والانظار مشرئبة اليهم من كل ناحية ، انهم أمل من آمال البلاد قد تحقق ، أمل طالما نادى به المتعلمون ورجاه المعتدلون في خطبهم واشعارهم مهتبلين كل مناسبة تصلح لاقتحام هذا الرجاء .. وما زلنا نذكر شاعرنا البناء وهو يستقبل اللورد أللنبي في أبريل عام ١٩٢٢ بقصيدته :

هي الأخبار آفاتها الرواة ... الخ .

وفيها يطالب اللورد أن يعمل على رقي البلاد ، ويسأله كيف ترقى امة لا اطباء فيها ولا محامون ؟ !

لنا بالطب جهل أي جهل ... وإن الجهل من شعب ممات !
وكيف يحوز قصب السبق قطر ... جفاه مع المحامين الاساة ؟ !

وها نحن نتطلع الى هؤلاء السبعة الكرام ، اطبائنا الجدد ، علي بدري وامين السيد والفاضل البشري والطاهر يوسف وداود اسكندر واحمد عكاشه والنور شمس الدين ونكاد نلتهمهم بعيوننا ، وفي جوانب اخرى من المائدة تناثر اخوانهم ابناء الدفعة التي تليهم ، واني لأتمثلهم الآن في مقاعدهم من الحفل والشباب المتوثب يطل من وجوههم وكانوا سبعة ايضاً ، علي خير وابراهيم أنيس ومختار محمد محمود وعلي أرباب وعلي باخريبة وحسن الحكيم واحمد عبد الحليم .

وتدور المرطبات وتمتد ايدينا الى الموائد الحافلة بكل شهي عذب ، حتى اذا أخذ حظه منها ، تعاقب الخطباء والشعراء يشيدون بهذه المناسبة السعيدة ، ونستخف هذه القصيدة الخفيفة الظل للشاعر عبدالله عبد الرحمن وتقاطع اكثر أبياتها بالضحك والتصفيق :

أيُّ بشرى أزفُّهـا في العشيّه　　لكمو يا ذوي الخلال الزكيّه ؟
أشرقت بالسرور منا وجوه　　وتلتها أفواهنا بالتحيه
ففزعنا الى الندى وجئنا　　في نشاط تهزنا الاريحيه
حقق الله للبلاد مناها　　يا رعى الله تلكم الامنيه
قد علمنا عناية الله فيها　　منذ انشأ بربعها الكليه
تتولى رعاية الطفل حتى　　يتولى أموره الحيويه
هذبت عقله فلما ترقى　　فكرت في حياته الجسميه

ويخاطب فوجنا الاول من الاطباء حادباً حانياً موصياً :

يا أساة البلاد من كل جرحٍ　　ان سمحتم فلي اليكم وصيّه
مهنة الطب ما لها من مثيل　　هي احدى الوظائف العلويه
راجعوا كتبه ولا تهملوها　　ولتحيلوا على الزمان رقيه
وابسموا للعليل في كل وقت　　فابتسام الطبيب يحيي الشهيه !
جرعة من مزيج ضحك تؤدي　　فعلها في قناتنا الهضميه !
موجبات السرور أنتم ، ومن لم　　يستشركم حياته سلبيه
رب يوم كصبغة اليود صعب　　سهلته عيادة طبيه !
رب ضيف من الملاريا ثقيل　　يستقي من دمائنا كميه
اتخذتم اليه كل احتياط　　وبعثتم لطرده تمرجيه
قد يضر الطبيب مهما تعالى　　شهرة بابتزازه الماليه
ليس جسم المريض يا قوم حقلا　　فيه تجري تجارب وقتيه
خففوا من مواطنيكم مصابا　　والفتى من يراح للقوميه
عمرك الله هل سمعت بأحلى　　موقعاً كالنجاح في العمليه ؟

وانفض الحفل وبدأ أطباؤنا الجدد اعمالهم من اول يناير ١٩٢٨ ، بدأوا بروح جديدة ورسالة جديدة ، كان احساسهم لعملهم بالغاً ، وتفانيهم في أدائه

عجيباً ، لقد وضعوا تقاليد عظيمة لهذه المهنة النبيلة ، تعففوا أن يأخذوا مليماً واحداً من أي مريض ! ، وكانوا يخفون لعيادة المرضى في منازلهم يؤاسون ويعالجون ، ويرفضون اي أجر على ما فعلوا ، وكان عامة السودانيين يكرهون المستشفيات اذ كان أطباؤها غرباء عنهم ، وكثيراً ما يرهقونهم بما لا قبل لهم به من المادة ، فلا يذهبون لها الا في حالات سيئة جداً .

وما كاد أطباؤنا الجدد يتسلمون اعمالهم في المستشفيات وعرف الناس خلالهم النبيلة ، ومعاملاتهم الممتازة ، حتى هرعوا اليهم من كل جانب . وامتلأت الاسرة الخالية بالمرضى ! وفاضت ألسنة الخلق بالثناء عليهم والاعجاب بترفعهم عن المادة ، وتفانيهم في اداء الواجب دون كلل أو ملل ، وكان الفقير يجد عندهم مثل ما يجد الغني واكثر من عناية ورعاية ، فحققوا أمل البلاد وكانوا عند حسن ظنها الذي جاء على لسان شاعرنا يوم احتفلت بهم في دار الخريجين :

قد يضر الطبيب مهما تعالى   شهرة ، بابتزازه الماليه
خففوا من مواطنيكم مصاباً   والفتى من يراح للقوميه

وحسبنا ان نسجل للتاريخ أن الرعيل الاول قد ادى واجبه اروع اداء ، ووضع أسس التقاليد السليمة أكرم وضع .

فالى جنات الخلد من صعدت ارواحهم الطاهرة من أولئك الاساة الافذاذ .

الشعب يبني أمجاده

الجمعة ٢ اكتوبر ١٩٢٦

يوم من ايامنا المشهورة ، امتلأت فيه ساحة مدرسة أم درمان الاميرية بالمواطنين الصالحين من كل الطبقات ، على تباين أزيائهم ومراكزهم الاجتماعية ، ولكنهم كلهم ينتظمهم هذا المساء هدف واحد وتحدوهم فكرة واحدة ، ان يجمعوا اول تبرعات لاول مدرسة أهلية ابتدائية تقوم على اكتاف الشعب وحده !

ترى أينما تفرست في هذا الجمع الحاشد وجوهاً علاها البشر ، وطفى عليها الحماس ، فتساوى في هذا شيوخها وشبابها .

كانت بأم درمان مدرسة ابتدائية حكومية واحدة ، تقوم بجانبها عدة مدارس للارساليات الاجنبية من انجليزية وامريكية ، ولم تكن رغبة الناس في التعليم كما هي اليوم ، كان يعتريها كثير من الفتور والإعراض ، وكانت مدارس الارساليات تتصيد ابناء الفقراء والطبقات الدنيا وتغرر بهم ، فتأمرهم بأداء الطقوس الدينية المسيحية ، وتحفظهم الانجيل وتعمل كل ما يؤدي الى سلخهم من دينهم الاسلامي .. وتنبه الناس فجأة الى هذا الخطر الداهم اثر حادث مشهور ، اذ طلق احد السودانيين زوجه تاركاً لها طفلين ، فضاقت بتربيتهما ذرعاً فألقت بهما بين يدي رجال هذه المدارس التبشيرية ، وتلقفوهما بالحمد والرضاء ، وظل الطفلان في مدرستها سنوات لقنا فيها تعاليم المسيحية واحسنا اداء طقوسها ، وسمع الوالد ، فرفع قضية شرعية يطالب بضم الولدين اليه ، وحكم لصالحه ، الا

أن المدرسة عز عليها ان تفقد الولدين بعد ان اوشكت ان تجني ثمار غرسها .. فاستغلت موقف الأم ، فلما فشلت ، رفضت تسليمها ، ثم اكرهت اخيراً وتسلم الأب ولديه بعد لأي .. وكشف الحادث عما يدبر خلال جدران مدارس التبشير وكشف ايضاً ان حكومة الانجليز كانت تساند بقوانينها تلك المدارس ، فهي حرة في ان تلقن من الدروس ما تشاء وليس لاحد ان يعترض .. وهب قادة الرأي يعملون لانشاء مدرسة ابتدائية اهلية تستوعب أبناءهم الذين لم يجدوا حظاً في المدرسة الحكومية حتى لا يقعوا بين ايدي المبشرين .

ولم يكن الطريق لتحقيق هذه الفكرة معبداً سهلاً ، فالبلاد ما زالت قريبة العهد من حوادث ٢٤ التي جعلت الانجليز يستبد بهم الغضب فكان التعليم اول الاهداف التي عملوا لتحطيمها كما اسلف القول .. وهناك ايضاً هذا الجو القاتم الذي افلحوا في نشره بين صفوف الخريجين ، فهم – اي الانجليز – بعد ان عملوا للتفرقة بين المتعلمين واخوانهم زعماء العشائر ، عادوا فأشاعوا الحسد والتفرقة وسوء الظن بين الخريجين انفسهم ، يقربون هذا ويبعدون ذاك ويخلقون هالة من الشكوك والريب حول النابهين وذوي الرأي السديد ... ! فكان من العسير ان يلتئم جمعهم لعمل جماعي موحد .. ولكن المعجزة قد تمت بالرغم من تلك الاجواء القاسية ، فتجمع الخريجون والاعيان وكل من احس بمسئوليته نحو بلده ، تجمعوا في ساحة المدرسة الاميرية ليضعوا اللبنة الاولى للتعليم الاهلي .. وكان من عوامل التوفيق أن كان رئيس اللجنة العاملة المغفور له السيد اسماعيل الازهري مفتي السودان وأحد الرجال الذين كانوا يخلصون النصح للانجليز ؛ وكان السيد الازهري رغم مظهره الساذج وحرصه على استعمال اللهجة الكردفانية المحببة في احاديثه – داهية ثاقب النظر ، شديد التأثير على الحاكمين ، وقد استطاع ان ينتزع منهم التصديق بهذا المشروع ، رغم موقفهم الواضح في محاربة زيادة فرص التعليم للسودانيين ، وان كانت المدرسة الاهلية تدين لهذا الرجل الكبير في وضع اساسها ، فإن البناء الضخم لهذه المؤسسة العظيمة ، يدين لرجل لن تنساه البلاد

وهو البمباشي محمد نور الذي كرس وقته وجهوده كلها لرعايتها وتقدمها .

وإنا لنراهما معاً فى الصدارة فى مقدمة شهود حفلنا الذى نتحدث عنه ، ، عدد كبير من الخريجين والضباط السودانيين الذين جـــاءوا بأزيائهم الرسم فاضموا على الاجتماع هيبة ورونقاً .. وتجار البلاد واعيانها قد توافدوا زمراً ب زمر فلم تبق شخصية من رجال المجتمع لم تحضر هذا الحفل التاريخى .. وب الحفل واعتلى المنصة الخطباء والشعراء ، وكان في مقدمة الخطباء السيد حسـ شريف ، فصال وجال وجاء بالبديع المطرب ، وخلفه على المنصة الشاعر عبدا عبد الرحمن الذى ألقى قصيدة جاء في مطلعها :

أثرت من الهوى داء دفينا ... بنات الايك مما تسجعينا
تجاوب ان علت ربوات واد ... وافنانـــاً يقمن وينحنينا
وان حمل النسيم لها أريجـاً ... وصفق تحتها مـــاء معينا
.ِل بها الصبا ظوراً شمالاً ... واحيانـاً تميل بهـا يمينـا
لقد هجت الغرام ورب صوت ... اذا رجعتـه ماج الشجونا

ثم يلتفت الى ذلك الجمع الحاشد فيخاطبه قائلاً :

رجـال القطر شباناً وشيباً ... وانصار الفضيلة أجمعينـا
خذوا بيد الفضيلة وانصروها ... فإن من المعرة ان تهونا
وسلوا من عزائمكم سيوفاً ... تفـل مهند الدهر السنينا
محياكم يرف البشر منـه ... وايـديكم ثمـال المرملينا
اذا ما المعصرات همت بماء ... فـان أكفكم تهمى رقينا
ألا يا سادة كرموا وطابوا ... وهبوا للمعـالي يعملونا
وبثوا دعوة نشطت اليهـا ... اماثلنـا وكانوا فـاعلينا
سرت كالكهرباء بكل ناد ... وطار بهـا الرواة مجندينا
رأوا ان يفتحوا للعلم داراً ... مدارس كالضحى بيضاء جونا

وصح العزم منهم ان يخطوا بأم درمان مدرسة البنينا
بحق أنتم اقطاب بجدٍ وانتم للخلود العاملونا
احيبوا داعي الاصلاح واعنوا بتربية الشباب الطامحينا
ولا تهنوا فان هناك قوماً واذا مروا بكم يتغامزونا !
ارى شعباً تأزر بالمعالي واقسم ان يكون لها معينا
ارى هِمماً، ارى شعباً كريماً ارى عطفاً، ارى خلقاً ودينا
لقد عملوا بما عملوا ووفوا فطوبى للكرام العاملينا

ويختتم قصيدته بدعوة حارة للاكتتاب :

تقدم عن سماح لا كتتاب فان الفضل للمتقدمينا
وقل مدوا اياديكم بعفو اذا سألوك ماذا تنفقونا
اثابكم الإله بها جزاء لساناً صادقاً في الآخرينا

ويبدأ الاكتتاب في جو التهبت فيه المشاعر وتهيأت النفوس للبذل ، وتبارى التجار والاعيان والموظفون ، وزاد من حدة الحماس ذلك التبرع الفريد في نوعه آنذاك اذ قدمت كريمة البمباشي محمد نور سوارها الذهبي تبرعاً لمشروع المدرسة ! وفي مدى ساعتين تجاوزت التبرعات الألفي جنيــــه وهو مبلغ ضخم في ذلك العهد .. وذهل الانجليز فما كان يدور في خلدهم ان ينجح المشروع كل هذا النجاح وان يتقد الحماس له كل هذا الاتقاد وان يتجمع له في فترة ساعتين ألفان من الجنيهات.

وقامت المدرسة بادىء ذي بدء في دار خاصة وهبهـــا المحسن المغفور له احمد حسن عبد المنعم وظلت في دار هذا الرجل النبيل حتى تم بنــاؤها فيما بعد . . وظلت تنمو وتنمو والتقى في رحـــابها جهود جيلين في حماس متقد ، جيل العشرينيات وجيل الثلاثينيات ، اولئك بحكمة الشيوخ واولاء بحماس الشباب.. وسرى الحماس لها بين جموع الشعب فمثلت الروايات في مختلف انحاء السودان

لاعانتها ، وجمعت جلود الاضـــاحي ، وكان العمل في لجانها فخر يتسابق اليه الشيوخ قبل الشباب ! .

وسرت بين الجماهير اغنية وطنية للشاعر يوسف مصطفى التنى هذا نصها :

فى الفؤاد ترعـــاه العناية   بين ضلوعى الوطن العزيز

* * *

لى عداهُ بَسوّى النكــاية   وان هزمت بلملم قوايـــا
غير سلامتك ما عندي غاية   أن شاءالله تسلم وطنى العزيز

* * *

مرفعينين : ضبلان وهازل   شقّوا بطن الاسد المنازل
النبقى حزمه كفانا المهازِل   والنبقى درقة وطنا عزيز

***

ليه ما ارعى الوطن الرعاني   والدهاه اشيله وأعـــانى
الشباب والشيب علمـاني   قالوا نفدى الوطن العزيز

* * *

شفنا فيهم جوّاب فيافي   والبطير ويسابق النوافي
ما مراده عفـارم عوافى   غير يمجـد وطنـه العزيز

***

من حلوق الريف لى سدودها   البلاد معلومـات حدودها

سودأنا جبهة النبقى لهخودة   نلافى ضرر الوطن العزيز

* * *

طبيعي اعشق صيده ورماله   وما ابيعه واقول مالي ماله
ما بكون آلة البى حباله   داير يكتف وطنه العزيز

* * *

بي ديني بعتز وافخر وابشر   ما بهاب الموت المكشر
مـا بخش مدرسة المبشر   عندي معهد وطني العزيز

* * *

عندي وطني بقضالي حاجة   كيف اسيبه واروح لى خواجه
يغني وطنه ويحيجني حاجه   في هواك يا وطني العزيز

* * *

نحن للقومية النبيلة   ما بندور عصبية القبيلة
تربي فينا ضغائن وبيلة   تزيد مصايب الوطن العزيز

* * *

مـالي مـال تاريخ القبيلة   نحن شعبة وحيدة واصيلة
علمونا جـديدة وقبيلة   كأمة واحدة بوطن عزيز !

وقد حاولت الحكومة ان تحارب هذه الاغنية فلا تنشد في المجتمعات العامة فزادها ذلك ذيوعاً وانتشاراً .

وهكذا نشأت اول مدرسة وسطى اهلية فى ظروف قاسية مريرة وما زال الشعب يوليها هباته ورعايته حتى صارت مؤسسة تعليمية ضخمة شامخة تدرجت حتى مرحلة الثانوي وتعددت انهرها .. وكانت رمزاً لاول عمل جماعي يقوم به الشعب لخير الشعب .. فحيا الله كل من اسهم فيها بنصيب .

أعراس ومآتم

للامين على مدنى

قلت له : لنعد مرة اخرى الى اولئك الرفاق الذين كانوا يروحون عن انفسهم بتلك الجلسات العطرة فى دار فوز ، وقد قلت انها جلسات انتجت ادباً وفناً ، ولقد سمعت طرفاً من هذا الانتاج الادبي والفنى ، واستطعت ان اتبين شاعرية المرحوم مكاوي يعقوب الذي اصدر ديوان « آلام وآمال » فى قرابة المائة صفحة من القطع الصغير ، مما قرأنا له في تلك الجلسات ، فهل لي ان ارى لمحات من أدب الامين ؟

ولم يطل بى التساؤل فقد ألقي بين يدى بكتاب « اعراس ومآتم » وهو يحوى مجموعة خواطر متناثرة للاستاذ الامين وتقع في ٨٦ صفحة .

والامين شاب تخرج في مدرسة العرفاء وعمل مدرساً بالمدارس الاولية عام ١٩٢٠ . كان وسيما انيق الهندام اسمر اللون ربع القامة ، عذب الحديث ، وقد ادمن قراءة الادب العربي وتأثر كثيرا بأدباء المهجر وخاصة جبران خليل جبران — وتابع الامين كغيره من ادباء تلك الفترة انتاج الشعراء وهم يعتلون المنابر ينشدون الناس شعرهم الذى تميز بالتقليد للجزل من الشعر العربى القديم .. وفى مقدمة هؤلاء الشعراء وابعدهم صيتاً الشاعر عبد الله البناء : وحمل الامين لواء النقد الادبي واعتلى منبر نادي الخريجين بأم درمان ينقد شعر البناء ورفاقه . فكان بهذا أول ناقد ادبى يحاضر فى نادى الخريجين ضد النهضة الشعرية فى ذلك

الوقت ويقول عنها انها تقليد زائف وبهرج لا غناء وراءه ! ، ويحدث هذا النقد الصارم ثورة بين مناصري اولئك الشعراء وهم كثرة فيهاجمونه هجوماً عنيفاً على صفحات الحضارة ، ويصيح احد شيوخ الادب في وجهه قائـــلاً « انت شاب مجنون » ويبتسم الامين ويكتب في خواطره (صفحة ٤١ من الكتاب) :

« أنا شاعر ، والشعراء قليل في نظري كثير في عرفهم ! أنا صادق فيما ادعي وهم غير كاذبين ! – أنا شاعر أطير بأجنحتي الاثيرية في الفضـاء ، محلق في سماء الحرية ، مترنم بأناشيد الوقت ، منصرفة اذني عن اغنية الماضي ، وعن الحـــان المستقبل ، فأنا شاعر الساعة !

أنا شاعر بلا قيد ولا شرط، لا أعرف الوزن ولا اجيد القافية، ولا استطيع ان احرق عواطفي بخوراً امام عظمة الامراء وابهة الاغنياء وتيه الوجهاء !... انا شاعر مجنون ! . الشعر مظهر من مظاهر النفس ، وانا مجنون ، فشعري جبار مع الليل ، ثائر مع العواصف الهوجاء ، ظالم مع البحار ، قاس مـع الموت !.. انا الشاعر المجنون وهم الشعراء العقلاء ، لاني اطير بأجنحة غـــير اجنحتهم ، واحلق في فضاء غير فضائهم، وابتسم وهم يبكون ، وابكي حيث هم يرقصون ويعزفون ، وألبس السواد في افراحهم واقيم المآتم في أعراسهم !.. هم الشعراء العقلاء الذين ارقصوا العقلاء واطربوا العقلاء واستمالوا قلوب العقلاء ، هم الشعراء حقاً ، يشعرون عـــلى مبدأ « اعذب الشعر اكذبه » !.. هم الشعراء الذين يعطرون تلك الاندية والمجتمعات بعطر عواطفهم المستعارة .. وانا شاعر مجنون اسكب ذوب شعوري امام ابتسامة الزهور ، ونضارة الورد « ويرقص المجانين ويستميل قلوب المجانين !. كلانا شاعر ! وادين بأنهم شعراء ينظمون الشعر المقيد بالوزن والقافية ، هم الشعراء المقيدون او الشعراء العقـــلاء .. وأنا .. الشاعر الحر او الشاعر المجنون .. »

هذه المقطوعة تعبر عن نفسه الثائرة المتمردة على التقليد الذي كان فاشياً وعن

نزوعه الى التجديد ، كما تبين مدى تأثره بمدرسة شعراء المهجر وجبران ..

ونراه في صفحة « ٧٣ من الكتاب » يقول عن التقليد : « ... فإذا كان التقليد واجباً من واجبات الادب ، فعلينا ان نقلد رجال النهضة الادبية العصرية نحن في حاجة الى كاتب (مقلد) يقلد العقاد في فصوله ومطالعاته لا عبد الحميد الكاتب ، وفي حاجة الى ناقد يقلد طه حسين لا (ابن رشيق) ، والى أديب يقلد كامل كيلاني في نظراته ....».

ويثور على كتاب سعد ميخائيل الذي جمع فيه طائفة من شعر شعراء تلك الفترة في كتاب سماه « شعراء السودان » فيقول (صفحة ٧١) : « ما من ترجمة لشاعر إلا وكان صاحبها شاعراً مجيداً ، وشاعراً يعد من الفحول ، فشعراؤنا والحمد لله كلهم نضجت شاعريتهم ، وما قرأت ترجمة شاعر من شعرائنا إلا وتذكرت اعلانات الحوانيت (جرب مرة تصبح من عشاقه) ! فإذا جربت لا تجد شيئاً غير ما تستطيع ان تسخطبه على صاحبه.. لقد نظم بعضهم قصائد في المديح أيام كان من عرف الكتابة والقراءة عدد من العلماء ! وقد لا نلومهم كثيراً لانهم لم يسمعوا منذ نشأتهم غير ألفاظ المدح والثناء التى تمر على آذانهم كصوت الموسيقى ، لقد شرب شعراؤنا من كاسات المدح ما خدرهم او كاد . »!

ومن عجب ان كتاب الامين « أعراس ومآتم » قد خلا من تسجيل محاضراته فى نقد شعر البناء ورفاقه حتى نستطيع ان نحكم على مستوى ذلك النقد ونهجه ، ويبدو انه تأثر كثيراً بحملة النقد التي شنها فى مصر الثالوث على القديم : العقاد المازني – عبد الرحمن شكري – وقد جعلوا من شعر شوقي هدفاً لنقدهم اللاذع ، وقد جعل الامين ايضاً من شعر البناء – وقد اطلق عليه هنا امير الشعراء كشوقى – هدفاً لنقد مماثل متجاوباً مع الافكار والآراء التى كان ينادي بها ذلك الثالوث يؤازرهم طه حسين.

وفي منتصف عام ١٩٢٦ روعت العاصمة بوفاة الناقد الادبي الاول والأديب الذي كان ينزع الى التجديد في كتاباته ونقده واقام له اصدقاؤه حفل تأبين في نادي الخريجين ، تميز بظاهرة جديدة ، وكما كان في حياته نزاعاً للجديد فقد شاءت المقادير ان يتميز حفل تأبينه بشيء جديد على المجتمع ، فقد ظهر على المنصة بجانب الخطباء والشعراء اشهر مغني تلك الفترة ، محمد احمد سرور والامين برهان فأنشدا في نغم حزين آسر رثاء الفن الأمين ، وقد وضع الاغنية الحزينة الشاعر ابراهيم العبادي وكان مطلعها :

بيعْ خزفاك دررْ اتغيّبَ النقاد مات الكان يهدد طه والعقاد

وين مثل الامين ليهُ البيان انقاد ؟

أي ، تساوي الخزف والدرر في سوق الادب فقد غاب الناقد الذي كان يميز بينهما ، والذي كان يهدد طه حسين والعقاد ليكون نظيراً لهما في المكانة الادبية ، واين مثل الامين في سحر البيان ؟

وتلك كانت المرة الاولى التي يعتلي فيها المغنون مسرحاً عاماً ليشتركوا في مثل هذه المناسبات .

رحم الله الامين الذي عاجلته المنية ولم يكمل العقد الثالث من عمره .

مع العباسي في البادية

في أعقاب الثلث الأول من هذا القرن ، وعلى وجه التحديد في عام ١٩٣١ ، وقد تخرجت حديثاً في مدرسة العرفاء شاء حظي أن اعين مدرساً لأبناء الزعيم البدوي الكبير المغفور له الشيخ السير علي التوم ناظر الكبابيش في كردفان . وهناك تكشفت لي دنيا جديدة وعوالم ذات سحر عجيب ، وبين أولئك البدويين السذج عرفت الصفاء والجمال والنبل .

وفي ذلك العام وفي دارة (الحمراء) مقر زعيم الكبابيش هل علينا ركب الشاعر الفحل استاذي محمد سعيد العباسي ، ولم اكن من قبل على صلة شخصية به ، إلا أنني ككل عشاق الأدب ، وهواته ، أعرفه من شعره الذي كنا نردده في إعجاب بالغ ، وكان أول شعر عرفناه به ، نحن ناشئة ذلك العهد ، ان فوجئنا بقصيدة تحتل الصدارة من مجلة السياسة الأسبوعية عام ١٩٢٨ على ما أذكر ، للشاعر السوداني العباسي ، والسياسة الأسبوعية آنذاك يكتب فيها كبار رجال الفكر والادب في مصر والبلاد العربية الاخرى ، واحسسنا بالزهو ان يكون لقصيدة شاعر سوداني كل هذا الاحتفاء في النشر بمجلة أدبية كبرى .

وقد عرفت فيما بعد من الاستاذ العباسي انه لم يرسل تلك القصيدة للسياسة الاسبوعية ، وانما قام بهذا توفيق احمد البكري بالقاهرة ، وقعت في يده فأعجب بها وتقدم بها لتلك المجلة فاحتفت بها . وكان حرياً ان تحتفي بها فالقصيدة تعبر عن عواطف الشاعر نحو مصر التي أحبها حباً خالصاً اذ قضى فيها فترة من شبابه طالباً في مدرستها الحربية ، وعاد الى السودان وهو أشد ما يكون ولوعاً بالقاهرة .

زد عتواً ازدك من حسن صبري ... واذقني كأس العذاب الامرّ
لست يا دهر واجداً في شبا عزمي ... فلولاً ولا قلامة ظفر !
لا تحاول مني مراماً بعيداً ... وارض من شئت بالمذلة غيري

وفيها يقول معبراً عن فرط شوقه وحنينه الى مصر :

آه لو كان لى بساط الر ... يح ، أوافيه او قوادم نسر
فأطيرنّ نحو مصر اشتياقاً ... انها للأديب أحسن مصر
حيث روض الهنا ومجتمع ... الاهواء والسرور للمستدر
هل الى مصر رجعة وبنا شر ... خ شبابٍ غض وزهرة عمر !
وليال قد أشرقت في رباها ... كلها فى الاقدار ليلة قدر
ومكان كأن كل نسيم ... ناشر في ارجائه طيب نشر
يبهر العين منه مرأى انيق ... من مروج قيد النواظر خضر
فهناك الرياض والماء يجري ... بخرير تحت الرياض وقدر
وهناك النسيم يعبث بالما ... ء ويزري ، والورق للماء تغري
وهناك البهيّ من كل زهر ... وهناك الشجي من طير !

ويذكر ايامه السالفة في مصر وهو في ريق الشباب :

كم قطعنا في ذلك الروض زهراً ... ورضعنا فيه أفاويف در
ومصابيحنا به غرة السا ... قي وبدر من كفه بات يسرى
ان خرجنا من حال سكر لصحو ... فيه عدنا من حال صحو لسكر !
قد ظمئنا بنت الكرام فهاتي ... كأسَ خمر يُزجى فقاقع خمر
وتعالى نعيد خداً لخد ... قد برانا الجوى ، وثغراً لثغر
رب هل تلك جنة الخلد اد ... خلنا اليها ام تلك جنة سحر ؟!
تلك حالي مع الشباب فمن لي ... برسول يبلغ الشيب خبري

فيك يا مصر جنتي وسروري وسميري وقت الشباب ووكري

وشاء القدر ايضاً ان تقترن هـذه القصيدة في ذهني بصورة أخرى ، فكما كانت أول قصيدة نقرأها لشاعر سوداني عـلى صفحات السياسة الاسبوعية ، فقد كانت السبب ايضاً في حرمان الادباء من قراءة شعر العباسي مطبوعاً امداً طويلاً ، حيث جمع هذا الشاعر شعره واعده للنشر ، وكان قانون المطبوعات في عهد الإنجليز يقضى الا يطبع كتاب ما لم يقـدم لمكتب المخابرات لتقرر امره ، وقدم العباسى كتابه وكان الموظف المسؤول سورياً ذا شخصية طريفة ، ضحـل الثقافة العربية ، وكان الانجليز يكرهون ان ينشر شعر او نثر فيه ثناء لمصر او تقرب اليها ، وعرف الرقيب السوري ان العباسي مصري النزعة وان شعره ينحى هذا المنحى ، فأخذ يشطب اكثر قصائـــد الديوان بحجة انها سياسية ! وجاء العباسي للرقيب ليعرف مصير ديوانه ، فوجـــد ان اكثر شعر الديوان لم يسمح بنشره ، وقابل صاحبنا السوري واخذ يناقشه فيما فعـــل ، وهو يعرض عليه القصائد من جديد ، ولما جاء دور هذه القصيدة — زد عتواً — قال : وما لهذه تشطب ؟ ونظر اليها الرقيب السوري نظرة خاطفة واجاب : هـــذه سياسة واضحة يا مولاي ! انك تمـدح فيها حسن صبري باشا ! (وكان رئيس الوزاره المصرية آنذاك) وضحك العباسي وجمع اوراقـــه وخرج وآثر تأجيل طبع الديوان .. وقد ظن الرقيب ان البيت :

زد عتواً ازدك من (حسن صبرى) يعني به الشاعر حسن صبرى باشا رئيس الحكومة المصرية !

واستقبل في دارة الحمراء بالكبابيش ركب هذا الشاعر الكبير الذي كان مولعاً بحياة البادية يقضى فيها شطراً من كل عام متنقلاً بين وديانها وكثبانها ومضارب البدو الذين الفوه كل الالفـــة فله بينهم اصـــدقاء واحباب في كل حي ..

وفي رحاب البادية ومضاربها ووهادها ونجودها وجمالها الثائر الهادىءقضينا فترة هي من احب الفترات الينا ، وانشأ فيها العباسي اروع شعره واخلده ..

ترى هل يذكر استاذي العباسي – مد الله في عمره – مضارب (اولاد طريف) في ذلك الحي الوارف الظلال عند غدير (ام بادر) ؟ واصوات الرعاة الشجي ينبعث من جوانب الحي والغدير ؟.. وغناء الدوبيات الرعابيب في الليالي المقمرة وفي حلبات الرقص ؟!

او يذكر عندما كان يدنو منه سربهن ويهوين الى يده يقبلنها في تبتل وخشوع وهو شارد اللب وأنا اعابثه همساً بشعر الشريف الرضي ؟..

ومقبل كفي وددت لو انه اوما الى شفتي بالتقبيل ؟!

او انشد في صوت خافت للشريف :

اهـــوى لتقبيـــل يدي فقلت ، لا .. بل شفتي !

وفي تلك الليالي الزاهرة انساب الى مسامعنا صوت بدوي حنون يثير الشجن وهو ينشد :

يا أب لوناً سمـــري
يا اب حديثاً تمـــري
الدوار (اني) – (أنا)
يا الله تجمـــع شملي !

اي اللون الاسمر والحديث الحلو كالتمر ، لقد تركتني ضالا شارداً ابحث عنك فلعل الله يجمع شملي بك » .

ويشفع ذلك الصوت البدوي الحنون هذه الاغنية بأخرى :

خَتّاتـة ُختي زيـدي
بكريكي بي مجيـــدي
شــوفي لىْ حبيـــبي
في البـلدِ البعيــدي

إنها تستنجد بالعرافة ، ضاربة الودع (الختاتة) وتغريها بأنها ستمنحها ريالاً (مجيدي) وهي ما يعرفه اهل كردفان بالريال الكبير (عشرون قرشاً) أن تكشف لها عن حال حبيبها كيف هو ذاك البلد البعيد ومتى يؤوب ؟!

ولا نمل نحن من الاستماع الى ذلك الصوت الشجي المطرب وهــو يردد هاتين الأغنيتين ، ويشفع ذلك بحديثه الشهي عن قصة الحب التي تكمن وراء الاغنيتين ، وهل تخلو قلوب البدويين والبدويات من الحب ؟

ويهفو قلب الشاعر الكبير لهذه القصة ويستديم الاستماع للأغنيتين ويستزيد الصوت الشجي منها ، ثم يأخذ هو في الترنم بها .. هل اذكر جديداً اذا قلت ان شاعرنا العباسي يتمتع بأعذب صوت ينشد الشعر ؟ لكم وددت لو سجل صوت العباسي وهو ينشد ! وإنها لخسارة فادحة ان تذهب هذه الثروة الفنية الرائعة بددا !

وذات يوم ونحن في ظلال الحمراء ، انشدني العباسي بما صاغه من شعر عربي في معنى الاغنيتين ، فقال في معنى الاغنية الاولى :

اللون لون الذهب
والقــول حـلو الرطب
لي ارب في ذا الرّشـا
يا رب فاقــضِ اربي

وفي معنى الثانية :

عرافـة العرب زيـدي
ومن نداي استزيـدي
فكيف حـال حبيب
أمسى بقفر بعيد ؟ !

وظل يرددهما بصوته الرائع الذي ما زلت اتمنى ان يسجل وهو يمازج بين الاغنيتين والمقطوعتين .

يا لنا من ذكريات الماضي الحبيب ! هل يغفر لى استاذي الكبير ان كشفت عن بعض جوانب نفسه الكبيرة وقلبه الذى يفيض رقة وعذوبة وهياماً بالجمال

انى لا زلت اذكر كيف يهتز وتغرورق عيناه بالدموع كلما ذكرته بالاغنية البدوية الحلوة العذبة التى سمعناها من ذلك السرب البدوي الحلو الراقص :

يا طبيـق الريحـة
الريـدة ليك صحيحـة
إنت كان جافيت
كلمـنى بالنصيحـة !

يا حلواً كطبق العطر ! ان حبى لك حب مكين ، وانت ! أصدقني ! اتريد ان تجفوني ؟ !

كيف أغفل العباسي ان يعد لها مقطوعة ايضاً .. لقد مضى السرب الراقص وهو يغني يا طبيق الريحة .. واطبقت عليه وعلينا سحائب من الزمن المديد .. وما زال ذلك الصوت الندي الشجي يرن في مسمعي ...

مع العقاد عند زيارته للسودان

يوليو عام ١٩٤٢ والعالم يغلى بتلك الحرب الضروس [1] ، هتلر وموسيلينى ملء أسماع الدنيا ، وجيوشهما بقيادة الداهية روميل تكتسح جيوش الحلفاء فى أفريقيا وتتقدم فى سرعة فائقة حتى تقف عند العلمين فيعم الذعر والقلق ..! ونجتمع نحن هنا فى حلقات الراديو فى نادى الخريجين بأم درمان نتتبع الأنباء ونعلق كما تشاء الأهواء ، ولم يعد يخامر أحد الشك فى نهاية الانجليز الذين أعدوا العدة لمغادرة البلاد عن طريق الجنوب ، فجيوش روميل تقف فى العلمين قيد النظر من الإسكندرية ، وجيوش ايطاليا تحتل كسلا وكرمك متأهبة لاحتلال السودان .

وذات ليلة ونحن حول المذياع كعادتنا نرقب أنباء تلك الدوامة المفزعة ، جاءنا المغفور له الأستاذ عثمان شندى وبأسلوبه المرح الضاحك زف الينا نبأ وصول الأستاذ عباس محمود العقاد للخرطوم ، ولم يكن هذا النبأ بالنسبة لنا بأقل أهمية وخطورة مما كنا نسمع من الراديو ! ، واخذنا ندير الحديث حول هذه الزيارة المفاجئة ولم يغب عنا سرها او الدافع اليها ، فقد كان النازيون كما أسلفت ، قاب قوسين او ادنى من مصر ، والعقاد عندهم فى القائمة السوداء ولو لم يفعل غير ان الف كتاب (هتلر فى الميزان) لكفى بهذا سبباً للعقاب الرادع !

ومع كرهنا للعقاد السياسي ، لأنه خرج على حزب الوفد الذى كان يمثل

---

(١) كان مقدراً ان ينشر هذا الفصل فى الجزء الثانى من هذا الكتاب الا ان بعض الصحاب رأوا أن يلحق بهذا الجزء .

كفاح شعب مصر في رأينا ، ولأن العقاد يناصر الإنجليز وحلفاءهم حرة في تلك الحرب ولم نكن سعداء بموقفه هذا ، واقول مع كرهنا للعقاد السياسي فقد اغتبطنا بزيارة العقاد العملاق في عالم الفكر والثقافة وحمدنا للظروف ان اتاحت لنا ان نسعى اليه ونعرفه عن كثب .

وكان المرحوم شندي يمت بصلة لمضيف العقاد ، وهو احد اثرياء العاصمة ومن ابناء (اسوان) مسقط رأس العقاد ، فاتخذناه وسيلة للالتقاء بالكاتب الجبار .. وتم لنا ما اردنا ، واكتشفنا في الرجل مع سمو تفكيره وعمق ثقافته ، شخصاً مرحاً عذب الحديث . لطيف المعشر ، يهتز للنكتة والدعابة ! ، وكثر ترددنا عليه والاستماع الى احاديثه الممتعة .

وفي احدى جلساتنا في دار مضيفه عدوناه الى جلسة هادئة بدار الخريجين بأم درمان ليتعرف الى بعض الادباء السودانيين - واستجاب للدعوة ، وأقبل العملاق في رفقة المرحوم عثمان شندي وقد ارتدى ملابس من الصوف الثقيل ولف عنقه برداء تدلى طرفاه على صدره ، وجلس بيننا مشرق الوجه صبوحه ، رغم انه تجاوز الاربعين وتشقق الحديث وهو يديره في مختلف الاتجاهات بأسلوبه الشائق الساحر .

وقال احدنا للعقاد ، وهو يشير للأستاذ محمود الفضلي في تلك الحلقة الملتفة حول العقاد ، ان محموداً يحسن انشاد شعرك افلا تحب ان تستمع اليه ؟

وتهلل وجه العقاد واستوى في جلسته وتأهب للاستماع .

ولمحمود الفضلي طريقة فريدة في انشاد الشعر ، وان لم يكن صوته آية في الجمال ، الا انه على جانب غير قليل من الصفاء وعذوبة التوقيع . ولست ادري اكان اختيار محمود لقصيدة العقاد (ليلة الوداع) عن قصد لانها تطابق حالة

العملاق النفسية آنذاك ، ام جاء صدفة لروعـه القصيدة نفسها . . ومهما يكن فقد انطلق صوته هادئاً معبراً ينشد للعقاد :

ابعداً نرجي ام نرجي تلاقيا كلا البعد والقربى يهيج ما بيا
اذا انا احمـدت اللقاء فانني لاحمـد حيناً للفراق اياديا
الا منٍ لنا فى كل يوم بفرقةٍ تجـدد ليـلات الوداع كما هيا
ليال يبيـحُ الدل فيها زمامـه ويرخص فيها الشوق ما كان غالياً

كنت قيد ذراع من العقاد فظللت ارقب تعابير وجهه ، فرأيته يستلقي على المقعد وقد ارهف سمعه . وانساب صوت محمود في انشاد رائع :

ويا ليلتي لمـا أنسـت بقربه وقد ملأ البدر المنير الاعاليا
تطلع لا يثني عن البدر طرفه فقلت حياء ما ارى ام تغاضيا
بنا انت من بدر وددت لو انه على الافق يبدو اينما كنت ثاويا
غداً ننظر البدر المضوىء فوقنا وحيدين من دارين لم تتلاقيا
اشم شذى الانفاس منك وفي غد سيرمي بنا البين المشت المراميا
وألثمه كـيما ابرد غلـتي وهيهات لا تلفى مع النار راويا
فقبلت كفيه ، وقبلت ثغره وقبلت خديه ، وما زلت صاديا !
كأنا نذود البين بالقرب بيننا فنشتد من خوف الفراق تدانيا
كأن فؤادي طائر عاد إلفه إليه فأمسى آخر الليـل شاديا
إذا ما تضاممنا ليسكن خفقه تنزى فيزداد الخفوق تواليـا
اوشج فى كلتا يديه رواجبي [1] وشيجاً نظل الدهر أخضر ناميا !
وتلمس كفي شعره فكأنـني اعارض سلسالا من الماء صافيا!
وأشكوه ما يجنى فينفر غاضباً وأعطفه نحوي ، فيعطف راضيا

(١) الرواجب مفاصل الأصابع .

وأخذت أمعن النظر في العقاد ومحمود ينشد هذا الشعر السلس العذب . ان يدي العقاد ترتعشان ! وقد ارتسمت على وجهه انفعالات من يعاني ثورة نفسية حادة ، وكان يصغي بكل حواسه لمحمود وهو ما يزال ينشد :

ولما تقضى الليل إلا اقله   وحان التنائي جشت بالدمع باكيا
فأقبل يرعاني ويبكي ، وربما   بكي الطفل للباكي وان كان لاهيا !
وزحزحني عنه بكف رفيقة   وأسل أهداب الجفون السواجيا !
وأسلمت كفي كفه فأعادها ،   وقلبي ! ،فهلا أرجع القلب ثانيا ؟ !
فلم أر ليلا كان أطيب مطلعاً   وأكأب اعقاباً ، واشجى معانيا

وهنا أنهار الجبار واذا بوجهه يختلج والدموع تترقرق في عينيه ثم تنساب تباعاً ، وصمتنا برهة ذاهلين، ولكن محموداً يعود فيصل انشاد ما بقي من القصيدة التي اثارت كوامن ذكريات الكاتب الجبار حتى دمعت عيناه :

وليت النوى والقرب يعتوراننا   تباعاً كما يتلو الصباح الدياجيا
إذن لتلاقى الوصل والهجر عندنا   وصار النوى حكماً على الناس جاريا
فيا من يعيد الدهر من حيث مابدا   أعد لي ليلات بمصر خواليا
اذا كان لي في مقبل العيش مدة   فيا ليت يغدو مقبل الغيب ماضيا

وانتهى محمود من انشاده ، وران على مجلسنا الصمت وأبصارنا عالقة بالعقاد الذي ما زال مستلقياً على المقعد وقد غطى وجهه بيده اليسرى كمن استغرق في حلم طويل ! . ثم هب واقفاً ليودعنا وهو يردد عبارات الشكر والتقدير .

وفي صباح اليوم التالي ، وكنت أكتب بعض المقالات الاجتماعية في جريدة (صوت السودان) تحت عنوان (صور المجتمع) وكان رئيس تحرير الجريدة الصديق الأستاذ اسماعيل العتباني ، كتبت كلمة قصيرة اصف هذا المشهد بعنوان

(دموع الجبار) وحمل الصديق شندي رحمه الله تلك الكلمة للعقاد ، ولما قدمني اليه في جلسة تالية شد على يدي وهو يقول فى ابتسامة ملأت وجهه .. (من قال لك ان الجبار لا يبكي ؟!) .

ومضت أيام والعقاد بيننا كلها اعياد ثقافة وادب ، فقد امتلأ وقتنا بالحديث عنه او السعي اليه .

ولعل دار الثقافة منذ انشائها لم تشهد حشداً من المثقفين وعشاق المعرفة مثل الحشد الذي تجمع ليستمع للعقاد وهو يحاضر عن الثقافة ، فقد تحدث حديثاً سامياً رفيعاً صعب على كثير من المستمعين ان يلاحقوه فيه ، ولما فتح باب النقاش عقب المحاضرة ظهر قصور آفاقنا الثقافية آنذاك عن مناقشته ، اما الذين تصدوا للنقاش فسرعان ما تكشف ضعفهم فاستسلموا صاغرين .

على ان شيئاً ما كان يشوب تقديرنا واعجابنا بالعقاد الذي نعده من افذاذ رواد الثقافة في اسمى معانيها ، ذلك الشيء هو صلته العميقة بالسير دوجلاس نيوبولد السكرتير الإداري لحكومة السودان ، والاستعماري الداهية الذي نشأت فى عهده وبتحريض منه الاحزاب السياسية فى السودان .

نعم ، كان يشوب تقديرنا أسف بالغ لتلك الصلة التي وددنا لو انها لم تكن ، وكان بعضنا يتلمس له الاعذار كلما قصدنا دار العقاد وعرفنا انه مع نيوبولد في داره الخاصة .

ويبدو أنه قد جمع بينهما ما يتمتع به كل من الرجلين من ثقافة عالية - والعقاد كما هو معروف ذو ثقافة انجليزية رفيعة - هذا بجانب المكانة الممتازة للعقاد عند الانجليز لموقفه معهم في تلك الحرب وحملاته القوية ضد الفاشية .

وفى الحقيقة ان العقاد كان معجباً بنيوبولد المثقف ، فقد رأيناه عقب وفاة

سيوبولد يرثيه رثاء بليغاً في الصحافة المصرية ويشيد بثقافته وسعة افقه وتقديره لرجال الفكر ، وذكر في كثير من الاعتزاز صلته الشخصية به عندما كان في الخرطوم ولم يخف اعجابه بالرجل قط ... وهـذه احدى حسنات العقاد ، الشجاعة في ابداء الرأي غضب الناس عليه ام رضوا ..

واردنا ان نكرم العقاد في زيارته تلك ، فاقترح السيد داود عبد اللطيف (مدير كسلا الآن) ان نحتفي بـه احتفاء أدبياً مبتكراً .. وقد كان داود آنذاك شاباً طلعة ، يملأ المجتمع نشاطاً وكان سكرتيراً لنادي الخريجين بالخرطوم عندما كانت عضوية اندية الخريجين شرفاً عظيماً يتسامى اليها كل مثقف متطلـع لخدمة وطنه .. او خدمة نفسه .

واستقر رأينا على اقامة حفل أدبي بنادي الخريجين في الخرطوم من لون جديد ، اذ ندعو العقاد ليستمع الى آراء نخبة من الادباء السودانيين في انتاجـه الفكري شعراً او نثراً وكانت مغامرة اوحاها لنا زهو الشباب .

وتولى داود اخراج المغامرة وحشد لها عدداً من أدبائنا الشبان خصص كلا منهم بناحية من ادب العقاد ليتولاها بالنقد والتشريح .

وجـاء اليوم الموعود ، واحتشد النادي بخلق كثير ، وفي الصف الامامي جلس العقاد على مقعد وثير وبجانبه كبار الخريجين من رجال العـلم والادب على اختلاف طبقاتهم وأزيائهم ، وعلى مسرح النادي وبالقرب من المنصة جلس منظمو الحفل والمتحدثون وتولى داود سكرتارية الحفل وأخذ يقدم المتحدثين واحـداً بعد واحد ، والعقاد قد ارهف سمعه يلتقط كل كلمة من احاديثهم تلك .

تحدث محمود الفضلي حديثاً قيماً ممتعاً مشرقاً ، كان دراسة مستفيضة مركزة عن أدب العقاد . وانتشى العقاد واهتز اعجاباً . وتوالى المتحدثون بعد محمـود واذكر منهم (السيد الفيل) ومحمـد المهدي مجذوب الذي ألقى تحية بالشعر

استهلها بقوله يصف مدينة الخرطوم :

يا شاعر الوادي ولحن عبابه — من حائر او ثائر في ملعب
هذي هي الخرطوم دونك ارضها — غريبة هي في ولائد يعرب [1] .
من ابيض ساجي الشطوط وازرق — مرح الشباب بموجه المتوثب
اني نشأت بها وما ابصرتها — وقفاً على أمر الدعي الاجنبي
هذي هي الخرطوم دونك تتقي — احلامنا بجمالها المتحجب
مالت على الافق البعيد ورنقت — بالنخل هوّم في المتون السيكب
قد جاذبتها الريح فضل خمائل — كالغيد بين تحشم وتسلب
ووراءها قوم وملء نفوسهم — شوق الى حق هناك مغيب

وبعد ان أفاض الشاعر في وصف الخرطوم التفت الى الضيف قائلاً :

هذي تحية من يراك بخاطر — ثر الطيوف كأنه في موكب
أكنى بها عما يعز نواله — كلما ، وأوهمها بما لم اكتب
او لم تر الخرطوم وهي حيية — لقيت هداك بشوق متنقب
عربية تأوي الحجال وتتقى — والحسن لا يسبيك غير محجب
فاتبع بلحنك موجة من فتنة — تجري الى تيه الحياة الارحب
واتبع بطرفك افقنا متكشفاً — لك عن صفاء سرائر وتقرب
يا شاعر الوادي وكاهن سحره الأ — زليّ هاك تحية من معجب
أصفى لك النغم الوديد واتقى — زلل الحييّ وعثرة المتهيب
الصدق قربني اليك ، فهل ترى — يهب العزيمة والمضاء تقربي !

ثم جاء دور الأديب صلاح الدين العتباني الذي استهل حديثه بقوله انه عندما زار مصر كان يدخر للعقاد قبلة اعجاب بوصفه من رواد الفكر واساتذة الجيل ،

---

(١) يشير الى غلبة الاجانب في العاصمة .

وخنجراً يغمده في صدر العقاد السياسي الجائر ، الخارج على حزب الوفد المصري ، وبدأ العقاد يتململ في جلسته بحركة عصبية واضحة ، ولم يعجبه هذا الخنجر الوهمي واكفهر وجهه ، فعدنا الى تلطيف الموقف بعد نهاية كلمة صلاح فقدمنا الفنان اسماعيل عبد المعين؛ وكان آنذاك طالباً في معهد الموسيقى بالقاهرة ليغني قصيدة للعقاد لحنها الفنان لهذه المناسبة .

وأخذ اسماعيل يرسل انغاماً شجية من العود ثم غنى مقطوعة العقاد :

يا نديم الصبوات أقبل الليل فهاتِ
واقتل الهمّ بكأسٍ سميت كأس الحياة .

وسرى عن العقاد، واعتدل في جلسته وهو يتابع مغنينا وهو يشدو بشعره :

هاتها واذكر حبيب النفس يا خير ثقاتي
ودعِ التلميح واجهرْ باسمه دون تقات
أترى نحرم حتى ذكره في الخلوات
ذهبي الشعر ساجي الطر ف حلو اللفتات .
وحيي لا يحييك بغير البسمات .
هاتها باسم حبيبي قاتل الله عداتي
آه لو تعلم ماذا في اسمه من عزمات
أترى الأحرف فيه غيرها في الكلمات .
هاتها عشراً ، وكرر وصفه العذاب مئات
صفه غضبان ، وصفه لاعباً بين اللدات .
ضاحكاً كالصبح يمحو بالضياء الظلمات
صفه من كل كساء صفه في كل الجهات
هو في الروض اذ يمشي احب الزهرات

وهو في القفر رياض من هوى لا من نبات
تم والله ، فيا ليت به بعض الهنات .
تم حتى أتعب العين بفرط الحسنات .
صفه ، بل امسك ! فقد هاجت عليه حرقاتي .
جمح الوجد بأشجاني وضاقت ازمـــاتي

وبعد ان اتم الفنان اسماعيل انشاد هذه الأغرودة الحلوة صاح فيه المجتمعون يطلبون سماع نشيد المؤتمر الجديد .. وكان مؤتمر الخريجين آنذاك قبلة آمال الشعب وقد التف حوله الجميع ، وقد وضع السيد خضر حمد نشيداً للمؤتمر تغنى به كل الناس في كل مكان وهو نشيد (للعلا للعلا) المعروف الا ان لجنة المؤتمر في ذلك الحين عقدت مسابقة عامة للشعراء لوضع نشيد آخر ففاز بالجائزة الاولى النشيد الذي وضعه (الدكتور) محيي الدين صابر ، وكان طالباً بدار العلوم في القاهرة ، وتم تلحينه وانشده اسماعيل عبد المعين في هذا الحفل لاول مرة ومطلعه :

صرخة روت دمي من كفاح ومني

واثار النشيد ثائرة المجتمعين واستقبل بحماس فائض .. واستأنف المتحدثون القاء كلماتهم وقصائدهم .

وحسبنا ان الزوبعة التي أثارها صلاح عتباني بخنجره الذي اراد ان يغمده في صدر العقاد السياسي قد هدأت ثائرتها بعد هذا الفاصل الغنائي الممتع ، حتى اعادها ثائرة مربدة صديقنا السيد علي نور المهندس (شاعر المؤتمر) عندما جاء دوره ليلقي قصيدته في تحية العقاد .. وكان العقاد يعلم في قرارة نفسه ان الناس يقولون ان زيارته للسودان انما هي هروب من جيش النازية .. وكان يكره اي حديث يشير الى هذا المعنى من قريب او بعيد ..

وفي القاء واضح جميل اخذ على نور يتلو قصيدته التي استهلها بقوله :

اهلاً بشاعر مصر العبقري ومن … سارت بحكمته الاخبار والسير
اهـلاً باقوى يراع في اصح يـد … على النهى وعلى الفصحى لها أثر
لم انس موقفه (والوفد) مؤتلف … صلب ويأمر بالحسنى ويأتمر
يجلو صحيفته للنـاس ناصعـة … بيضاء الا خـلال كلها غـرر
وقوله الحق ، والدنيا باجمعهـا … تصغى وتستمع الاعداء والنذر
(كنانة الله كم اوفت على خطر … ثم استقرت وزال الخوف والخطر[1])
(وكم ترامت على ابوابها امم … ومصر باقيـة والشمس والقمر)
(الدهر في غيرها هدام ابنية … والدهر في شاطئيها حارس حذر)

ويمضي الشاعر في القاء قصيدته مشيراً في الأبيات التالية الى فيضان النيـل في ذلك العام عند زيارة العقاد والى الحرب الدائرة الرحى والحالة النفسية التي يعانيهـا السودانيون من قيود الاستعمار وطموحهم للتحرر :

مقالة لو وعاها القوم ما سفكوا … دماً ولا نقضوا عهداً ولا غدروا
لو قالها (تيمنشكو)[2] في كتائبه … تجنبته عوادي الشر والغير
اتيت والنيل فياض ومندفع … الى الشمال ، ولكن ماؤه عكر
واديه مضطرب الآراء مضطهد … وليس يعلم ما يأتى وما يذر
تشابهت عنده الاضداد. والتبست … اموره ، وتساوى عنده البقر .
والناس فيه وان ذلوا سواسية … وان تباينت الاخلاق والصور
من ضيع الحرب من شطريه مرتهن … ومن تحرر ، محتل ومحتقر

الى هنا والشاعر لم يقل غير ما يوجبه تكريم رجل عظيم ، حتى وصل الى

---

(١) الابيات الثلاثة تضمين من قصيدة للعقاد .
(٢) احد القواد الحربيين الروس الذين اشتهروا في الحرب الاخيرة

هذه الأبيات التي اثارت العقاد ، فقد كان – كما قلت - لفرط اعتداده بنفسه ينفر من ان يوصم بالجبن من النازيين ، وان رحلته للخرطوم كانت لهذا السبب .

قالوا جبنت من الجليّ وما علموا ... مكان من خطبوا الجليّ ومن مهروا
أيجبن العلم ؟ ان العلم مزدهر ... أم يجبن الحق ؟ ان الحق منتصر !
أم يجبن العقل في ابان سطوته ... الله يعلم لا جبن ولا خورُ
ما جئت ترجو قراباً تستقر به ... من الطغاة ، وانت الصارم الذكر
لكن حملت نفيساً فانتبذت به ... عبر النجاة ، عساه ينفع الحذر
تبقى الصفاة على الغبراء آمنة ... والدر يحفظ في حرز ويدخر
عباس – اني عن قومي وعن وطنى ... أهدي تحية تقدير ... واعتذر !

وفرغ المتحدثون والشعراء واتجهت الابصار الى العقاد ، فقام ومشى نحو المنصة وئيد الخطى مديد القامة .. وقف ليرد – وسمعنا عجباً . فقد اذهلنا بقوت ذاكرته ، اخذ يرد على المتكلمين واحداً بعد واحد ، كان يلمس افكار المتحدث اولاً في رفق ، ثم يأخذ في كشف اخطائه الفكرية او اللغوية – وقد حفظها عن ظهر قلب . وما يزال به حتى يتركه أثراً بعد عين . – ولعل صلاح الدين عتباني وعلي نور لن ينسيا قط ما صبه عليهما تلك الليلة .

وكان حديثه دروساً قيمة في الادب والسياسة والشعر وادب الخطاب .

وزرناه غداة الحفل فلقيناه غاضباً ، فقد ساءته تلك التلميحات في قصيدة علي نور عن (الجبن) ، واندفع كالسيل يتحدث عن اصحاب الرسالات في التاريخ الذين هربوا او ابتعدوا عن مواطن الخطر حفاظاً على القيم والرسالات التي يحملونها . وسلك في هذا السبيل هجرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة .. كأنما اراد بكل هذا ان يقر في اذهاننا انه انما فعل ما سبقه اليه اصحاب الرسالات .

وفجأة فارق العقاد الخرطوم الى القاهرة اذ لسعته احدى حشرات الخريف المعروفة عندنا ، فأحدثت له تورماً في بعض اجزاء جسمه ، فجزع لذلك وتردد على المستشفى ثم قرر فجأة ان يعود للقاهرةولعله رأى ان روميل وجنوده احنى عليه وارأف به من حشرات الخريف في السودان .

ولقد ظلت صحيفة (النيل) وهي اول صحيفة يومية سودانية فترة طويلة تنشر قصائد العديد من ناشئة الشعراء يرددون تحية الشعر للزائر العظيم ، ولهذه التحية قصة ، فقد اتصل بالعقاد عقب وصوله بايام ، الأديب المعروف المبارك ابراهيم وكان يعمل سكرتيراً لتحرير النيل ، وطلب منه ان يهديه صورته لينشرها في الصحيفة لمناسبة زيارته للسودان .

واستجاب العقاد للرجاء وقدم الصورة وقد كتب على خلفها هذه الأبيات تحية للنيل . ونشرت (النيل) في صدرها ابيات العقاد :

تفسير حلمي بالجزيرة وقفتي بالمقرن
حلمان حظهما خيال دون حظ الأعين
ما دمت بينهما فما انا سائل عن مسكني.
واذا التذكر عاد بى عطف الجديد فردني
يا جيرة النيل المبارك كل نيل موطني .
وله سميٌ في الصحافة معرب لم يلحن
حييت فيه سميه وحمدت فيه مأمني

وعقب الأديب المبارك ابراهيم على تحية العقاد فى نفس الصحيفة يقول :

يا من نزلت اعاليَ الوا دي حميد المأمن
اهلا ! فمنزلك القلو ب وفي سواد الاعين

ولأنت يا ابن النيل با قعة البيان الأرصن
فتغن في الخرطوم ما شاء التغني ، وافتن
فالنيل في ارض الكنا نة مثـــله بالمقرن
وله سمي في الصحا فة معرب لم يلحن
كلف برمز العبقر ية او بديـع الأزمن

ثم تهافت الشعراء يحيون الزائر العظيم على هذا النسق من الشعر

ولم يشأ العقاد ان يخص جريدة النيل وحدها بهذه التحية ، اذ كانت جريدة الصوت تصدر بجانبها ايضاً معبرة عن رأي طائفة الختمية ، ويتولى تحريرها الاستاذ اسماعيل العتباني، وقد كتب يحيي العقاد لمناسبة زيارته للسودان ، فزار العقاد دار الصوت وقدم لها هذه الأبيات :

صوت من السودان اسمعني بمصر فسرني
تهفو له الأسماع صا غية ولم تستأذن
فيه بشاشة وامق ومبشر ومؤمن
لولا حفاوته الكريمة ما علمت بأنني
فارقت من مصر الجد يدة ذات يوم مسكني.
شكراً له صوت تبين من لسان بين
مستلهم لغة القلو ب مترجم بالأعين
شمل العروبة كلها وسرى إليّ فخصني
ماذا اقول وقد سبقت بكل قول ممكن ؟
قدم العهود احب لي من بدعة المتفتن
من كان ديدنه الصنا عة فالسليقة ديدني

ولم يمكث العقاد بيننا اكثر من اربعين يوماً ، ولكنها كانت ذات أثر بعيد

الغور في نفوس اولئك الذين اتصلوا به عن كثب ، وستظل صورة هذا الرجل الفذ ماثلة في ذهني فى ذلك المشهد الانساني المعبر عن انبل العواطف واسماها والدموع تجول في عينيه وهو يستمع الى محمود الفضلى فى ندوتنا الخاصة ينشده :

ولما تقضى الليل الا اقــله ... وحان التنائى ، جئت بالدمع باكيا .
فأقبل يرعاني ويبكي ، وربما ... بكى الطفل للباكي وان كان لاهيا
فقبلت كفيه ، وقبلت ثغره ، ... وقبلت خديه ، وما زلت صاديا.
وزحزحني عنه بكف رفيقة ... واسبل اهداب الجفون السواجيا
واسلمت كفى كفه ، فأعادها . ... وقلبي ، فهـلا ارجع القلب ثانيا ..

ملامح من المجتمع السوداني

٢

مقـــدمة

عندما أصدرت الجزء الاول من كتابي «ملامح من المجتمع السوداني» وعدت القراء باصدار الجزء الثاني منه وقد بذلت ما بذلت من جهد في اعداده وتهيأت لطبعه فأخذت أسعار الورق وتكاليف الطباعة تتزايـد وتتضاعف بسرعة مما أعجزني عن تقديمــه للطباعة فتركته على مضض وتزداد الصعوبات يوما بعد يوم حتى أصابني اليأس من طبعه وتقديمه للقارىء وفاء لوعدي، وشاء الله أن تمتد اليه يد كريمة هي يد ـ مصلحة الثقافة ـ وزارة الثقافةوالاعلام وتولت عني مشكورة أعباء طباعتهفأزاحت عني هما كان يضنيني ومهما سجلت من عبارات الشكر فلن يفي ذلك بحقها وهي تبذل ما تبذل في اداء رسالتها الثقافية في مختلف المجالات ؛ وما أشك في ان القارىء متى وجـد في هذا الكتاب قدرا من الفائدة سيشاركني التقدير لهذا العمل .

كان الجزء الاول قد قصصت اكثره لتسجيل « لقطات » ادبية وفنية ووطنية منذ تخرجت الافواج الاولى في كلية غردون حتى نهاية العشرينات، وهذا الجزء الثاني خصصت اكثره لفترة الثلاثينات حيث صـار دور الخريجين أكثر وضوحا في المجتمع وحيث صارت قبضة المستعمرين يصيبها قليل من التراخي حتى سمحت في أواخر الثلاثينات بقيام مؤتمر الخريجين الذي كان بداية لسفور الحركة الوطنية بعد سنوات قليلة من انشائه .

وكانت فترة الثلاثينات التي ضم بعض معالمها هذا الكتــاب فترة ازدهار للحركة الادبية نثرا وشعرا مع تخلف في فن القصة الذي صار له اليوم شأن في عالم الثقافة ولقد كان التعبير بالشعر والتأنق فيه من

أظهر سمات هذه الفترة وقد سجلت بعضه بمناسبته هنا .

وقد صدرت في الثلاثينات مجلات أدبية كان لها أكبر الاثر في بعث وتنشيط الحركة الادبية ، اولها « مرآة السودان » للمرحوم سليمان كشه أعقبتها بعد توقفها « مجلة النهضة السودانية » للمرحوم محمد عباس ابو الريش ثم أعقبتها « مجلة الفجر » للمرحوم عرفات محمد عبد الله الذي كان من اقطاب جمعية اللواء الابيض وللمشتركين في ثورتها واستطاع ان يهرب الى مصر حتى عاد الى السودان في الثلاثينات واصدر هذه المجلة « الفجر » التي كانت لها اهمية بالغة في تلك الفترة لانها كانت تعالج بجانب قضايا الادب بعض القضايا الوطنية والاجتماعية باسلوب شجاع ولكنها لم تكن تلقى كل التأييد من القارىء المثقف في بعض ما كانت تثير في هذه القضايا ولكنها بغير شك كانت قوة فعالة في تحريك النشاط الثقافي والاجتماعي والوطني حتى عند مخالفيها احيانا .

انني لم أقدم في الجزء الاول ولا الجزء الثاني هذا دراسة أكاديمية ولكني أضع بعض اللوحات التاريخية من هنا وهناك ربما تكون عونا لمن يقومون بالدراسات الاكاديمية لتاريخنا المعاصر في فتراته المختلفة ، ولقد دعوت في كتابي الاول اخواني الذين عاشوا جانبا هاما من تاريخنا المعاصر وقد أوشكت أن تتلاشى معالمه ان يقوموا بتسجيل ما لديهم من معلومات عن احداث كانوا من اقطابها وفاء لحق وطنهم عليهم وانني لاكرر هذا النداء ويحزنني ان عددا غير قليل من هؤلاء قد انتقل الى رحمة الله دون ان يسجل شيئا من التاريخ الوطني الذي شارك فيه مشاركة فعلية وأسأل الله ان يبقي منهم طول العمر والنشاط الفكري ليكتبوا ما يمكن ان يكتب من التاريخ المعاصر : وهو تاريخ حافل حاشد بكل ما يستحق الكتابة .

وقبل ان أضع القلم أرى لزاما علي ان أشكر وأثني على وزارة الثقافة والاعلام التي لولاها لما امكن صدور هذا الكتاب .

فالحمد لله رب العالمين .

دماء في سبيل الحرية

اسم استقر في أذهاننا ونحن اطفال نعيش في تلك المدينة الصغيرة « سنجه » التي اختارها الانجليز لتكون عاصمة لمديرية الفونج عندما احتلوا السودان وقسموه اداريا الى مديريات ومراكز .

وهي تتوسط اقليما اشتهر آنذاك بغاباته الكثيفة وأمطاره الغزيرة خريفا التي كانت مورد الرزق الوحيد لسكان هذا الاقليم ، فهم اما زراع في هذا الخريف موسم زراعتهم الوحيد اذ لم يكونوا يعرفون الزراعة الآلية واما رعاة تجد بهائمهم فيه الكلأ موفورا والماء متدفقا في كل مكان فتنعم بهذا الرزق الميسور وينعم الرعاة بحياة رغدة لوفرة الالبان ...

وفي طفولتنا كنا نعرف ان المسيحيين في سنجه يدفنون موتاهم في مقبرة ابو رفاس ، ولم يكن في سنجه من المسيحيين غير الاحباش الوافدين من أثيوبيا وكانوا يعملون على نقل الماء من النهر على ظهور الحمير في « اخراج » واسعة من الجلد ويبيعونها للسكان في المدينة الصغيرة التي لم تعرف هذا الماء المصفى الذي يدخل المنازل عن طريق هذه الانابيب الجديدة ، وكان هناك من المسيحيين الحكام البريطانيين الذين يسكنون في منازل جميلة احيطت بالحدائق الغناء كنا نطلق عليها « السرايات » .

... ولم نشهدهم يموتون بيننا الا مديرا واحدا حدثنا آباؤنا انه سقط عن حصانه فدقت عنقه ودفن هنا .

وكانت المقبرة المسيحية تقع وسط غابة كثيفة الاشجار وعلى بعد من المدينة لا تقوى عليه سيقاننا الغضة كما كانت هـذه الغابة التي تحيط بالمقبرة تخيفنا !

وكبرنا بعض الشيء ، ونحن في المدرسة الاولية تواصينـا جماعة ، ان نرى المقبرة المسيحية ، وذهبنا ... وبقلوب واجفة اجتزنا الغابة الكثيفة ثم وقفنا امام المقبرة نجيل عيوننا ونحن مبهورون ... كانت عالما سحريا بالنسبة لنا فقد شهدنا كثيرا من مقابر اهلنا وقد أهيل عليهـا التراب فقط ، اما هنا ، فأبنية لطيفة تعلو الارض في ارتفـاع أطول من قاماتنا القصيرة ... وطفنا حول القبور ذات الاسوار والمباني بعض الشيء كأنا نطوف بحديقة منوعة الازهار !

وعدنا لاهلنا نتحدث عن جمال مقبرة ابو رفاس وانها لا تشبه مقابرنا المتربة ... ولكن بقي سؤال يحير عقولنا الصغيرة يومذاك ، لـم سميت مقبرة ابو رفاس ؟!

ومضت السنون تباعا ، وكبر الصغار وتفتحت العقول لتفهم احداث الحياة : وعرفنا من هو ابو رفاس وما قصته في هذه الارض ...

في سبتمبر عام ١٨٩٨ انتصر جيش المستعمرين بقيادة اللورد كتشنر وهزم جيش السودان بقيادة الخليفة عبد الله الذي كان يحكم السودان مدى ١٤ عاما باسم الثورة المهدية ، بعد ان انتقل الى جوار ربه موقد نارها محمد احمد المهدي الذي أجلى الاتراك عن حكم السودان وانفرد بحكمه عام ١٨٨٥ ، وقضى نحبه بعد عام واحد من حكمه للبلاد .

وبانتصار جيش المستعمرين وقعت البلاد تحت سيطرة حكم جديد عرف بالحكم الثنائي اسما « الانجليزي المصري » ، والانجليزي فعـلا بسبب ضعف مصر ووقوعها هي نفسها تحت سيطرة الانجليز .

وبالرغم من انتصار جيش الاستعمار ، وسيطرة الانجليز ، وما بذلوه من جهود لكسب قلوب الناس الا انهم لم ينعموا بالاستقرار ، فقد كانت ثورات من جموع الشعب تهب في مختلف الاقاليم لمقاومة الحكم الجديد .

وكانت كل هذه الثورات تشتعل باسم الدين ، فما كان السودانيون وكثير من الشعوب الاخرى في تلك الفترة يعرفون هذه التعابير الجديدة ... الاستقلال ... الوطنية ... الاستعمار ... القومية .. كان المفهوم الوحيد المستقر في أعماق قلوبهم انهم قوم مسلمون وان ارضهم ارض اسلامية ، ولا يجوز ان يسلموا ارضهم للانجليز غير المسلمين ولا يجوز ان يخضعوا لحكمهم لذات السبب ... وهو مفهوم دعمتهم في مشاعرهم الثورة المهدية التي قامت على هذا الاساس ...

ونحن في عام ١٩٠٤ ، في مدينة سنجه الصغيرة التي اختارها الانجليز عاصمة لمديرية الفونج احدى المديريات الخمسة عشر التي قسموا عليها السودان ، وهي ترقد وادعة على الشاطىء الغربي للنيـــل الازرق ، ولما يمضي على الاستعمار في هذه الارض غير ست سنوات والنـــاس قريبو عهد بالثورة المهدية ، واكثر سكان المنطقة من انصارها وما زالت تعتمل في قلوبهم جذوتها متقدة .

وجاء الانجليز باسلوب جديد في الحكم لم يعهده اولئـــك الناس البسطاء الكارهون لحكم « الكفار » اذ اخذوا يوزعون اراضي الزراعة النيلية لبعض محاسيبهم من السودانيين ممن أنسوا فيهم الولاء .

عبد الله ود الحسن شيخ من شيوخ قبيلة كنانة التي كانت تسكن مدينة سنجه وتعمرها وتفلح ارضها قبل ان يجيء هؤلاء « الكفار » ومحاسيبهم ... أحس بان حقه وحق اهله في الارض قد سلب ، بجانب ما كان يشعر به من كره عميق لحكم الكفار ... وامتلأ قلبه حقدا وسخطا ... اذن لا بد من قارعة !..

واخذ عبد الله يدعو قبيلته سرا للثورة ضد هذا الحكم الجائر ، وصار يعبيء الرجال ويعدهم للقارعة ... بعضهم استجاب وبعضهم نفر ، فقد خرجوا قريبا من القارعة الكبرى يوم لقوا جيش الاستعمار في جبال كرري قرب ام درمان ، فحصدهم هذا السلاح الجديد الماضي الذي جاء به جيش المستعمرين ولم يكونوا على علم به ...

وفي قرية على الشاطىء الشرقي من النيل قرب مدينة سنجه كان يسكن رجل من قبيلة الجعليين ، اسمه آدم احمد عبد القادر ، وكان على قدر من الذكاء والصلاح وبه طموح لقيادة ثورة عارمة ضد هؤلاء الحكام الجدد ، وكان يعلم ان الناس لن يجتمعوا حوله الا اذا قادهم باسم الدين ... لقد جمع محمد احمد المهدي الناس حوله عندما نادى بانه المهدي المنتظر ، وبهذا تبعوه وقادهم لحرب الاتراك حتى حرر البلاد واقام حكومة المهدية ...

ان آدم احمد عبد القادر يعلم انه لا يستطيع ان يزعم انه « المهدي » فان من حوله من السكان من آمنوا بمحمد أحمد المهدي من قبل وحاربوا معه ، وسيرفضون دعوته لو قال انا المهدي المنتظر ، ولكن ماذا لو ادعى لهم انه « عيسى » الذي يقال انه يظهر بعد المهدي ليطهر الارض من الفساد ؟ وأي فساد شر من هذا الذي ابتلي به الناس اذ تولى حكمهم غير المسلمين وجاروا على حقوقهم ؟.. فليقل للناس انه عيسى المنتظر ارسل اليهم ليطهر ارضهم من هؤلاء الحكام الفجرة ...

واعلن دعوته ... واستجاب له بعضهم من سكان القرية وبعض القرى المجاورة ... وبلغت دعوته ثائر قبيلة كنانة عبد الله ود الحسن الذي كان يمهد للثورة سرا ... واهتزت نفسه فرحا ، فها هو ثائر آخر بالقرب منه يلتقي معه في الوسيلة والغاية ... فليسرع اليه وليعملا معا لاشعال نار الثورة على الكفرة الحاكمين ...

والتقى الثائران وسرعان ما تفاهما ، ولم يضيعا الوقت ، اذ اخذا يجمعان من آمـن بدعوتهما للثورة ، ويطوفان بالقرى يحفزان الناس للحرب •

وبلغ الخبر حكام سنجه الانجليز •• وعلموا ان ثورة فـي طريقها للانفجار ، وامر الانجليز نائب المأمور المصري القبطي اليوزباشي زكي أفندي أبو رفاس أن يقود حملة من جنود البوليس المسلحين لقمع الثورة ولكنهم خوفا من مغبة الانفجار امروا جماعة من السودانيين الموالين لهم من العمد والمشايخ ان يصحبوا الجنود وقائدهم ، ليكونوا بمثابة انصار سلام ، فيتدخلوا لاخماد الثورة بنصح قادتها وتحذيرهم ، واعلان العفو عنهم ان هم تركوا ما أقدموا عليه وعادوا لحياتهم العادية دون اراقـة دماء •

وسار الركب آنف الذكر من مدينة سنجه حتى بلغ غابة كثيفـة قرب قرية « طيبة » التي لا تبعد اكثر من عشرين كيلومترا عن سنجه وهناك التقوا بالثوار ولم يكن عددهم كبيرا وقد تسلحوا بالاسلحة البيضاء ــ الحراب والسيوف والمدى ــ وبرز لهم الثائران آدم احمد عبد القـادر وعبد الله ود الحسن ، وخاطبهما اولا العمد والمشايخ بالرسالـة التي حملوها ، ونصحوا ما شاء لهم النصح ، ووعدوا وأوعدوا ••• ولكن الثوار قد عقدوا العزم على تنفيذ مخططهم مهما كان الثمن ، فلم يستمعوا للنصح ولم يستجيبوا له •••

وفي هجمة قوية صادقة أردوا قائـد الحملة اليوزباشي زكي قتيلا وأثخنوه طعنا بالسيوف والرماح ، وهجموا على الجنود والعمد والمشايخ الذين ولوا الادبار في لحظات ! وتركوا قائدهم مجندلا على الارض !•• والعجيب ان الهلع أصاب الجنود في تلك الهجمة فبالرغم من انهم يحملون البنادق والرصاص ، والثوار ليس في أيديهم غير السلاح الابيض فروا منهم ولم يطلقوا رصاصة واحدة !

وظل الثوار في مكانهم يتدارسون موقفهم بعد ان انتصروا فـي هذه الجولة ، وما من شك في أنهم قدروا ان موقعة اخرى ستدور بينهم وبين جيش الحكام ، ولعلهم قد أملوا خيرا أن يجذب اليهم هذا النصر عددا كبيرا من المؤيدين الذين ترددوا في الانضمام اليهم اولا ... كما حدث ذلك لمحمد احمد المهدي عندما انتصر في اول موقعة دارت بينه وبين جيش الاتراك في الجزيرة ابا وكان جيش المهدي كهؤلاء لا يحمل غـير الاسلحة البيضاء وكان جيش الاتراك الذي ارسل اليه من الخرطوم عـلى البواخر النيلية يحمل احدث الاسلحة التي عرفت انذاك من بنادق ومدافع ، ومع ذلك فقد انتصرت قوة المهدي الصغيرة العدد البدائية السلاح عـلى تلك القوة المسلحة بالاسلحة الحديثة وغنمت كل اسلحتها وكان هذا النصر حافزا قويا ليهرع الالوف نحو الجزيرة ابا حيث كان محمد احمد المهدي ليبايعوه وينضموا الى الثوار ... وقد أكد لهم هذا النصر حقيقة الدعوة الدينية التي حمل لواءها محمد احمد المهدي ... ألم ينتصر السلاح الابيض فقط على قوة حربية ضخمة مزودة بالاسلحة الحديثة ؟ تلك اذن عناية الله يضفيها على المهدي المنتظر وفيها كانوا يتمثلون .

وقف ثوار سنجه حيث هـم يخططون الى ما بعد هذه الجولـة واليوزباشى زكي مضرجا بدمائه منكفئا على الارض وقد فارق الحياة ، والقوة التي كانت ترافقه ولت الادبار هلعا وجبنا ...

ولم يطل بهم الوقوف ، فان القوة الهاربة ، تصدى لها احد العمد الذين كانوا يرافقونها وقد استرد صوابه بعد ان فر مع الهاربين باديء بدء ، وقف هذا العمـدة أمام الجنود وصاح فيهم الى أين الفـرار وقائدكم قد قتل ؟ وماذا تقولون للمسئولين في سنجه ؟.. وقال الجند : ولكن ليس لدينا أمر بالضرب !.. فقال : وما جدوى الامر وقد بدأكم الثوار وقتلوا قائدكم ؟ عودوا اليهم واضربوهم ...

ورأى الجند الا مفر من العودة وقد أقنعهم منطق العمدة ، فعادوا

الى الثوار الذين كانوا قد أمنوا واطمأنوا . وبينما هم في غفلتهم انطلق رصاص الجنود كالجراد يحصدهم حصدا ، وفي بضع دقائق كانوا كلهم صرعى على الارض وقد بغتوا بالضرب ... وكان عددهم بضعة وعشرين رجلا دون الثلاثين . وكان عـدد الجنود يقاربهم ... مع فارق بنوعية السلاح .

وحمل الجنود جثة اليوزباشي زكي « ابو رفاس » [1] وعادوا بها الى سنجة ، وفي احتفال رسمي شيع هذا الجثمان ووري الثرى في اول مقبرة للمسيحيين في سنجة .

وسمح لاهل القتلى ان يحملوا جثثهم ويواروها . وفي القسم الشرقي من مدينة سنجة دفن قائدا الثورة عبد الله ود الحسن ، وآدم احمـد عبد القادر . قريبا من مقبرة اليوزباشي زكي ...

واندرس قبرا الرجلين الثائرين ، وقامت حولهما احياء جديدة ، وقل من يعرفهما الا من بقي من الشيوخ وما اقلهم عددا واياما في الحياة ، اما شباب المدينة ومن يجيء بعد هذا فلن يعرف من أمرهما شيئا ، ولن يكون حتى لهذا الاثر الضئيل من وجود ...

وستبقى قصة هؤلاء الثوار الذين قاوموا الاستعمار الجديـد على ضعف الحيلة وبدائية الاسلوب مثلا حيا لاصالة هذا الشعب الابي الذي يأبى الاغلال ويفنى في سبيل الحرية .

---

(١) اجلالا لذكرى ابائنا واجدادنا الذين لم يستكينوا للاستعمار منذ ان وطئت اقدامه ارضنا فاخذوا يواجهونه بالعنف مستشهدين غير عابئين بالفارق العظيم في القوة المادية ففي كل منطقة بالسودان كانت ثورة وشهداء في سبيل الحق وقد ذكرت هنا قصة صغيرة تماثل مئات القصص البطولية لاولئك الابطال الذين لم يعد لهم ذكر في التاريخ وهم جديرون بالخلود ليعرف ابناؤنا ان الجهاد وان تنوعت اساليبه كان متصلا وليس جديدا .

الملازم اول عبد الفضيل الماظ

طويل فارع القوام ممشوقه ، اسود اللون ، على خده الايسر ندوب اتخذت شكلا مربعا ، يشع الذكاء من عينيه الواسعتين ، صارم النظرات ، حلو الحديث ... يتمتع بصفات خلقية ممتازة .

هكذا وصفوا لي الشهيد الملازم اول عبد الفضيل الماظ احد الضباط الخمسة الذين اشعلوا ثورة عام ١٩٢٤ في صفوف الجيش ووجهوا الى قوات الاستعمار الانجليزية رصاص نيرانهم التي حصدتهم حصدا ...

من هو عبد الفضيل ؟ وكيف نشأ ؟ وكيف شق طريقه في دروب هذه الحياة التي انتهت به حيث قتلته قنابل المستعمرين في مدينة الخرطوم بعد ان روى من دمائهم أرض وطنه في معركة غير متكافئة ؟

والده الماظ عيسى من قبيلة النوير ، لا احد يدري الان كيف اتجه الى القاهرة واتخذها مقرا له قبيل فترة المهدية ، ولكن الذي عرف عنه انه التحق بالجيش المصري جنديا عندما اخذت مصر بتوجيه وقيادة من انجلترا تعد العدة لاسترداد السودان ، بعد ان استولت عليه الثورة المهدية ... وكان من نصيب الماظ عيسى ان كان احد جنود الاورطة ١٢ السودانية التي كونت في القاهرة مع فرق اخرى سودانية ومصرية وانجليزية بقيادة اللورد كتشنر اعدت لاسترداد السودان .

وفي القاهرة تعرف الماظ عيسى الى اسرة من قبيلة مورو التي تسكن اصلا المديرية الاستوائية في جنوب السودان ، واختار فتاة منها زوجة له ، ولا احد يدري شيئا عن هذه الاسرة من المورو وكيف نزحت الى القاهرة ؛ ولولا وجودهم في القاهرة لكان مستحيلا على رجل من النوير أن يتزوج فتاة من المورو !

وتحركت قوات الجيش متجهة نحو السودان وبينها ١٢ جي اورطة السودانية التي تضم الجندي الماظ عيسى ، ترافقه زوجته وطفلها الصغير عبد الفضيل وهو في نحو الثالثة من عمره .

وانتهت معركة كررى بين جيوش كتشنر وجيوش الخليفة عبد الله بانتصار الغزاة ، وقد استبسل جيش الخليفة عبد الله في الدفاع عن ارض الوطن وسجل المعجزات ...

وتنقل الطفل عبد الفضيل مع والده بين عدة مدن سودانية وفق تنقلات فرقته العسكرية ، فاقام فترة في دنقلا ، واخرى في الابيض وثالثة في تالودي بجبال النوبة التي أحبها عبد الفضيل وقضى فيها ــ فيما بعد ــ اكثر سني خدمته العسكرية .

نحن الآن في مدينة واو عام ١٩٠٨ ، حيث انتقلت فرقة الماظ عيسى الى هناك ، ودخل عبد الفضيل الكتاب المخصص لتدريس ابنـاء الجنود ، وكان المدرس مصريا ، وظيفتـه الرئيسية ، امام الاورطة ، فهو يصلي بالجنود اماما ، ويقوم بعمل المأذون ، ويصلي على الموتى ، ويلقن القسم على المصحف امام المجالس العسكرية ، وكان هذا الرجل يختار عادة من خريجي الازهر الشريف ، وكان يخصص لكل أورطة واحدة ...

ويقول زملاء عبد الفضيل انه كان تلميذا ذكيا نشطا ، برزت فيه صفات القيادة فوكل اليه المدرس مهمة « عريف التلاميذ » ... « الالفة كمـا نقول » ويقول رفقاؤه انه كان يحملهم الى رحلات للغابة ، ويهيب بهم ان

يشهدوا التمرينات العسكرية التي كان يجريها آباؤهم الجنود ، وما تكاد تنتهي فترة هذه التمارين ، حتى يجمع عبد الفضيل التلاميذ ويدربهم عسكريا مثلما يفعل القواد !

وكانت الجندية تسري في دمه ، فقد ولد في بيت جندي ، وتفتحت عيناه ومشاعره بين الجنود ، وتشربت طفولته وصباه بروحها ...

وظل يتدرج في مدرسة الفرقة ، وفي المقدمة دائما ، حتى تم اختياره ليلتحق في ابريل عام ١٩٠٩ بمدرسة الصناعة التي كانت فرعا من كلية غردون التذكارية التي أقيمت في الخرطوم ، وقد اختار عبد الفضيل قسم الحدادين والتحق به ، واقبل على دراسة (الحديد) بنفس الروح التي عرف بها من جد وحرص على التفوق ، وزادت فرحته عندما تم نقل فرقة والده العسكرية الى ام درمان وصار من الميسور له ان يخرج من الداخلية في عطلة الاسبوع ليقضي يوما مع اسرته ...

وفي غضون عام ١٩١١ ، توفي الملاظ عيسى والده ، واهتزت نفس الصبي للكارثة التي لم يكن يتوقعها ، وهو وحيد ابويه ، ووالده هو الشخص الذي كان يعتمد عليه في هذه الفترة التي ما يزال فيها طالبا ...

وتوجه عمه الملازم بلال علي سعيد — عقب انتهاء ايام المأتم — الى مدرسة الصناعة بالكلية وطلب من مدير المدرسة الانجليزي ان يمنح عبد الفضيل شهادة بمستوى دراسته ليتمكن من ايجاد عمل له في مصلحة الاشغال وتم له ما أراد ، والتحق بوظيفة مساعد حداد في تلك المصلحة ، ولكن طموحه ابى عليه ان يقتصر عليها ، فسعى حتى التحق بورشة صناعية في سوق الخرطوم يديرها رجل يوناني ليعمل فيها مساء ، فحصل بهذا على دخل اضافي مكنه من القيام بالتزاماته نحو والدته بعد وفاة والده ...

وماتت والدته وخلفته وحيدا ، فرأى عمه بلال علي سعيد ان يدنيه منه ليرعاه ، فجنده عسكريا بالاورطة ١٢ التي ضمت من قبـل والده والتي نشأ بين جنودها طفلا وصبيا واحبها حبا جما ، ولعل هذا مـن العوامل الاساسية التي جعلته يقبل توجيه عمه فينفض يديه مـن الصناعة ليقبل على الجندية ، وكان ذلك في شهر اكتوبر من عام ١٩١١ .

وبعد ستة اشهر من التحاقه بالجندية اختير للالتحاق بمدرسة الوكلاء بلوكات امناء ، اي كاتب عسكري « بلوك امين » وكانت هـذه الوظيفة يشغلها الجنود المصريون لندرة من يعرف الكتابة بين الجنود السودانيين وكان مقر هذه المدرسة مدينة الخرطوم ومدة الدراسة فيها سنتان .

وهنا برز بوضوح تفوق عبد الفضيل اذ اجتاز ثلاثة امتحانات مرة واحدة بتفوق لم يعهد قبله لاحد من الجنود ، ففي مدى ثلاثة اشهر اجتاز بتفوق امتحان مساعدي البلوك أمناء ، ثم امتحان البلوك امناء ، ثم امتحان صول تعيين ، وتخرج في ابريل عام ١٩١٤ والحق بفرقته التي كانت انذاك في منجلا ببحر الغزال ... وتنقل بين عدة اماكن بحكم عمله .

وابتسم له الحظ في « راجا » ببحر الغزال عندما شهده اليوزباشي المصري عبد الله سلامه يدير طابورا عسكريا في فترة التدريب بحـذق ومهارة ، فرأى ان يوفـده الى المدرسة الحربية بالخرطوم ليتخرج فيها ضابطا ، ولما عرض فكرته هذه على قائد الفرقة الانجليزي رفض باديء بدء ان يقره عليها ، ولكنه اخذ يرقب عبد الفضيل فتأكد من جدارته واهليته العسكرية والخلقية ، فكتب للخرطوم يرشحه للالتحاق بالمدرسة الحربية ، وقد جرت العادة على اختيار خمسين طالبا لهذه المدرسة من طلبـة كلية غردون وعشرة ينتخبون من بين صف ضباط وحدات الجيش ، والتحق عبد الفضيل بالمدرسة الحربية في أول سبتمبر عام ١٩١٦ ...

وقبل ان نمضي مع عبد الفضيل في حياته المدرسية الجديدة ، نذكر

انه قد اشتهر بالشجاعة الخارقة ، ويروي هنا صديقه وزميله الملازم سعد مرسال هاتين القصتين ، قال : •

« ذات يوم بعد قيامنا من قرية ديم الزبير مساء لم نشعر الا وقطيع كبير من الجواميس البرية المتوحشة تعبر الطريق امامنا على مسافة عشرة امتار تقريبا ، وكانت الغابة كثيفة جدا ، والطريق ضيق تلتقيه على جانبيه أشجار عالية متشابكة ، فحبسنا أنفسنا هلعا وذعرا ، وانكمشنا حيث نحن الا عبد الفضيل الـــذي وضع طلقة رصاص في بندقيتـــه وتحرك خلف الجواميس داخل الغابة ليقتل عددا منها ، فاسرعنا خلفه وامسكنا به وصرنا نتوسل اليه الا يلحق بها ونحلفه بكل عزيز لديه وهو يحاول التملص منا ليلحق بها ، واخيرا ضحك ورمانا بالجبن ، فوافقناه ، وواصلنا السير وهو يضحك من خوفنا وهلعنا !

وفي يوم اخر ونحن في مدينة واو بالجنوب خرجنا معا ، وكنا ثلاثة ، وعبد الفضيل يتوسطنا تتنزه على شاطىء نهر النيل ، وبينما نحن سائرون سمعنا اصوات صراخ من خلفنا ولما التفتنا رأينا شابين من فتية الدينكا يجريان خلفنا يصيحان •• الجاموس •• الجاموس •• ! وكان من ورائهما ثوران ضخمان في لون الجاموس يعدوان نحوهما في هياج ، فلم نشك في انهما جاموسان متوحشان ، فهربت وصاحبي باقصى ما نملك من السرعة وثبت عبد الفضل مكانه وقد تأهب لملاقاة الجاموسين ، فلما تبين له انهما ثوران عاديان ضحك منا ونادانا لنعود اليه ، كما ضحك فتيا الدينكا وقد ظهر انهما كانا يعبثان بنا ليختبروا مدى شجاعتنا ، وقد أظهروا الاعجاب الفائق بشجاعة عبد الفضيل وسخرا مني وزميلي كل السخرية ! » •

تخرج عبد الفضيل من المدرسة الحربية في اول مايو ١٩١٧ في وظيفة ملازم ثاني ، حيث نقل الى تلودي وظل بها من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٢٣ وفيها تم زواجه من كريمة اليوزباشي سالم ، وقد فارقت الحياة وهـــي

تضع اول جنين لها ... وتزوج بعدها شقيقتها الصغرى وشاء القدر ان يكون مصيرها نفس مصير اختها ، ماتت وهي تضع اول جنين لها ..! وأصاب عبد الفضيل حزن مرير بسبب هاتين الكارثتين ...

كان يحب القراءة ويدمنها ، ويميل كثيرا الى كتب التاريـخ فانكفأ يقرأ ويقرأ ، ساعده على ذلك خلو حياته من المباذل ، فهو مستقيم لا يشرب الخمر ولا يقترف الزنا ... يقول اصحابه انه بفضل ادمانه القراءة صار صاحب ثقافة عالية أججت فيه الروح الوطنيـة وكراهية المستعمرين وكان يقتني في بيته مكتبة قيمة .

ولم يطق الحياة بغير زواج ، فتزوج للمرة الثالثة ، زوجته عاشت بعده عند كتابة هذا بحي بانت بأم درمـان ، وقد أنجبت له ولدا ــ جار النبي ــ حارب الانجليز تعليمه ، فعمل جنديا ، ثم صار عاملا ــ نقاشا ــ يغالب باساء الحياة مع امه في صبر وجلد .

في عام ١٩٢٣ نقل عبد الفضيل الى الخرطوم ، وكانت مصر تغـلي بالثورة تحت قيادة سعد زغلول لطرد المستعمرين عن وادي النيل ــ مصر والسودان ــ فاخذ عبد الفضيل اجازته وذهب الى القاهرة ، ويبدو انه انفعل مع ثورتها وأثرت في نفسه ، وهو الرجل الذكي الطموح الشجاع الوطني المثقف ، المدرك لمسئولياته نحو وطنه .

وعاد للخرطوم ، وتلاحقت الاحداث ... فاغتيل السير لـي ستاك حاكم عام السودان وسردار الجيش المصري في شوارع القاهرة وهو عائد من اجازته بلندن في طريقه الـى الخرطوم مقر حكمه ، وثارت انجلترا للحادث ، واتخذته وسيلة لتنفيذ مآربها في السودان ، فقررت طرد الجيش المصري من السودان ، في اربع وعشرين ساعة ، واجلاء كـل الموظفين المصريين المدنيين عنه ، لينفرد الانجليز وحدهم بحكم السودان ، وكان على رأس الحكومة المصرية سعد زغلول فرفض المطالب الانجليزية هذه ،

فأقيل من الوزارة وحل محله زيور باشا الذي نفذها بحذافيرها تحت ستار سياسة (انقاذ ما يمكن انقاذه) •

واحدث قرار طرد الجيش المصري والموظفين المصريين من السودان رد فعل عنيف في اوساط السودانين ، فخرجت المظاهرات الهادرة تحت قيادة جمعية اللواء الابيض السرية التي كان يرأسها الضابط بالمعاش الثائر علي عبد اللطيف الذي ألقي عليه القبض وكل أعضاء الجمعية وأودعوا السجن •••

المعركة

خرج عبد الفضيل الماظ ورفاقه الضباط وهم حسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وسليمان محمد وعلي البنا يقودون قوة عسكرية لم يتجاوز عددها المائة جندي ، متجهين من الخرطوم الى مدينة الخرطوم بحلاي لينضموا الى القوات المصرية التي كانت تتأهب لمغادرة السودان تنفيذا لقرار الحكومة الانجليزية الذي وافقت عليه حكومة زيور باشا في القاهرة •

واعترضتهم قوة انجليزية عند شارع النيل قرب الكوبري الذي يربط المدينتين : ودارت الملحمة الدموية العنيفة ، واطلق جنودنا الرصاص واتخذوا مواقع استراتيجية مناسبة ، تحصنوا بجداول الماء في ذلك الشارع ، وكانت المباغتة عنيفة على الجنود الانجليز سقط على أثرها عشرات منهم صرعى رصاص الجنود السودانيين •

ظلت المعركة دائرة في عنف منذ الساعة الخامسة من مساء الخميس ٢٧ ـ ١١ ـ ١٩٢٤ حتى ضحوة الجمعة ٢٨ ـ ١١ ـ ١٩٢٤ •

ومنذ الفجر احس جنودنا ان ذخيرتهم آخذة في النفاذ ، فتفرقوا وهربوا ، والتجأ عبد الفضيل الى مبنى المستشفى العسكري القريب من موضع الموقعة وأخذ الذخيرة التي يريدها من المخزن التابع للمستشفى

العسكري ، واعتلى مبنى المستشفى متخذا من احدى غرفه قاعدة يطلق منها قذائفه من (المكسيم) الذي كان يحمله ... كانت قذائف مكسيم عبد الفضيل هي الوحيدة التي استمرت في المعركة تحصد الجنود الانجليز حصدا وقد عجزوا عن الاقتراب منه .

خلت الخرطوم من السكان يوم الجمعة ، وأصاب الهلع سكانها ففروا الى الغابة المجاورة ، اذ كان الرصاص يهدر من الجانب الشرقي منها . رصاص مكسيم عبد الفضيل الذي بقي وحده يواصل المعركة ، تقابله القوات الانجليزية في الخرطوم باسرها ..! الساعات تمضي والجنود الانجليز كلما حاولوا الاقتراب من المستشفى صدتهم نيران عبد الفضيل ... عجزوا عن الوصول اليه ! وفي منتصف النهار ... ولم يبق في الخرطوم كلها غير عبد الفضيل يصارع وحده القوات الانجليزية التي تجمعت حوله بكل عتادها الحربي ... في منتصف النهار أمرت طابية الخرطوم الانجليزية انتطلق قنابل مدفعيتها الثقيلة على المستشفى العسكري لتهده على البطل المنفرد بالمعركة ... وهد المستشفى عليه ، ولما كشفوا الانقاض عنه وجدوه منكفئا على المكسيم وقد احتضنه بكلتا يديه ... كأنه ما يزال يواصل المعركة ..! وكان في الثامنة والعشرين من عمره الغض ... وكان عمر ابنه الوحيد آنذاك عامين !

في يوم ١٢ — ٨ — ١٩٦٦ ، احتفل شعب العاصمة المثلثة بيوم الجندي السوداني ، واقيم نصب تذكاري للبطل عبد الفضيل الماظ حيث أدار المعركة ببسالة فذة ضد جنود الاستعمار ، وسار الطابور العسكري تتقدمه الموسيقى ،وتدافعت جموع الشعب ، ووقف الرجال الرسميون وعلى رأسهم السادة رئيس واعضاء مجلس السيادة والوزراء وكبار رجال الدولة يكرمون ذكرى جنودنا الشهداء ، ويهتفون بحياة عبد الفضيل .

وبين الجموع الزاخرة ، كان يسير جار النبي عبد الفضيل الماظ في زيه

العسكري القديم الذي كان يرتديه في عهد الجندية ، ليسير مع الركب الذي جاء يحيي ذكرى والده ... لم يحس به احد ، ولا يدري أي من هذه الآلاف الهادرة ان ابن البطل حرمه الاستعمار من التعليم ، وانه يعيش عاملا متواضعا يجاهد للعيش بشق الانفس .

وهناك في دار متواضعة بحي بانت ، كانت امه ــ زوج البطل الشهيد ــ منهمكة ــ والآلاف تهتف بحياة زوجها البطل ــ كانت منهمكة في (عواسة الكسرة) ــ الكسرة الخبز السوداني ــ لتبيعها لطالبيها ، كما اعتادت ان تفعل كل يوم لتحصل على لقمة عيش هي وابنها العامل .

اسرة عبد الفضيل

عاشت زوجته وولده في شظف من العيش ، واخيرا منحتها الحكومة المصرية ... وكان الشهيد ضابطا في قواتها حتى استشهاده ــ معاشا شهريا في سنة ١٩٥٣ قدره ثلاثة جنيهات أي بعد استشهاده بثلاثين عاما !! ثم رفع الى خمسة جنيهات في عام ١٩٥٦ ثم استقر المعاش عند الرقم ١٣ منذ عام ١٩٥٧ .

وفي يوم ٦ ــ ٩ ــ ١٩٦٩ عقد مجلس ثورة مايو برئاسة جعفر محمد نميري جلسة أصدر فيها القرار نمرة « ٩ » الذي رفعت فيه رتب شهداء الوطنية الضباط الخمسة الذين ضحوا بارواحهم من اجل هذا الوطن وهم : ــ

١ ــ علي عبد اللطيف
٢ ــ عبد الفضيل الماظ
٣ ــ حسن فضل المولى
٤ ــ سليمان محمد
٥ ــ ثابت عبد الرحيم

ومنح المستحقون للمعاش من اسرهم على اساس هذه الرتبة العسكرية العالية .

وهو تكريم اريد به تقدير الوطن الغالي لتضحياتهم الغالية .

وللتاريخ أسجل ان الضابط سيد فرح كان زميلا لهم في تلك الملحمة التاريخية وكان يلازم عبد الفضيل الماظ في المعركة حتى نفذت ذخيرتهم . ثم استطاع ان ينجو ويفلت من الاعدام رميا برصاص الانجليز على النحو الذي رواه لي وسجلته في الفصل التالي .

نجا من الاعدام رمياً بالرصاص واختفى
ولحق بجيش البطل عمر المختار

كنت أتأمله ، وقد شارف الستين من عمره وما زال ممشوق القوام يتدفق حيوية ونشاطا ، وقد ارتدى الزي السوداني البسيط ••• وما كدت أبدأ الحديث معه راجعا به القهقرى ليروي طرفا من ذكرياته التاريخية ، حتى بدا التأثر واضحا ، ولكنه سرعان ما تدفق في حديثه مجيبا على أسئلتي في صراحة ووضوح •

سألته اولا عن وطنه الصغير ونشأته فقال :

ــ ولدت في دلقو بالمحسس عام ١٩٠٠ ووالدي فرح صالح عمدة دلقو وقد ظلت أسرتي تحتل منصب العمودية بالوراثة ــ وقد أتممت تعليمي الاولى في مدرسة دلقو • ولالتحاقي بكلية غردون القديمة ــ القسم الابتدائي ــ قصة عجيبة صنعتها الاقدار ، فما كان في عهدنا وفي مثل مدينة دلقو الصغيرة من يقدم على التعليم في الخرطوم • والقصة ان كان لجدي صلة تعارف باللورد كتشنر عندما مر بجيشه من هناك غازيا السودان ، فتعرف الى جدي ، وفي زيارة له لمنزل جدي بعد ان تم له فتح السودان طلب منه ان يقدم له احد ابنائه ليوصي بتعليمه في الكلية ، ولم يكن لجدي ولد في سن التعليم ، فقدمني له بوصفي حفيده المناسب للتعليم • وأكملت

مرحلة تعليمي الابتدائي ورغبت في الالتحاق بالكلية الحربية ووقفتعقبات دون ذلك ذللتها توصية كتشنر !

وصحت وقلت له : لو كان كتشنر يعلم ما تفعل بامبراطوريته في السودان لتركك مع اهلك في دلقو !

قال وهو يشاركني الضحك ـ انه تخرج ضابط برتبة الملازم ثاني أول عام ١٩٢٢ وقد تأخر عنالتخريج مع زملائه الذين يذكر منهم: ابراهيم عبود والمرحومين محمد بخيت علي وعبد الرحمن الفكي وآخرين ...

قفزت به الى احداث ثورة ١٩٢٤ وسألته عن الدوافع التي حدت بهم الى الالتحام الدموي مع القوة الانجيليزية ... وهل كان الالتحام على تدبير مسبق ؟ ام جاء نتيجة موقف مفاجيء ؟

وصمت قليلا يستجمع اشتات ذكرياته وقال :

ـ الحديث هنا قد يطول ولكني سأحاول الايجاز ... تذكر ان الانجليز عقب اغتيال ستاك باشا حاكم عام السودان وسردار الجيش المصري ـ وهذا لقبه الرسمي ـ في شوارع القاهرة ان ارسلت حكومة انجلترا الى حكومة مصر انذارا من بين بنوده ان يخرج الجيش المصري من السودان في ظرف ٢٤ ساعة ، وكان الضباط السودانين يتبعون الجيش المصري هذا وكانوا يقسمون يمين الولاء عند تعيينهم لجلالة ملك مصر . فلما عرفنا هذا الانذار الذي أحدث ضجة كبيرة ـ وكانت مظاهرات اللواء الابيض تجوب الشوارع هاتفة بحياة مصر وسقوط الانجليز كان لكل هذه الاحداث رد فعل عنيف في نفوسنا نحن الضباط السودانين التابعين للجيش المصري كما قلت . أخذنا نحن الذين كنا في الخرطوم مع فرقنا العسكرية تتشاور فيما يجب عمله وأذكر اني التقيت بعبد الفضيل الماظ وتحدثنا طويلا وتم الاتفاق بيننا ان نخرج ونذهب للخرطوم بحري لننضم الى الجيش المصري المرابط هناك ونربط مصيرنا به . وتم الاتفاق،

انا وعبد الفضيل الماظ والضباط ثابت عبد الرحيم ، وحسن فضل المولى وسليمان محمد وعلي البنا وانضم الينا ٦٣ جنديا سودانيا ــ وخرجنا في الموعد المحدد في طابور عسكري نحمل اسلحتنا والجبخانة التي تمكنا من الحصول عليها • وسرنا بشارع الشاطيء حتى بلغنا سراي الحاكم العام فوقفنا امامها وهتفنا بسقوط الانجليز ، وكان الحرس الانجليزي امـام السراي ولم يحرك ساكنا ــ واذكر ان السوق اغلق ابوابه عند تحركنا وتوقفت حركة المرور حيث مررنا • وسرنا من امام السراي بعـد ترديد الهتاف الداوي بطريق الشاطيء حتى بلغنا المستشفى العسكري ــ وزارة الصحة الآن ــ وكان ذلك نحو الساعة الثالثة من ظهر يوم الخميس ٢٧ نوفمبر ١٩٢٤ ــ وشاهدنا من بعيد قوة من الجيش الانجليزي تتحرك نحونا من امام مباني كلية غردون واخذت تقترب منا ــ الى هذه اللحظة لم يكن في تخطيطنا الدخول في معركة حربية معهم ، ولكننا ايضا كنا نتوقع الشر منهم •

ووقفنا ننتظر ، ويظهر ان القوة الانجليزية التي كانت تتكون من نحو ٨٥٠ جندي وضابط كانت تريد اخافتنا لنستسلم ونرجع اعقابنا ، فأطلق جنودها النار طلقات نارية في الهواء لاخافتنا ــ في هذه اللحظة اصدر الينا الضابط عبد الفضيل الماظ الامر بان ننزل بسرعة الى جدول المطر المحفور على حافة الطريق لنحتمي به ونضرب في المليان ، ونفذنا الامر فـي سرعة خارقة ، وبينما كانت القوة الانجليزية تقف مكشوفة امامنا فانهمر رصاصنا عليها مفاجأة ، وكان عبد الفضيل يمطرها من مدفعه الرشاش ونحن وكل الجنود ضربنا في المليان بدون تردد وفي دقائق تساقطوا قتلى بالمئات وانسحب من بقي حيا وما اظنه كان يزيد عن ١٥٠ عسكري ، واستمرينا في المعركة حتى انتهت ذخيرتنا قرب منتصف الليل ــ وقد اصابتني رصاصة فـي ذراعي •••

وهنا طلبت من عبد الفضيل ان يعبر النهر عائما ليتصل بالقوات المصرية

المرابطة في بحري ليخطرها بما حدث ولتشاركنا الموقف حربياء رفض عبد الفضيل ذلك وطلب مني ان اقوم ــ انا بهذا الاتصال ، ودخلنا الى المستشفى العسكري عبد الفضيل ليحصل على مزيد من الذخيرة ليواصل المعركة ، وانا غيرت ملابسي العسكرية بملابس ملكية من احد التمرجية في المستشفى وقصدت النهر وأخذت أعوم حتى بلغت شاطىء الخرطوم بحري ...

هنا سألته هل القوات المصرية في بحري كانت كثيرة العدد بحيث يمكنها ان تدخل المعركة ضد القوات الانجليزية ؟

فاجاب كانت هناك قوات كافية فعلا ــ خمسة بلوكات تتقدمها (الطوبيجة) وكلها كانت تحت قيادة ضابط مصري كبير اسمه (القائمقام رفعت) وكان رفعت متأهبا للمعركة وقد رفض ان يطيع الامر الذي أصدره له الانجليز بمغادرة السودان مع قواته تحقيقا للانذار المعروف وقد رد عليهم بانه لا يتلقى التعليمات منهم وانما من الملك فؤاد رأسا ...

قلت : ماذا حدث بعد وصولك لبحري واتصالك بالضباط المصريين؟

اجاب : اتصلت بهم وحدثتهم بالواقعة وبالموقف كله ، ولكن مع الاسف فان الملك فؤاد كان قد أرسل بالطائرة ضابطا مصريا كبيرا اسمه (امين هيمن) يحمل امرا منه للقائمقام رفعت بتنفيذ امر مغادرة السودان في الموعد المحدد له ــ ولم يكن بد من الانصياع لهذا الامر الملكي ــ وقد حدثنا امين هيمن هذا بان الانجليز هددوا الملك فؤاد وان قواتهم تحاصر قصره حتى كتب هذا الامر ...

واصبحت في موقف حرج وكان لا بد من ان أرافق الجيش المصري فقدم لي الضابط ملابس جندي مصري وركبت معهم القطار حتى حلفا ثم بالوابور الى الشلال والى هنا لم تتعرضني مشكلة الا انه ما كادت الباخرة تبلغ بنا الشلال حتى شاهدنا الضابط الانجليزي المعروف سبنكس

باشا المسئول عن الامن في مصر ومعه قوة من الجنود رابط عنـــد موقف الوابور وعرفنا انهم لا بد من ان يكونوا يبحثون عني وان الخرطوم قد أبرقتهم بتفتيش الجنود بعـــد ان فشلوا في العثور علي في كـــل انحاء السودان ــ والعاصمة بوجه خاص حتى منزلنا في دلقو حوصر عدة مرات وأقلقوا أهلي بالتفتيش المستمر كما علمت فيما بعد !

قلت : وكيف استطعت ان تنفذ من سبنكس باشا وقوته ؟

ــ وضحك بصوت مرتفع ، وقال : اعملنا التفكير بسرعة انا واصدقائي الضباط المصريين ، واهتديت الى ان خير وسيلة للاختفاء ان اتخلى عن لباس الجندية وان أرتدي زي البحـــارة الذين اعتادوا ان يجروا حبال الوابور حتى ترسو على الشاطىء وهي المحاولة الوحيدة التي يمكن ان اخلص بها ــ وفعلا ارتديت ملابس البحارة ونزلت معهم النهر وحملت على اكتافي الحبال التي تجر الوابور الى الشاطىء في الوقت الذي اخذ فيه الضابط الانجليزي وجنوده يفتشون الضباط والجنود واحدا بعد واحد بطريقة دقيقة جدا ، وقد التبس عليهم اخر ضابط مصري اسود اللون فظنوه (سيد فرح) فاعتقلوه وربطوه بالقيود الحديدية وعادوا به لمصر ثم تبين لهم اخيرا خطأهم !..

وتسللت من الشاطىء وانا بزي البحار (جلباب لبني اللون) وذهبت برجلي الى مدينة (اصوان) واعد لي احد الضباط المصريين تذكرةلركوب القطار من اصوان حتى بني سويف ونزلت بتعليمات مـــن الاصدقـــاء المصريين ــ عند ضابط مصري ــ ومنه اتجهت بتخطيط منهم الى القاهرة على ان انزل في محطة امبابه ، وهناك لقيني شخص متفق عليه ، والتعليمات التي كان يحملها الي أن نمشي برجلينـــا من امبابه حتى سيدنا الحسين في القاهرة وبعد اختفاء هنا وهناك ، رأى اصدقائي الضباط ان خير مكان أختفي فيه منزل ضابط في الحرس الملكي اسمه (خليل صابر الكاشف)

ولكن اوشك امري ان ينكشف ، فقد كان الانجليز واعوانهم يبحثون عني في كل مكان لينفذوا في حكم الاعدام رميا بالرصاص ... وقد لفت (امين هيمن) الذي جاء للخرطوم بامر الملك نظر ضابط الحرس الذي كنت أختفي في منزله بان الشبهات اخذت تحوم حول داره ، فغادرت دار ذلك الصديق الشهم وسافرت مشيا على الاقدام من مكان الى مكان حتى قررت اخيرا ان انضم الى ثوار ليبيا الاحرار الذين كانوا يحاربون الطليان المستعمرين لبلادهم ، وكنا على علم بانباء هذه الثورة بقيادة عمر المختار .

سرت برجلي مدة عشرة ايام ، اسير بالليل وأختفي بالنهار وقد ارتديت زي (اعرابي) وكان كل ما معي مبلغ ١٢ جنيها مصريا فقط ... واعانني ضابط مصري كنت اعرفه من السودان فاخذني معه وكان في دورية — الى واحة جغبوب — باعتباري اعرابيا مسكينا يستحق مساعدة الترحيل ... وواصلت السير بعدها حتى وصلت الجبل الاخضر في ليبيا حيث كـان يعسكر الثوار الليبيون بقيادة عمر المختار الذي رحب بي كثيرا وقضيت سنة كاملة اعمل سكرتيرا له .

ثم قدت سرية حربية من الثوار ، وكنت قد رقيت الى منصب البكباشي الى موضع يسمى (سرت) واوشكنا ان نقع في كمين ايطالي نصب لنا اذ أحطنا بقوات من الجانبين ... ولكن الله نجانا ، فانسحبنا الى منطقـة تقع على بعد نحو ثلثمائة كيلو من سرت على حدود السودان الفرنسي ، وقد ظللت أعمل في صفوف ثوار ليبيا من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٣١ .

وافاض في الحديث عن تلك الفترة التي ساهم فيها مع ثوار ليبيا . وكنت استمع اليه في شغف وكنت ايضا افكر في هذا النضج المبكر لتفكير ثوار ١٩٢٤ . وكيف انهم وضعوا اللبنات الاولى لتحقيق معنى الوحدة الثورية العربية ، وان هذه الشعارات التي يرفعها اليوم الثوار العرب في كل مكان ، كانت حقيقة ماثلة حية نابضة لدى ثوار ١٩٢٤ .

وسيد فرح بعـد ان يشعل نار الثورة مـع رفاقه ضد الانجليز في السودان ويروي بدمائهم ارض بلاده ، ثم يضطر للاختفاء يتجه بكل طاقاته ليشترك في ثورة اشقائه العرب في ليبيا ضد الاستعمار الايطالي ويرى في هذا الاشتراك امتدادا طبيعيا لثورته في السودان ضد الاستعمار الانجليزي فالاستعمار واحد ، والعرب اشقاء عليهم ان يتحملوا معا مسئولية الكفاح ضد هذا الاستعمار .

كنت أستمع لسيد فرح يحدثني عن كفاحه مع ثوار ليبيا وأنا مبهور بهذه المعاني السامية التي تجسدت امامي وقد حسبتها وليدة مشاعر اليوم مع هذا البعث العربي الجديد .

وقد انتهت ثورة البطل عمر المختار اذ تغلبت عليه ايطاليـا بوفرة جيوشها وعتادها ، وشنق الشيخ البطل عمر المختار في الصحراء حيث كان يصول ويجول بشجاعة فذة مع قواته اليسيرة العدد والعتاد وبعد ان هز كيان الجيش الايطالي هزا وأفزعه رعبا ، وكان لصدى شنقه أثر عميق في قلوب العرب والمسلمين وانصار الحرية في كل مكان .

وعبر عن ذلك أمير الشعراء أحمد شوقي بك في القصيدة التي رثاه بها وجاء في مطلعها :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يوحي الى جيل الغد البغضاء

وعاد سيد فرح الى قرية من قرى صعيد مصر متنكرا مرسلا لحيته كثة وافتتح دكانا صغيرا في القرية بعد ان أنس اليه اهلها وتسمى باسم مستعار وتزوج من ريفية هناك ، وظل في هذه القرية محبوبا من اهلها ومن جاورهم حتى تم توقيع المعاهدة المصرية الانجليزية المعروفة في عام ١٩٣٦ . وكان من بين بنودها العفو عن جميع السجناء السياسيين .

قال لي سيد فرح انه فوجيء بجريدة الاهرام تحمل خبر الافراج عنه

مع سائر السياسيين في السجون والمعتقلات والهاربين وفوجىء ايضا اهل القرية باعلانه لشخصيته الحقيقية وشاركوه الفرحة ، وعندما قرر السفر بالقطار الى مصر احتشدوا في المحطة رجالا ونساء لتوديعه ، وفي مصر استقبلته الصحافة المصرية بترحاب بالغ ونشرت صوره في ملابسه التي كان متنكرا بها مرسلا لحيته وحيته في اعزاز واكبار ، واكرمتـه حكومة مصر وكانت مكونة من حزب الوفد المصري الذي وقع المعاهدة ، وقابله مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة وتم تعيينه لمديرية اسوان ؛ وظل يعمل في هذا المنصب حتى حدثت ظروف في اول قيام ثورة الجيش المصري في يوليو ١٩٥٣ . وأدت تلك الظروف الى احالته للمعاش .

وفي خلال فترة تعيينه مديرا لاسوان جاء للسودان عدة مرات والتقى في فرحة ــ كما قال لي بمن وجدهم على قيد الحياة من زملائه ثوار عام ١٩٢٤ ومن اهله واخوانه وعارفيه وقد انتقل الى جوار ربه بعـد هذا رحمه الله .

في طريقه لمصر ليتعالج

عندما نشبت ثورة ١٩٢٤ الوطنية لم أكن ـ وابناء جيلي ـ في السن التي تسمح لنا بالمشاركة الفعلية في احداثها ولكننا كنا نتتبع اخبارها بوعي لا بأس به اذ كانت حديث الناس من حولنا تستأثر بكل اهتمامهم وتقديرهم وكان اسم علي عبد اللطيف على كل لسان يرددونه بكل معاني الاعجاب والاحترام ، وكان أقصى امانينا ان نرى هذا البطل الذي اشعل نار الثورة ضد الانجليز •

ونعرف ان البطل أودع سجن كوبر هو ورفاقه وسيموا ألوانا من العذاب كان ذلك في عام ١٩٢٤ ، ثم رأى الانجليز امعانا في تعذيبه وتعريضه لخطر يقضي عليه ان نفوه عام ١٩٢٥ الى سجن واو ببحر الغزال ومعه من اصحابه عبيد حاج الامين الذي كان يعتبر « دينمو » الثورة • والضابط علي البنا الذي نجا باعجوبة من حكم الاعدام رميا بالرصاص مع رفاقه الضباط الثلاثة الذين نفذ فيهم حكم الاعدام رميا بالرصاص فعلا في الخرطوم واستبدل الحكم عليه بالسجن ، ومحمد الخليفة عبد الله التعايشي ومحمد عبد البخيت ، واذا ما علمنا ان السجون في شمال السودان كانت في حالة سيئة للغاية فانا نستطيع أن نتصور كيف كان حال السجن في واو ببحر الغزال وكان ايضا من مرامي الانجليز في هذا الوضع ان تقتلهم الامراض المنتشرة هناك مع ضعف وسائل الوقاية فيها او انعدامها • ومع

الاسف العميق فقد أصيب البطل عبيد حاج الامين سكرتير جمعية اللواء الابيض وهو في سجن واو بالحمى السوداء وقضت عليه في عـام ١٩٣٢ وهنا احس الانجليز بسوء مغبة فعلتهم فأطلقوا سراح بقية السجناء الا علي عبد اللطيف فقد نقلوه مرة اخرى الى سجن كوبر بحجة انه اصيب بلوثة في عقله وانهم يريدون الحفاظ عليه كأنهم اوصياء او امناء على حياته وما كانوا يحملون له غير الحقـد والكراهية ، وفي عام ١٩٣٦ أبرمت المعاهدة الانجليزية المصرية التي كان من بـين بنودها العفو عن جميع المسجونين السياسيين ولكن علي عبد اللطيف ابقي في سجن كوبر حتى عام ١٩٣٨ اذ طلبت مصر ان ينقل اليهـا لتتولى رعايته والاشراف على صحته •

وفي هذا العام ١٩٣٨ كنت أعمل مدرسا بشندي وكان النادي في هذه المدينة يجمعنا كل مساء موظفين وتجارا واخرين وكان من بين من يتردد على النادي القائمقام يوسف سلامة طبيب المستشفى وكان من عادة الانجليز ان يضعوا المستشفيات ــ على قلتها ــ حيث توجد قوة عسكرية وكان الاطباء في هذه المستشفيات حتى تلك الفترة اكثرهم من اللبنانيين وكانوا يحملون رتبا عسكرية بحكم عملهم في مستشفى يعد عسكريا ، ويوسف سلامة هذا رجل طيب المعشر على قدر من الثقافة العربية وقد نشأت بينه وبين اكثر رواد النادي علاقة ود واحترام وفي هذا العام ــ ١٩٣٨ انتهت مدة خدمته فاقام له النادي حفل وداع تكريما له وكان قد أعد لسفره مكانا في (الاكسبريس) الذي يمر بمحطة شندي في طريقه الى حلفا ليواصل سفره بعدها الى لبنان عن طريق مصر ، وفي يوم الحفل وصلتـه برقية مستعجلة من المصلحة الطبية تطلب منه ان يحضر للخرطوم ومنها يأخذ قطار (الاكسبريس) في تاريخ حدد له الى حلفا ، وظننا ان المصلحة الطبية تريد هي ايضا ان تكرمه لانه كان اخر طبيب لبناني يغادر السودان بعد ان قضى سنينا طوالا يعمل في مستشفياته •

وفي اليوم الذي حدد له للسفر من الخرطوم كنا جماعة من معارفه من رواد النادي نقف على رصيف المحطة في انتظار القطار الذي يقله لنودعه وكان الوقت في نحو الساعة العاشرة ليلا .

وعندما وقف القطار واقتربنا من عربة الدرجة الاولى . هالنا ان اسرع بالنزول من بابي العربة جنديان مسلحان يحرسانها ويمنعان من كانوا على الرصيف من الاقتراب منها فدهشنا لذلك ، ونزل الدكتور يوسف سلامه وجاء الينا ورأى الدهشة تتملكنا ونحن نسائله عما نرى .

فقال لنا : ان سر استدعائي للخرطوم هو ان اصحب علي عبد اللطيف من الخرطوم بحري حيث جيء به من سجن كوبر حتى ابلغ به القاهرة ويستلمه مني المسئولون هناك .

وبينما هو يتحدث الينا برز من نافذة القطار رجل اسود اللون يلبس (جلابية) بيضاء نظيفة جدا ، حاسي الرأس مستدير الوجه .

فقال الدكتور : هذا هو علي عبد اللطيف .

ولولا الحراسة لدنونا منه لنحييه بكل مشاعر المحبة والتقدير والاحترام .

والتفت الينا علي عبد اللطيف وسألنا بصوت جهوري : هل هذه شندي؟

فأجبنا عن بعد : نعم .

فقال : اين فلان وذكر لنا اسما لم يعرفه اي منا مع اننا نعرف سكان شندي معرفة جيدة .

والتفت كل منا يسأل الاخر ان كان يعرف هذا الاسم فعجزنا عن معرفته ولم نستطع الرد على سؤاله ، وظل وهو برهة قليلة يتطلع من نافذة القطار الى الناس وما بدا له من بيوت المدينة ثم عاد الى مقره داخل القطار .

وسألنا الدكتور يوسف سلامه :

ــ هل صحيح ما قيل بان به لوثة عقلية ؟

فقــال :

ــ كان طول رحلته معي من الخرطوم حتى الآن يتحدث حديثا طبيعيا لا لوثة فيه ، ولكن كانت تبدر منه مرات تصرفات والفاظ غــير مستقيمة التفكير •

فسألناه عن أمثلة لذلك •

فقــال :

حدث ان قدم له (جرسون) القطار العشاء ووضعه عــلى المنضدة الملحقة (بالقمرة) ولكن (الجرسون) نسي او تعمد ان يقــدم الطعام دون ان يضع معه (الشوكة والسكين) ليتناول بهما ــ وكان الطعام على الطريقة الافرنجية ــ فنظر علي عبد اللطيف الى الطعام الذي وضع امامه ولحظ خلوه من (الشوكة والسكين) فصاح غاضبا في (الجرسون) بصوت مرتفع وقال له : (انك تحتقرني ••• انك تهينني •••) ثم قذف بالطعام كله على ارض المكان وهو ثائر شديد السخط بدرجة غير عادية••• هذه واحدة •••

اما المرة الثانية : ــ لقد اردت الخروج من باب (القمرة) وكان يجلس قريبا منه فلما دنوت صاح بي (لا تقترب مني ••• لا تلمسني ••• فانا رجل مقدس) •

فرجعت الى مكاني •

واقول انه لمن متصوفة الوطنية الذين تتجلى فيهم قداستها • وحتى تحرك القطار من شندي وودعنا صديقنا الطبيب لم نر على عبداللطيف مرة اخرى يطل من النافذة ، وانا ما زلت اشعر في تلك الدقائق اليسيرة التي رأيته فيها وسمعته يسألنا عن شخص مجهول لدينا بعد ان ادرك انه في

شندي هذه الدقائق اليسيرة كان لها أثر عميق في نفسي وما زال وجهه وصوته ترسب ذكرهما بالاعماق .

وما كادت تشرق شمس اليوم التالي حتى أخذنا نسأل عن الشخص الذي ذكر علي عبد اللطيف اسمه وعجزنا عن معرفته ، فعرفنا ان هذا الشخص كان جنديا يعمل مع علي عبد اللطيف عندما كان ضابطا مع الجيش في مدينة شندي ، وانه ترك الجندية وفتح محلا (للغسيل والمكوى) ثم توفاه الله منذ سنوات قبل سؤال البطل عنه ، فعجبنا لهذا الوفاء النادر فان علي عبد اللطيف لم ينس على بعد العهد الجندي الذي كان يلازمه ويخدمه .

وواصل القطار رحلته وحملت الينا صحافة مصر الاستقبال الحماسي الذي كان ينتظره بمحطة القاهرة من السودانيين والمصريين على السواء ولكن السلطات المسؤولة قدرت ما يمكن ان يسببه له هذا الاستقبال الحماسي من انزعاج واضطراب فأنزلته من القطار قبل ان يبلغ القاهرة وحملته بالسيارات الى المستشفى الذي خصص له لعلاجه وظل موضع الرعاية ومحاولات العلاج حتى توفاه الله في اواخر الاربعينات ودفن في مقبرة بالقاهرة ولكن عندما تسلمت الحكم ثورة يوليو ١٩٥٢ وكان على رأسها انذاك اللواء محمد نجيب حتى قررت نقل رفاته من هذه المقبرة الى مقبرة الشهداء وتم ذلك في مشهد رسمي وشعبي تقدمته ثلة من الجنود ومشى فيه كل المسئولين وعلى رأسهم نجيب وزملاؤه وتبعتهم جماهير من الشعب المصري والسودانيين الذين كانوا بمصر ، ودفن في مقبرة الشهداء حيث ما زال مرقده واضحا .

وقد حملت لنا الصحافة المصرية أنباء هذا المشهد الوطني وعدة صور له .

وأخيرا وجد علي عبد اللطيف الهدوء والسكينة الابدية في مقبرة الشهداء بالقاهرة . رحمه الله .

تعصف به ريح الشمال

الزمان : عام ١٩٢٨

المكان : كلية غردون القديمة

الطالب علي كباشي بالسنة الثالثة قسم القضاء يمثل قضيــة المأساة التي عاشها ابناء ذلك الجيل في أقسى الظروف التي عرفهـا السودان تحت نير الاستعمار ٠

طوبى لابناء هذا الجيل وهم يتلقون العلم وعلم الحرية يخفق فوقهم٠٠ وهم ينتقلون بين معاهد العلم في شتى انحاء العالم اينما اتيحت لهـم الفرص دون صد او تنكيل ٠

طوبى لهم !٠٠ فقد باعد الزمن بينهم وبين تلك الفترة القاسية المريرة عندما كان الاستعمار يهيمن على هذه البلاد وينشر بين ربوعها جوا مخيفا من الارهاب والكبت والرعب !

ولا يتيح فرص التعليم الا في الحدود الضيقة التي أرادها ، فقد بنى سدا منيعا بين طلبة الكلية وبين التطلع الى معاهد العلم خارج السودان والى مصر بالذات التي كانت قلوبهم تهفو اليها بحكم الجوار ووحدة اللغة والدين والمشاعر وما نالته من تقدم فكري وحضاري ، فقـد كانت بحق قبلة آمالهم جميعا ٠

ولكم جزع الانجليز وثاروا ثورة عنيفة عندما اخترق هذا السد لاول مرة طالبان سودانيان جسوران هربا الى مصر في منتصف العشرينات ليلتحقا بمدارسها ، فحرموا عليهم العودة للسودان ، ومنعوا اهلهما وذويهما من امدادهما باي عون مادي وأقاموا من حولهم العيون لترصد ان كانوا يرسلون بطريقة ما اي عون مادي لاولئك الذين اخترقوا السد وهربوا لمصر لتلقي العلم !.. وتلك هي جريمتهم الشنعاء التي أثارت المستعمرين وجعلتهم يقفون منهم ومن اهلهم هذا الموقف الصارم خوفا من ان يحذو حذوهم اخرون من الطلبة ... وأحكموا الرقابة على السد حتى لا يخترقه طالب جسور آخر !.. ولقد اخترقه الطلبة الجسورون مرات ومرات ، ثم اشتد ضغط الشعب باسره عليه عندما شمله الوعي وعزم عـلى استرداد حريته حتى لم يبقى للسد وبناته المستعمرين من أثر !

لو قيل لي ولابناء جيلي في العشرينات والثلاثينات اننا بعد ثلاثين عاما فقط سنطرد الانجليز من بلادنا وننعم بالحرية كاملة شاملة ، لعددنا ذلك حلما عذبا ومطلبا عسير المنال . ولكن المعجزة قد تحققت ، ولن يدرك أبناء هذا الجيل انها معجزة حققها هذا الشعب الابي ، الا اذا فتحت له صفحات ذلك التاريخ الاسود في تلك الفترة الرهيبة ورأى من خلالها كيف لقـي ابناء الجيل السابق من عنت وقسوة في اولى محاولاتهم لنشر الوعي .

في عام ١٩٢٨، وقد قضت اربع سنوات فقط على ثورة١٩٢٤ والانجليز ثائرون على الطبقة المتعلمة ــ على قلتهاــبوصفها هي المحرك والمنفذ لتلك الثورة كان طلبة كلية غردون يجلسون في غرف الدراسة ، وقد قسموا ــ على قلة اعدادهم الى اقسام وفق الوظائف التي سيتخرجون لملئها فيمكاتب الحكومة .

كان بعض الطلبة قد تمكنوا من اختراق السد الحديدي كما ذكرت وهربوا الى مصر منتهزين فترة العطلات المدرسية ذات الاربعة اشهر ...

وكان على الكلية مدير استعماري بغيض اسمه يودال ... وكان لا يفتأ دائما يتحدث عن الطلبة الهاربين شاتما ولاعنا ومحذرا من الاقتداء بهم مذكرا بسوء المصير الذي ينتظر الهاربين !

في هذا الجو كان يجلس بين تلاميــذ السنة الثالثة « قسم القضاء الشرعي » ولم يكن هناك قسم للحقوق لتخريج قضاة مدنيين اذ ان هذه الوظيفة كانت محتكرة للقضاة الانجليز وحدهم ، كان يجلس في السنة الثالثة قضاة طالب اسمه علي كباشي من ابناء منطقة مركز ابو زيد ... وكما ذكرت وكان الطلبة يتحرقون شوقا لمصر طلبا للعلم في معاهدها بعد ان رأوا ان الكلية لا تقدم لهم تعليما يذكر ، وكانوا ينظرون في تقدير واعجاب للعدد القليل الذي تمكن من الهرب لمصر مخترقا الستار الحديدي المضروب عليهم ويرون فيهم ابطالا مثالين ... وكان علي كباشي متأثرا بهذا الشعور السائد ، كان ينظم الشعر وهي الهواية الادبية التي كــان يمارسها اكثر الطلبة .

وذات يوم خطر له ان يعبر عن مشاعره هذه في ابيــات من الشعر ، يحملها شوقه الى الشمال « مصر » وان يحيي فيها اخوانه الابطال الذين هربوا والتحقوا بمدارس القاهرة ... واستطاع ان ينظم عــدة ابيات حملها هذه المشاعر .

كانت هناك في القاهرة في تلك الفترة مجلتــان ادبيتان يتهافت على الاطلاع عليهما كل مثقفي العربية ، احدى المجلتين «السياسة الاسبوعية» التي كان يصدرها حزب الاحرار الدستوريين المناوىء لحــزب الوفــد المصري ويشرف على تحريرها الكاتب المصري المقتدر المغفور له محمد حسين هيكل صاحب التأليف المعروف ومنها كتابه « حياة محمد » الذي كان عند صدوره موضع اهتمام وتقدير كل قراء العربية ، وصاحب قصة « زينب » التي تعد اول محاولة جادة للقصة المصرية الطويلة ... والمجلة

الثانية « البلاغ الاسبوعي » وكان يصدرها حزب الوفد المصري وكان من بين كتاب السياسة الاسبوعية اللامعين الدكتور طه حسين وكان في اوج شبابه ونشاطه كما كان من المع كتاب البلاغ الكاتب الشاعر – عباس محمود العقاد – وكان العقاد كاتب الوفد الاول .

وكنا ككل الشباب العربي المتعلم نرقب في شوق وصول هاتين المجلتين لنشتريهما ونقرأهما سرا ، فقد كان محرما علينا في الكلية قراءة الصحف المصرية ، ومن يعثر عنده على صحيفة مصرية يعاقب عقابا صارما ... الى هذا المدى كانوا يحاربون الثقافة العربية ممثلة في صحافة القاهرة التي تحمل مشعل تلك الثقافة ، ولم تكن في السودان غير جريدة واحدة هي « حضارة السودان » وهي جريدة الحكومة الرسمية وان كانت تحمل اسماء السادة الثلاثة السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي كأصحاب امتياز لها – وهي الجريدة الوحيدة المسموح للطلبة بقراءتها علنا !

ولكننا كنا نتخذ الوانا من الحيل لنحصل على السياسة الاسبوعية والبلاغ الاسبوعي حال وصولهما للخرطوم يحملهما القطار مرتين في الاسبوع ولم تكن هناك طائرات للسفر والنقل بعد .

وخطر للطالب علي كباشي ان يرسل قصيدته تلك لمجلة البلاغ الاسبوعي لنشرها في باب « ديوان الشعر » الذي تفرد له مكانا خاصا بين صفحاتها ... ولم يكن يدور بخلده ان قصيدته ستحظى بالنشر وانه سيترتب على هذا النشر النتائج السيئة التي حدثت فيما بعد .

ونشرت المجلة القصيدة ... واستطاع مكتب حكومة السودان في مصر – وهو مكتب يختار له دائما احد الانجليز الذين عملوا بالادارة في السودان – فعرفوه جيدا – ان يتصل بادارة المخابرات في الخرطوم ويحمل اليها انباء هذه القصيدة السياسية ، فقد كان من اولى مهامه ان يراقب

النشاط السياسي للسودانيين في كل المجالات لحصره وتوقيع العقوبات الصارمة على مرتكبيه !

وقبيل وصول القطار الذي يحمل الصحف ... جاء رجال المخابرات الى الكلية ليفتشوا عن كلي كباشي بعد ان أخطروا المدير المستر يودال بهذا الحدث الضخم ... وعرف الطالب وهم يتقدمون نحوه في الداخلية بانه سيفتش وبسرعة قذف باصول القصيدة الى طالب آخر كان بجانبه ، وشعر هذا بخطورة ما يحمل كأن الورقة ثعبان سام يتلوى بـين يديه وليس قرطاسا من الورق ! فسارع الى غرفة مجاورة في الداخلية .

لم يجد جنود التفتيش شيئا عنـد علي كباشي فتركوه وانصرفوا لينتظروا في الغد وصول مجلة البـلاغ الاسبوعي وهي تحمل « جسم الجريمة » كما يقولون لينكلوا به كما يشاؤون .

وفي منتصف النهار والطلبـة جلسوا على مقاعدهم يستعدون الى مدرسيهم وفي السنة الثالثة قضاة كان يجلس ثمانية طلبة هم كل طلبـة الفرقة ... جاء رسول مدير الكلية المستر يودال الى الفرقة ليستدعي علي كباشي للمثول بين يديه .

قطار حلفا يتهادى داخلا محطة الخرطوم ، ولا يدري احد من راكبيه ان القطار يحمل كارثة تحل بطالب في السنة الثالثة بقسم القضاة الشرعيين ولم يبق غير عام ونصف ليتخرج في وظيفة مساعد قاضي شرعي كبداية لمستقبله .

وجاء رجال المخابرات مسرعين بعد ان حملت اكياس البريد من القطار الى مكاتب البريد ليفحصوا اكياس الصحف المصرية ، وامتدت ايديهم الى مجلة « البلاغ الاسبوعي » ووقعت أعينهم على قصيدة علي كباشي ... واسرعوا بها الى المستر يودال مدير الكلية ووضعوها بين يديه ... وتحدث دهاقنة الاستعمار من مكتب السكرتير الاداري « ما يعادل وزير

الداخلية الآن » بالتليفون الـى المستر يودال منددين بمسلك الطالب مهاجمين ادارة الكلية على تهاونها في مراقبة الطلبة وتخويفهم من الاتجاه نحو الشمال !..

الطالب عـلي كباشي يسير نحو مكتب مدير الكلية المستر يودال وبجانبه حارسه الصول فضل المولى الضخم الذي يخافه الطلبة ويسخرون منه في آن واحد ! فهو الذي يتولى توقيع عقوبات الجلد عـلى التلاميذ « بالتيله » وكان يوقعها في قسوة وعنف .

الطلبة في الاقسام منهمكين في الدروس ، ولا علم لهم بما يدور حتى الآن ... الطالب علي كباشي يقف امام المستر يودال الذي يحدق النظر فيه مبديا احتقاره وسخطه ، ثم ينهال عليه بسيل من الشتائم ، يعقبها باعلان قراره بفصله من الكلية فصلا نهائيا ! وترحيله في نفس اليوم بالقطار الى اهله في كردفان !.. ويهم الطالب بالخروج ، فينهره ويأمره بالوقوف ... ثم يأمر الصول باخذه ليسجن في الغرفة العليا من مباني الكلية حتى يحين موعد أخذه للقطار بمحطة الخرطوم ...

يساق الطالب في حراسة ليسجن حيث أمر يودال ... وينتشر الخبر رويدا رويدا بين الطلبة ... ولكن ماذا يفعلون غير ابداء الاسى والاسف؟ ويتجهون بانظارهم الى الغرفة في أعلى مبنى الكلية التي سجن فيها زميلهم ولا يستطيعون الاقتراب منها ... فقد كان ذلك محرما عليهم .

ويعلن الى كل الطلبة ان يتجمعوا في الميدان ليستمعوا الـى المدير وتجمعوا ، وجاء المستر يودال محتنق الوجه ، وبادي الثورة والغضب ، ثم أخذ يخطب ــ استغفر الله ــ بل اخذ يشتم !..

شتم أولئك الذين هربوا الى مصر ووصفهم بناكري الجميل ... الجميل الذي قدمه لهم الانجليز فعلموهم ، والى اهلهم فأمنوهم مـن خوف ! وتوجه الى الطلبة ايضا ببعض الشتائم ، ذاكرا افضال الانجليز

العميمة عليهم وعلى بلادهم ! وانهم لا يستحقونها ، وقدم قصة علي كباشي في الاطار الاستعماري الذي أراده ، وكلما ذكر اسمه شفعه باقذر الشتائم التي لا يرددها غير السوقة .

وبعد ان شتم الطلبة ، وشتم علي كباشي ، وأولئك الذين في مصر بما أرضى غروره واشبع حقده ، سمح للطلبة بالانصراف، الى الداخليات .

قطار الابيض يسير نحو الغرب يحمل الطالب علي كباشي محروسا بالجند ... وقد ظن المسكين ان طرده من الكلية هو العقاب الوحيد الذي سيحل به — على قسوته عليه وعلى اسرته التي تعلق آمالا عراضا على توظفه بعد اكمال الدراسة ، وهي في هذا لا تختلف عن كل الاسر السودانية التي أرسلت أبناءها للكلية التماسا للوظيفة . ومن الابيض ارسل الطالب الى مركز « ابو زيد » مخفورا حيث أرسلت التعليمات الى مفتش المركز ليحاكمه ...

وامام المفتش ، وفي دكتاتورية غاشمة ، كان سمات كل رجال الادارة الانجليز في ذلك العهد ، حوكم علي كباشي بستة اشهر سجنا في الدرجة الثالثة مع حثالة المجرمين !

وقضى المسكين اشهر السجن ليجد نفسه بعدها محاربا في كل وجهة يتجه اليها ليعمل ... كعادة الانجليز في ذلك العهد حيال كل من يقف امام سياستهم ...

وهذه هي ابيات الشعر التي أثارت الانجليز ، وانتم ترونها ابيات عادية المعنى ولكن الانجليز أرادوا بهذا العقاب الصارم ان يخيفوا الطلبة فلا يتشوقون الى مصر واخوانهم الذين هربوا اليها التماسا للعلم كما كان الحديث عن الحرية بالنسبة لهم جريمة نكراء ... يقول علي كباشي :

قفي ورقاء الشمال فحدثينا   فمثلك من روى الاخبار فينا

فجودي لنــا باوصاف وحال ... وعن اخواننا الخبر اليقينــا
أولئك فتية بذلوا قصارى ... جهودهم وقد بذلوا الثمينا
ليحيوا امــة من بعــد موت ... ويحيوا همــة العرفان فينا
ألم تروا الشعوب وقد تبارت ... وفي طرق التقدم سالكينــا
وقــد عاش الجميع بلا قيود ... وذاقــوا لــذة المتحررينــا
وانــا لا نزال عــلى قيــود ... نعاني تحت حكــم الغاصبينــا
فحسبك ان اوطاني تنــادي ... باعلى صوتهــا ــ يا منقذينــا

يا له من رعب كان يعيش فيه المستمرون ، وهل في هــذه الابيات العادية ما يؤدي الى قسوة العقوبة على هذا الطالب من طرد من الكلية والسجن مع حثالة المجرمين ستة أشهر ؟! لولاء الرعب الذي أخفوه تحت ستار القسوة والجبروت ؟!

رجل من جزيرة توتي

توتـــي ...

جزيرة توتي ، مدينة صغيرة يفصلها النيل الازرق عن مدينة الخرطوم، ويلفها هذا النيل بذراعيه ، وقد يقسو عليها فيحاول اغراقها عندما يثور ويطغى وتعلو مياهه بفعل الامطار التي تهطل غزيرة في فصل الخريف ... ولكن اهل توتي الذين عرفوا بالشجاعة الخارقة يقاومون طغيان النيل في بسالة فذة ... انهم ينفرون الى شواطيء الجزيرة رجـالا ونساء ، شيبا وشبابا ليقيموا عليها السدود ، ويدخلوا في معركة قاسية مع الطبيعة ، فالنيل يرعد ويزبد في فيضانه ثائرا يهجم على السد الترابي ويفتح فيه ثغرات محاولا ابتلاع المدينة الصغيرة مثلما فعل بعشرات القرى والمدن التي تقع على شطئانه ابان طغيانه ... ويسرع اهل توتي الى الثغرات التي احدثها النيل في السد وينهالون عليها ردما ، وهكذا يدور الصراع المرير لايام عديدة ... النيل يثور ويهجم على السد كوحش ضار يريد الفتك بفريسته ، ويبدو له انه اوشك على الانتصار عندما يحدث ثغرات هنا وهناك ولكن اهالي توتي الشجعان سرعان ما يقلبون نصره الى هزيمة، ويسدون الثغرات في الحال ... ويبقون هكذا اياما عديدة يصلون الليل بالنهار حتى يصيب النيل الاعياء وتنحسر موجة طغيانه فيرتد عن شطآن توتي رويدا رويدا كبطل أثخن بالجراح في معركة عنيفة .

لقد صار موقف توتي البطولي كلما طغى النيل وهم بابتلاعها ، أغنية عذبة على شفاه سكان النيل كله !

وبمثل هذه الشجاعة ، بل باشد منها واكثر عنفا كان اهل توتي يجاوبون طغيان المستعمرين ، وكم لهم من مواقف ضد دهاقنة الاستعمار في الخرطوم الذين كانوا يتحرقون شوقا للاستيلاء على الجزيرة لحسن موقعها ــ واجلاء سكانها عنها ليبنوا في مكانها مدينة سياحية تجذب دعاة اللهو والمرح في شتى انحاء العالم .

لنعد بالذاكرة الى عام ١٩٣١ ، والانجليز يضيقون الخناق على المواطنين ويشيعون جوا من الارهاب وينكلون بكل من تسول له نفسه الوقوف امام سياستهم معارضا .

كان من عادة المفتشين الانجليز حكام المقاطعات ان يخرجوا صباح ايام معروفة من كل اسبوع في موكب رسمي على ظهور الخيل ومعهم مساعدوهم من الاداريين والمواطنين وعمدة المدينة ومشايخ الاحياء وعدد من الجنود لمضاعفة هيبة الموكب الرسمي ... وعلى كل شخص يمر بــه هذا الموكب ان ينهض واقفا ان كان جالسا ، وان يترجل ان كان راكبا ويؤدي التحية للمفتش ، ويظل واقفا رافعا يده بالتحية حتى يبتعد عنه الموكب ، فيعود الى ما كان عليه وويل للذي يتجاهل ركب المفتش فلا يقف محييا ، فان السيد المفتش يصليه الوانا من العقاب ، يبدأها اولا بسبه وتحقيره بالفاظ مهينة ، ثم يأمر الجنود بالقاء القبض عليه وايداعه السجن ، وقــد يظل المسكين في السجن اياما دون ان يسأل عنه ، وقد يطلق سراحه بعد ان يحاكمه بالجلد بالسياط او بالغرامة او بكليهما ! كل هذا لانه لــم يقف اجلالا للسيد المفتش الحاكم الانجليزي .

وبعض المفتشين يصدر في مثل هذه الحالات محاكمات غريبة ، كهذا الذي حدث لشيخ كبير باغته ركب السيد المفتش ، فلم يتوقف عن السير

ولم يؤد التحية المعروفة ايذانا بالخضوع والولاء ، فثار المفتش الطاغية وكبر عليه ان يتجاهله ذلك الشيخ ، فامر الجند ان يلقوا عليه القبض ففعلوا ، فوضع المفتش حجرا على الارض حيث كان يقف هو ، وأمر احد الجنود ان يضع حجرا اخر بعيداً عنه ، ثم أمر ذلك الشيخ المنكود ان يجري ساعيا بين الحجرتين ، وعليه كلما بلغ الحجر الذي وضع حيث كان يقف المفتش ، ان يقف ويرفع يده بالتحية كما لو كان المفتش في ذلك المكان !.. ثم يعاود الجري الى الحجر الاخر ليبدأ مرحلة جديدة لتحية حجر المفتش !.. وأوقف احد الجنود حارسا للرجل وهو يجري بين الحجرين،ويحيي حجر المفتش كلما دنا منه ! وذهب المفتش وركبه ، وبقي الرجل يجري حتى خارت قدماه وسقط على الارض اعياء ... ولم تشفع له شيخوخته عند ذلك الفتى الانجليزي الامرد خريج جامعة اكسفورد، الذي أبطره الحكم ولقنه زملاؤه المستعمرون دروسا في اذلال الانسان لم يسمع بهـا في جامعته !

« مستر بن » مفتش مركز الخرطوم بحري ، الشاب الانجليزي المزهو بمنصبه والذي تتبعه جزيرة توتي الباسلة ، يخرج في مـوكب الصبـاح المعتاد ، ليذل الناس ويشبع كبرياءه وغروره ، يتظاهر بحب النظام وحمل الناس على اتباع القوانين فاذا ما وجد مخالفة يسيرة تافهة ، أرغى وأزبد، وهدد وتوعد ونكل ، والذين معه في موكبـه لا يعترضون له أمرا ولا يخالفون له قولا .

ومن جزيرة توتي خرج الشيخ « علي محمد ضو » على حمار أعرج وقد حمّله بضعة مقاطف مليئة بخضروات مزرعته ليبيعها في سوق الخرطوم بحري ، وكانت هذه وسيلة رزقه في الحياة يمارسها يوميا .

الزمان عام ١٩٣١

ركب « المستر بن » يمر بشوارع سوق المدينة باحثا عن المخالفات

لمعاقبة مرتكبيها بل لاذلالهم ليتمتــع السيد المفتش بقدرته على التنكيل وليعمق في نفوس الناس الخوف من سطوته وجبروته •

الشيخ « علي محمد ضو » على حماره الظالع ، وعلى جانبيه تدلت مقاطف الخضروات وهو يمني نفسه ببيع ما يحمل والعودة لاسرته بقدر من مطالب العيش •

ركب « المستر بن » يقترب منه •• « مستر بن » يمعن النظــر في الحمار وهو يعرج بحمله والشيخ عليه •• يا لها من قسوة !•• وتتملكه عاطفة غامرة واشفاقا على الحمار !•• يا لله !•• كيف يحدث هذا الاعتداء الشنيع على الحيوان الاعرج المسكين في دولته القائمة على ازالة الجــور عن الحيوان لا الانسان !•

وثار « مستر بن » وانتفض ، وفي سعار مجنــون هجم على الشيخ الذي كان يسير غافلا عن كل شيء حوله ، ولعله كان يحسب ماذا يجني اليوم ان باع كل ما يحمل من خضار ، وماذا يؤدي بما يجني من الواجبات لاسرته وهو عائد اليهم من السوق ؟•

ونزل مسرعا عن حماره لدى سماعه صيحات المفتش الثائر المهتاج : وسمعه يهدر قائلا : كيف تجرؤ أيها المجرم على ركوب هذا الحمار الاعرج وأن تحمّل عليه كل هذه المقاطف ؟!••

وقف ركب المفتش بجانبه ، وكلهم صامت حائر ، وقد يكون منهم من ثار في دخيلة نفسه وانفعل ، ولكنه لا بد من أن يكظم غيظه و لايبديه خوفا من أن ينكل به المفتش ، وأقل ما يفعله أن يفقــده وظيفته في زمن كانت وظيفة الحكومة مورد الرزق الوحيد الذي يتهافت عليه الناس ، وطوبى لمن يحظى بها !•

وقف الشيخ بجانب حماره يتلقى وابلا من شتائم المفتش وتقريعــه اشفاقا على الحمار المظلوم !•

ولم يشبع غرور المفتش وحاجته للبطش بالناس الذين ألقاهم القدر تحت سيطرته سيل الاقذار الذي صبه على الرجل الشيخ ، بل اتجه تفكيره الى تصرف شاذ غريب لم يسمع به أحد من قبل على كثرة التصرفات الشاذة التي يقوم بها الحكام المأفونون ..

أمر أحد الجنود الذين كانوا يرافقونه أن يرفع السرج عن ظهر الحمار وينزل عنه مقاطف الخضر ، وأن يضع السرج على ظهر الرجل ــ الشيخ علي محمد ضو ــ وأن يضع المقاطف على ظهره أيضا كما كانت على ظهر الحمار تماما ! أي أن يحمل الشيخ ما كان يحمله الحمار نكاية وعقابا واذلالا !

وذهل الموجودون ، لقد نفرت نفوسهم من هذا الحكم الشاذ ، ولكن السيد المفتش لا رد لحكمه .. ويتقدم الجندي لتنفيذ الامر .

ولكن الشيخ الابي ، ابن توتي الباسلة ، يعلن للمفتش رفضه للحكم ويحدجه بنظرات قاسية تجسد فيها كل غضبه ومقته ، وكرامته وعزته ، ويقف أمامه متحديا في شموخ وشمم .

ويثير الموقف فضول الناس الذين أخذوا يتدافعون ليعرفوا ماذا حدث ، وفيم ثورة المفتش ؟

ويحتدم غضب المفتش ، فيحاول أن يضرب الشيخ بسوط في يده اذ كان يمتطي حصانا ، فقد كبر عليه موقفه ، ولكنه سمع في هذه الآونة همهمة ترتفع الى هدير صاخب من الجمهور الذي أحاط به ، لقد تملك الناس المجتمعون صولة الغضب وهم يرون المفتش يريد اذلال الشيخ بأن يسرجه ويحمله مقاطف الخضر بدلا من الحمار ، ويهم بضربه بالسوط .. ويتبين المفتش الشر باديا على الوجوه .

وأحس المفتش بخطورة ما يحدث حوله وقد كثر تجمع الناس واستبان الغضب والثورة على وجوههم ، وقد أكبروا في الشيخ اباءه ورفضه للحكم

في شجاعة، وتحديه للمفتش الذي لم يعهد تحدي احكامه من أحد من قبل.

عجل « المستر بن » بالتحرك من مكانه خوفا من انفجار مشاعر الغضب وأمر الجنود بالقاء القبض على الرجل وايداعه السجن ، وارسال الحمار للطبيب البيطري ليرعاه !!

واقتيد الرجل الى السجن .. وازداد تجمهر الناس وسرعان ما نقل الخبر الى أهل توتي الاشاوس ، وما كان أروع ما فعلوا ، تدفقت جموعهم كالسيل الهادر ، وأحاطت بالسجن تطالب باطلاق سراح الرجل ، وطوق بعضهم المركز حيث يجلس المفتش في مكتبه ، وشملت المدينة ثورة لم تشهدها من قبل منذ ثورة عام ١٩٢٤ .

وتوالت البرقيات المستعجلة تحمل الاحتجاج والغضب الى حاكم السودان العام ، والى كبار معاونيه ـ كالسكرتير الاداري والقضائي ومدير المديرية ، وعلم هؤلاء بثورة الجماهير في الخرطوم بحري ... وأوشك الناس أن يفتكوا بالمفتش لولا ان تدخل أحد الشيوخ الاجلاء وهو عمدة توتي المغفور له الشيخ أحمد ابراهيم ، فهدأ من الموقف الجماهيري قليلا وأسرع واتصل بكبار المسئولين ليطلقوا سراح الرجل في الحال .

وأصدر السكرتير القضائي أمره باخراج الرجل من السجن الذي كانت تحاصره جموع شعب توتي وبحري ، وتسلمته الجماهير الهادرة وعادت به منتصرة الى جزيرة توتي ، بعد ان أذلت كبرياء « المستر بن » الشاب الانجليزي المغرور الذي أراد أن يعامل الانسان بأدنى مما يعامل به الحيوان .

وشعر رؤساؤه الكبار بأن تصرفه أوشك أن يحدث لهم ثورة عنيفة ما كان أغناهم عن حدوثها ، فنقلوه في نفس الوقت الى مدينة أخرى وقد تلقى درسا قاسيا ، وصفع شعب توتي غروره وكبرياءه صفعة عنيفة ردته الى صوابه ان كان له صواب !

فن كبوشيه يغزو العاصمة الوطنية

أوليس للفن في هذه الذكريات عن مجتمع الثلاثينيات ؟ بلى ان له مكانا عظيما فقد ازدهرت الاغنية السودانية في عهد الثلاثينات ازدهارا عظيما ، وضاعف في ازدهارها وانتشارها هذا الفنغراف أعجوبـة تلك الفترة الذي أخذ ينشر في المقاهي والمنازل ويدخل القرى النائية مع الجلابة والموظفين مثلما انتشر الراديو الآن وقد تسابقت شركات تسجيل الاسطوانات في عقد الاتفاقيات المغرية مع كبار المطربين أمثال ود الماحي وكرومه وسرور والامين برهان وابراهيم عبد الجليل وشقيقه التوم وعلي الشايقي وعمر البنا وأولاد بري وأولاد شمبات وحدباي وغيرهم ... ولكن قبل أن نتحدث عن ازدهار الاغنية في الثلاثينات علينا ان نرجع الى الوراء سنوات وسنوات لنقف عند جذور هذا التطور ونتتبع نموه حتى نبلغ به هذه الفترة ...

جلست الى هذا الشيخ الوقـور الذي تمرست باستثارة أشجانـه وكشف أغوار نفسه في كتابي الملامح ؟ وهو يحدجني بنظره من فـوق عويناته وأنا أنثر أوراقي أمامه وأتهيأ للكتابة وعلى فمي ابتسامة أحاول اخفاءها جاهدا فهكذا عهدت نظرته الحادة هذه كلما جذبته للحديث عن ذكرياته .

قلت له : عد بنا الى عهد صباكم الباكر ، ولنعش لحظات في أجواء الغناء والطرب فترة بعد فترة لنعرف كيف بلغت الاغنية هذا المستـوى

الرفيع في الثلاثينات ، عهد الفنغراف الذي نقلها الىأكثر بقاع السودان.

وحدق في الفضاء مليا قبل ان يتكلم ، كأنما يحاول تصعيد صــور اندست في اغوار الماضي البعيد ثم انطلق صوته فيما يشبه الهمس وهو يقول :

بعد فترة المهدية ، وبعد ان استقرت الحياة في المدن ، وكانت أمدرمان كما هي اليوم العاصمة الوطنية التي تحمل مشعل التقدم في كل مجال لا تعرف حفلات الاعراس فيها غير نغمات الطنبور منبعثة من حناجـــر فنانين تخصصوا في هذا النوع من الاداء ، يدعون الى كل حفل عرس يرقص البنات على كرير حناجرهم والذي يبعث أصواتا من الصدر منغمة ولا تحتــوي على أي نوع من الكلمات ، وأحيانا كانوا يصحبون هذا الكرير بكلمات منغمة من بقايا ما كان يتغنى به في عهد (التركية) قبل المهدية وظل متصلا في فترة المهدية ..

وكانت من أشهر أغاني التركية التي ما زال مجتمع أول عهد الحكم الثنائي يغنيها مع الطنبور ، أغنيــة ينسبها للشاعــر « ود مضوي » من العليفون يقول في مطلعها :

الروبانــه كــد سحابــه
حلــوه ولينــه قامــت دابــه
فاهــا يشبــه العنابــه
فهــا حالــي حــال اليانــه

وكان أشعر طنابرة تلك الفترة فتيان من أم درمان هما : الجقير ، حسن التوم ، وصمت قليلا يستجمع ذكرياته ، وأنا أعبث بالاوراق وأحط عليها بعض الكلمات من غير انتظام ، وتركته يتحدث على سجيته ، حتى لا ينفرط عقد ذكرياته ... وعاد صوته يهمس من جديد :

كان شعراء تلك الفترة يقتصرون على انشاء الدوبيت أو الدوباي

ويتبارون في انشائه وانشاده ويعبرون فيه عن تجاربهم الذاتية ، ولا شيء سوى الدوبيت •

وفي حوالي عام ١٩٠٠ جاء الى الخرطوم من كبوشية فتى أنيق وسيم وسامته تلفت الانظار ، أسمر اللون ، على خديه وشمان صغيران « درب طير » تضاعفان من وسامته على مفهوم الوسامة آنذاك ، مربوع القامة ، ليس بالبدين ولا الهزيل يلبس قميصا يتدلى الى ما بعد الركبتين قليلا ويتلفع بثوب تدلت في أطرافه خيوط دقيقة « مبرومة » مبالغة في الاناقة، ملابسه دائما نظيفة بيضاء ، مهذب ، حلو الحديث ، رقيق الطبع ، شديد الحياء في غير تصنع ولا غرو فوالده من رجال الدين والعلم المعروفين في منطقة كبوشية ومن حملة القرآن الذين يفد اليهم الطلاب من أماكن بعيدة ليحفظوا عليه القرآن ويدرسوا العلم ، وقد تلقى هذا الفتى الوسيم الانيق القرآن وقدرا من العلم من خلوة والده ثم عشق الغناء واذ كان يتمتع بصوت رائع يأخذ بمجامع القلوب • واسم هذا الفتى « ود الفكي » ••• جاء الى أم درمان يحمل فنا جديدا وصوتا أخاذا ، متحملا في سبيل ذلك نقمة والده الذي كبر عليه ان يسمع ان ابنه صار مغنيا ••• رغم انه يزاول مهنة بيع الخضار في سوق الخرطوم ، فما كان الغناء يومها وسيلة للرزق بل كان المغني يقف حتى عن تناول الطعام اذ ما دعي لبيت عرس ليغني •••

قلت لمحدثي ، عهدي بالعاصمة المثلثة ان تكون دائما مبعث كل نهضة جديدة ، ولكن اليوم اعلم ان أسس النهضة الفنيـة جاءت للعاصمة من الاقاليم بل من كبوشية وعلى يد ود الفكي •••

قال نعم •• فقد كان ود الفكي ، اذا ما دعي لحفل عرس ترقص فيه الفتيات جلس على كرسي ، او على طـرف السريـر الذي يجلس عليـه الطنابرة ، وقد اختار مجموعة خاصة منهم تلازمه في هذه الحفلات أذكر

منهم (الجوخ) رحمه الله وهو من شبان أم درمـان وكذلك المرحوم محمد ود حامد من حي القلعة ، والصديق بابليك .

ويبدأ ود الفكي في قرع عصوين صغيرين يحملهما في يديه ، والناس صامتون من حوله ارتقابا لسماع صوته الحلو يغني ، وقد جلست الفتيات على حصائر فرش على الارض ووجوههن متجهة الى جدار الحصيرة ، فقد كان من سوء الادب أن يتجهن بوجوههن الى حيث يجلس الرجال .. وان كن يسترقن النظر في غفلة الرجال عندما تتعلـق أبصارهم بالفتـاة الراقصة ــ الى المغنين ...

وعلى توقيع نقرات العصوين اللتين تديرهما في براعة أنامل الفنان « ود الفكي » ينبعث صوته رائعا يغني الرمية لرقصة (التقيل) التي تبدأ بها الراقصة التي يختارها العريس من بين الفتيات الجالسات على الحصير ، وكان هذا الاسلوب من الاداء الذي جـاء به ود الفكي من كبوشية ، جديدا على مجتمع أم درمان والعاصمة المثلثة ... فقد كان الرقص يؤدى على كرير الطنبور دون غناء يسبقه بهذه الصورة التي حملها معه ود الفكي من (السافل) .

قال وصوته يتهدج ، الا اسمعك بعض ما كان يغنينا ود الفكي آنذاك ونحن نكاد نحفظه بأبصارنا وقلوبنـا رجالا ونساء نحقق مع كل كلمة يغنيها بذلك الصوت الذي غلب ألبابنا بروعته ... قلت : لم تعد ما في نفس ، فقد أوشكت أن أطلب منك ذلك ... واندفع ينشره متمثلا راويه ود الفكي التي أخذها عنه الفنانون من بعده في هذه (الرميات) التي تسبق أكثر أغاني الحقيبة :

عشبة البانا الماحت أغصانا
في جوفي ... واجه ... نيرانا
نفس ... جيانـا

من صوارم عشبة البانا
حادة هنديها وسانة سنانا
من سهام العين أين ملجانا
ملكــة اعوانــا ....
الخواص والعوام يخشو من شانا
خيالها حيانا ....
من فروع المسك فاح جانا
اتبه منه أفكاري ذهلانا
مترف جسمك وضعه اعيانا
وزهرة الورد المروي بستانا
العشوق روحه تعبانا ...
خلي من البين لاذعه تعبانا
يا كريم اكتب ليمه ويانا

قلت له : لمن هذه الكلمات التي كان يؤديها ود الفكي .. قال انها لشاعر ينتمي أيضا لقرية كبوشية اسمه حسن سالم، كان من أشعر شعراء تلك المنطقة من انه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، كان يعمــل في صناعــة سروج الجمال وكان ود الفكي يردد أغانيه وربما سر اعجابه به انهما من موطن واحد وان كان يغني لغيره أحيانا ... كان ود الفكي اذا ما غنى أغنية تبعه الطنابرة يكرون بحناجرهم كريرا منظما يتخلله صوت ود الفكي صافيا رائعا يردد بعض كلمات الاغنية . والعصوان بين أنامله يقرعها على نغمات الطنبور محدثا بهذا أصواتا تتفق ونغماته وكرير الطنابرة، وللفتاةالتي ترقص على هذه النغمات الدور الاول من رقصتها ويسمونه (التقيل) وتؤديه مرتين ثم تجلس لتستمع مرة ثانية لود الفكي يستهل ورد قصة (الخفيف) بأغنية جديدة ، بذلك الصوت الذي اسر به قلوبنا فينشد :

روحي ملهوفة
اسمعوا وصوفة
بالنظر خلاي ستي كيوفة
نفسي يا نفسي انت مشغوفة
ارجعي وأمرك قالوا لا يشوفة
روحي عياها ...
النضير الدر من ثنياها
المسك عرفه ونشره من فاها
تأخذ الابصار ستي محياها
عني محجوبة
ابتلت عقلي بابتلا ايوبا
كادت أعضاي فرقها يذوبا
نعم للحازو الوهرة يحيوبا
السلام سيرة ...
يسري يسبق الطيرة
يوصلوا ويرضي وجهها النيرا
تقبله وتثني علينا بي غيرة

وفي هذه الحفلات الراقصة التي كان يغني فيها ود الفكي كان يتسابق الى حضورها شعراء تلك الفترة ، وهم في أعمار مختلفة ليستمعوا اليه ، وقد أخرجهم فنه الجديد عن صناعة الدوبيت التي كان شغلهم الشاغل ، كنا نرى بين شهود هذه الحفلات ابراهيم العبادي ، وكان دون العشرين بقليل ويوسف حسب الله الذي سمي سلطان العاشقين ـ وابو عثمان جقود ومحمد ود الرضي ومحمد علي بدري ـ وعمر محمد علي وغيرهم ممن صاروا فيما بعد أساطين نهضة الفن الغنائي وقد كان ود الفكي مدرستهم الاولى التي غيرت اتجاهاتهم الشعرية وجددت مفاهيمهم لها .

قلت وأنا أجمع أوراقي وقد انتهت جلستنا الاولى أرجو تتابع أحاديثك وسرد ذكرياتك فأنا في حاجة الى المزيد منها ، ولم يرد ، انما أخذ يحدق في الفضاء ولعله قد تراءت له صور الماضي بكل مباهجها وحرارة شبابها .

وأدرت في ذهني صورا في الماضي البعيد لهذا الفتى الوسيم الانيق ود الفكي يغزو العاصمة من كبوشية بصوته الساحر وترانيمه العذبة ويدخل فنا جديدا على مجتمع الطرب فتلتف حوله الارواح والقلوب ، وتتعلق به الحسان ، وتأبى عليه تربيته الدينية ان يستغل اعجاب الحسان به ليعبث بهن ويلهو ... كان فتى حييا حتى وهو يغني للبنات ليرقصن فقد حدث رفاقه انه كان قل ان يرفع بصره اليهن ... كان يغني وهو خفيض البصر ... وتعبث يداه بعصوين صغيرين ينقرهما مع بعضهما ليحدث بهذا القرع موسيقى ساذجة توائم اللحن الذي يغني به ... والفتيات قد جلسن على حصير (سباته) وقد أدرن ظهورهن للشبان الذين يحلقوا حول ود الفلكي والطنابرة ليستمعوا للغناء ويشاهدوا الرقص ... وما يكاد الفتيان يشغلون بمنظر الفتاة الراقصة حتى تبدأ الجالسات على الحصير مسارقتهم النظر وقد ستر طرف الثوب كل الوجوه الا هذه العيون التي يديرونها في سرعة خاطفة بتفحص الشبان كأنما ركبت أحداقها فوق زئبق ـ كما قال المتنبي ـ وتشجي وتسحر هذه المسارقة في النظرات الشبان فيغني شاديهم :

تسرق عيونه بشيش   والنار تقوم في قشيش
اصبح محنضل عيشي   افداك وانت تعيشي

وقد ارتدين ثياب من الحرير وغير الحرير مختلفة الالوان ، بعضهن وخاصة الشابات المتزوجات يرتدين (ثوب الزراق) وهو ثوب متواضع كان كثير الانتشار زهيد الثمن ولكن الشاعر المبدع ابراهيم العبادي جعله من الثياب الغالية حين وصف من ترتديه بقوله :

الحشمة في تـوب الزراق
حرقت قلوب الناس حراق

تزهون به وهذا يذكرنا بالشاعر القديم (الدارمي) عندما أعرض عن الدنيا وتنسك وترك فتشفع به احد أصدقائه التجار بالمدينة وقد جاء بثياب كثيرة مختلفة الالوان ليبيعها كلها فاشترتها النساء الا الاسود منها ورجاه ان يقول شيئا يجذب نساء المدينة لهـذه الثياب السوداء فأنشأ (الدرامي) أبياتا انتشرت بسرعة وقال في مطلعها :

قل للمليحـة في الخمـار الاسود
مـاذا فعلتـي براهب متعبـد

فأقبلت النساء على القماش الاسود الذي تركن أولا ليصنعنه (ولم يبق لصديقه منه شيء)

والعبادي هنا فعل ما فعله الدارمي بالامس فيجعل من (ثوب الزراق) حشمة للفتاة تحرق القلوب شغفا ٠

ولنتأمل هذه الراقصة التي نضت ثوب الزراق أو الحرير عن رأسها وجيدها وهي ترقص مع نغمات الطنبور وحذاء ود الفكي ماذا ترتدي من الحلى آنذاك ٠٠٠ فعلى شعر (الرأس) دوائر من الذهب ينظمها خيط من الحرير الاحمر ويسمون الحلية (الشريفي) وقد تدلت مـن خلف الشعر (جدلة) طويلة من الحرير الاحمر خالطت الشعر وهو يموج من خلفها تبعا لاهتزاز رأسها وجيدها وهي ترقص ٠٠٠ ومن الاذنين تدلى خرصان مستديران من الذهب الخالص ، وفي الانف تعلقت قطعة مستديرة من الذهب (الزمام) ارتبطت بها قطع تشبه الازهار تمتد من الانف حتى ترتبط بالاذن ويسمونها (الرشمة) وعلى العنق استدارت ٠٠٠ (التيلة) الذهبية تزينها الوان من السوميت الصغير ، وقد تتدلى من الجيد حتى الصدر (سبحة) من السوميت والكهرمان يرافقها (حجاب) من الجلد

والسبور الرقيقة لدفع (العين) الساحرة التي تصيب هذا المجال بسوء وفي المعصمين سواران من الفضة يجاورهما سواران اخران صنعا من سن الفيل (العاج) وقد تزاملهما حلية أخرى تدار حول المعصم رسوة من خرز أحمر مطعم بالذهب ، وفي آخر الساقين حجلان ضخمان من الفضة يصدر عنهما رنين شجي كلما احتك قدماها عن عمد ــ خــلال الرقص لتحدث هذا الرنين الذي يثير المشاهدين ، فيقفزون لحلقة الرقص طمعا في (شبال) من الراقصة قد يكون ثمنه عدة سياط يمزق ظهره (العريس) الذي لا يفارق السوط يده ... وقد يضع شرطا مسبقا للفتيان ألا ينزل لحلبة الرقص أي منهم ليأخذ الشبال الا اذا ضربه العريس عددا معينا من السياط ... وما أحبها وأعذبها على قلوبهم وهم يعرون ظهورهم امام الفتيات ، وسياط العريس تنهال عليهم وهم أرسى من الجبال قدما ليثبتوا لهن شجاعتهم قد يكون حجل الفتاة من الولي الاحمر ، بدلا من الفضة فيكون أكثر اثارة بمظهره الاحمر على ساقين مدحلجين سمراوين كما غنى لهذا الحجل سلطان العاشقين :

عقلي راح من لولي الحجول

ظل فتى كبوشية الاسمر الانيق يتربع وحده على عرش الغناء والطرب حتى قرابة عام ١٩١٨ وقد اختار له عددا من (الطنابرة) يسايرون الحانه واشتهروا بمرافقته في ليالي الاعراس الراقصة ولكنه لم يعد في تلك الفترة يتغنى لشعراء منطقة كبوشية وحدهم فان الجيل الناشيء من شبان شعراء العاصمة الذي كان يستمع اليه اولا في دهشة واعجاب أخذ ينشيء الاغاني ويصوغها متأثرا بما قدمه ود الفكي ، لقد زحف الى ميدان الجديد الفنية ابراهيم العبادي ، ومحمد ود الرضي ويوسف حسب الله سلطان العاشقين كما كانوا يسمونه ومحمد علي عثمان بــدري ، وعمر محمد علي وابو عثمان جقود وغيرهم ووجد ود الفكي في شعر هؤلاء الشبان ما أثرى لياليه الراقصة وضاعف من بهجتها وحيويتها ...

ومن الافق البعيد أطل وجه صبي صغير ساحر النغمات . كان يتغنى في عفوية وهو يخترق طرق أم درمان فيسترعي شدوه أسماع المارة ... وسمعه مرة الشاعر ابراهيم العبادي وهو يعبر الطريق فاخترق أذنيه صوت الصبي الصغير نديا ساحرا فتوقف يتابعه بكل حواسه، ثم استوقفه وسأله عن اسمه ... فاجاب محمد احمد سرور ... كان ذلك في غضون عام ١٩١٦ وفتن العبادي بصوت الصبي الناشيء ولقنه أبيات من الدوبيت ليتغنى بها ، وفرح الصبي بصحبة العبادي الشاعر الشاب الذي يغني له ود الفكي أمير الغناء والطرب آنذاك ...

وغاب سرور في الجزيرة لفترة وعاد الى أم درمان في عام ١٩١٨ وقد اشتد ساعده وصار أكثر شجاعة لمواجهة عالم الطرب والغناء .

وجلس سرور يغني في حلبات الرقص ... بنفس أسلوب ود الفكي يبدأ بأغنيات قصيرة (رميات) ثم يعقبه الطنابرة وقد كون فريقا منهم ، أسوة بود الفكي ... وصار شعراء أم درمان ــ ممن ذكرنا يمدونــه بقصائدهم التي ينظمونها على غرار أغاني منطقة كبوشية ، كما جاء بها ود الفكي . وصعد نجم سرور في ليالي الطرب ولفت اليه الانظار ، وأخذ نجم ود الفكي يخفت رويدا رويدا ليخلي مكانه للنجم المتألق الجديد . وحتى الآن فان طابع ود الفكي هو الذي كان يسود فن سرور وطنابرته وشعراء رغم ان أم درمان أخذت تنتزع قيادة الطرب من السافل فالمغني والشعراء والطنابرة كلهم أصبحوا عاصميين . الهدف وحدها هي التي لعبت الدور الاول لكي تنفصل الاغنيــة عن الطنبور ويؤدي الفتيــان الرقص على نغماتها دون حاجة الى طنابرة ... كان ذلك عام ١٩٢٠ في زواج التاجر المعروف بشير الشيخ في أم درمــان فقد تجمع الشبــان من الجنسين لاحياء حفلة رقص كالمتعارف آنذاك وجاء سرور وفي رفقته صديقه الفنان الامين برهان ، استعد سرور ليبدأ (رمياته ...) ويتبعه الطنابرة الذين سامروا في تلك الليلة على سرور وقرروا الا يطمبروا معه ،

لانه اختلف معهم في الطريق الذي يؤدي بها رمياته خلال الطنبور كان سرور ينزع للتجديد بطبعه ، وهم يريدونـــه ان يلتزم بالمتعارف آنذاك ... الفتيات جالسات على الحصير (السباته) في انتظار ابتداء الغناء والطنبور وأصدقاء العريس يملأون الدار ، وسرور حائر ماذا يفعل وقـــد أصر الطنابرة ألا يسايروه مكايدة منهم ...

وقف ابراهيم العبادي مرتجلا هذه الابيات مسجلا فيهـــا احتجاجه على موقف الطنابرة ، مستبدا بكرم العريس وأهله ...

جزاهم الله خير كل الحساب حسبولنا
جابولنا الكراسي وفي الوساع نصبولنا
من جهـــة الكرم كادوا ان يجبولنـــا
ما خلـــو لقاش الا الطنابرة ابولنـــا

وهنا طلب المجتمعون من سرور ان يغني لهم دون طنبور ، وغنى سرور وسانده الامين برهان وكانت مفاجأة سارة عندما قامت فتاة جريئة، ونفضت التوب وأخذت ترقص في رشاقة على نغمات سرور وبرهان ، دون طنبور وكان هذا اول حدث من نوعه وتتالت الفتيات يرقصن في تلـــك الليلة السامرة ، على نغمات سرور وبرهان وقد أبدعن أيما ابداع ، وكانت أغنية وقعت عليها اول بنت من كلمات العبادي مطلعها :

وقفت شيء عجيب في الدارة
وأسفرت اللثام عن الدارة
تتختل دلال وقدارة
وسهم ألحاظها ما بدارة
جان تتمايل المرجونة
نديان خدها الطربانا
زي الزهرة في ابانا

وفي تلك الليلة ولد عهد جديد لفن الغناء السوداني فقد خبر الطنبور في العاصمة الوطنية نهائيا ، وظل سرور طوال أيام ذلك العرس يغني مع زميله برهان والفتيات يرقصن على الحانه وصديقه برهان والمعجبون بهذا اللون الجديد يتزايدون ، ومن ثم صار هذا هو طابع ليالي الافراح ، وفي الليلة التالية ، تخليدا لذكرى العرس الذي أتاح للفـن السوداني ــ بفعل الصدفة انطلاقـة جديدة خلصته من اسار الطنبور ، تغنى سرور بقصيدة ابراهيم العبادي في زواج صديقه السيد بشير الشيخ ومنها :

حفلة بشير ما أعجبا
(بسرونا) أسفر حاجبا
لو نوهب الارواح جبا
ما ظن تقدم بي واجبا
السامة أزهار نوعت
أغصانها حين تصنوعت
طيب والقلوب اتلوعت
مما دانه وما وعت
كم فيها بانة ترتعت
من روح طبع ما تصنعت
ماذا عسى تحكي النعت
في ذي الغصون الا ينعت
ليله قدر ياما صوت
خيرات ، فراح اترون

ومن تلك الليالي التي فعل فيها ذلك العرس بشدو سرور وبرهان دون الاستعانة بالطنابرة ، اتجه فن الغناء وجهة جديدة قادها سرور ، وغذاها بكل مشاعره وطاقاته وتلاشى الطنبور شيئا فشيئا وارتفع مستوى الاغنية كلمات ولحنا واداء وبلغ أحسن ما بلغ في الثلاثينات .

حول رئاسة نادي الخريجين بام درمان

يقينا ان الجيل الحالي والاجيال القادمة لن يدركوا تماما مدى القداسة التي كان يشعر بها أبناء جيلنا نحو نادي الخريجين بأم درمان •

كان هذا النادي بمثابة البرلمان ، يسعى كل خريج لنيل شرف عضويته، من كان في العاصمة ومن كان في الاقاليم ، اما خريج العاصمة فيدفع عشرة قروش شهريا ليستمتع بعضوية النادي كاملة ، اما خريج الاقاليم فيدفع نصف هذا المبلغ ليكون له حق العضوية الفخرية ، وان يدخل رحاب النادي كلما جاء العاصمة في اجازته •

وكان النادي قد درج على الاحتفاء بكل فوج يتخرج في كلية غردون من الطلبة في اول كل عام — وقد كان شهر يناير هو مستهل العام الحكومي •

وكان الطلبة في الفصول النهائية يتخرجون جميعهم موظفين في دواوين الحكومة ، فلا عطالة بينهم اذ كان المراد اصلا من تعليمهم ان يسدوا حاجة الحكومة للموظفين في مختلف مصالحها • ولهذا كان كل خريج يعرف أين يكون عمله عقب انتهاء الامتحان واعلان نتائجه • ومتى تم ذلك اقام لهم نادي الخريجين حفل شاي كبير جمع قدامى الخريجين في العاصمة ، والطلبة الخريجين الجدد ، وفي هذا الحفل يستمع الطلبة الى الخطباء من

اخوانهم الذين سبقوهم الى الخدمة وفي هذه الخطب يركز المتحدثون في اشعار هؤلاء الخريجين الجدد بمسئوليتهم الوطنية وهم يدخلون معترك الحياة لاول مرة ، يردد عليهم هذا المعنى نثرا وشعرا وفي أساليب مختلفة ، مع وحدة المضمون الذي ذكرت .

ويتحدث ممثلو الطلبة مؤكدين انهم قد عقدوا العزم على المضي فيخدمة بلادهم والوقوف بجانب اخوانهم الخريجين صفا واحدا لتحقيق هـذه الغاية ، ثم يقضون أمسيتهم في سمر شهي وينصرفون الى بعضهم البعض ، وبهذا (يدشن) النادي ابناءه الجدد ويشعرهم بعظم مسئوليتهم .

ويتفرق الخريجون الجدد وفق حظوظهم في العمل الحكومي ، بعضهم يبقى بالعاصمة وبعضهم تشتته الوظيفة الـى مختلف اقاليم السودان ، ولكنهم جميعهم يلتقون بمشاعرهم عند نادي الخريجين الذي أقسموا فيه الولاء لوطنهم ، فاذا ما أتيح لاحدهم ان يجيء للعاصمة في اجازته ، كان اول ما يفعله ان يحج الى دار الخريجين ليجدد العهد مع رفاق الدراسة الذين فرقت بينهم وسائل العيش وفي النادي يجدهم في حلقات متناثرة ، بعضها في نقاش ادبي ، وبعضها يمارس بعض هواياته المفضلة من الالعاب ، وقد تحلقوا هنا وهناك في رحابه ، الشيوخ في جانب ، والشباب في جانب بغير جفوة بينهم ، وقد أطلق بعض الشباب على شلة من كبار الخريجين آنذاك ، كانوا يجلسون في حلقة واحدة لا يتغير أشخاصهم الا نادرا ، نادي محمد علي ، وهو اسم نادي ارستقراطي في القاهرة كان يرتاده امراء وباشوات ذلك العهد وحدهم .

وكان كبار الخريجين من رواد هذه الحلقة قد بلغهم امر هذه التسمية فلم يضيقوا بها بل صارت موردا لنكاتهم الخاصة !

ولكن هذا الصفاء الذي كان يسود جو النادي ، بدأ منذ منتهى الثلاثينات يشوبه شيء من الكدر أخذ يستفحل شيئا فشيئا حتى انفجر

في ذلك الخلاف التاريخي الذي يعده الكثيرون نقطة البداية لكل الخلافات التي جرت بعد ذلك حتى تكوين الاحزاب السياسية بعد مرحلة المؤتمر . وقد كان هذا الخلاف اجلى وضوحا في فترة المؤتمر ، ثم اكتمل عندما تبلورت الافكار السياسية وخرجت للناس سافـرة في صورة الاحزاب السياسية .

اما هذه البداية التي أتحدث عنها ، فقد ظهرت في أول أمرها في صورة خلاف حول رئاسة النادي لمن تكون ؟

لقد ذكرت في مستهل حديثي ان عضوية النادي كانت بمثابة عضوية البرلمان ، وان لجنة النادي كانت بمثابة مجلس الوزراء وان رئيس النادي يمثل رئيس مجلس الوزراء في مجتمع الخريجين لهذا كان التنافس بينهم شديدا لاحتلال مقاعد اللجنة التنفيذية والحظوة برئاسة النادي لان ذلك هو المظهر الاجتماعي الوحيد الذي يدلل على وضوح الشخصية وبروزها في المجتمع ... وكان التنافس يسير احيانا هادئا ، واحيانا يأخذ بعض صور العنف دون ان يبلغ مرحلة العداء بين المتنافسين الذين ما تكاد تنتهي مرحلة الانتخابات حتى يعودوا الى ما كانوا عليه من اخاء ويتخذ كل منهم مكانه في الحلقة التي كان يغشاها ... وتتعالى ضحكاتهم تعلن عن زوال رواسب الانتخابات من النفوس الا لماما ! ولكن هـذه المرة قد عنف الخلاف وبلغ مرحلة العداء السافر على النحو الذي سأفصله فيما بعد ...

ولعل من الخير ان أشير ان بداية المعركة ، التي تطورت في عنف فيما بعد ، كانت مجرد تفكير من عنصر الشباب الذي نال عضوية النـادي حديثا عقب تخرجه في الكلية ، وكانوا يجلسون معا في النادي ويتدارسون امره ، ولم يعجبهم ان تظل أسماء معينة محتكرة للجنة النادي فهـي التي تحوز الاغلبية في كل انتخابات وتتربع على كراسي اللجنة ، وكان رئيس الدورة في تلك الفترة المغفور له محمد علي شوقي .

كان هؤلاء الشباب يمثلون كما هو الواقع في كل جيل ، الصراع الفكري بين القديم والحديث ، فقد خرجوا للحياة العامة حديثا ، وفي أذهانهم الكثير من الافكار الجديدة التي التقطوها من الكتب ، وكلهم كانوا جادين في الاطلاع لتثقيف أنفسهم وقد انتظمتهم جمعيـات القراءة في أكثر من حي بأم درمان وكانت تعتمل في نفوسهم ثورة مكبوتة على كل الاوضاع السائدة وكانوا يرون في بعض كهول الخريجين الذيـن يتزعمون قيادة النادي ، وهي بالتالي تعني قيادة الخريجين ، كانوا يرون في بعضهم اعوانا للاستعمار ، لانهم كانوا يتباهون بصداقاتهم مع الانجليز الحاكمين ، وبعضهم كان متهما عندهم بانه ينقل الى هؤلاء الانجليز كل ما يهمهم معرفته عن احوال الخريجين كأفراد وكمجموعة ...

وسواء صح اتهامهم هذا أم لم يصح حول بعض من كان في عضوية لجنة النادي آنذاك ، فقد دفعهم حماس الشباب وفورتـه الى الدعوة سرا ــ بادىء بدء ــ بين زملائهم الاعضاء لكي يغيروا تكويـن اللجنة في اول انتخابات عامة تجري للنادي ، وأخذوا يعدون العدة لخوض هذه المعركة ...

ولم يفت ذلك على لجنة النادي التي كانت تعرف كل ما يدور حولها ولم يكن مجتمع النادي كبيرا الى الحد الذي تخفى فيه مثل هذه الاتجاهات ولعل الاعضاء لا يتجاوزون الخمسين عضوا ، كما قدر لي ذلك بعضهم ممن عاشوا تلك الفترة ...

من هذا التفكير المجرد لبضعة شبان متحمسين داخل النادي أرادوا التغيير ودعوا له سرا ولو لم يشفعوا دعوتهم باطـلاق التهم ضد بعض الخريجين لسارت معركة ذلك العام كغيرها من المعارك ...

ولكن شاءت الاقدار ان يتسع نطاقها وان تجر اليها أعـدادا كبيرة من الخريجين في العاصمة والاقاليم وان تكون نقطة الابتـداء لخلافات اتسمت فيما بعد بالعنف والعداء السافر ، ثم لبست ثوب السياسة عندما آن للناس ان يجهروا بالسياسة .

شوقيون وفيليون

قلت عن بداية المعركة قبل ان تستفحل ، ان تفكيرا طرأ على عدد من الشباب حديثي العهد بالتخرج ، ان يحدثوا تغيرا في لجنة النادي التنفيذية لما كان يساورهم من شكوك حول صلات بعض أعضائها بالانجليز الحاكمين وقد انتقل هذا التفكير الى أعضاء اللجنة فانتبهوا الى ما يدور في أذهان تلك الحفنة من الشباب . كان ذلك على ما يظن بعضهم في عام ١٩٢٩ .

ويبدو ان محاولة التغيير بدأت في نطاق ضيق في عامي ١٩٣١ و١٩٣٢ وبلغت أقصى عنفهـا في أول عام ١٩٣٣ ، وما مـن شك في ان هؤلاء الشباب يهدفون من وراء هذا التغيير الى تحقيق ما كان يدور في أذهانهم من مثل وطنية .

ولم يكن في استطاعة أولئك الشبان ان يدخلوا في منافسة شخصية للفوز برئاسة وعضوية اللجنة التنفيذية للنادي مزاحمين أولئك الكهول الذين تمرسوا بهذه المعارك ولهم من المؤيدين ما ينقص أولئك الشبان الذين كان يقف معهم بعض كبار الخريجين من رواد النادي .

وكان يقود الصف المسيطر على مقدرات النادي المغفور له محمد علي شوقي وله أصدقاء أقوياء يشدون من أزره ...

وتلفت أولئك الشبان ومناصروهم يبحثون عن خريج كبير يستطيعون ان يواجهوا به السيد محمد علي شوقي في معركة التغيير التي أصروا عليها

... ونظرة واحدة الى أسماء كبار الخريجين الذين كانوا يناصرونهم كافية لتهدينا كيف تم اختيار تلك الشخصية التي أريد الالتجاء اليها لقبول رئاسة النادي . اذ لم يكن غريبا ان يقع الاختيار على المغفور له فضيلة الشيخ أحمد السيد الفيل احد كبار رجال القضاء الشرعي آنذاك ...

وقبل الرجل ان يخوض معركة رئاسة النادي ضد محمـــد علي شوقي وتجمع حول كل منهما مناصروه من مختلف الاعمار وكلهم من الخريجين يؤججون نار المعركة ، ولم يبق خريج واحد في العاصمة المثلثة بمنجاة من مطاردة أنصار العسكرين، كل يريد جذبه الى فريقه فمن كان مشتركا، ولم يسدد اشتراكه، سارعوا بتسديد متأخراته حتى يكون صالحا للتصويت، اذ كان من شروط الاشتراك في عملية الانتخابات ان يكون العضو مسددا اشتراكاته حتى آخر شهر ... ومن كان غير مشترك ، حملـــوه على الاشتراك ودفعوا له رسوم الدخول والاشتراك !

وتحمس كل فريق في دفع التبرعات للوفاء بالتزامات المعركة المادية .

ونسدل الستار عن كثير من الحملات الشخصية التي أديرت خـــلال المعركة حتى لا ننكأ جروحا طال عليها المدى بعد التئام !

وخرجت المعركة — كما سمعت — الى الاقاليم ، فقد أراد بعض أنصار المرحوم محمد علي شوقي ان يحصل على مشتركين من الخريجين خارج العاصمة ، وكما أسلفت القول فان دستور النادي كان يبيح ذلك وينظمه على نحو واضح .

ومن الجلي ان المعركة كانت تدور على اساس شخصي بحت بالنسبة لكبار الخريجين اذ لم يكن للسياسة أثر واضح في تلك الفترة كما ان الطائفية لم يبرز خلافها بشكل سافر يؤثر على المجتمع ، ويمكن القول ان هذه المعركة الانتخابية — كما سبق لي أن أشرت — كانت بمثابة المفتاح للخلاف الطائفي — بين الختمية والانصار الذي برز بوضوح بعـــد ذلك

وشغل المجتمع ، ووقف أكثر الخريجين منه بمعزل ، بل حاربه أكثرهم بعنف ، وخاصة في صفوف الشبان وانخرط بعضهم في ركابه وكان له وقودا ... هذا بالطبع قبل ان تدخل الطائفية في المعترك السياسي عند قيام الاحزاب حيث انخرط الخريجون في سلكها وقد كان قيادها الحقيقي في أيدي قيادات الطائفية .

ومع هذا فأنا نلاحظ ان كبار الخريجين في معركة رئاسة النادي تلك كانوا من أصدقاء الطائفية . أتراه استمرارا لمعركة النادي ؟ أم ان قادة المعركة كانوا اصلا من أنصار الطائفية ـ كل حيث اختار موقفه ـ وعلى هدى هذا الموقف الطائفي دخل معارك المجتمع اولا ضد الطرف الآخر ، ثم المعارك السياسية عندما آن للسياسة ان تظهر .

وان كان الامر بالنسبة لكبار الخريجين من قادة تلك المعركة كان واضحا لنا من خلال معرفة أسمائهم ، الا انه بالنسبة للشبان الذين أثاروا معركة النادي أصلا ، وانضم اليهم من زملائهم ما انضم بعد ان استعر أوارها . لا يبدو لنا واضحا بل فيه كثير من المتناقضات اذا ما قسناه بموقف أولئك .

فانا نجد مثلا في معسكر المرحوم محمد علي شوقي ـ واسمحوا لي هنا أن أستعمل نفس اللفظ الذي كان يطلق عليهم آنذاك واشتهروا به ـ « الشوقست » نجد شبانا وقفوا فيما بعد مع المعسكر المضاد .

كذلك نجد ايضا في معسكر « الفيلست » كما سموا في ذلك الحين ـ شبانا اتخذوا موقفهم السياسي فيما بعد بجانب « الشوقست » .

وقد ضم حزب الامة في قيادته نفس الاشخاص الذين تعاون معهم هؤلاء الشبان في معركة النادي .

كما نجد في معسكر « الفيلست » شبانا حددوا موقفهم فيما بعد مع

المعسكر الاستقلالي بل كانوا العقول المفلسفة لسياسة حزب الامة والناطقين باسمه والمدافعين عنه على المنابر وأعمدة الصحف .

كما كان منهم ايضا ، أي « الفيلست » معسكر شبان أبي روف الذين اتخذوا موقفهم فيما بعد في صفوف الاحزاب الاتحادية .

وليس هذا الوضع بالغريب اذا بحثناه على ضوء تاريخ تلك الفترة ، فقد كان كل هؤلاء الشبان لا صلة لهم بالطائفية عندما حدث ذلك الخلاف وقد كانوا متأثرين كما قلت بالمثل الوطنية التي كانت تعيش في أذهانهم وقد وضحت بعض هذه الافكار الوطنية في حادث تمزيقهم لجريدة حضارة السودان الحكومية أثر مقال نشره رئيس تحريرها ولم يعجبهم . وعلقوا الجريدة الممزقة على لوحة النادي وكتبوا عليها بحروف بارزة « يا للعار »!

لم أجد من بين الكثيرين الذين استمعت اليهم من معاصري تلك الاحداث من يجزم لي بأن السيدين ــ السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي ــ قد تدخلا بطريق مباشر في هذه المعركة بالذات ، ولكن كانت هناك شبهات . مبعثها كما أوضحت ان كبار الخريجين من قادة المعركة كانوا اما في عداد خلصاء السيد علي الميرغني واما في عداد خلصاء السيد عبد الرحمن المهدي ومما قوى من الاتهام الى حد ما ، ان كان من أكثر مناصري شوقي نشاطا وعنفا المرحوم محمد الخليفة شريف وصلة القربى بينه والامام السيد عبد الرحمن لا تخفى .

الخلاف الطائفي

بعد ان انتهت معركة النادي اخذ الخلاف الطائفي بين الختميةوالانصار يشتد ويعنف تغذيه عوامـل عديدة حتى صار شغل الناس الشاغل في تلك الفترة ومحور نشاطهم مؤيدين او مخالفين ٠

وقبل ان نستعرض مظاهر الخلاف في تلك الفترة يجدر بنا ان نعود أولا الى الجذور العميقة للخلاف بين هاتين الطائفتين الكبيرتين ، لانه من الخطأ ان نظن ان ما شجر بينهما من خلاف كان حديثا ووليـد الظروف الخاصة بفترة الثلاثينات وحدها ٠

الطريقة الختمية من الطرق الصوفية القديمة ، يرجع تاريخ دخولها السودان الى عهد السلطنة الزرقاء ــ مملكة الفونج ــ وقد جاء بها الى السودان السيد محمـد عثمان الميرغني الجـد الاكبر للسادة المراغنة بالسودان الذي ولد بقرية تسمى (السلامة) قرب مكة المكرمة وذلك في سنة ١٢٠٨ هجرية ، وتتلمذ على العالم الصوفي المعروف السيد احمد ابن ادريس ، ثم نزح الى السودان يحمل معه رسالة طريقته الصوفية ، وطاف بالحبشة وأرتريا ايضا ، وأسلم على يديه كثيرون وفي أثناء طوافه بلغ مدينة بارا ، فتزوج هناك ٠

وولد له السيد الحسن الميرغني وما زالت الدار التي ولد فيها موجودة وهي مقصد الزوار من مريدي المراغنة ٠

وعاد السيد محمد عثمان الى مكة وتوفاه الله هناك وهو في الستين من عمره ، في عام ١٢٦٩ هجرية ، وتولى شأن الطريقة من بعده ابنه السيد الحسن الميرغني ثم أبناؤه وأحفاده فيما بعد .

وقبل ظهور الامام المهدي كان السيد محمد عثمان والد السيد علي الميرغني يقوم بمهمة الارشاد للطائفة وقد انتشرت الختمية انتشارا واسعا في شمال السودان وأواسطه وشرقه .

وظهر الامام محمد احمد المهدي برسالته المعروفة ، وهي رسالة تهدف الى قيام دولة الاسلام والقضاء على حكم الكفار والخارجين على احكام الدين ، وفي سبيل تحقيق الهدف دعا المهدي الى نبذ الطوائف الدينية وان تتوحد كلمة المسلمين تحت قيادته لقيام الحكم الاسلامي .

وفي البداية كان هناك صراع طرفه بعض العلماء وقادة الصوفية اذ أنكروا على الامام محمد أحمد انه مهدي الله ، وحاولوا اثناء الناس عنه والا يلتفوا حوله ...

وكانوا يدافعون عن كيانهم الصوفي وقد أوشك ان يعصف به المهدي، وهذا ما حدث فعلا ، عندما انتصر المهدي ودانت له البلاد فلم يسمح لاي من اصحاب الطرق الصوفية ان يمارسوا طقوسهم ، ووضع هو راتبا دينيا ضمنه بعض الادعية المنسوبة للنبي « صلعم » وبعض آيات من القرآن الكريم ، ومنع تلاوة كل ما عدا هذا الراتب من طقوس الصوفية الاخرى وفي مقدمتهم الختمية وقد استطاع السيد محمد عثمان – والد السيد علي – ان يخرج بأسرته عندما رأى انتصار المهدي قد تحقق – عن طريق البحر من سواكن الى مصر ، وأسرت المهدية من بقي من أسرة المراغنة رجالا ونساء وعلى رأسهم السيد احمد الميرغني الذي كان يقطن كسلا وهو أخ السيد علي من والده ووضعهم تحت الرقابة في أم درمان مثل سائر الرجال ذوي الخطر الذين كان يخشى الخليفة من تآمرهم عليه وقد

تواتر ان الخليفة عبد الله كان يحسن معاملة الاسرة المرغنية وبالذات المغفور له السيد احمد الميرغني • وكان يثني على سلوكه وورعه •

كان الخلاف آنذاك بين المهدي والسادة المراغنة ومن (نحا) نحوهم من الصوفية وبعض العلماء خلافا دينيا طائفيا بحتا ، كانوا ينكرون عليه (مهديته) وكان ينكر عليهم طريقتهم في التصوف •

ولم يكن للخلاف هـذه المدلولات السياسية التي نفهمها اليوم ، كالاستقلال والحرية فالامام المهدي كان يهدف الى اقامة حـكم الاسلام ليس في السودان فحسب بل في كل بلد اسلامي يمكن ان تمتد اليه دعوته، ولهذا فان دعوته كانت أكثر شمولا وأوسع مدى من مفهوم الاستقلال والحرية كما نفهمها اليوم ولم تكن معروفة آنذاك ، انهـا دعوة اسلامية شاملة ومن اجل هذا كان يود ـ كما تقول بعض الروايات ـ ألا يقتل غردون بل يؤسر حيا ليفتدي به عرابي باشا اسير الانجليز في مصر وكان الامام المهدي يحارب حكم «النصارى الكفار» ليقيم مكانه حكما اسلاميا هذا من جانب ومن جانب آخر فانه قد شن حربا على كل الطوائف الصوفية ليجند كل المسلمين في صفه لتحقيق الهدف الاسلامي الكبير •

وكما هو معروف فان الخليفة عبد الله كان شديد الحذر والريبة في (جلابة البحر) وكان يأخذهم بمجرد الظن والشبهات ولم ينج من ذلك أبناء المهدي أنفسهم اذ اضطر الى نفيهم الى الجنوب مع آخرين وامتلأ سجن « السائر » بأم درمان بعدد غير قليل من العلماء وبعض الامراء والقادة وزعماء القبائل لان الخليفة كان يعتقد انهم يتآمرون عليه •

ولا أريد هنا أن أسرد كل التاريخ المعروف ، ولكني فقط أردت أن أرجع الى جذور الخلاف بين طائفتي الختمية والانصار حتى نصل بينها وبين الخلاف الطائفي الحاد الذي برز في الثلاثينات متخذا مختلف المظاهر الاجتماعية اذ لم تكن الحياة السياسية الحزبية السافرة قد ولدت بعد •

أخلص من هذا الى تأكيد الحقيقة التاريخية التي يعرفها كل من ألم بتاريخ فترة المهدية ، وهي ان الخلاف كان في أصله خلافا مذهبيا •

وبالرغم من ان الختمية وسائر رجال الطرق الصوفية الاخرى قد استكانوا وخضعوا لحكم الانصار ظاهريا خوفا من التنكيل بهم الا انهم كانوا يضمرون الانكار لدعوة المهدية ، ويتمنون ساعة الخلاص منها .

وهذا يفسر الى حد بعيد كيف ان معركة كرري لم تستمر غير بضع ساعات ، فقد أخلص أنصار الخليفة من آله وبني عمومته في الدفـاع واستماتوا في الموقعة في شجاعة مذهلة ، في حين ان كثيرا من « الجلابة » الذين كانوا يتظاهرون بالولاء لحكم الخليفة عبد الله ، غـادروا المعركة مسرعين بخيولهم نحو أم درمان مستقبلين العهد الجديد في كثـير من الرضاء والفرح !

وبعد ان تمكن الانجليز من الاستيلاء على حكم السودان بعد معركة كرري مكنوا لرجال الطرق الصوفية من ممارسة شعائرهم بحريـة [1] وأغدقوا على الكثير من مشايخهم النياشين « وكساوي الشرف الدينية » أسوة بكساوي الشرف الاخرى التي كانوا يمنحونها لزعمـاء العشائر والنظار والعمد والاعيان من المقربين منهم ورفعوا من مكاناتهم الاجتماعية وأدنوهم منهم وعرف الكثير من مشايخ الطرق الصوفية بالولاء لذلك الحكم .

ولكن من الانصاف لهم ان نذكر انـه عندما اشتد الوعي الوطني وهبت الاحزاب الوطنية لتحرير البلاد وقف أكثر رجال الطرق الصوفية مع الحركة الوطنية وناصروها مما أدى الى رجحان كفة الاحزاب الاتحادية المناوئة للانجليز في اول انتخابات لاختيـار اول حكومة وطنية وكانت الانتخابات تحت اشراف لجنـة دوليـة يرأسها رجـل هندي اسمه « سكومارسن » .

والحمد لله فان ذلك العنف في الخصومات بين الطائفية ومعارضيها كاد ان يتلاشى وما نحسب البقية منه تعمر طويلا .

---

(١) كان الامام المهدي يرى ان الطرق الصوفية بدعة مستحدثة لا يقرها الاسلام فمنع ممارساتها في عهده وكذلك فعل الخليفة بعده كاقتداء به.

الزي مهد لاضراب طلبة الكلية عام ١٩٣١

لقد أضرب طلبة كلية غردون ، ويا له من حدث رائع آنذاك سرى سريان الكهرباء ، فاهتزت له المشاعر طربا واشفاقا ، طربنا لان الانجليز بعد ثورة عام ١٩٢٤ ، وبعد ان نكلوا برجال تلك الثورة ، فالضباط الذين قادوا المعركة الدموية ضد قوات الجيش الانجليزي عند كوبري النيـل الازرق ، أعدموا رميا بالرصاص في الساحة التي تقع غرب مدينة بري بعد ان دعـوا ــ استغفر الله ــ بل أمروا كبـار الضباط السودانيين الموجودين بالعاصمة وبعض الاعيان السودانيين ان يحضروا تنفيذ الحكم اذلالا وارهابا ، وجيء بالبطل علي عبد اللطيف مكبلا بالاغلال من معتقله داخل معسكرات الجيش الانجليزي ليشهد مصرع رفاقـه في الثورة ــ وسجناء الثورة ، ألقوا في غياهب السجون وقـد كبلوا في الحديد مع بعضهم في مجموعات ، فاذا تحرك واحد منهم تحرك الآخرون معه قهرا حتى ولو كان ذلك لقضاء الحاجة !.. ثم أدخلوا في الزنازين المظلمة القذرة .

ثم نقل قادة جمعية اللواء الابيض ، علي عبد اللطيف وعبيد حاج الامين ورفاقهما الى سجن واو في بحر الغزال لتنكل بهم الامراض هناك ولقد مات عبيـد رحمه الله متأثرا باصابته بالحمى السوداء ! وتأثرت أعصاب علي عبد اللطيف لفرط ما لاقى من القسوة !

وحسب الانجليز ، وقد فعلوا ما فعلوا بابطال الثورة ، وبكل ما كانت له صلةما بهم ، وبعد انتشروا جوا مرعبا من التنكيل والبطش والجبروت، حسبوا انهم خفتوا أصوات المتعلمين ، وقد ألقوا عليهم كل تبعات الثورة ـ وهذا حق ـ .

وانصرف الخريجون على قلتهم آنذاك ، الى تكوين أنفسهم ثقافيا فأنشأوا جمعيات القراءة في منازلهم ، ثم انتقلوا بها الى دور أنديتهم باسم « الجمعيات الادبية » يعدون أنفسهم سرا للملحمة التي قدروا انها لا بد ان تدور بينهم وبين المستعمرين .

حسب الانجليز في ذلك الجو القاسي ، الذي هيمنوا به على البلاد ان لن يرتفع صوت واحد ضدهم ولن يستطيع اي سوداني ان يقف في وجه أي قرار يصدرونه كما يشاؤون .

وأصدروا قرارهم نسبة للازمة الاقتصادية التي واجهتها البلاد في مستهل الثلاثينات بتخفيض مرتبات خريجي كلية غردون مـن ثمانية جنيهات في الشهر الى خمسة ونصف ! ولم يدر في خلدهم قط ، وما زالت أحداث عام ١٩٢٤ ماثلة والارهاب مسيطرا ، ان الطلبة سيقفون في وجه هذا القرار ويضربون عن الدراسة ويعتصمون بداخلياتهم ، متمسكين بالنظام والهدوء حتى لا يؤخذون بشيء مـن الاخلال بالنظام والامن يجعله الانجليز مبررا للتنكيل بهم ، وقد فوجئوا بهذا الموقف مفاجأة أذهلتهم ، وشلت تفكيرهم في تلك الآونة فحاروا كيف يتصرفون ؟ وماذا يفعلون ؟

وظل شباب الخريجين في العاصمـة المثلثة يرقب الموقف في اشفاق واعجاب ، لقد أطل الفجر من جديد بعد ليل دامس غمرهم بعد احداث عام ١٩٢٤ ، وتكونت جمعيـة سريـة من خيرة هؤلاء المثقفين لترعـى الموقف ولتساند الطلبة سرا وتمدهم بما يحتاجون اليه في هـذه المعركة ان دعت الضرورة الى ذلك .

ولنقف قليلا عندما قبل الاضراب ، لنتحدث عن الجو الذي كنا نعيش فيه كطلبة قبل هذا الاضراب بقليل •

لقد كان هم الانجليز الاول ان يخلقوا كل العوامل ، ان تذل نفوس الطلاب ويسحق شعورهم بالعزة والكرامة والوطنية بكل السبل وستصيب الكثيرين الدهشة البالغة عندما أذكر هنا بعض المحرمات على الطلاب في عهدنا• كان أول هذه المحرمات ان لا تذكر اطلاقا عندما تسأل عن جنسيتك لتدون في سجلات الكلية انك « سوداني » ! فتلك جريمة نكراء عقابها قد يمتد الى الحرمان من الدراسة بعد الضرب المبرح ، اذ عليك ان تسجل في الجنسية اسم قبيلتك فقط ، شايقي ـ جعلي ـ دنقلاوي ••• الخ وليس بخافي الهدف من هذا الاجراء ، وهو ألا يحس الطلاب بوحدة وطنية ، بل تعمق في نفوسهم التفرقة القبلية والعنصرية اذ ان هذه التفرقة لم تكن سياستهم حيال الطلاب وحدهم ، بل كانت شاملة تطبق على كل جوانب الحياة السودانية وخاصة بين القبائل المختلفة يخلقون شعور العداء والتفرقة بينهم بشتى الوسائل ، مما يطول الحديث عنه لو خضنا فيه بالتفصيل !

وكان محرما علينا قراءة الصحف المصرية ! كانت أشبه « بالافيون » اذ ما عثر على أي منها عند احد الطلاب ، ولكنا كنا نتبادلها سرا بعد ان نحكم اخفاءها داخل الكتب المدرسية !

ولهذا الحرمان اكثر من سبب من ذلك صرف الطلاب من الاتصال الثقافي والروحي والوطني باخوانهم المصريين وكانت كل البلاد العربية تتطلع الى مصر كرائد في الوطنية والثورة والثقافة ، وقد هبت ثائرة بقيادة سعد زغلول ورفاقه ، لتحرر وادي النيل من الانجليز الذين كانوا يعتبرون ثورة ١٩٢٤ في السودان امتدادا لثورة مصر ••• وهذا حق ايضا •

وقد بلغ بهم الا-ر في محاولاتهم لاذلال الطلبة ان وصلوا مرتبة

الاسفاف ، فقد حرموا علينا من بين ما حرموا الا يلبس الطالب « جزمة » في رجليه ! بل عليه ان ينتعل الحذاء الوطني « المركوب » او الجزمة الكشف ! ومن ذلك وكنا نستعمل في تحركاتنا في العطلات الاسبوعية الى أم درمان او الخرطوم بحري ترام البخار ، ثم ترام الكهرباء عند اول ادخاله في أواخر العشرينات . وفي كل من الترامين درجتان للركاب « اولى ـ ثانية » وويل للطالب الذي يرى جالسا في الدرجة الاولى ، انها جريمة يعاقب عليها عقابا بدنيا صارما .

أما الطعام في الداخليات ، فأنا أسميه طعاما تجاوزا ، ولو قدم للطلبة اليوم لما بقي واحد منهم في داخليته ، وكان من المحال أن تفتح أفواهنا محتجين على رداءته ، ويقسرنا الجوع على تناوله كارهين ، فانت لا تعرف أي خضار هذا الذي يقدم في قدر كبير من الماء الاخضر ؟ ولا تدري عندما يقدم لنا طبق الارز أهو أكثر قدرا أم الحصى ؟! الذي اختلط به ؟

كانت الوجبة الوحيدة التي لا بأس بتناولها « العدس » ونسر له متى قدم في الوجبات الثلاث ! وبالطبع لا شيء من الفاكهة او الحلوى يقدم بعد الوجبة ، وفي شهر رمضان كان بعض كبار السودانيين ، ومنهم المغفور له الشريف يوسف الهندي يتبرعون بمقادير محترمة من البلح فيجد كل طالب بجانب طعامه بضع بلحات ناشفة ليحلى بها بعد العشاء !

وكان اساتذة الكلية جلهم من الانجليز ، ومن الطرائف ان كنا نرى الواحد منهم ينقل من منصبه كمدرس في الكلية ، الى منصب مفتش مركز! وقد يحدث بالعكس ، ان يجاء بمفتش مركز ليكون مدرسا بالكلية وكان السائد ان الانجليزي يصلح لكل وظيفة !

وكان لكل داخلية رئيس انجليزي من بين هؤلاء المدرسين يوقـع العقوبات على الطلبة في ضراوة وقساوة ، اذ ان عقوبة الجلد كانت توقع « بالتيلة » وهي الحبل المعروف ، وكثيرا ما يصاب التلميذ المعاقب اصابات

بليغة أثر الضرب تدعو الى لجوئه لشفخانة الكلية لمدة قد تطول اياما ليعالج التمزق الذي أصاب جسده من شدة الضرب .

وقد كان يقوم بهذه العقوبة « صول » ضخم يسمى فضل المولى وكان يبالغ في شدة الضرب وخاصة اذا كان الطالب من أصدقائه كما يزعم اذ كان يسكن معنا في الداخلية ! وكان العقاب احيانا يشمل اداء أعمال شاقة في الكلية بين فترة الغذاء وبدء الالعاب الرياضية في الساعة الرابعة ، ومن هذه الاعمال ان يقوم الطلبة المعاقبون بحمل الاوساخ والحجارة من طرقات الداخليات او الكلية ، وأن يعبدوا هذه الطرق بجر « درداقة » ضخمة كالتي كانت ترى في الطرقات ، وكان الطلبة المعاقبون يؤدون بدون هذه العربات في جر تلك الدرداقة الضخمة ، فتراهم والعرق يتصبب منهم اعياء ، وفي النهار القائظ أو البرد القارس يقومون بهذا العمل الشاق تحت الحراسة المشددة لا فرق بينهم وبين السجناء !

في هذا الجو القاسي ، كانت تحدث احيانا ، بعض الثورات الفردية اثر انفعالات لا يستطيع الطالب كبح جماحها ، ولكن قسوة العقوبة كانت تجعل تلك الثورات فردية ونادرة .

وفي مرة عرتنا نشوة وطنية بالغة ، وكان ذلك في غضون عام ١٩٢٩ ، فقد فوجئنا بان طلبة السنة الثالثة محاسبين رفضوا ان يذكروا اسماء قبائلهم عندما دخل عليهم احد ضباط الكلية وسألهم وأصر كل طالب ان يذكر انه « سوداني » رافضا الانتماء الى قبيلته كما كان يحدث سنويا .

وحاول الاستاذ ان يجعلهم يبدلون موقفهم ، واخيرا عاد الى مكتبه وهناك اتصل بكبير الضباط الاستاذ صالح عبد العظيم رحمه الله ، الذي أبت عليه وطنيته الصادقة ان يرفع الحادث لعميد الكلية الانجليزي فتصرف من عنده تصرفا حسنا حفظ للطلبة كرامتهم ، وأنقذهم في نفس الوقت من العقوبة وأقلها الفصل من الدراسة دون شك ، فكتب امام كل طالب قبيلته مهتد بما سجل عنه في العام الماضي ! وكفى الله المؤمنين القتال .

ولكن كانت هذه البداية التي دفعت الطلبـة بعدها للاصرار على كلمة سوداني .

كانت مهمة الكلية الاساسية تخريج موظفين يسدون حاجـة الحكومة في مختلف المكاتب ، ولهذا كان اطرف المناظر في شهري نوفمبر وديسمبر من كل عام منظر طلبة الفصول النهائية في الاقسام ، وقد تزيوا بالزي الافرنجي داخل حجرات الداخليـة يستعرضون « قيافتهم » ويتقبلون ملاحظات بعضهم البعض ، وكانوا يحرصون على تفصيل « البدل كاملة » بما في ذلك « الياقة » والقبعة على الرأس وكانت مودة تلك الفترة ! أما المشايخ والمعني بهم خريجي قسم القضاة الشرعيين ـ مدرسي المدارس الوسطى ـ وخريجي مدرسة العرفاء ، فكان عليهم ان يرتدوا زي المشايخ المعروف « الجبة والقفطان وحزام حرير يتمنطقون به » .

وكانت هذه الازياء تستعرض يوميا في الداخليات ، وقد كان التوظف مضمونا ، بل ان كثيرا من الطلبة يعرفون اماكن عملهم الجديدة قبل ان يكملوا امتحاناتهم النهائية ، اذ كانت اكثر المصالح الحكومية تعد كشوفات تنقلاتها للعام الجديد وتذكر فيه الخريجين الجدد .

وكان مرتب الثمانية جنيهات الذي يعطى لخريج الكلية الذي أكمل السنة الرابعة بنجاح يعد مرتبا مجزيا في تلك الفترة التي كان فيها مستوى المعيشة منخفضا الى حد يعد خيالا اذ ما ذكرت أرقامه الآن . وكان أساس وضع المرتبات اربعة جنيهات لمن اكمل السنة الرابعة وسطى بنجاح ، وجنيه اضافي لكل سنة دراسية ناجحة في القسم الثانوي !

وجاء قرار تخفيض هذا المرتب الى خمسة جنيهات ونصف الجنيه وثار طلبة الكلية وأضربوا واعتصموا بداخلياتهم ، ثم أرسلوا الى أهلهم وذعر الانجليز وذهلوا ... فقد كان هذا آخر ما يتوقعون .

وكان هذا الذي حدث بالنسبة لنا نحن صغار الخريجين بداية للبعث الجديد .

نفذنا الاضراب بدقة فذهل الانجليز

طلبت من السيد مكي المنا وقد اختاره الطلبة رئيسا لهم ان يكتب لي قصة الاضراب تاريخيا فكتب :

ـ لا بد للباحث في اضراب طلبة كلية غردون القديمة عـام ١٩٣١ ان يرجع للوراء قليلا ليتقصى المقدمات التي سبقته خلال الاعوام الثلاثة الماضية ، فقد كانت ادارة كلية غردون حتى أواخر عام ١٩٢٨ صورة مصغرة لادارة القطر التي كان يسيرها السكرتير الاداري من مكتبه في الخرطوم وكان اظهر مظاهرها البطش والارهاب الذي بدأ بعد حوادث ١٩٢٤ ، وقد وجد المستر مكمايل « السكرتير الاول » من المبررات بعد تلك الحوادث ما مكنه من تطبيق هذه السياسة التي كانت تلائم افكاره وشخصيته تطبيقا جامحا لا هوادة فيه ولا لين .

ترعرعت هذه السياسة وتغلغلت في صميم الجهاز الحكومي ، وغزت معامل العلم التي كانت مهمتها الاولى ان تغذي دور الحكومة بموظفين ألفوا هذا النظام من دور التعليم لئلا تجد الحكومة صعوبة في انسجامهم في جهازها العجيب .

وقد كان يهيمن على كلية غردون التذكارية في ذلك الوقت ، رجل قوي الشخصية طبق هذا النظام على الاساتذة والطلاب فقتـل الروح المعنوية فيهم حتى أصبح من المألوف ان ترى « قطيعا » من الطلبة يحملون

التراب في عملية تعذيبية منكرة ووراءهم صف من رؤسائهم الطلاب الكبار يضربون بالعصي في غير تورع او شفقة ، والويل لمن تحدثه نفسه ليسأل ، لماذا يضرب ؟

استمر الحال على هذا المنوال حتى أوائل عام ١٩٢٩ ، حين عاد الاستاذان المرحوم عبيد عبد النور وعبد الفتاح المغربي من دراستهما بالجامعة الامريكية في بيروت ، وهالهما ما رأيا من فارق عظيم بين معهد ومعهد وبين طالب وطالب ، وقام الاستاذ عبيد بحركة هائلة أراد منها أن يرفع الارهاب والاذلال عن كاهل الطلبة ويشعرهم بان الدراسة العليا يجب ان تهدف الى خلق مواطنين صالحين لهم الخلق القوي والارادة على التغلب على متاعب الحياة، فمهد لذلك بأن أقنع «الوكيل» المستر يودال بنجاح هذه السياسة وبدأ يبذر بذورها بين الطلاب ، فسرت تعاليمه بيننا سريان النار في الهشيم ، وبدأنا نبذل كل ما في وسعنا لنقدم طائعين كل ما نملك من جهد ومن مال في سبيل اسعاد الآخرين وفي سبيل كل ما توسمنا انه عمل وطني ، فساهمنا بتمثيل الروايات الاجتماعية ، وبذلنا جهدا كبيرا من دخلها المحدود لنمد مكتبة الطلبة بالكتب والمجلات ، وأصبح همنا مساعدة المغلوب ومقاومة الظلم أنى وجد ، ولقد ساعد على اذكاء هذا الشعور تقاعد الوكيل « المستر يودال » واسناد أمر الكلية الى المستر وليمز والفارق بين الرجلين معلوم لكل من عاصرهما من الاساتذة والطلاب ، فنمت حركتنا وشبت رغم المعارضة التي قام بها عدد من انصار القديم ، حتى انشطرت الكلية الى شطرين عامي ١٩٢٩ ــ ١٩٣٠ وما ان جاء عام ١٩٣١ حتى كان الطلبة أجمعين كتلة متجانسة تعمل في وئام لتقليم أظفار الظلم والضغط داخل حرم الكلية ، وحتى أصبح الرؤساء اصدقاء للطلبة يطلعونهم على كل ما يراد بهم من خير او شر .

وقد هال السكرتير الاداري ما رأى ، فقال قولته المشهورة في خريجي تلك الايام « المديرون الجدد » وتذرع بالنكسة الاقتصادية العالمية التي

بدأت بوادرها آنذاك فقرر ان يوجه ضربات متلاحقة يعود بها بالكلية الى سابق عهدها ويهوي بها الى الحضيض .

وتطبيقا لسياسة فرق تسد قرر ان يبدأ بالمحاسبين والكتبة فاصدر أمرا بتخيفض رواتبهم عند التخرج من ثمانية جنيهات الى خمسة ونصف وأرسل بذلك القرار المشئوم الى ادارة الكلية للتنفيذ ولكن لم يكن يعلم انه بازاء جبهة متماسكة من اناس طغت على كيانهم وتملكت مشاعرهم الرغبة في التضحية من اجل الغير ، فلم ينظر الذين عناهم بقراره الى الامر كأنه يعنيهم هم فحسب ، بل نظروا اليه على حقيقته من ان القصد منه هو العودة بالبلاد الى الوراء وان الطعنة النجلاء موجهة للقطر كله في شخص مثقفيه ، فيا لها من فرصة مؤاتية ليواجهوا الحكومة التي أبطرها السلطان وليلحقوا باخوان لهم ذهبوا عام ١٩٢٤ دفاعا عن مبدأ عظيم !

وماذا كان من امر طوائف الطلبة الاخرى التي لم يمسها القرار من مهندسين ومدرسين وأطباء ؟.. لقد قالوا أجمعين ان واجبهم في الدفاع عن اخوانهم المعنيين « الكتبة والمحاسبين » أسمى وأنبل من واجبهم لو كانوا يدافعون عن أنفسهم ، كان ذلك في أوائل نوفمبر ١٩٣١ وقد أوشك العام الدراسي على التمام ، فاجتمع طلبة السنة النهائية في جميع الاقسام وقرروا ان يقصروا التضحية عليهم لئلا يضار الطلبة الصغار الذين لم يكملوا تعليمهم بعد ، وأقسموا فيما بينهم على ان يعملوا متضامنين لرفع هذه الكارثة او يقعوا ضحايا في سبيل تحقيقها . ولكن هيهات لهم ان ينفردوا بهذا الشرف العظيم ، فما ان سمع طلبة الفصول الاخرى بما جرى حتى اجتمعوا هم ومن تلقاء أنفسهم ورددوا نفس القسم واستعدوا للتضحية الكبرى .

انه من الصعوبة بمكان ان يتذكر المرء في تحديد المؤرخ ، الحوادث التي تعاقبت أثر هذا الاتحاد الجميل الذي ما ان سمعت به ادارة الكلية حتى جمعنا المستر وليمز في احد الميادين وخطب فينا خطابا ليته تحاشاه ــ

فبدلا من ان يحاول تهدئتنا ، وبدلا من ان يؤاسينا في محنتنا ويحاول الوقوف الى جانبنا ولو من باب السياسة والكياسة ، اخذ يكيل لنا التهديد والوعيد ، ولست أنسى ما حييت قوله :

« من أنتم ؟… من أنتم حتى تنتقدوا الحكومة او تقاوموا سياستها ؟ ان الحكومة تستطيع ان تفعل فيكم ما تشاء من سجن وتشريد وتنكيل » ! ولم يكن الرجل يدري اننا في تلك اللحظات قد تقمصنا أرواح القديسين واننا كنا ننتظر ما هو أشد هولا مما ذكر بنفس متلهفة وقلوب مشتاقة لاننا آمنا ايمانا لا يتطرق اليه الشك اننا نقوم بتضحية عظيمة من اجل غرض نبيل .

خرجنا من هذا الاجتماع وعلينا هدوء الذي قرر وانتهى وينتظر ساعة التنفيذ وكنا حتى اللحظة لم نكن نعلم ما هي خطواتنا التالية ولو اننا علمنا أين تقف ادارة الكلية من مشكلتنا .

وفي مساء نفس اليوم وأظنه الثالث والعشرين من نوفمر ١٩٣١ ، اجتمع نفر من كبار طلبة الكلية في الميدان الشرقي ولم يستغرقوا في البحث أكثر من بعض الساعة حتى قرروا ان تكون خطوتهم الاولى الاضراب الكلي من العاشرة من صباح اليوم التالي ، كما قرروا سرية اجراءاتهم بعد ذلك ، ثم تفرقوا ونشروا القرار على اخوانهم الآخرين بما سنقدم عليه صباح الغد … وجاء الصباح الموعود فذهبنا الى حجرات الدراسة في أتم نظام وتلقينا دروسنا الى قبيل العاشرة في جد واهتمام أذهل الاساتذة الذين كانوا يعلمون بموعد اضرابنا فما كانوا منتظرين منا أن نقبل على دروسنا كأحسن ما يكون الاقبال ونحن مقبلون على خطوة تفوق في جرأتها كل ما كان معقولا في ذلك الزمان . وفي تمام الساعة العاشرة ومن غير مقدمات ، أقفل كل طالب درج أدواته ، وخرجنا من الفصول وتوجهنا الى أماكن اقامتنا في الداخليات من غير ان ننبس ببنت شفة ــ وما ان وصلنا هناك حتى اجتمعنا وقررنا انتخاب لجنة تدير شئوننا وتفاوض نيابة عنا ،

فكوناها من ستين عضوا ، او هذا ما وصلت اليه بعد ان طعمناها بوجهات النظر المختلفة وأطلقنا عليها اسم « الزعفرانة » لتضليل عيون الحكومة التي كانت لنا بالمرصاد ــ وقد شرفني زملائي ــ وكنت رئيسا الطلبة في عهد الدراسة ــ برئاسة هذه اللجنة وأقسم انني حتى اليوم لم أجد في نفسي تجاوبا بعمل قمت به في حياتي كالذي وجدته في رئاسة تلك اللجنة، وقد كانوا حولي كالملائكة يتلهفون على تنفيذ قرارات اللجنة ، وقد كانت أحيانا تعرضهم لاخطار دونها أخطار الحروب ، فكان يكفي أن نقول اننا في حاجة الى شيء من المال لينسل بعض الاخوان الى الخارج ويعود به في أكياس متعددة وكنا نسلمها لامين الصندوق بغير ايصال او حساب ونحن واثقون من حفاظه عليها وصرفها في أوجهها .

قضينا على هذا الحال خمسة ايام تعاقبت علينا أثنائها وفود الاساتذة والخريجين الذين كانوا يعطفون على قضيتنا ولكنهم ايضا كانوا يشفقون علينا وعلى الكلية ان يعصف بها السكرتير الاداري « مكمايل » في سورة غضبه وذهوله ، ولقد استخدم هذا الرجل وسائل السياسي الداهيةليجبرنا في اتخاذ خطوة ايجابية تمكنه من ان ينكل بنا ويجد مبررا لقفل الكلية ، ولكننا خيبنا مسعاه .

لقد استغل دهاة قلم المخابرات الذين حاصرونا ليل نهار وأجبرونا على الاجتماع المتواصل لتفشيل خططهم التي كانت تشمل دس رجالهم بيننا في شكل باعة متجولين على ان هؤلاء الباعة لم يسبق ان دخلوا حرم الكلية في كل تاريخها الطويل ، لقد عرفناهم وسمحنا لهم بالتجول بيننا ، ولكننا أخذنا انفسنا بالنظام والحرص بدرجة لم تعهدها الكلية ايام الضرب والارهاب !

وأخيرا تفضل سيادة السيد عبد الرحمن المهدي وزارنا على موعد ، وبذل جهد المواطن المخلص ليعيدنا الى انتظام الدراسة ، ولكن كان ذلك فوق طاقتنا ، لقد أبكانا سيادته تأثرا ولكننا لم نتزحزح عن موقفنا قيد

أنملة ! فما كنا نريد من كبار المواطنين ان يواجهونا ، بـل كنـا نرغب في مواجهة الحكومة لنقول لها قولا لم تسمعه في تاريخ استعمارها الطويل العريض ولكن الحكومة آثرت العاقبة واستترت وراء هذا النفر الكريم من كبار المواطنين ليعيدونا اليها في ذلة وانكسار فأبينا ووقفنا وقفة ... المدافع عن كرامته وعزته . ولكنا شعرنا بالخطر والبلية التي قد تصيبنا اذا تكرر مثل هذا اللقاء بآبائنا ومواطنينا الاعزاء ، فحزمنا أمرنا على ان نعود الى أهلينا وديارنا ما دام العدو قد جبن عن ملاقاتنا وليفعل الله امرا كان مقدورا .

وفي اليوم التاسع من شهر نوفمبر ١٩٣١ بدأنا نودع بعضنا البعض ونرحل عن الخرطوم في نظام وتنسيق فوتنا بهم آخر فرصة للحكومة في ضربنا مجتمعين .

ولست أنسى وانا أركب القطار متجها الى مسقط رأسي مشاجرة صغيرة مفتعلة قام بها أعوان قلم المخابرات وسط مودعينا أملا منهم أن تتدخل فيقبضوا علينا ولقد فطنا الى ذلك ، وقال قائل منا ! « دعوا ... هؤلاء قوم هللسون » ! وهللسون كان مدير المخابرات فانسحبوا بغـير انتظام وسافرت على بركة الله .

هذا عرض موجز لخلاصة اضراب عام ١٩٣١ ، واما الذي جرى لنـا حين ذهبنا الى اوطاننا ، واما الـذي جرى بعد ذلك فيكفي ، لتسطير المجلدات ، وحسب القارىء هذا القدر ليقف على دوافع هذا الاضراب ومراميه والدقة التي تم بها مما أذهل حكام ذلك الزمان .

ومفتشو المراكز يتحرشون بهم

قدمت كلمة السيد مكي المنا رئيس الطلبة عندما حـدث الاضراب وقد روى لنا فيها تفاصيل ما حدث ، منذ ان بدأ الاضراب حتى قررت لجنة « الزعفرانة » ان يعود الطلبة الى ذويهم ويتفرقوا عن الداخلية خشية ان يدب الضعف في صفوفهم تأثرا بالوساطات التي أخذت تنهال عليهم من الآباء وكبار المواطنين وعلى رأسهم المغفور له السيد عبد الرحمن المهدي ، وقد كان الطلبة كما ذكر السيد مكي يتحرقون شوقا لملاقاة الحاكمين أنفسهم ليشفوا غليلهم في ذلك اللقاء ، ولكن احدا من المسئولين لم يتصد للطلبة او يحاول الالتقاء بهم مكتفين بهذه الوساطات علها تحل الازمة وتعيد الطلبة الى دروسهم ، فقد كانوا رغم ما تظاهروا به من عدم المبالاة والتهديد باغلاق الكلية ــ قلقين فعلا بسبب هذا الاضراب الذي أوحى لهم بالكثير مما لا يسرهم .

عاد الطلبة الى مناطقهم المختلفة في هدوء وثبات ؛ وهنا يبرز دور عدد من الخريجين الشبان في العاصمة المثلثة وخاصة أولئك الذين كانوا حديثي عهد بالتخرج في الكليـة ، وما زال هناك عـدد كبير من أصدقائهم في صفوف الطلبة .

لقد أشار السيد مكي المنا في كلمته الا انهم ما كادوا يحتاجون الى

قدر من المال حتى يوفدوا بعضهم الى الخارج ليعود بالمال المطلوب وربما أكثر منه .

والحقيقة ان الطلبة لم يحتاجوا لشيء من المال الا بعد ان فكروا في العودة الى مناطقهم المختلفة ، وبالطبع فانهم لم يمنحوا التذاكر المجانية التي كانت تعطى لهم عادة من ادارة الكلية في مناسبات العطلات المدرسية، وكان عليهم هذه المرة ان يدبروا ما يكفي لترحيل غير القادرين منهم ومن هنا كان التجاؤهم الى بعض زملائهم الخريجين .

لم يكن هناك (تنظيم) معين لاولئك الخريجين الشبان الذين كانوا يغذون الاضراب سرا ، ويمدون اصدقاءهم الطلبة بالمال فـي الحدود المستطاعة ، ولكن كان هناك ما يشبه التفاهم بين بعضهم ، وكان بعضهم يعمل منفردا سرا مع من يعرف من الطلبة ، ولهذا فانه من العسير ان نحصي الآن كل أسماء الخريجين الشبان الذين كانوا يغذون حركة اضراب الطلبة ماديا ومعنويا .

ولكن كانت هناك مجموعة منهم تضمها لجنة ملجأ القرش « معهد القرش الصناعي » الآن ، التي كونت حديثا لانشاء هذا المعهد .

وكانت هذه اللجنة تضم نخبة ممتازة من خيرة شباب تلـك الفترة . ومن المؤكد ان اكثر هؤلاء كانوا من مناصري الاضراب ومن الذين كانوا يمدون الطلبة بالفكر والمادة .

وقد اتصل امرهم بالمخابرات الانجليزية التي كانت ترصد الموقف باهتمام فائق ، وقـد حدثنا السيد مكي في كلمتـه كيف انهم أطلقوا الجواسيس حولهم في الداخليات في شكل باعة متجولين الامر الذي لم تشهده الكلية منذ انشائها حتى تلك الآونة .

وقد توهـم الانجليز ان هؤلاء الخريجين في لجنة ملجـأ القرش يستغلون بعض مال هذه المؤسسة وينفقونه على الطلبة ، وانقلب التوهم

الى اتهام مفتوح واجهوا به اولا السيد عبد الفتاح المغربي رئيس اللجنة ثم انتقل الى تحقيق رسمي اجراه مفتش مركز أم درمان ، حيث استدعى أمين صندوق اللجنة السيد محمد عبد الرحمن وواجهه بالاتهام وطلب منه ان يقدم له حسابات الملجأ .

وقدمت الحسابات فعلا للمفتش الذي كان يتمنى ان يجد فيها شبهة تمكنه من اتخاذ الاجراءات القاسية ضد اللجنة ، فقد بلغ الغضب بهم أقصاه بسبب ذلك الاضراب الذي لم يكن في حسبانهم فقط ، والذي أكد لهم قوة الشعور الوطني عند المتعلمين رغم التنكيل الذي أنزلوه بهم بعد حوادث ١٩٢٤ .

لقد فحص المفتش الحسابات جيدا ولم يجد مبتغاه ، فقد كان أولئك الشبان مثالا للامانة والنزاهة ومن المستحيل ان يفكروا مجرد تفكير في الاستعانة بشيء من مال الملجأ لامداد الطلبة المضربين ، وقد كانوا يمدون العون فعلا للطلبة ، كل بطريقته الخاصة وكان هناك غيرهم ايضا يفعل ذلك سرا ، ولكنهم كلهم كانوا يمدون العون من مرتباتهم الشهرية على قصورها آنذاك ، ولكن وطنيتهم كانت تحتم عليهم ان يقفوا بجانب اخوانهم الطلبة المضربين .

لا أحب ان أطيل في هذه الناحية الحساسة بذكر الاسماء ، فقد أظلم أولئك الذين كانوا يعملون ممعنين في التخفي ولم تبلغ الى مسامعنا أسماؤهم ، فقد كانت تلك الفترة تقتضي فرط الحذر ، فلو استطاع الانجليز ان يجدوا دليلا ماديا مهما صغر وتفه ، ضد أي من هؤلاء الذين كانوا يقفون مع الطلبة سرا من الخريجين لنكلوا بهم تنكيلا قاسيا تنفيسا عما كان يعتمل في نفوسهم من حقد وغضب وثورة .

لقد حدثنا السيد مكي المنا عن عودة الطلبة ، وأشار اشارة عابرة الى ما لقوه بعد عودتهم الى أوطانهم الصغيرة ، لان المجال لم يتسع له ليذكر ما حدث بعد ذلك .

لقد أوحت الحكومة الى مفتشي المراكز الانجليز لكي يواجهوا أولئك الطلبة المضربين بكل ضروب القسوة والتنكيل ، وخاصة قادة الاضراب ، وطلبة السنة الرابعة ـ على وجه العموم .

ولم يكن مفتشو المراكز في تلك الايام بحاجة الى هذا التوجيه فقد كانت القسوة والجبرة والطغيان طابعهم في كل تصرفاتهم وكانوا على علم بكل تفاصيل الاضراب الذي ضاعف من مرارة حقدهم على المتعلمين ، وأخذ مفتش كل مركز يتفنن في خلق ضروب المضايقات والمتاعب للطلبة .

أذكر أنني كنت أمضي فترة اجازتي السنوية في وطني الصغير (سنجة) وعاد طلبة هذه المدينة المضربين الينا ، وهم قلة يسيرة ، وكان من عادة البوليس ان يطوف ليلا بشوارع المدينة وأزقتها على ظهور البغال لحفظ الامن ، وكانت الاوامر تعطى لرجال البوليس الذين يعهد اليهم بالطواف كل ليلة لكي لا يتهاونوا ابدا في القاء القبض فورا على أي طالب منهم يجدونه بعد الساعة السابعة مساء يتجول في الطرقات لاي سبب من الاسباب ! وكانوا بهذا يحتالون لجرهم الى داخل السجون .

وبعد شهرين ونصف تقريبا من استمرار الاضراب ، وقد أشفق المشفقون على مصير الكلية الوحيدة ، أصدر كل من سيادة السيد علي الميرغني وسيادة السيد عبد الرحمن المهدي نداء ـ على حدة ـ وجهه للطلبة لكي يعودوا للدراسة وكان أكثر الآباء بدورهم قد أشفقوا على مصير أبنائهم فأخذوا يحثونهم على العودة ، وعاد طلبة الفصول الاولى والثانية والثالثة اما طلبة السنة الرابعة في مختلف الاقسام فقد اعتبروا قد انتهت مرحلة دراستهم ، وعليهم ان ينتظروا فرصة التوظف في مكاتب الحكومة ، ولكن هذه الفرصة قد أطيلت عمدا ... الى مدى سنوات !

فبعد ان كان طلبة الفصول النهائية يوظفون وهم ما زالوا في ايامهم الاخيرة بالكلية ، أغفل عمدا موضوع توظيف طلبة الاضراب .

وظل بعضهم لاكثر من اربع او خمس سنوات محجوزا عليه ان يعمل

في دواوين الحكومة ! حتى أولئك الذين كانت الحكومة في حاجة اليهم كالمهندسين ، ولكن امعانا في الانتقام منهم تركوا لآخر المطاف ، وقدم عليهم في التخديم الكتبة والمحاسبين الذين عينتهم الحكومة أولا بتخفيض المرتبات !

ولم يكتف الانجليز بحرمان طلبة السنة الرابعة من الاقسام المختلفة بعدم التعيين لسنوات ، بل صبت عليهم في تلك الفترة جام غضبها وسلطت عليهم مفتشي المراكز يسومونهم الوانا من العذاب والضيق امتد الى أهلهم وذويهم ، لقد تجرد الانجليز من انسانيتهم حيال أولئك الطلبة وانقلبوا الى وحوش ضارية تنهش فيهم بغير رحمة .

وحدث ان وجدت بعض صور القادة الانجليز وكانت تزين بها غرف الداخليات ، وحجرات الدراسة قد ألقيت على الارض وحطمت اطارتها وأصابها التمزيق فثارت ثائرة الانجليز في الكلية وبالرغم من انهم لم يستطيعوا اثبات هذا التصرف ضد طلبة معينين الا انه لم يعوزهم ان يوجهوا الاتهام ضد الطلبة الذين توسموا فيهم الحماس الوطني والكراهية الواضحة لهم ، فأصدروا أمرهم بفصلهم من الدراسة استنادا على الشبهات فقط .

ولكن كل هذا التنكيل لم يخمد الجذوة الوطنية المتقدة في نفوس الطلاب بل زادها اشتعالا .

لقد عرضت هنا بعض جوانب الاضراب ، وتحدثت عن المساندة السرية التي كان يقوم بها بعض الخريجين الشبان للطلبة المضربين .

ولكن كان هناك جانب آخر على درجة قصوى من الاهمية ، وهو جانب الخريجين عامة الذين أخذوا يعملون جهرة لايجاد حلول للموقف ، الحلول التي ترضي كبرياء الطلبة على نحو ما ، وتحول دون ان ينزل الانجليز ضرباتهم بمعقل العلم المدني الوحيد في البلاد ... فماذا فعلوا وكيف تصرفوا ؟

اجتماع عام وانتخاب لجنة العشرة

أخذ الخريجون يتوافدون على دار نادي الخريجين بأم درمان زرافات ووحدانا في أزيائهم المنتقاة التي عرفوا بها آنذاك ، فطبقـة المشايخ من قضاة ومعلمين ، ترتدي « القفاطين » والفرجيات من الجوخ او الصوف وقد تمنطقوا بأحزمة من الحرير ذات ألوان زاهيـة ، وعلى الرؤوس الطرابيش المغربية الحمراء أديرت عليها عمائم بيضاء صغيرة .

أما الموظفون الآخرون فقد ارتدوا الزي الافرنجي كاملا ولم ينسوا رباط العنق الذي افتنوا في اختياره وعلى الرؤوس قبعات مختلفة الانماط، وقد كانت القبعة الظاهرة المميزة لغطاء الرأس عند موظفي تلك الفترة . وقليل نادر منهم مـن كان يضع الطربوش المصري على رأسه بدلا من القبعة .

كانوا يتجهون الى النادي والانظار ترمقهم في اعجاب فقد كانوا يمثلون خلاصة المجتمع الراقي الذي هو موضع التقدير وموطن الرجاء والامل .

هذه هي أول مرة يجتمعون فيها ليناقشوا مشاكلهم جهرة . كان يملأ قلوبهم شعور الغبطة والارتياح ، فقد طال بهم الكبت والقهر ، وذاقوا الامرين من رؤسائهم الانجليز بعد ثورة عام ١٩٢٤ .

ولقد كان اضراب طلبة الكلية الذي أقض مضاجع الانجليز وكسر

شوكة جبروتهم حافزا للخريجين لكي يجتمعوا في ناديهم بأم درمان ليتقدموا للمسئولين بالمطالب التي تزيل الظلامات التي حاقت بهم وبالطلبة .

وقد بثت الدعاية لفكرة الاجتماع فلقيت تجاوبا عاما لما كان يشعر به كل الخريجون من ضيق وكبت وافتئات على حقوقهم .

وقد اتفق على اختيار لجنة باسم الخريجين في اجتماع عام يعهد اليها بتقديم مطالبهم ومعالجة موقف اضراب الطلبة وذلك بالغاء تخفيض مرتباتهم ، هذا التخفيض الذي أدى الى ذلك الاضراب .

وها هم الخريجون يجتمعون في اليوم الموعود في ساحة شيخ الاندية ، وها هم خطباؤهم يتعاقبون على المنبر يرددون المظالم التي حاقت بهم ويكشفون عنها النقاب . ويتحدثون في حماس عن وجوب اختيار لجنة قوية تتقدم بمطالبهم الى المسئولين وتقف بجانبها في صلابة حتى تحصل على استجابة عليها .

وفي غمرة الحماس الطاغي الذي شمل الشباب والشيوخ معا ولا غرو فقد كانوا جميعا مكتوين بنار واحدة دعى المجتمعون لانتخاب عشرة منهم عن طريق الاقتراع السري ، ووزعت عليهم الاوراق والاقلام .

وهنا يجدر بي ان أثبت ان عددا من الشبان من دعاة فكرة هذاالاجتماع المروجين لها ، خافوا من ان يندس في اللجنة عدد كبير من العناصر غير المرغوب فيهم والتي عرفت بالولاء للحاكمين ، فعملوا على نشر دعاية واسعة بينهم لاختيار أسماء معينة راعوا فيها ان تكون أغلبيتها ممن يثق فيهم اخوانهم مع ايجاد عدد يسير من المعقولين حتى لا يعمل بعضهم ضد هذا الاجتماع او يحاول افساد المواقف التي تتخذها اللجنة المنتخبة لتحقيق مطالب الخريجين .

وأسفر الاقتراع السري عن اختيار الآتية أسماؤهم وانا أسجلهم هنا كما وعتهم ذاكرة من اجتمعت بهم لتجميع عناصر هذا الموضوع :

١ ـ الشيخ أحمد السيد الفيل
٢ ـ الشيخ محمد الحسن دياب
٣ ـ الشيخ عمر اسحق
٤ ـ عثمان حسن عثمان
٥ ـ صديق فريـد
٦ ـ محمد علي شوقي
٧ ـ محمد نور خوجلي
٨ ـ محمد هاشم البارون
٩ ـ ميرغني حمزة
١٠ ـ عبد الماجد أحمد

وعقدت اللجنة اول اجتماع لها وأقسم الاعضاء على سرية المداولات ثم اجتمعت بعدد من أعضاء لجنة الاضراب للطلبة ثم أخذت تجميع البيانات والاحصاءات توطئة لكتابة تقريرها المزمع رفعه لحاكم السودان العام .

وقد ظلت اللجنة توالي اجتماعاتها لفترة طالت شهورا ، بسبب تنازع التيارات داخلها ، فقد ضمت عناصر متطرفة وأخرى معتدلة وأخرى تذهب الى أقصى مواقف الاعتدال !..

وكان اتفاق هذه العناصر المتباينة على صياغة مطالب معينة امرا عسيرا حقا ولكنها مع ذلك استطاعت ان تتغلب على هذه الصعوبات وان تعد تقريرا ضافيا ضمنته كل المشاكل والقضايا التي كان يشكو منها الخريجون والطلبة ، وكان تقريرها أشبه بمشروع اصلاح كامل لشئون الخدمة ، من تعديل للمرتبات للخريجين والطلبة الى تحسين شروط الخدمة من درجات وعلاوات واجازات ، كما تعرض التقرير للتعليم ورفع مستواه كما وكيفا لاحلال السودانيين مناصب ذات مسئولية في وطنهم ، وقد كانوا آنذاك يشغلون وظائف صغيرة بعيدين عن المناصب التي تؤهلهم لحكم أنفسهم فيما بعد .

كان لتكوين هذه اللجنة صدى بعيد تجاوز السودان الى العالم الخارجي ، وقد أبرزته الصحافة الانجليزية مما أقلق انجليز السودان بالاضافة الى القلق الذي أحدثه اضراب الطلبة .

وعندما أكملت اللجنة وضع هذا التقرير ، رأت ان تقدمه لحاكم السودان العام ، واسمه السير جون مافي ، وكان غائبا بالاجازة وقد ناب عنه المستر بل السكرتير القضائي ، اذ كان نائبه الطبيعي السير مكمايكل السكرتير الاداري ـ الطاغية المستبد ـ كان ايضا في اجازته السنوية بانجلترا .

واستقبل المستر بل ـ الحاكم العام بالنيابة ـ تقرير اللجنة ووعد بدراسته والرد عليه .

وعاد مكمايكل من الاجازة وعلم بتقديم التقرير للمستر الحاكم بالنيابة ـ واستلامه له من اللجنة وقيل انه عنف المستر بل تعنيفا على استلامه للتقرير من اللجنة لان ذلك يعد اعترافا من الحكومة بها الامر الذي يأباه الطاغية مكمايكل! والذي عرف بعدائه الشديد لطبقة الخريجين، وقد روي عنه انه قال عند بدء اضراب الطلبة ، اذ يلقي عليهم القبض كلهم ويضربون بكل عصي الخيزران الموجودة في السوق ضربا مبرحا وليذهبوا بعدها حيث يشاؤون !

وعاد السير جون مافي حاكم السودان العام من اجازته ، وقد علم بكل شيء هناك ، وقرأ ما نشرته الصحف الانجليزية عن اللجنة ، وشعر الرجل انه من الخير أن يواجه العاصفة بقدر من الحكمة .

وما كاد يستقر في السودان حتى أمر بارسال خطاب للمغفور له الشيخ أحمد السيد الفيل رئيس اللجنة لكي يحضر لمقابلته ومعه أي عدد يختاره من ممثلي اللجنة . ولكن اللجنة أصرت على ان تقابله بكامل أعضائها وليس بعضهم ، وتم ذلك بالفعل . وكان اللقاء قصيرا اذ ان الحاكم العام

ألقى عليهم قرارا جاهزا يقضي بزيـادة مرتب الطلبة جنيها واحدا فقط ليصبح ست جنيهات ونصف معللا ذلك بسوء الحالة الاقتصادية عالميا وما أصاب السودان من جراء هذه الازمة العالمية . ثم ختم حديثه بأن أعلن اليهم قراره ايضا بحل هذه اللجنة بانتهاء مهمتها .

هذا القرار الاخير كان مؤشرا واضحا الى فزع الانجليز مـن تكتل الخريجين وراء لجنة واحدة منتخبة منهم حتى لا تكون مصدر قلق لهم فيما تبعثه من يقظة في الحركة الوطنية .

تقدمها لجنة العشرة للحاكم العام

ان مطالب الخريجين وان بدت فئوية الا انها تحمل بوادر الثورة والتمرد فان مذكرة لجنة العشرة التي رفعتها للحاكم العام تعد نقطة الانطلاق لمواجهة المستعمر بمطالب وان بدت فئوية الا انها تحمل في طياتها بوادر روح التمرد والثورة . وتسجيل هذه المذكرة تمليه الضرورة التاريخية ، فهي تكشف لنا بجانب ما ذكرت ـ المستوى الذي كان يعيش فيه الخريجون في تلك الفترة القاسية والظروف التي كانوا يعانون منها ، ومحاولاتهم لازالة الغبن الذي حاق بهم . تدخل المذكرة التي قدمتها لجنة العشرة للحاكم العام فتقول :

تسريح الموظفين السودانيين :

ان السودان هو الوطن الوحيد للسودانيين ، اما البريطانيون فهم حكامه ومن الطبيعي والحال هكذا ، وانه ليس لطرف ثالث غيرهما الحق في الانتفاع من هذا الوطن . ولكن على أي حال نلاحظ ان مشروع تخفيض النفقات قد أثر تأثيرا خطيرا على السودانيين دون سواهم وسرح المئات منهم وشردوا من اعمالهم بالرغم من قلة مرتباتهم .

ومن الواضح ان نتائج هذا التشريد لا تنسحب آثارها على المشردين فحسب وانما تمتد لعدد كبير من المواطنين ليس لهم من عائل سوى هؤلاء

الموظفين المشردين ، وقد أصبح هؤلاء وأولئك عبئا ثقيلا عـلى كاهل الوطن ولعلكم لاحظتم ازدحامهم في مكاتب المسئولين بحثا عن عمل وليس ثمة أمل •

وحسبنا نشك في ان سيادتكم تعلمون ان الاذى المترتب على فصل هؤلاء المواطنين وتسريحهم ستعود آثارها على خزينة البلاد ، وقد كنا نظن لهذا السبب ان السودانيين سيكونون آخر من يمسهم قانـون تخفيض النفقات •

تخفيض المرتبات الابتدائية :

لقد ذكرنا في مقدمة هـذه المذكرة ان المرتب الذي يناله المواطن السوداني لم يكن مطلقا في أي وقت من الاوقات كافيا لسد نفقاته ومقابلة حاجياته •

ولو كان مرتبه كافيا لدفعه واجبه الوطني في هذه المرحـلة الحرجة لقبول التخفيض عن طيب خاطر ضريبة لتطور الوطن واسهاما في حل مشاكله المالية • ولكنكم تعلمون ان الثمانية جنيهات ــ وهي مرتب خريج كلية غردون قد قررت بهذا الشكل على اساس ان الموظف السوداني يخـدم بلاده ويضحي من اجلها ، وتثبت ذلك حقيقة ان الموظف غـير السوداني الذي يتمتع بنفس المؤهلات بل وفي بعض الاحيان بما هو دونها يستحق مرتبا يتراوح بين الاحدى عشر والاربعة عشر جنيها • واذا قارنا ذلك بما يحدث في مصر لوجدنا ان خريج المدرسة الثانوية (شهادة البكالوريا) وهو يوازي خريج كلية غردون يتقاضى مرتبا قدره سبعة جنيهات ونصف « طبقا لآخر تعديل » بغض النظر عن النسبة العالية من المثقفين في مصر والتنافس الشديد من اجل الوظيفة •

على أية حال ، فانه يمكن ان يقال ان الخريجين الذين يتمتعون بمثل ما تتمتع به من شهادات في البلدان الاخرى يتقاضون مرتبات لا تزيد عن

المبلغ الذي تريدون ان تهبطوا بمرتباتنا منه ، ولكن هذه الحجة تدحض نفسها بالتأكيد اذا طبقنا ما ذكرناه حول مصر من وجود التنافس الشديد في تلك البلدان بالاضافة الى وجود مجال واسع للتقدم والترقية نسبة لوجود مستويات أعلى للدراسة وتنوع هذه الدراسة . والحال يختلف جدا في السودان فليس امام الموظف السوداني أية فرصة لتلقي المزيد من التعليم « بما في ذلك طلبة مدرسة كتشنر الطبية » كلية الطب الآن وبالتالي ليس امام الموظف السوداني اية فرصة للترقية ، وعلى هذا الاساس فان مقارنتنا بالدول الاخرى تكون مسألة غير عادلة .

وبالرغم من ذلك فان المرتب الابتدائي المقدر بثمانية جنيهات ، وقد حدد على اساس انه يكفل مقابلة الحد الادنى من متطلبات الموظف السوداني في فترة ما قبل الحرب عندما كانت تكاليف المعيشة أقل بكثير مما هي عليه الآن ومما لا جدال حوله ان تقدم الحياة وتطورها يتطلب بالتأكيد زيادة المنصرفات وهذه تتطلب بالتأكيد المزيد من الدخل ، وتكفي نظرة خاطفة لحياة السوداني في هذه المرحلة ومقارنتها بجماعة قبل الحرب لاثبات الفارق الاساسي بين الاثنين ، « يقصد الحرب الكبرى ١٩١٤ ــ ١٩١٩ » فالموظف بلا شك انحرف بلا وعي منه في المدنية الحديثة وهذه حقيقة لا تسمح له بالهروب من متطلبات هذه المدنية من مطعم وملبس ومسكن وتعليم ... الخ .

ومما لا شك فيه ، ان مبلغ الخمسة جنيهات ونصف التي حددت الآن كمرتب ابتدائي لخريج كلية غردون لا يمكن ان تكفي بأية حال من الاحوال لسد حاجياته شخصيا حتى ان كان لا يعنى بغير معدته ، ناهيك عن سد حاجة من يعتمدون عليه من الاهل والاقارب بحكم الدين والتقاليد والعادات التي تتحكم في هذه البلاد ، والتي تدركونها سيادتكم جيدا .

ولكن ــ حتى اذا افترضنا المستحيل وأهملنا كل هذه الروابط ــ فكم من هذا المرتب الضئيل يصرفه الموظف في طعامه ؛ وكم منه في ملبسه

وكم منه في مسكنه ، وكم منه في مواصلاته « مع ملاحظة ان سعر الابونيه ــ في الترام حيث كان وسيلة التنقل الوحيدة بين المدن ــ يتراوح بين ٨٥ قرشا و ١١٥ قرشا وكم في تثرياته وقبيل كل ذلك كيف يمكنه ان يعد نفسه للمستقبل وما فيه من أثقال وآمال كحيازة منزل او زواج وأطفال وتعليم ... الخ . »

يا سعادة الحاكم العام :

اننا لا نريد ان نثقل على الحكومة بطلبات غير معقولة ولكن كل الذي نسعى اليه هو ان نكون قادرين على مقابلة حاجياتنا الاساسية ، وسيادتكم لا شك توافقوننا ، على ان هذا هو أقل ما يمكن ان تطمع اليــه نفس انسانية لقد توصلنا ، بعد تدقيق وتمحيص وتحقيق في القانون الجديد ، انه لا يؤخرنا خطوات الى الوراء فحسب ، بل انه سينزل بنا الى مستوى الطبقات الدنيا من سائقين وخدم ... الخ .

لقد عانى خريج كلية غردون مدى اثني عشر عاما من الدرس والتحصيل ليتمكن من تحسين حياته والنهوض بها ومن الصعود بفضل علمه الى مستوى الطبقات العليا التي يلتصق بهــا دوما في مجال عمله وحياته الخاصة .

ان المدخرات التي يمكن ان تتجمع من هذا التخفيض في المرتبات وبالتالي في المستويات لا يمكن ان تكون وسيلة فعالة في انقــاذ الوضع الراهن والحالة المالية السيئة ، ولا سيما وان الحكومة في حاجة لغوث سريع لموازنة الميزانية في السنوات المقبلة والمدخرات التي يمكن ان تجمع من هذا التخفيض لا يمكن ان تبلغ مبلغا محترما لسنين كثيرة مقبلة .

ورغم ذلك فاننا لا نتجاهل حقيقة ان الحكومة في حاجة لاي غوث مهما كان ضئيلا لتقديم الحالة المالية السيئة ، ولكن الاذى المترتب على هذا التخفيف والذي ينسحب على الموظف ليفوق بكثير ما يمكن ان يعود

من التخفيض من حسنات واننا نعتقد ان الحكومة لن تخسر على الاطلاق، اذا ضحت بهذا المبلغ من اجل ان تحفظ الوطن والمواطنين من عوادي الدهر .

كفاءة الموظف السوداني واخلاصه في العمل :

لقد انسلخت الى الآن خمسة وعشرون من الاعوام منذ ان دخل الموظف السوداني الذي تلقى العلوم الحديثة الى الخدمة الحكومية .

وفي هذه الفترة اضطلع الموظف السوداني بمسئوليات كثيرة في عدد من مصالح الحكومة ، ونحن لا نتردد مطلقا في القول بأن الموظف السوداني قد أبدى كفاءة واخلاصا وحيوية ومواظبة تؤهله لتولي المسئولية حتى في الاقسام الهندسية الصعبة التي لم يتخصص فيها ، وقد اهله لكل ذلك استعداده الطبيعي وحرصه على اثراء معلوماته واستفادته من الخبرة العملية وقبل كل ذلك ما لقيه من عون ومساعدة من موظفي حكومة السودان الممتازين الا ان الموظف السوداني في وضعه الحالي كموظف صغير محجوب عن المسئول البريطاني ، عاجز عن اظهار مواهبه للرئيس البريطاني وأهليته لتولي مناصب أرفع ، وفي الفرص البسيطة التي تمكن فيها البعض من قيادة بعض المكاتب ثبت ما لدى الموظف السوداني من مواهب جمة وتمكن البعض من تولي مناصب كبيرة .

وبالاضافة الى ذلك فان التقارير ـ التي لا شك قد اطلعتم عليها لتثبت بوضوح كفاءة الموظف السوداني وحبه لعمله .

يا سعادة الحاكم العام :

ان الموظف السوداني ، مسلح بحبه لعمله وباخلاصه في خدمة بلاده وبالكفاءة التي أثبتها ، وبالخبرة التي اكتسبها ليتقدم الى سيادتكم طالبا العطف والعدالة وطالبا وضعه في مكانه الطبيعي ـ خلف المسئول البريطاني .

التعليم :

يا معالي الحاكم العام :

ان الظروف الراهنة قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ـ نسبة لقلة التوظيف وازياد عدد السودانيين المتعلمين ـ ان الوقت حان لاجراء تغيير أساسي في التعليم العالي في البلاد حتى يمكن تفادي العطالة ـ في هذا الوقت المبكر ـ والتي تطل الآن برأسها وتهدد بأن تصبح مشكلة يتعذر حلها وتصعب معالجتها . وان المناهج الحالية في التعليم تهدف في المقام الاول لاعداد موظفين لحكومة السودان . ولكن الحاجة تتطلب الآن ان يعد الطلاب في السودان للخدمة في مجالات أخرى غير الحكومة وذلك بواسطة :

١ ـ ترقية مستوى التوجيه الحالي في أقسام كلية غردون الحالية الى المستوى الذي يمكن لخريجيها ان ينافسوا الاجانب الذين يزحمون القطاع الخاص بفضل درجات تعليمهم العليا .

٢ ـ العمل على ان تشمل مناهج التدريس المزيد من المهن التي لم توفر حتى الآن مثل التجارة والقانون والزراعة والبيطرة ... الخ وان هذا من شأنه ان يفتح للخريجين آفاقا جديدة لكسب عيشهم دون الاعتماد على الحكومة .

ولاء الموظف السوداني :

ان الموظف السوداني يحس بمجهودات الحكومة للنهوض بهذا الوطن والتي يتحدث في حالة المدنية التي وصلنا اليها في ثلث قرن وهو زمن قصير جدا بالنسبة لاعمار الشعوب ، وان الموظف السوداني ليحس انه هو نفسه نتاج لهذه الجهودات ولهذا ولاءه للحكومة لا يمكن الا ان يكون حقيقيا وصادقا وان يكون ولاء يدفعه لخدمة الحكومة في كل وقت وتقدير ما تقدم به ، وعكس ما يحس به من احاسيس صادقة ومن مظالم في بعض

الاحيان ، وهذا الولاء لا شك يختلف عن الولاء المزيف الذي تبديه بعض القطاعات الاخرى من الناس والمدفوعة باغراضها الخاصة .

يا سعادة الحاكم العام :

ان أقصى ما يرغب فيه الموظف السوداني هو ان يعيش في تفاهم تام وتعاون مع حكومته وان يؤدي وظيفته الاساسية في الادارة وتقدم البلاد كعضو حي من مجموع السكان . وهو ايضا حريص كل الحرص وعند طرح آماله وآلامه على حكومته ومنفعتها وتقدمها ولا يمكن ان تعدمطالبه كنوع من فقدان الثقة او الجحود بافضال حكومته .

عمومي :

يا سعادة الحاكم العام :

ان الامل هو محور الحياة في هذا العالم ، وبالامـل وحده يتحمل الانسانمصاعب الدنيا ، وان الموظفالسوداني امتثالا بهذه الحكمةليتحمل في صبر بالغ ان يرى من هم دونه يقفون حائلا بينه وبين مكانه الطبيعي في الصدارة بعد البريطانيين ـ مدركا للاسباب التي وضعتهم هناك ، ولكنه في الوقت ذاته يأمل ان يصحح هذا الوضع وان يتحرك هو الى مكانه الطبيعي .

وانه مما لا شك فيه ، ان من المهم جدا ان يوضع الموظف السوداني في مكان متساو ـ ان لم يكن افضل من زميله الموظف غير البريطاني وانه لا ينبغي ألا يكون في القوانين ما يجعله يحس بانه في مرتبة أقل من الموظفين غير البريطانيين. ومن المهم أيضا وبقدر متكافىء أن يلقىالموظفالسوداني من المعاملة من رؤسائه ما يحيي فيه جذوة الامل في المستقبل ويشجعه على العمل دون استرخاء ، والا فان الموظف لا شك سيفقد آماله ويترك عنانه لليأس ويقع فريسة خيبة الامل .

اننا لنؤمن انه ليس من وظيفتنا ان نقترح للحكومة الحلول اللازمة

الحالية الراهنة ، ولكن اخلاصنا للحكومة يدفعنا لان تتقدم بهذه الحقائق للحكومة •

ان نصف الموظفين الذين يعملون الآن في خدمة الحكومة غير بريطانيين وغير سودانيين • وهم يتقاضون من المرتبات ما يقرب من ربع مليون جنيه، وهو ما يساوي مرتبات السودانيين العاملين بالحكومة ومما لا شك فيه ، ان عدد هؤلاء الموظفين ومستوى مرتباتهم عالي جدا ناهيك عن التكاليف الاخرى تتكبدها في سبيلهم الخزينة ، وانه من مصلحة البلاد في الظروف الراهنة ، ومن أجل اقتصادنا ، ان نستغني عن أكبر عدد ممكن من هؤلاء الموظفين لا سيما وان هناك عددا كافيا من السودانيين يمكن ان يملأ وظائفهم بجدارة •

ونود ان نلفت انظار سيادتكم لمسألة اخرى ايضا ، وهي ان البنوك والمؤسسات التجارية تستفيد من هذه البلاد وليس أقل ان تفيدها بتعيين أبنائها في وظائفها ونرجو ان يعمل سيادتكم على ان يفرض على هذه البنوك والمؤسسات التجارية أمرا بأن تعين السودانيين بدلا من الاجانب الذين تعينهم الآن •

الآن وقد شرحنا لسيادتكم كل ما عن لنا شرحه في هذا الظرف الذي كان يطيح بآمالنا ، ندرك تمام الادراك ان العطف ، والعون الذي قدمه سيادتكم دائما لهذه البلاد ، لن يزول الآن ونحن في هذا الوضع الصعب الحرج واننا لعلى ثقة ان سيادتكم ستستجيبون لكل مطالبنا وستزيلون ظلاماتنا وستحولون متاعبنا الى آمال وانشراح ، وستعملون على ان تحققوا كل ما نصبو اليه من خير ورفعة لهذا الوطن ولشعبه •

أحمد السيد الفيل

عمر اسحق

محمد نور خوجلي

ميرغني حمزة

عبد الماجد أحمد
محمد علي شوقي
محمد الحسن دياب
عثمان حسن عثمان
حسن علي هاشم
محمد صديق فريد

ملحوظة :

في حالة رغبة الحكومة اجراء أي اتصال حول هذه المذكرة الرجاء الاتصال برئيس لجنة الموظفين السيد احمد السيد الفيل .

لم يقم الحاكم العام وزنا لهذه المذكرة وأغفلت الحكومة امرها وأصدر الحاكم العام أمرا يحل لجنة العشرة فورا حتى لا يتيح الفرصة لمناقشات تدور بينها وبين الحكومة تساعد في نشر الوعي الوطني وهو أكثر ما يخشى حدوثه الانجليز .

الحكم للعقل ليس الحكم للصور

دعونا نخرج قليلا عن عالم التقارير والوثائق التي تحدثت عن الازمة الاقتصادية في أوائل الثلاثينات وأدت الى اضراب طلبة الكلية واجتماع الخريجين لانتخاب لجنة العشرة وتقريرها للحاكم العام وما تمخض عنه من فشل وتعالوا معي الى عالم الشعر لنرى ان كان هناك من شاعر هزته أحداث تلك الفترة ، فعبر عن مشاعرنا وما كنا نحس به من غيظ وسخط ؟

بلى ! كان هناك شاعر الجيل الذي كان له في كل مناسبة شعر يتجاوب معنا ، ذلكم هو أستاذنا عبد الله عمر البناء .

وكنا نعرف أن جريدة « حضارة السودان » كانت تحتفي بشعره وتقدمه في ديباجة أخاذة مشيدة به ، معتزة مزهوة بما تنشر له !

ولكنها اليوم توصد أبوابها في وجه الشاعر ، وتأبى نشر قصيدته هذه ، لان الحكومة لم تكن راضية عن القصيدة ، فهي تمس سياستها وتنال منها وتغمزها في أسلوب شعري جيد .

وحسنا فعلت الحضارة ! فقد تناولتها أيدي الشباب المتعلم وأخذ كل منهم يهديها للآخر ... من كان في العاصمة ومن كان خارجها يعمل في أقصى الاقاليم ، كان البريد يزخر بها أنى اتجه .

أذكر أني كنت آنذاك أعمل مدرسا في بادية الكبابيش وجاءتني

رسالة من صديق يحدثني عن القصيدة المحرمة ويرسلها الي ولعله لا يدري أية سعادة غمرتني بها وأنا في ذلك القفر البدوي أقرأ أكثر من مرة قصيدة البناء فأجد فيها شفاء الغليل مما كنا نعاني .

اننا دائما نحن للماضي حنينا موجعا وان كان حاضرنا خيرا منه ــ لو صح ذلك ــ فقصيدة البناء التي استعرضها اليوم تنقلني الى تلك الفترة التي كنا نشكو من قسوة الحياة فيها وطغيان الاستعمار واذلاله للشعب عامة والمتعلمين خاصة ...

ومع ذلك فأنا أتوق الى ذلك العهد وأتشوق اليه ، ويخيل الي ان مرارة تلك الايام تتذوقها الآن شهدا ، بل أحلى من الشهد !

ماذا قال البناء ، وكيف خاطب مشاعرنا آنذاك ؟ وانه يبدأ قصيدته بهذه الثورة النفسية التي جعلته يرفض سراء الحياة فهي ليست من وطره، وينكر الصفاء على قلبه ، وان جمال الطبيعة من حوله لن يكشف الضجر عنه ، ولا الغناء ولا الاوتار ، ففي هذه الايام المظلمة القاسية لا يتطلع الى الانس والبهجة الا جهول بما يحدث في بلاده من مآسي :

يا ناضر الروض ما السراء من وطري
ولا الصفاء الى قلبي بمنتظر
سلوت عن بسمات الزهر رائعة
وعن شميم الشذا من عزمه العطر
وليس للطل منظوما ومنتشرا
ان يكشف الهم عن قلب به ضجر
ولا غناء حمام الايك ينعش من
آماله ، لا ، ولا التوقع بالوتر
لا يظبي الانس والايام مظلمة
الا جهولا ، وليس الجهل بالخبر

أمـا فتــى قلبــه مثل بطـل بــه
على خبايـا الزوايـا فهو في كـدر

ويقف بنا الشاعر عند أرض الجزيرة ليجلو لنا محنتها القاسية وقد هبط سعر القطن وطحنت الازمة آمال المزارعين ، فهربوا من حواشاتهم وتركوها للغزاة من أواسط وغرب أفريقيا ... زحف اليها « البرقو » من السودان الفرنسي « تشاد اليوم » والفلاتة من نيجيريا ، ورضي بهم رجال الادارة لكي ينتجوا القطن الذي أصبح مـادة هامـة لمصانع ليفربول ولانكشير في انجلترا ... وصمـد بعض المزارعين السودانيين للازمـة فعملوا بغير أمل في الكسب في تلك الحواشات ، وكانت محنة مزارعـي الجزيرة من أقسى المحن التي مرت بها البلاد آنذاك لما نالهم في أنفسهم من ضرر ولان الوافدين الغرباء سنحت لهم فرصة تملك الحواشات في أرض الجزيرة الفيحاء ... والشاعر اذ يجلو تلك المأساة ، يذكر بالخير عهد الجزيرة قبل الخزان عندما كانت تروى بالمطر « دموع الميا » فتنيل الخير لاهلها وتنقذهم في السنين السود :

مـا للجزيـرة جـلا اللـه كـربتهـا
تخالها ــ وهي أرض الخلد ــ في سقر!
جـداول تتبـارى وهـي طـافحـة
كأدمـع الحـزن لا توليك عن ثمـر
وشقـة في اكتسـاب المـال مهلكـة
والمـال ليس له في القـوم من أثـر
أرض دمـوع الحيا كانت تصوغ لهـا
في كل أونـة عقـدا مـن الـدرر
والغيـث ينعش أهليهـا اذا كلحـت
سود السنـين وضلت حكمة البشر

ويذكر الشاعر مأساة الجزيرة بعد أن جرت فيها جداول ماء الخزان بعد المطر ، فاذا بخصبها « يضني العباد » وان لم يستفد من زرعها غير البقر التي كان يلقى اليها القطن علفا !

ما بـال فيضـك يا نيل الحيـاة غـدا
فيها سقاما ، وما للتـرب غير شري !
ما بـال خصبك قد أضنى العبـاد ولـم
تظهـر مواقعـه الا على « البقـر »
ما بـال من جوهـدوا في خدمة صمتوا
كأنما قد رمـوا بالعـي والحصر !
هل أضمر النيـل غـدرا للألىء قهـروا
مجـراه أن يركب البيـداء بالحفـر
أم أكبـر التـرب من سكانـه صلفـا
فأشقاهـم أدبـا بالضيـق والعسر
أم كـان للـه شـأن في خليقتــه
ولقاهمـو منـه خطبـا غير منتظـر

وينتقل بنا الشاعر الى مأساة أخرى كنا نضج منها ... كانت الحكومة قد خلقت نظام الادارة الاهلية وحشدت له النظـار والعمد والمشايخ ، وقوت من شأنهم وأسندت اليهم سلطات واسعة ، وأمدتهم بسلطـات قضائية باعدت بينهم وبين أهلهـم وعشيرتهم وسائر الناس لما عرف بهم أكثرهم من سوء تطبيق هذه السلطات ، وجنوحهم الى التشفي والانتقام من مخالفيهم جهرا أو سرا ... وكان الانجليز يؤيدونهم في كل ما يفعلون سعيا منهم لتوطيد هذا النظام الجديد ... يتلفت الشاعر الى هذه الفئة الجديدة التي كان في مقدورها أن تنصح الحاكمين وتوجههم لمعالجـة الموقف بما يعود بالخير للبلاد ، ولكنهم صمتوا ، بل سايروا الحاكمين في

سياستهم . والشاعر هنا يجعلهم مجرد صور لا تحس بمسئولية الحكم ولا بمسئوليتها نحو البلاد ...

ويقول :

يـا أمـة هـي بالاحكـام مـولعـة
الحكم للعقل ليس الحكم للصـور
سألتكـم ـ وخطـى الاعمـال واقفـة
وسلعـة القطـن أمست شر متجـر
ماذا سكوتكـم ؟ وماذا كان قولكمـو
عن البـلاد وما تخشـاه من ضرر ؟
من للبنـين وقـد ضاق الخنـاق بهـم
وأصبحوا حين عز العلـم في غـرر
أيتركون على حكـم الهـوى همـلا ؟
وهم همو للمعالي خـير مدخـر ؟
ردوا الجـواب ، رعيتم يا بني وطنـي
أو أتقوا الله وأسعوا سعي ذي حذر
فالارض شائكـة وعـر مسلكهـا
وكلكـم عجـل ماشي عـلى الابـر

والبناء هنا يذكر هؤلاء الذين قربهـم الانجليز من رجالات الادارة الاهلية بواجبهم نحو أبنائهم المتعلمين الذين أخذ الانجليز يحاربونهم في أرزاقهم فخفضوا مرتباتهم وقللـوا من شأنهم ، ويذكرهم بأن الخير كل الخير في البر بالوطن .

مـا كـرم المـرء شيء مثـل غـيرتـه
على الشبيبـة يحيي كـل منـدثـر

ولا فخـار بغـير الصالحـات ... ولا
يبقى سوى البر بالاوطـان في السير
رب الضعيف على الانصاف تلقـى بـه
عونـا على الدهر ان تأمره يأتمـر
ولا تسـق بالعصـا قومـا ذوي شرف
فالحـر يأنف أن يرضـى بمحتقـر

ويهيب بالشباب ، ان كانت دور العلم لم تعد غير مجال للكوارث التي تحيق بهم ، فليتجهوا الى الصناعة ففيها منجاة من الخطر !

ما الحكم ، ما العلم ، ما الاعمال أجمعهـا
الا نمـاذج من وعـظ ومن عبـر

وقد يبدو ما جاء في هذه القصيدة عاديا في هذه الايام التي نعم فيها الناس بالحرية ، ولكنها آنذاك كانت ثورة حفل بها الشباب ، فحفظهـا أكثرهم عن ظهر قلب ، وتناقلها في كل مكان وزاد من أثرها ان الحكومة حاربتها ، وأبت جريدتها الرسمية أن تنشرها ، بعد ان كانت تحتفي بشعر البناء وتضعه في الصدارة .

لاضعاف فرص الخريجين للقيادة

قلت من قبل أن الانجليز لم يخفوا حنقهم ومقتهم للخريجين بعد ثورة ١٩٢٤ اذ أخذوا يناصبونهم العداء جهـرة ، وأحس الخريجـون في كل المكاتب التي يعملون فيها بكراهية رؤسائهـم الانجليز لهم وتحقيرهـم لشأنهم كلما واتتهم فرص التحقير ، بل كانت هذه الفرص تخلق خلقا ومن أتفه الاسباب .

وبادلهم الخريجون نفس شعور الكراهية والحقد ، ولكنهم لم يكونوا في موقف يمكنهم من التجمع واتخاذ خطوة ما ، كانوا يتوقون لليـوم الذي يجتمعون فيه في صعيد واحد ليجمعوا أمرهم على خطوة ما تظهر قوتهم وترصد أعداءهم .

ولم يقف الانجليز في كراهيتهم للخريجين عنـد حد ابداء مشاعرهم فقط بل عمدوا الى اصدار القوانين واللوائـح التي تسلب الخريجين ما كانوا يتمتعون به من حقوق ضئيلة بالنسبة لغيرهم من الموظفين الاجانب ولا سيما الانجليز الذين كانوا يحظون بنصيب الاسد من الخزينة .

عمد الانجليز الى مرتبـات الخريجين وعلاواتهم فأنقصوها وبتروا الاجازات الى أقل حد ممكن ، بدلوا الدرجات القديمة التي كانت أفسح مجالا الى أخرى قيدت خطوات الترقي .

وكان الظن بعد أن أقصي الموظفون المصريون بعد ثـورة ١٩٢٤ أن يحل الموظفون السودانيون محلهـم في الوظائف التي شغرت باقصـاء المصريين ، ولكن الذي حدث ان قرب الانجليز اليهم الموظفين السوريين واللبنانيين وشغلوا بهم المناصب وأدنوهم وجعلوا منهم سدا يحول بينهم وبين الموظفين السودانيين .

ثم خطوا خطوة خطيرة هدفها اقصاء الخريجين من أي تطلع لقيـادة المجتمع فاتجهوا لخلق نظام الادارات الاهلية ، بهـدف قيام حكم محلي قيامه ودعاماته النظار والمشايخ والعمد ، فصنعوا منهم قوة أصبحت مركز الثقل في المجتمع آنذاك .

أصدروا أولا قانون سلطات المشايخ الرحل ، في عهد الطاغية المستر مكمايكل السكرتير الاداري وأوفدوا رسلهم الى نيجيريا لدراسة تجربة الادارة الاهلية التي بدأت هناك تحت رعايـة وتخطيـط أحد دهاقنـة الاستعمار البريطاني عندما كان يهيمن على نيجيريا .

وكان اللورد ملنر السياسي المعروف في تاريـخ مصر والسودان قد نصح حكومة السودان في تقريره المشهور بألا تقع في الخطأ الذي وقعوا فيه في مصر بافساح المجال للمتعلمين لكي يقودوا المجتمع ، وقد حـذر الحكومة تبعا لهذا الوضع من التوسع في التعليـم حتى لا يكثـر عدد المتعلمين ، هذا البعبع المخيف .... والذي ابتلعهم فيما بعد رغم شدة الحذر ... حقا ، من مأمنه يؤتى الحذر .

أخذ الانجليز بنظام الادارة الاهلية بعد أن شهدوا التجربة في تربتها نيجيريا ــ وصاروا يبحثون عن القيادات القبلية التاريخية التي لم يعد لها كيان ، وأعادوا كيانها من جديد ، فخلقـوا نظارا ونظارات من العـدم ومنحوها سلطات واسعة ، وشدوا من ازر النظارات التي كان وجودها أشبه بالرمز ومنحوها حياة قوية خصبة .

وجعلوا من جريدة حضـــارة السودان ــ الجريدة الوحيدة آنذاك والناطقة باسمهم وان كانت تحمل أسماء السادة الثلاثة السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي كأصحاب امتياز لها ــ جعلوا منها بوقا للنظام الجديد يتحـــدث عنه في اسهاب ، ويقوم رئيس تحريرها المغفور له الشيخ أحمد عثمان القاضي بجولات في مختلف أنحاء السودان يشيد بالوضع الجديد ويعرض محاسنه ويثبت من دعائمه..

وأحس الخريجون بالخطر يحدق بهم من كل جانب ، فهذا النظـام الجديد موجه ضدهـم ، وهم يحاربون من قبـل رؤسائهم الانجليـز وأعوانهم داخل مكاتبهم بألوان من السلاح ــ وفي كل فترة يصدر منشور جديد يسلبهم من حقوقهم قدرا ... ولم يكن اضراب طلبة الكلية الا مجرد ذريعة ليعقد الخريجون اجتماعهم التاريخـي والاول من نوعه في نادي الخريجين بأم درمان مهد الحركة الوطنية بحق ... في مستهـل الثلاثينات ، حدثت أزمة اقتصادية عالية ، ونال السودان ما نال غيره من شواظ تلك الازمة ...

كان السودانيون بمعزل تام عن معرفة ميزانية بلادهم ، كيف توضع وكيف تنفق ؟ اذ كان الانجليز قد انفردوا وحدهم بوضع الميزانية ، فهي سر مغلق على غيرهم ، وخاصة السودانيين ، فلا أحد منهم يدرك كنهها أو يقترب من محيط أسرارها .

وفوجئوا بالازمة ، لان الغرم قد وقع عليهم وحدهم فقد استخدمت حكومة السودان رجلا زعمت انه من خبراء الاقتصاد ليصلح من شأن الميزانية ويعينها على اجتياز ذلك المأزق الذي وجدت فيه .

وجاء مستر « فاس » الخبير المرتقب ، فلم يجد أمامه لاصلاح الحال الا مرتبات الموظفين والعمال فأعلن عن اقتطاع ٧٫٥ ٪ من كل المرتبات.. ثم أعلن عن حاجة الحكومة الى « استدانة » شهرية من مرتبات الموظفين. لمن يشاء منهم ترد اليهم فيما بعد ...

ووجد هذا النداء استجابة ضئيلـة من بعض الموظفين فأقدموا على منح الخزينة نحو ٥ ٪ من مرتباتهم فوق ٥ر٧ ٪ وبعضهم قدم أقل ... وبعض أكثر ... ولا أحب اليوم أن أتهم هؤلاء بما اتهمهم به اخوانهم في ذلك العهد ، بأنهم فعلوا ذلك تملقا ، اذ كان كل متبـرع او دائن ، يتلقى خطاب شكر من رئيس مصلحتـه شخصيا . على ان هؤلاء كانوا قلة لم يكن لها أثر يذكر على الخزينـة التي لم نكن نعلم مدى عجزها ، وأسبابه ، ولكنا كنا جميعا نحس بهذا الاقتطـاع الجبري من مرتباتنـا لترقيعها .

ثم هوى مستر « فاس » بفأسه على رؤوس الكثيرين من الموظفين والعمال ففصلهم من العمل بحجـة « التوفير » ... احتال على بعض الموظفين والعمال بعدم معرفة الكتابة فحرمهم من العمل ، وقد اشتـق السودانيون آنذاك من الكلمة الانجليزيـة التي كانت تستعمـل لتوفير الموظفين والعمال كلمة « ترنشة » فيقولون : فلان ترنشوه ويعنون انه فصل من العمل ... بل ان الكلمة قد اتسع نطاق استعمالها حتى شملت الطلاق ... فاذا خبروا عن طلاق زيد ، قالوا عنه انه « ترنش » زوجته.. وهكذا استقبـل السودانيون تلك الكـوارث والفواجـع في جو من السخرية ، ولم يهنوا او تهبط معنوياتهم للحد المزري بالكرامة .

وبعدت الشقة بين الخريجين والانجليـز ، وعم السخط أوساطهـم وتمادى الانجليز في الضغط على الخريجين ، الذين كانت تستوعبهم مكاتب الحكومة وتقيدهم الوظيفة ، اذ لا مجال للعمل الحر ، فالشركات القليلة القائمة كانت كلها انجليزية او تخضع للنفـوذ الانجليزي ، وموظفوهـا الكبار كلهم انجليز ، يعاونهم مساعـدون من الاوروبيين وأكثرهـم من اليونان ولا يوجد سوداني واحد في مكاتب هذه الشركات الا في الخدمات الصغيرة التي يترفع عن ادائها السادة البيض كل هذا قد ساعد الانجليز لكي يشددوا ، النكير على الخريجين ويسوموهم العذاب ، وفي الوقت

نفسه يفرقون على زعمــاء العشائر السلطان والنفــوذ والجاه ويضربون بقسوة ضارية كل من تحدثه نفسه بمعارضتهم أو النيل منهم • فقد كان واضحا منذ البدايــة ان الانجليز خلقوا نظام الادارة الاهليــة للقضاء على نفوذ الخريجين في المجتمع ، وسد الطريق امام تطلعاتهم لكي يكون لهم شأن في حكم بلادهم •

ولا يمكن لاحد لم يعش تلك الفترة ويكتوي بنارها ان يتصور الى أي مدى كان الارهاب الذي بسطه الانجليز على مجتمع الخريجين وكيف كان قلم المخابرات يحصي كل خطواتهم ، حتى حياتهم الخاصة كانت ترصد وتحصى ••• ويحاسبون عليها حسابا عسيرا •

ومع الاسف ـ أكتب هذا وأنا حزيــن متألم ـ فان قلم المخابرات الرسمي لم يكن وحده في هذا الميدان ، فقد كان هناك أيضا بعض ضعاف النفوس من الموظفين جعلــوا من أنفسهم عيونا على اخوانهــم لدى الانجليز ••• ولم تكن هذه القلة بمجهولة من الآخرين فقد كان اكثرهم « مكشوفا » ولهذا فهو قليل الخطر ••• ولكن كان الخطر يكمن في تلك القلة البارعة الذكاء والتي كانت تحسن الظهور في الزي الوطني المتطرف، وتجيد أحاديث الوطنية ولكنها تعمل في الخفاء ما يخجل من القيــام به الجواسيس المحترفون في قسم المخابرات • ولكن القافلة كانت تسير في حذر ويقظة رغم تساقط الضحايا هنا وهناك •

فالى نادي الخريجين بأم درمان لنلتقي بجمعهم الحاشد يواجه لاول مرة مشاكلهم جهرة •

المستشرق زويمر يحاضر في السودان

في مستهل الثلاثينات زار العاصمة السودانية القس المبشر المشهور صمويل زويمر ، الذي يعد من أشهر المستشرقين في تلك الفترة .

وكان زويمر قد اتخذ من الكنيسة الامريكية في القاهرة مقرا له وكان يجيد اللغة العربية الفصحى نطقا وكتابة ، وقد كان له اهتمام بالغ بالتاريخ العربي عامة والدراسات الاسلامية خاصة ، وكان يهـدف من وراء هذه الدراسات الى البحث عن المطاعن التي يمكـن ان يوجهها الى الديـن الاسلامي .

وكان مقره القاهرة مقصدا لعـدد كبير من العلمـاء المسلمين وغير المسلمين من مختلف الاقطار يناقشونه وقد يهاجمونه في قسوة لما كان يبثه من أفكار تمس من قريب أو من بعيد الدين الاسلامي او التاريخ العربي بقدر من التشويه .

وكان له مع علماء الازهر في تلك الفترة مساجـلات حارة يذكرهـا من عاشوا تلك الفترة ، فقد كان زويمر دائما موضع هجوم اولئك العلماء، فاكتسب بذلك شهرة واسعة في كل الاقطار العربية .

ولهذا فان زيارته للسودان كانت حدثا اهتم له المثقفون والعلمـاء ، ولم تكن هذه الزيارة الاولى لزويمر فقد سبقتها قبل سنوات زيارة قصيرة سنعرض لها فيما بعد .

قلت ان زويمر كان متمكنا من اللغة العربية الفصحى ، وقد سمعت انه وضع كتابا باللغة العربية اسمه « الغواص واللآلىء في حياة الغزالي ».

وكان يحرر في مجلة « العالم الاسلامي » باللغة الانجليزية . وفي صفحة ٢٣٨ من (المنجد) للاعلام كتب ما يلي :

(صموئيل زويمر) مستشرق — محرر مجلة العالم الاسلامي بالانجليزية — له مؤلفات قيمة في العلاقات بين المسيحية والاسلام ، منها (يسوع في احياء الغزالي ألفه سنة ١٩١٢) .

وزيارة رجل كهذا للسودان لا بد من ان تحظى بالاهتمام الكبير من العلماء والمثقفين ، ولم يلبث الا قليلا حتى أعلن عن القاء محاضرة عن سيدنا عمر بن الخطاب في دار الارسالية الانجليزية في مقرها بأم درمان .

وفي الموعد المحدد جاء عدد كبير من العلماء والمثقفين ليستمعوا الى هذا المستشرق الامريكي يتحدث باللغة العربية الفصحى عن سيدنا عمر.

واعتلى المنصة ، وأخذ يتحدث بلغة سليمة الا ان لسانه ما زال يعاني من لكنة العجمي بعض العناء .

وأحس المنصتون لحديثه ان زويمر يرفع من شأن سيدنا عمر في مناسبات معينة لها صلة بالنبي الكريم وكأنه يريد أن يثبت من طرف خفي ان سيدنا عمر كان يوجه النبي ، وان القرآن قد نصره في غير موضع عندما أبدى آراء تغاير آراء النبي ، وقد استدل في هذا بموقفه من أسرى موقعة (بدر) فقد كان من رأي النبي ان يقبل فيهم الفداء فيطلق سراحهم ، وعارض عمر هذا الرأي ، ونادى بقتلهم ، وهبط الوحي يتلو على النبي آيات قتلهم كما رأى عمر (سورة الانفال) ثم عرج على قصة (الحجاب) لنساء النبي ، وكيف نزل القرآن مؤيدا له (سورة الاحزاب) .

وعرج على قصة تحريم الخمر ورأي عمر فيها ونزول القرآن مؤيدا (المائدة ــ البقرة) •

وأشار الى بعض أقوال الاقدمين في سيدنا عمر وموافقة القرآن له في بعض آرائه التي خالف فيها النبي :

(نزل القرآن بموافقته في أسرى بدر ، وفي تحريم الخمر وفي مقام ابراهيم) •

بمثل هذا وغيره كان يتحدث زويمر في تلك الليلة لمستمعيه في الارسالية الانجليزية بأم درمان • ويذكر الحاضرون انه كان يدلل على قوة اثر عمر في الدين ان النبي الكريم كان يتلو عليهم الآيات (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ••• وهنا قال عمر : فتبارك الله أحسن الخالقين ، وجاء هكذا ختام هذه الآيات كما نطق عمر •••

وأفاض زويمر في الاشادة بعبقرية عمر متخذا من المواطن الذي أيد فيها القرآن آراء عمر دليلا على هذه العبقرية ، وكما قلت كأنه أراد من طرف خفي ، وفي خبث غير مستور أن يوهم المستمعين بأن عمر كان أبعد نظرا وأصح رأيا من النبي محمد صلى الله عليه وسلم •

وأحدثت المحاضرة ضجة في الاوساط الثقافية ، وثار الكثيرون على القس المبشر وتصدوا له بحملات عنيفة •

وكان زويمر فوق مكانته المسيحية ، الرجل المدلل لدى الانجليز المستعمرين الذين كان لهم آنذاك نفوذ قوي على البلاد •

ومع الاسف لم تكن هناك في تلك الفترة صحف في السودان لتكون منبرا لحملة العلماء ، فقد كانت هناك صحيفة « الحضارة » وحدها وهي صحيفة حكومية لا سبيل الى استغلالها في الرد على زويمر •

وكان العلماء والمثقفون ينتهزون فرص اللقـاء في بعض الاماكـن ليواجهوه بالرأي فيما تحدث به ويهاجموه فيما جاء في محاضرته •

وقد كان من أقسى هؤلاء عليه شيخنا طيب الذكر المغفور له الطيب السراج ، لقي زويمر لسوء حظـه ــ في المركب الذي كان يعبر النهـر بالركاب بين مدينتي الخرطوم بحري وأم درمان وشيخنا السراج كما نعلم قل نظراؤه في الشرق العربي غيرة على العروبة وتاريخهـا وتراثها ، وقد ساءه تهجم هذا الدعي على لغة العرب وتاريخهم ودينهم ، وهو العالم بكل هذا علما وافرا حتى صار في هذا مرجعا دقيقا بلغ حد الاعجاز •

وتناول الشيخ الطيب في المركب وهو يمخر بهم النهر القس زويمر وقد اجتمع حولهما كل الركاب وما زال يحاصره بالرأي والحجة حتى بان عجزه واتضحت جهالته بجانب غزارة علم الشيخ السراج •

ولما بلغت الباخرة شط النهر بأم درمان ، رأى الشيخ الطيب امعانا في احتقار زويمر أن يأمره بالانتظار حتى يخـرج جميع الركاب ليخرج في آخرهم ، فلما خرج الركاب أمره بالبقاء حتى تخرج الدواب وظل زويمر قابعا في مقعده وقد بدا عليه الهوان والصغار حتى لم يبق كائن حي في الباخرة • وتناقل المجتمع في كثير من الغبطة والرضاء ــ مواقف السراج من زويمر وكيف سخر منه وأذله ••• وكان في هذا التصرف على ما فيه من قسوة ظاهرة ، متنفس للذين لم يجدوا فرصة الاقتصاص من القس الذي أراد أن يتطاول على مقام محمد صلى الله عليه وسلم عن طريـق الثناء على عمر •

قلت ان زويمر كانت له زيارة سابقة ، لعلها كانت في عام ١٩٢٧ ، وفي هذه الزيارة أراد أن ينفث سمومه بين طلبة كلية غردون القديمة ، فجـاء ليلقي محاضرة عن بعض البلاد العربية مبتدئا بالاراضي المقدسة ، وجمع

المستر يودال عميد الكلية آنذاك كل الطلبة للاستماع للمحاضرة ، وكان زويمر قد صحب معه آلة عرض لصور الاماكـــن التي سيتحدث عنها ، وجلس الطلبة في صمت وهدوء ، ووقف زويمر يتحدث ، ووقف بجانبه المستر يودال مدير الكلية ، الرجل القوي المستبد الذي يمثل الاستعمار في أقبح حالاته ــ وكان الجو مشبعا بالارهاب والكبت ، فماذا يفعـــل الطلبة لكي يفسدوا محاضرة زويمر وقد أكرهوا على حضورها والاستماع اليها ؟.

وبدأ زويمر يتحدث وجاء ذكر النبي وبالطبع لم يشفع زويمر اسم النبي بالصلاة عليه وصاح الطلبة كأنهم وجـدوا انقـاذ الموقف هنا ــ صاحوا بصوت كالرعد صلى الله عليه وسلم !..

وذهل زويمر وصمت برهة ثم واصل حديثه ، ووجد الطلبة فيالصلاة على النبي طوق النجاة من الاستماع للمحــاضر ، فكان اذا ذكر زويمر (الحجر الاسود) مثلا دوت أصواتهم .. صلى الله عليه وسلم .. واذا ذكر بقعة في الاراضي المقدسة .. ارتفعت أصواتهم بالصلاة على النبي.. ولم يملك مدير الكلية غيظه ، فصاح فيهم معاتبا بأن الصلاة انما تكون عند ذكر اسم النبي فقط ، فكان الرد ان ارتفعت الاصوات بالصلاة على النبي ، وأدرك زويمر وصاحبه ان هذا يعني رفض الطلبــة للاستمــاع للمحاضرة ، فطوى أوراقه وذهب ومعه صاحبه مدير الكلية وقد احمر وجهه من فرط الغضب ، ولكن ماذا يفعــل ؟ وقد سلك الطلبة الاذكياء أسلوبا لن يستطيع ان يدينهم بسببه ، وماذا عساه يقول عن طلبة يصلون على النبي ؟!! وهل يقبل منه المجتمع السوداني المسلم ان يعتبر الصلاة على النبي جريمة يعاقب عليها أبناؤهم !.

وشيعهما الطلبة بأصوات تدوي كالرعد ... صلى الله عليه وسلم امعانا في اغاظتهما !..

السيد علي الميرغني وعرش السودان

هل عرض الانجليز على السيد علي الميرغني ان يختاروه ملكا على السودان وذلك في نهاية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ــ ١٩١٩) وظل العرض قائما حتى زيارة اللورد ألنبي للسودان في ابريل ١٩٢٢ ؟٠

ظلت الاجابة على هذا السؤال تدور بيننا ، وفي مجتمعات ولقاءات المثقفين الخاصة دون تحديد قاطع ، اذ كان بعضنا يقطع بحقيقتها وبعضنا يتشكك فيها والبعض الآخر ينفي وينكر حدوث ذلك ٠

ورأيت وأنا أنقب وأبحث عن الحقائق التاريخية التي يعن لي البحث عنها ان أتصل بالسيد علي الميرغني شخصيا وأسأله عن هذا الامر ، وأنا أعلم انه لن يتردد في ذكر الحقيقة ولكنه اذا لم يرد الاجابة لسبب ما فانه قدير على تحويل دفة الحديث الى وجهة أخرى بلباقة دون احراج له او لسائله وتلك حقيقة يعرفها كل المتصلين به ٠

وجئت اليه مع صديقين من خاصته وجلست قبالتـــه أتأمله وهو في التسعين من عمره أو يزيد قليـــلا متماسك الجسم يتحدث بطلاقـــة دون تلعثم ، جيد الذاكرة ، وبعد أن أدرنا معه حديثا أنس اليه بادرته بسؤالي عن حقيقة عرض الملك عليه من قبل الانجليز ، والاختلاف حول تأكيـــد هذه الحقيقة أو نفيها ، فأجابني في يقين وتثبت ، نعم تقدم الي الانجليز

بهذا العرض واعتذرت عنه . قلت هل حدث ان كتبوا اليك رسائل تحمل هذا المعنى ؟ فقال كلا كانوا يبعثون الي برسل من كبارهم يتحدثون معي في هذا الشأن. قلت : ولماذا رفضت ؟ قال : ان الملك الذي يصنعه الانجليز بيد يمكن ان يسحبوه باليد الاخرى متى أرادوا لانه ملك لا يقوم برضاء الشعب ورغبته وانما يكون مفروض عليه ، ومن السهل انتزاعه والامثلة على ذلك عديدة .

ونقول : لماذا فكرت انجلترا في ايجاد عرش في السودان ؟ المعروف انها بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وانتصارها وحلفائها في هذه الحرب وقد كسبت بلادا جديدة من تركة الخلافة العثمانية خاصة رأت أن تشكل نظما جديدة للحكم في البلاد التي تبسط نفوذها عليها تضمن ولاءهـا وتؤمن استعمارها . ومن العسير أن أدخل هنا في ذكر تفاصيل ما أحدثت من تغيرات في تلك الفترة ولكنا نعرف ان السودان بحكم المعاهدة بينها وبين مصر بعد الثورة المهدية أصبح مناصفة بينهما الا ان هذه المناصفة لم تكن مطبقة في الحكم الذي كان الانجليز يستأثرون به تقريبا ثم صاروا يبذلون كل جهودهم الخفية والواضحة لابعاد مصر عن السودان لينفردوا به تحت وصايتهم كما يزعمون .

وبعد انتهاء الحرب الاولى عام ١٩١٩ كونت حكومة السودان وفدا من كبار السودانيين من رجال الدين ، كبار العلماء ، وزعماء العشائر برئاسة السيد علي الميرغني ليرفع التهنئة باسم السودان لملك انجلترا بمناسبة انتصار انجلترا وحلفائها في تلك الحرب . وكان مع السيد علي الميرغني من رجال الدين السيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي ، ويبدو ان رئاسة السيد علي لهذا الوفد لفتت اليه كبار المسئولين بانجلترا ورأوا فيه الرجل الذي يمكن ان يجعلوه ملكا على السودان وهم يخططون سياستهم الجديدة .

وكتب المسئولون في انجلترا الى حاكم عام السودان يعرضون عليه هذه الفكرة ويطلبون رأيه فيها وقيل ان كبار معاونيه وفي مقدمتهم « مكمايكل » السكرتير الاداري عارضوا هذه الفكرة ذاكرين ان السودان يتكون من قبائل مختلفة وطائفية مختلفة وانه من الصعب ان يرتضوا بقيادة واحدة من بين السودانيين .

ومهما يكن فان هذا العرض عرف لدى القيادة الوطنية في مصر ممثلة في المغفور له سعد زغلول ومن حوله من أقطاب حزب الوفد المصري كما سيجيء الاستدلال عليه في هذا الحديث .

واحتدمت الثورة في مصر ضد الانجليز على النحو المعروف ورفعت شعار جلاء الانجليز عن وادي النيل كله والوحدة بين مصر والسودان ، ونشطت السياسة الانجليزية لكي تفسد هذا الشعار وجددت محاولتها هذه المرة لكي يقبل السيد علي الميرغني لتجعله ملكا على السودان وفي شهر ابريل عام ١٩٢٢ كما ذكرت ، زار السودان اللورد ألنبي زيارةرسمية كان يشغل منصب نائب ملك انجلترا لمصر والسودان ومقره القاهرة ، وكان بحكم وضعه ممثلا للملك انجلترا صاحب نفوذ لا يقاوم في تلكالفترة وفي زيارته هذه الى الخرطوم بعث برسول خاص للسيد علي يجدد له تقديم العرض وهذه المرة لم يكن لمعاوني الحاكم العام كلمة اعتراض لان السياسة العليا آنذاك التي أملتها ظروف الثورة في مصر وشعاراتها وغير ذلك من عوامل تحتم ايجاد موقف في السودان يكون لمصلحة سياستهم، وقد أبدى السيد علي الميرغني الاعتذار ولم يقبل العرض .

وعرف أيضا في مصر لدى قادتها ان اللورد ألنبي في رحلته تلك عرض الملك على السيد علي ونجد أثر ذلك في مقال للكاتب المعروف فكري اباظه نشره في تلك الفترة يسخر فيه من اقامة عرش في السودان .

وأنا هنا لا أجد وثائق رسميــة لاستدل بها وان كنت أوقن بأن ما تحدث به الي السيد علي الميرغني والآخرين غيري يكفي للاستدلال على صحة هذا العرض ، ولكني أضع أمام القارىء بعض ما نشر في مصر في تلك الآونة ممن لهم أوثق الصلات لاقطاب السياسة المصرية الذين لا تخفى عليهم خافية من تصرفات الانجليز .

عثرت على كتاب تاريخي نادر اسمه « ذكريات سعد عبد العزيز ماهر ورفاقه في ثورة ١٩١٩ » ومؤلفه هو الدكتور يوسف نحاس الذي يعد من أقطاب الحركة الوطنية في مصر منذ نشوب ثـورة مصر ١٩١٩ ومن الشبان المقربين لسعد زغلول شخصيا ، حرص في كتابه هذا على تسجيل يوميات متصلة سجل فيها الكثير من دقائق تلك الفترة كما عاصرها مع سعد زغلول ورفاقه ، ولكي نعطي القارىء صورة عن هذا الرجل أقدم مقتطفات من كتابه تبين تعريفا كافيا عن شخصيته فقد كان يكتب ويسجل عن مشاركة فعلية فهو صديق شخصي لسعد زغلول وعبد العزيز فهمي واسماعيل صدقي واحمد ماهر وكل أقطاب ثورة ١٩١٩ ، كما كان على صلــة وثيقة بالسلطان حسين كامل والملك فؤاد عندما تبوأ العرش كما تؤكد مذكراته .

ومن الخير أن أنقل فقرات يسيرة من هذا الكتــاب لزيادة التعريف بمؤلفه حتى نحسن تقويم ما كتب .

يقول في صفحة (٧) :

« عرفت الزعيم الخالد سعد زغلول عام ١٨٩٦ لما كنت طالبا بمدرسة الحقوق الفرنسية بالقاهرة وكان والدي فتح الله نحاس يحدثني عن متانة أخلاق هذا الرجل حديثا جعلني مشوقا للقائه وفي صيف ١٨٩٧ قابلت سعد في باريس وكنت أتأهب لتأدية أول امتحان في الدكتوراه في العلوم

الاقتصادية والمالية فسألني عن موعد امتحاني ليكون حاضرا معي وكان قد حضر ليؤدي امتحان الحقوق في باريس ، فلما اجتزت الامتحان بتفوق وقف سعد وقبلني فرحا لما ناله شاب مصري كان والده من اصدقائه » •

ويقول في صفحة (١٢) عن نشأة الوفد : « يعرف الجميع كيف نشأ الوفد • كنت مع الرجال الاولين الذين فكروا في انشائه وكنا نقضي كل أيامنا من الصباح الى الغروب في بيت سعد ••• واتفق على أخذ توكيلات من الامة للوفد بأن يتولى المطالبة بحقوق المصريين ، فقال لي سعد : اجلس على مكتبي لنملي عليك صيغة التوكيل ، وأخذ أعضاء الوفد الحاضرون يناقشون كل كلمة فأصحح وأعيد الى ان وفقنا الى الصيغة التي وقع عليها الافراد والهيئات فكانت فتح باب العمل للوفد » •

ويقول في صفحة (١٩) : « لما شرع في اختيار أعضاء الوفد المصري وأراد سعد أن أكون منهم ولكن عبد العزيز فهمي عارض في ذلك قائلا : نحن في حاجة الى شخص نثق به ثقة كاملة من غير هيئة الوفد الرسمية ، فاذا أردنا مثلا ايفاده للخارج في أمر ذي بال استطاع بسهولة الحصول على جواز سفر ، واذا طرأ ما يدعو ان نستودعه أوراقا هامة او نقودا اطمأننا اليه كل الاطمئنان ، ويوسف نحاس خير من نذخره لمثل ذلك فسألني سعد عن رأيي فأجبته : ان ما يختار لي صديقي عبد العزيز فهمي وتقرونه عليه يصادف من نفسي كل ارتياح » •

وددت لو اتسع المجال لانقل من مذكرات هذا الرجل الكبير ما يؤكد انه كان من صناع التاريخ في تلك الفترة ومن الذين ــ بحكم وصفهم ــ يعرفون حقائق السياسة العليا ، وان ما سجله في يومياته في الجزء الاخير من هذا الكتاب عن أحداث ثورة ١٩١٩ ليعد مرجعا تاريخيا قيما للغاية • ويقول عن عرض الانجليز الملك على السيد علي الميرغني ما سجله على

صفحة (٨٥) عن يومي ٢٩ و ٣٠ ابريل ١٩١٩ من مذكراته ما نصه :

« عرض البريطانيون على الحسيب النسيب السيد علي الميرغني ان يقيموه سلطانا على السودان فأبى » .

ولا يمكن لهذا الرجل وهو في هذه المكانة من السياسة العليا في مصر أن يرسل القول على عواهنه وانما عن تأكد ويقين ، هذا عن العرض الذي حدث في عام ١٩١٩ كما سجلته يوميات يوسف نحاس .

اما عن العرض الذي جاء حين زيارة اللورد ألنبي للسودان عام ١٩٢٢ فأنا أنقل هنا بعض فقرات من مقال للكاتب المصري المعروف فكري اباظه، والمقال موجود في كتابه « مقالات فكري اباظه » وقد كان من ألمع شباب وأعضاء الحزب الوطني الذي ألفه المغفور له مصطفى كامل وقد اتخذ فكري اباظه اسلوبا سهلا ساخرا جعله من نجوم الكتاب في مصر ومن أكثرهم جرأة ، وقد كتب هذا المقال الساخر في جريدة « اللواء » اليومية لسان حال الحزب الوطني آنذاك وذلك عقب عودة اللورد ألنبي من السودان ويبدو ان أقطاب الحزب الوطني ومنهم فكري قد علموا بمشروع الانجليز بعرض ملك السودان على السيد علي الميرغني مثل أقطاب مصر في تلك الفترة ، فكتب فكري اباظه في مقاله هذا بأسلوبه الساخر يقول بعنوان « مولاي صاحب الجلالة ميرغني الاول ملك السودان » !

« هل سمعت أيها القارىء العزيز نبأ تأليف المملكة العظيمة الفخمة ، المملكة الزهراء الصفراء السوداء ، مملكة التبر والعاج والغزلان مملكة السودان !

عاد اللورد أخيرا من رحلته الميمونة .. سفر سعيد وعود حميد أيها العميد !..

انها لم تكن « نزهة » أيها المصريون فان النـاس لا يتنزهون في السودان ... صيفا ! انما كانت « عملا سياسيا خطيرا » واللورد ألنبي (ابو) الاعمال والافعال .

ان جنابه لا يترك مصر عفوا والحالة الفكرية تشتعل اشتعالا لا يتركها (عفوا) والحالة السياسية لا تقر على قرار ، لا يتركها (عفوا) والوزارة المصرية عديمة الانصار ، لا يتركها الا لتأدية واجب أجل أهمية وأخطر شأنا ، ولقد كانت دائرة هذا الواجب السودان !

قيل ان انجلترا بعد ان ارتكزت في الحجاز على ملك الحجاز وبعد ان اعتمدت في آسيا على فلسطين وملك العراق ، تريد ان تركز في افريقيا على السودان ، وعلى ملك السودان لتأمين الجنوب واليمين واليسار ، ولتعاكس نقطة الاتصال في الشمال ... فهي اذن في حاجة الى (ملك) من صنع (لندن) يظل طول حياته صنيعة (لندن) .

ويقول فكري اباظه في ختام مقاله موجها الحديث للسيد علي الميرغني:

(أي مولانا الملك « ميرغني الاول ») ... لا تحبس عنا المـاء ان كلفوك (بحبس) الماء ولا تنكر علينا الاندماج انكلفوك بانكار الاندماج قل لهم ان النيل لا يتجزأ .

وان مصر والسودان توأمان لا ينفصلان ولا يتعاديان ! بهذا الشكل « تبيض » وجوهكم في الاولى والآخرة ، ويعلم الدخيـل ان بضاعتـه خاسرة بائرة » !

حسبي هذا القدر من مقال فكري اباظه عضو الحزب الوطني بمصر وقد نشرته جريدة اللواء بتاريخ ٤ مايو ١٩٢٢ ، وذلك عقب عودة اللورد ألنبي الذي حدثت زيارته الى السودان في أبريل ١٩٢٢ .

استطيع ان نقول الآن وقد وضحت الامور بجلاء ، ان السيد علي كان بعيد النظر وهو يعتذر عن قبول ملك من صنع الانجليز ، وهو رجل طائفة دينية وليس بقائد سياسي مما يجعل ملكه مزعزعا ومن قبل الشعب هذا اذا لم ينزعه عنه الانجليز كما فعلوا مع غيره .

ومن العجب ان مصادر تاريخيـــة عديدة تشير الى ان الانجليز قد فكروا في تنصيب « أغاخان » الزعيم الروحي لطائفة الاسماعيلية بالهند ليكون ملكا على السودان ، ثم عدلوا عــن ذلك وقد سمعت من بعض الثقات في بغداد عند زيارتي لها انهم فكروا فيه أيضا للملك العراق قبــل ان يختاروا فيصل الاول وهو من أبناء الشريف حسين من الحجاز .

وتقول مصادر أخرى انه عرض هذا الملك على جمال الدين الافغاني وهو في أوج نشاطه العلمي الثوري لعلهم يكسبونه لجانبهم ولكن جمال الدين الافغاني رفض عرضهم في اباء وترفع ــ الحمد لله ان السودان لم يجد له الانجليز ، ملكا يضعونه عليه فما أشقــى الشعــوب التي منيت بالملوك .

بين التني واحمد محمد صالح والعباسي

يا للقلوب الرقيقة والمشاعر المرهفة عندما يأسرها الجمال ويتملكها الحب ويسحقها الفراق ، فتقبل على الشعر لعلها تجد فيه العزاء وما يزيدها الا وجدا على وجد !

في عام ١٩٣٧ وعلى صفحات مجلة الفجر طالع قراؤها في شغف بالغ رائعة الشاعر يوسف مصطفى التني الذي كان من ألمع شعراء ومثقفي جيل الثلاثينات ، وكان عنوان قصيدته « الانشودة الحزينة » ، وما اكثر من تعلقوا بها وغنوها وحفظوها عن ظهر قلب •

تقول القصيدة الوجدانية :

ذهب البشر اللعوب — وحلا الحزن الرهيب
فأعذروني يا صحابي — كم نأى عني حبيب



آسري الساحر من حبي — وللسخر ضروب •••
قد جفا النيل فما النيل — ولا الروض يطيب
وارتضى نجدا جديا — فزها النجد الجديب

أترى يرجع لي يوما فيحيي ويذيب
ساحر البسمة مغر بارع الصوت لعوب
كلما استنشد غنى وهو جذلان طروب
لو يغيب البدر عنا فعن البدر أنوب
غاب يا أنسي بدري أكذا أنت تغيب ؟!

★ ★ ★

والصبا الناعم في شخصي حبيب لا يشيب
غاب عني مثلما ينسلخ البرق الخلوب
وأنا نهب كروب لا تدانيها كروب
يطمع القلب ولو يسأل رفدا لا يجيب
وهو رغم الصد لو تعلم مرموق حبيب !

وفي الابيات التالية يرسم التني ببراعة ضحكات حبيبه وهو « ينغم فيها » و « يقطعها » ويذوب وجدا في ثنايا التنغيم والتقطيع والتموج فيقول :

نغّم الضحكة منه فأبى الرشد يثوب
كلما قطع منها قطعت منا قلوب
كلما موج فيها في ثناياها أغيب !

★ ★ ★

وحبيب لم تزل لي في تجنيه خطوب
طار للنور وخلاني على النور ... أذوب
ساكن النجم آمالي لك في النجم وثوب ؟!
ساكن النجم ، اغتنى أنا في الارض غريب

وفـؤادي ، ضن فؤادي　　فهـو في الركب قريـب
طـار للنـور وخلانـي　　على النـور ... أذوب !

★ ★ ★

أيهـا المُنكـر حزنـي　　فاتـك الـرأي المصيـب
ذاك تريـاق فـؤادي　　كـم نـأى عنه حبيـب !

واستاذنا احمد محمد صالح الكهل المشبوب والوجـدان المفتـون بالجمال المربى المتزمت المظهر ، الرقيـق المخبر والذي قل ان يفصح عن حقيقة وجدانية في شعره ، تثيره قصيدة التني ، وتبعث فيه كوامن الحب والاسى وتكاد تلمح الدموع تتساقط من خلال كلماته الوجدانية منفرط تأثره وأساه فيقول :

غرك الوعـد الكـذوب　　هو كالبـرق الخلـوب
او كمـا لاح سراب　　يتـراءى مـن قـريـب
كـم نفـوس حائـرات　　بـين خفيـق ووجيـب
فـاذا مـا رأت النـور　　علـى النـور تـذوب
كـم حرقناهـا بخـورا　　للهوى هذي القلـوب !
ووراء الامـل الساخـر　　كـم شقـت جيـوب

ويهفو قلب الاستاذ احمد لايام شبابه المونق ويستعيد ذكراه واجف القلب حزينا :

ذكرنـي عيـش المونـق　　والمـرعـى الخصيـب
وشبابـا سائـل الغـرة　　ريـان القضيـب
أيقظـي شيطـان شعري　　عـل شيطانـي مجيـب
تلـك أحـلام شبابـي　　آذنتنـي بالمغيـب

وهنا يصف استاذنا احمد رحمه الله حبيبه « موفور الصبا » وسحر هاروت بعينيه وانه كلما غنى مغنيهم « ذكر حبيب » عربدت عيناه فيهم « فجريح وسليب » ـ ألا رحمك الله يا استاذنا احمد لكم فعل بكم الجمال وبنا في عهد الصبا ، يقول ذاكرا حبيبه :

وحبيب غـاب عن أفقـي	فـالافـق جـديـب
لـج في الهجـران حتـى	خلتـه ليس يـؤوب
ساحـر النغمـة والخطرة	بسـام طـروب
واذا مـا اهـتز تيهـا	فقضيـب وكثيـب
سابغ النعمة موفور الصبا	غـر لعـوب
سحـر هاروت بعينيـه	وللسحـر ضـروب
كلمـا غنـى المغنـي	منشدا ذكـرى حبيـب
عربـدت عينـاه فينـا	فجريـح وسليـب
كـم هصرت الغصن منه	وهـو ريـان رطيـب
فثنـى نحـوي جيـدا	فضـح الظبـي الربيـب
ودنـا حتـى اذا مـا	خلتـه جـد قـريـب
طـار للنـور وخلانـي	على النـور ... أذوب

وكم نقم الشعراء على المشيب وهم يسترجعـون ذكريات شبابهم . وهكذا فعل احمد ، سخط على مشيبه الذي راع حبيبه فتولى عنه فقال :

راعـه هـذا المشيـب	فتـولـى لا يجيـب
قلت يا ابن النـور مرآك	وان ضـاء كئيـب
أنـت في العـين قذاهـا	أنـت واللـه مريـب !
أنـت بـددت أمانـي	فمـالـت للغـروب

ويعود احمد ليذكر حبيبه مرة أخرى الذي ترك اللوعة في قلبه والدمع

في عينيه فيعديه بأبيه وقد ابتعد عنه ويحمل الريح شوقه وحنينه اليه :

بأبـي من خلـف اللوعة — والجفـن السكـوب
هجر النيل فليس العيش — فـي النيـل يطيـب
ومضى يحتـل نجـدا — وهـو في النجد غريـب
بلغيـه اننـي مـذ — غاب يا ريـح الجنـوب
شارد اللب قليل الصبـر — موصـول النحيـب

ومن قرية « الشيخ الطيب » شمال الخرطوم حيث تتعالى قباب كبار المتصوفة من أقطاب الطريقة « السمانية » وحيث مدارس العلم والقرآن التي كان الامام المهدي من طلبتها عندما وفد اليها من دنقلا ليتلقى المزيد من العلم على يد الشيخ العالم محمد شريف نور الدائم والد الشاعـر الفحل محمد سعيد العباسي الذي تبلغه قصيدة احمد محمد صالح وهو على مقربة من قباب أهله ومجالس علمهم وقرآنهم فينتفض وجدا وهو المعذب القلب بذكريات الصبا المفتون بكل ما هو جميل والذي جاء شعره ترجمانا صادقا لعواطفه المشبوبة وقد كان في شبابه كما يقول المعاصرون فتى جميل الصورة ممشوق القوام يذكرنا وهو يتحدث في شعره عن تعلق الحسان به بعمر بن أبي ربيعة اذ يقول العباسي وهو في أوج شبابه عندما يزور حيا بدويا وكان كلفا بأحياء البادية . يقول :

اذا نـزلت بحـي طافـت بـي ولائـده
يغدينني فعـل موجـود بمـودود
فكـم بـرزن الـى لقايـاي في مـرح
وكـم ثنين الـى نجـواي من جيـد
لو استطعن وهـنء السافحـات دمـى
رشفنني رشـف معسـول العناقيـد

فلا عجب ان تهزه هو قصيدة صديقه احمد محمد صالح وتبعث من أعماقه ذكريات صباه ومراتع لهوه ويسرع الى أم درمان يحمل أنينه وحنينه ممثلا في قصيدته لاخيه احمد واضعا لها عنوان « يا علم أخذ العلم » :

تذكرت عهد الصبا الباكر
ومرتع اللهو من حاجر
وأيامنا الغر في ظله
وما للعشيرة من سامر
ومثوى لدات كزهر الربيع
طيبا وكالقمر السافر
وما بالمسارح من شادن
غرير ، ومن شادن نافر
وزينب سكرى بخمر النعيم
تعثر من مرطها السابري

ومن حق العباسي ان يبكي على زمنه الغابر حيث كاد الحسان يرشفنه رشف معسول العناقيد ، انه يقف ويقول :

وقفت وقد كاد يشجي الجماد
بكائي على الزمن الغابر
ألا هل لذا السرب من عاذل
وهل لي في العتب من عاذر ؟
حللن لدي بحكم الهوى
مكان السواد من الناظر

وجانبت في حبهن المشيب
وعاصيت فيه هوى الآمر

فلما ذوى الغصن جاوزنني
سراعا الى مورق ناضر

ومن حق الحسان ان يتجاوزن العباسي وقد ذوى غصن شبابه ويتجهن الى آخر « مورق ناضر » ... فيا للحسرة !

ويقول العباسي :

أخذن حلى كنت أولى بها
وزنّ بها الجيد من آخر
غفرت ولو كان في بردتي
فتى الامس ما كنت بالغافر

وماذا يفعل العباسي غير ان يغفر لهن وقد انتزعن منه حلى شبابه وزين بها جيدا آخر لم يعبث به الشيب ولو كان العباسي ما زال في شباب الامس لما غفر لهن وها هو يذم شيبه الذي جعل الحسان يتجاوزنه سراعا فيخاطبه :

فيا شيب ما أنت نعم الرفيق
ولا مرحبا بك من زائر

ان العباسي يبقى على عهده مع الجمال فلا ينسى :

يراد من القلب نسيانكم
ووالله ما مر بالخاطر

وكيف وقد صنعت في ذكركم
جواهر من كامل وافر

وان تقــرب الــدار أسمعتكــم
شــوارد كالمثــل السائــر

ويتجه العباسي بعد هذا فيثني على صديقه احمد محمد صالح الذي شجاه شعره وأثار في نفسه من الذكريات ما أثار :

فيا احمــد الخــير نلت المنــى
وحوشيت من جــدي العاثــر

شدوت فأحرقت منــا القلــوب
بما صغت من لفظــك الساحر

ومــا ذاك بدعــا وقد هزهــا
قديمــا عــراك الهوى الآسر

فأفديــك احمــد مــن ناثــر
ضليع وافديــك من شاعــر

ويمضي في بقية قصيدته مبديا اعجابه بشعر احمد مفتونا به وفي اعماق نفسه حسرة تتقد جمراتها كلما ذكر الجمال والشباب .

رحمهم الله تعالى فقد عطروا حياتنا القاسية بنفحات شعرهم الوجداني الرائع . وكان ذلك في عام ١٩٣٧ .

شخصية غامضة تمر بالسودان في الثلاثينات

حتى الآن ما زال الغموض يكتنف تلك الشخصية العجيبة التي هبطت العاصمة فجأة في عام ١٩٣٠ والتف حولها عدد من الشباب المثقف يتتلمذ عليها ويستريب فيها !

كنت في السنة النهائية بقسم العرفاء الملحق بكلية غردون في ذلك العام عندما سمعت من أصدقاء وزملاء يسكنون حي ابو روف بأم درمان ، وقد قضوا عطلة الاسبوع كعادتهم عند ذويهم ، ثم عـادوا يحملون الينا نبأ غريبا عن شخص أوروبي مسلم يتحدث الانجليزية بطلاقـة يلبس جلبابا سودانيا أبيض اللون يرتدي عليه « جاكتة » ويلف على رأسه العمامـة وعلى رجليه « شبط » عادي ، يتكلم بجانب الانجليزية ، اللغة العربيـة الفصحى ، وقد استأجر منـزلا صغيرا في حي « ابوروف » كان يملكه شخص يسمى صادق الجزولي .

وبهرهم منه ثقافته الواسعة وعلمه الغزير ، ولعله كان متخصصا في علم الاجتماع والاجناس .

كان أول من لفت اليه الانظار السيدان عبد الرزاق العتباني والمرحوم عمر الريح من أبناء أبي روف .

وأخذ الطلبة من سكان حي ابو روف يروون ــ كلما ذهبوا في عطلة

الجمعة الى ذويهم ــ الكثير عن عمق ثقافته وعن تحلق عدد من الشباب المثقف حوله يدرسون عليه ، علم الاجتماع ، وقد كانوا متعطشين للعلم فما كانت كلية غردون القديمة تروي غليلهم منه فهي تكتفي بالنذر اليسير اذ كانت مهمتها الاساسية تخريج موظفين يحسنون اداء واجباتهم المكتبية، لا اكثر .

وذات مساء جاء به نفر من الطلبة الى داخلية الكلية حيث أدى صلاة العصر والمغرب معهم ، وكان يجيب على أسئلتهم في مختلف ألوان المعرفة بتبسيط وتوسع يدلان على عمق ثقافته حقا .

وكان يسمي نفسه « صالح مؤمن » وبهذا الاسم عرفناه ، وكان يحمل شهادة تؤكد اسلامه ، استخرجت له من مراكش التي كانت تقع آنذاك تحت الاستعمار الفرنسي ، وقد كتبت بالعربية والفرنسية معا ...

لم يستطع أحد ان يدرك لماذا اسلم في مراكش التي يحكمها الفرنسيون وماذا كان يعمل هناك ؟ فقد حدث المتصلون به انه كان يتحاشى التحدث عن كل ما يتصل بشخصه مكتفيا بحقيقة واحدة ، هي ان اسمه صالح مؤمن اعتنق الاسلام في مراكش ، وكان يحرص على تقديم الشهادة التي تثبت اسلامه تأكيدا لزعمه ، وكان يؤدي الصلوات في حينها ، وكان يلقي أحاديثه العلمية باللغة الانجليزية .. أهو انجليزي ؟.. ذلك ما كان يبتعد عن الخوض فيه كلما سئل عن نفسه .

وكان يحرص حرصا واضحا على الاندماج في مجتمع السودانيين بكل طبقاته ، اندماج من يريد التعرف الى كل شيء ، فهو يتحدث في السوق اذا ذهب اليه الى كل من يلقاه ، بل يتعمد ان يفرض نفسه هنا وهناك متحدثا ومتسائلا وباحثا .

وفي تلك الفترة كان الانجليز في أوج سطوتهـم ونفوذهم ، وكانوا يحصون على الناس ـ وخاصة المتعلمين ـ كل همسة .

ومن هنا كثر الهمس والتساؤل ، هـل صالح مؤمن هـذا جاسوس انجليزي جيء به ليستفاد من دراستـه لافكار المثقفين واتجاهاتهم وهو يندمج معهم بوصفه مستشرقا مسلما قادما من مراكش ؟

وقوّى من هذا الاتهام الغموض الذي كان يحيط بشخصيته ، ثم انه كان يهاجم الاستعمار الانجليزي في اكثر جلساته مع جلسائه من الشباب المثقف ، وكان يحمل على هذا الاستعمار في عنف صارخ ؟ أكان يجرهم بهذا الهجوم الجريء لكي يكشف عن دخائل أفكارهم ؟.

ثم ان انجليز السودان الحاكمين ، الذين كانوا يضيقون ذرعا بما هو دون ذلك بكثير ، كيف يتركون الحبل على الغارب لهذا الاجنبي الواضح الذي علموا بأمره منذ اللحظات الاولى لقدومه واتخاذه هذا الحي الشعبي مسكنا والذي اشتهر بأنه يضم نخبة ممتـازة من المثقفين الذين عرفوا بصدق الوطنية وكراهة المستعمر ؟ كيف ارتضوا وجوده وتغاضوا عنه ؟

قال تلاميذه ، ان مفتش مركز أم درمان كان يقحم على جلسائه معهم شيخ الحارة « عبد الحكيم » ليعرف ماذا يقـول للملتفين حوله ، وكان صالح مؤمن يقول لتلاميذه ساخرا ـ وهو يتحدث اليهم بالانجليزية ـ : « ترجموا حديثي هذا لعبد الحكيم ليفهمه وينقله للمفتش ! » كأنما هو يتحدى السلطة !

وهذا جعل الاتهام عند بعضهم ينتقل الى وزارة المستعمرات فيانجلترا فلعلها بعثت به متنكرا ليتعرف الى احوال المستعمرات والى أي مـدى أفلح حاكموها الانجليز في التجاوب مع المحكومين وتفهم رغباتهم حرصا

على استدامة سيادة الامبراطورية ... هكذا كانت بعض الشكوك حوله اذ حاروا في أمره .

وكان يدرس عليه بانتظام من شباب ابوروف السادة ، ابراهيم يوسف سليمان ، وخضر حمد ، ومكاوي سليمان آكرت ، وحسن احمد عثمان ، والشيخ الطيب السراج الذي كان يقول عنه صالح مؤمن « السراج نكسة ترجع بنا سبعة قرون الى الوراء » !!.

والذين يعرفون المرحوم السراج بزيه العربي الذي يرجع للعهد العباسي ، وحياته الممعنة في تقليد الحياة العربية القديمة ، يتذوقون قطعا طعم « النكتة » في تعريف صالح مؤمن للسراج ، بأنه نكسة قرون للوراء !.

وكان يتردد على مجلسه أحيانا « الدكتور » مكي شبيكة ومحمد عشري الصديق و « الدكتور » محمد زكي مصطفى وآخرون من شباب ذلك العهد ــ ولكن من ذكرت أولا كانوا حوارييه الذين لا ينقطعون عنه كل يوم يدرسون عليه علم الاجتماع ، وعلم الاجناس ، ولكن القلق حول حقيقة شخصيته كان يستبد بهم .

وكان صالح مؤمن يجيد لغة الاسبرانتو التي أراد لها واضعها ان تكون اللغة العالمية ليتخاطب بها الناس على اختلاف لغاتهم ، وقد حاول صالح مؤمن أن يعلمها لتلاميذه هؤلاء ، وشرعوا فعلا في طلب الكتب الخاصة بدراستها حسب توجيهاته ، ووصلت الكتب الى بعضهم ، الا ان رحيله المفاجيء كما سيجيء حال دون ان يبدأوا في تعلمها منه .

ومما ضاعف من ريبتهم في استاذهم صالح مؤمن هذا ، انهم رأوه يحرص على تدوين مذكراته في كراسات خاصة ، وكان يكتبها بلغة

الاسبرانتو حرصا منه الا يفهمها احد اذا وقعت في يده ، فقد كان العارفون بهذه اللغة قلة نادرة ، بل وفي درجة العدم في هذه المناطــق التي يمر بها ويكتب عنها كالسودان .

وذات يوم وصل البريد المصري يحمل من الصحف مجلة روزاليوسف وبين صفحاتها خبر يقول : « ان لورنس الجاسوس الانجليزي المعروف غادر مراكش في طريقه الى الصومال والحبشة » .

ولورنس يعرف القراء الدور الخطير الذي لعبه في الحرب العالميــة الاولى ١٩١٤ ــ ١٩١٩ عندما كان مستشارا للشريف حسين حاكم الحجاز وكيف دفع العرب في تلك الفترة ليقفوا مع انجلترا وحلفائها في حربها ضد المانيا وحلفائها ومنهم الاتراك الذين كانوا يبسطون نفوذهم على البــلاد العربية ، وقد وعدتهم انجلترا كتابة بأن تؤول البلاد العربية الى أهلها بعد ان يتم اجلاء الاتراك عنها ، ثم غدرت بهذا الوعد على النحو الذي يعرفه القراء ، اذ استولت عليها هي وفرنسا .

وكان هذا الخبر الذي نشرته آخر ساعة بمثابة الضوء الكاشف على شخصية صالح مؤمن الغامضة ، وسرعــان ما ذاع بيننا ان صالح مؤمن هو الجاسوس البريطاني لورنس جاء من شمال افريقيا متخفيا في طريقه الى الحبشة والصومال .

وزاد من قوة هذا الاتهام ان صالح مؤمن ــ كما ذكرت ــ جاء من مراكش في شمال افريقيا وبيده شهادة اسلام استخرجت له من هناك امعانا في التضليل كما خيل الينا .

ثم انه كان يجيد معرفة القبائل العربيــة ودقائق الحياة الصحراوية

والبدوية مما لا يتسنى الا لرجل عاش طويلا في هذه البيئة وعنى بدراستها عناية فائقة .

ثم انه عالم في الآثار ، مقتدر في حل الرموز الهيروغلوفية، وكان دائم الاتصال بالمستر اديسون مدير متحف الآثار بكليـة غردون بالخرطوم وقالوا انه كان يعاونه على فك طلاسم كثير من الرموز التاريخية الموجودة في تلك الآثار وخصوصا ما كان منها بلغة قدماء المصريين ، وقد قيل ان لورنس من محبي علم الآثار ومن المهتمين به والعارفين بدقائقه .

ومن هنا قويت الشبهات في اتهام صالح مؤمن بأنه لورنس ...

كان يسكن كما قلت في دار بحـي ابوروف ، لم تكن لديه أثاثات تذكر في الدار ، كانت حياته بسيطة للغاية وأهم ما كان يحمله « شنطة » صغيرة من الحديد كان يودعها مذكراته التي يكتبها يوميـا بالاسبرانتو وأوراق أخرى لا يدري أحد سرها ..

وكان يزور تلاميذه أحيانا في منازلهم ويأكل معهم الطعام السوداني « الكسرة والملاح » دون تأفف ، وكان لا يأنف من تناول أي طعام يقدم اليه .

وكان يعقد حلقات دراسية غالبا في الدار التي يسكنها مساء كل يوم، ما لم يدع الى دار احدهم ليتحدث هناك .

وذات يوم ، وبعد ان جاءت مجلة روز اليوسف للسودان تحمـل ذلك الخبر الذي ضاعف من ريبة المتصلين به ، اتفق تلاميذه على تدبير مؤامرة لسرقة « الشنطة الحديدية » وافراغ محتوياتها ودراستها عسى ان يجدوا الدليل المادي الذي يكشف عن حقيقته .

ودبرت المؤامرة على ان يأخذه ابراهيم يوسف سليمان وبعض اخوانه من داره الى شاطىء النيل ليجلسوا على الشاطىء فترة في الهواء الطلق .
وفي هذه الفترة ، يحضر الزميلان مكاوي سليمان اكرت وخضر حمد، ويتسلقان سور الدار من الجانب الخلفي ويدخلان غرفتــه ويستحوذان على الصندوق الحديدي السحري !

ونفذ الجانب الاول من المؤامرة بسهولــة ، وخرج صالح مؤمن مع تلاميذه الى الشاطىء وخلت الدار للسارقين !

وما كاد مكاوي سليمان يعتلي السور ، ويطل منه على السكن ، حتى رأى الجيران وقد جلسوا في ظل السور المجاور ينظرون اليه ؟! وأسقط في يده وهبط مسرعا ليحذّر زميله بأن الجيران يجلسون في فناء دارهم ولا سبيل الى الهبوط ! وعادوا بخفي حنين وفشلت محاولة سرقة الصندوق الحديدي لمعرفة ما بداخله .

ويقول مكاوي سليمان ، ان الرجل أسر اليه بأن اسمه « جستاف مارا » وانه بلجيكي الاصل وتخرج في جامعة لوفان البلجيكية وهي من الجامعات العريقة المشهورة وانه التحق بجامعة لندن ليحصل على شهادة علم الاجناس .

ولكن السيد مكاوي قد ظل يشك في هذه المعلومات وقد زار بلجيكا مرتين وكان في كل مرة ينوي ان يزور هذه الجامعة وان يراجع سجلاتها التي تحتفظ فيها عادة باسماء جميع خريجيها ليعرف ان كان هناك حقيقة خريج بهذا الاسم ؟

قد مضت فترة طويلة على زيارة ذلك الرجــل الغامض ومن بقي من شباب الثلاثينات حائر في أمره أهو جستاف ؟ أم لورنس ؟؟ أم شخصية أخرى ، كان لها هدف آخر ؟.

وفجأة ــ مثلما ظهر ــ سافر صالح مؤمن من أم درمـان الى كسلا ومنها الى عدن •• ثم الى أين ؟ لا أحد يدري ممن اتصل بهم فيالسودان•

ومن كسلا كتب رسالة الى مكاوي سليمان اكرت يقول فيها انه تلقى أمرا من مفتش أم درمان الانجليزي ليغادر السودان فورا، فسافر بالقطار الى كسلا ومنها يتجه الى عدن، وذكر في رسالته قصة طريفة وهي انه ركب الدرجة الرابعة في القطار ، لضيق ذات يده كما يزعـم ولكي يجد ــ في الحقيقة ــ فرصة أوسع للتحدث مع السودانيين العاديين من أفراد الشعب الذين يستعملون هذه الدرجة عادة استكمالا لدراساته ، ويقول انه قد حقق معه في كسلا اذ كانت قوانين حكومـة السودان آنذاك لا تبيـح للاجانب ان يستعملوا الدرجة الرابعة في اسفارهم حتى لا يختلطوا بأبناء الشعب العاديين !!•• كما زعم •

وانقطعت أخباره ولم يكتب لتلاميذه، او على الاخص لتلميذه مكاوي سليمان بعد ان خاطبه مرة أخرى من عدن •

وظللنا لفترة طويلة تتساءل من يكـون هذا الرجل الاوروبي أخضر العينين الذي يعيش في أي مستوى عادي وهو على درجة عالية من العلم والثقافة والذي احتمل الانجليز في تلك الفترة الحرجـة وجوده في حي شعبي بأم درمان يتحدث لسائر الناس ويجمع المثقفين حوله ويحاضرهم ويزور داخليات الكلية ويصلي مع الطلبة ويحاضرهم دون اذن سلطات الكلية ، وما كان أقساها آنذاك وهي تصرفـات في جملتها وتفصيلهـا ترفضها السياسة الانجليزية في تلك الفترة بل لا تسمح بحدوث أدنى منها بكثير ، فكيف أفسحت له بكل هذا المجال ؟! ثم يسافر فجـأة دون ان يحدث أحدا او يودع تلميذا زاعما بأن السلطات أمرته بالسفر الفوري ؟!

من يكون صالح مؤمن هذا ؟ ما زال السؤال بلا جواب •

بين الشيخ قريب الله والفنان كرومه

ربع القامة أسمر اللون مع ميل للسواد ، مهيب الطلعـة يتلثم برداء كبير ذي ألوان هادئة ، من فوق عمامته وينسدل حول عنقه وكتفيه حتى منتصف ظهره ، واسع العينين ، على خديه (شلوخ) رفيعة ، كثير الصمت طويل التأمل ، لا يفيض في الحديث الا عندما يتكلم مع مريديه وتلامذته في شئون الدين ، لا يفتأ لسانه وقلبه يردد القرآن .

ذلكم هو الشيخ الورع قريب الله ابو صالح حفيـد الشيخ الطيب قطب الطريقة السمائية الذي كان له أثر عميق في نفوس الشباب خاصة عندما شهدناه في أواخر العشرينات ، وأوائل الثلاثينات ، وهذا بالتحديد بدء مشاهدتي له عن قرب مع زملاء لي من طلبة كليـة غردون في تلك الفترة ، وليست هي بدء الفترة التي تألق فيها نجمه كصوفي وعالم ورع يلتف حوله خلق كثير يتتلمذون عليه ويعبون من منهله في مسجده العامر، الذي أقامه في حي ودنوباوي بأم درمان وداره الملاصقة له ، حيث لا تنقطع أصوات الذاكرين والتالين للقـرآن والمنشدين لمدائح الصوفية طـوال ساعات الليل والنهار الا قليلا .

كان همنا ــ في تلك الفترة ــ ونحن نعيش في داخلية الكلية ــ عندما يسمح لنا بمغادرتها ظهر الخميس عقب الغداء لنعود اليها مساء الجمعة ،

ان يسارع أكثرنا الى أم درمان حيث نلتقي بصاحب لنا فيها ، يلقننا بالترحاب والشوق ، وكانت حفلات بيوت الأعراس مقصدنا الاول نروح فيها عن أنفسنا ، فهي اللهو الوحيد الذي تقدمه لنا المدينة ، وكنا نجد عند رفاقنا أخبار بيوت الاعراس حيث يغني مطربو ذلك العهد ، ويرقص الفتيات ، وكان (بيت العرس) حيث تقام (اللعبة) أو (الحفلة) مسرحا يباح فيه الدخول لمن يشاء .

فنقضي أكثر الليل حيث يطيب لنا ، وكان أحب المطربين الينا «كرومة» ولهذا حديث يجيء فيما بعد ... وفي صبيحة يوم جمعة ، اقترح علينا بعض هؤلاء الرفاق ، ان نذهب لاداء صلاة الجمعة مع الشيخ قريب الله في مسجده بودنوباوي ... وعجبنا لهذا الاقتراح ، كان بعضنا لا يؤدي الصلاة أصلا ، وللشباب تبرمات ونزوات وتمرد !

وألحوا علينا واستجبنا وحدثونا طويلا عن هذا الشيخ الجليل ، وعن الذكر الذي يؤدي بعد الصلاة ، وعن الشعر الصوفي العذب الذي ينشده بعض المريدين بأصوات ترق لها القلوب ، وعن فلان وفلان ... الخ من بعض مثقفي ذلك العهد الشباب وقد تتلمذوا على هذا الشيخ وانخرطوا في سلك مريديه ...

وذهبنا معهم ، وكان اول ما وقع في نفوسنا موقعا جميلا ـ امام المسجد ـ الشيخ محمد علي بكار رحمه الله ، وهو صاحب معهد بكار الديني العلمي الذي أنشأه على نفقته وما يزال قائما يؤدي رسالته على خير وجه ـ هذا الامام العالم ـ أسمعنا خطبة الجمعة غير ما ألفنا من أكثر أئمة المساجد في ذلك العهد كانت معانيها جديدة تعالج الادواء الاجتماعية المنتشرة ، وكان اداؤه ممتازا ومؤثرا ، في صوته نبرات حادة ، ترهف لها الاسماع وتشدها لسماع ما يقول ... وما أحسن ما كان يقول ...

وبعد الصلاة انتظم الكثيرون في حلقة كبيرة داخل المسجد ، يقف في وسط الجانب الغربي منها الشيخ قريب الله ملثما بردائه كما وصفت وقورا مهيبا — وأسرعنا نقف خلفه تأمله ونستمع للمنشدين والذاكرين — كان هناك عدد من الشبان يتولون الانشاد ، عرفتهم جميعا فيما بعد ، في أولهم شاب تقي اسمه (قنديل) جميل الصوت حلو الايقاع ، وكان هو أيضا مؤذن المسجد لحلاوة صوته ••• وكان جديدا على مسامعنا كل الجدة ، الطريقة التي كانت تؤدى بها كلمة « لا اله الا الله » •

تؤدى باللسان أولا في تنغيم ينسجم مع اداء المنشدين ، ثم ينتقل اداؤها الى الحلوق ، فتسمع لها فحيحا منغما لا تخطىء فيه فهم ترداد كلمة (لا اله الا الله) ••• ثم ينتقل الاداء الى الصدر فيخرج فيما يشبه أنات الواله المتواجد في حب الله ••• كل هذا والشيخ يهتز مع أنغام الذكر اهتزازا خفيفا ويدير حلقة الذكر — على ما أذكر — باشارة من يده ••• وفتنا بهذا الذي شهدنا •••

لم يعد يوم الخميس ، عندما نغادر الداخلية مطلبنا فيه كرومة ورفاقه — وان لم تتخل عن سماعهم — وانما كنا تلهف لظهر الجمعة لنخف الى مسجد الشيخ قريب الله •

لنستمع الى خطبة المرحوم ودبكار الجديدة المعاني ولتفيض النشوة الروحية في نفوسنا ونحن وقوف خلف الشيخ نستمع الى الذكر ، ويستهوينا صوت قنديل وصاحبه بتلك الاناشيد الصوفية التي تسمو بالنفوس الى أعلا الآفاق !•

وما زالت أصواتهم عالقة بقلبي وفكري وهم يرددون قصيدة ابن الفارض — ان لم أخطىء في نسبتها له :

ارج النسيم سرى من الزوراء

سحرا ، فأحيا ميت الاحيـاء

★ ★ ★

وهمهمة ودمدمة الذاكرين :

« لا اله الا الله » تمازج النغم الحلو فتبلغ النشوة الروحية ذروتها.. وتسمع منهم أحيانا لحنا خفيفا ، كأنمـا هو يركض ركضا في أبيـات مستهلها :

هـذه جنتنـا يـا سامعينـا

★ ★ ★

ويرددون المقطع الاول في خفة (هذه جنتنا ...) ويشتد انفعـال الذاكرين ...

ويا فرحتنا عندما يصمت الذاكرون والمنشدون ويأخذ الشيخ قريب الله في الانشاد كان له صوت عميق مؤثر حلو النبرات كان أحيانا ينشد من أشعار بعض الصوفية الآخرين ، وكم كان يأسرنا ويبهرنا انشاده لهذه المقطوعة لصوفي قديم لا أذكر من يكون :

ولما وردنا ماء مدير نستقي على ظمأ منا الى منهـل النجـوى
نزلنا على قوم كرام بيوتهـم مقدسة ، لا هند فيها ولا علـوى
فلا حق لنا نار على البعد أضرمت وجدنا عليها من نحب ومن نهوى
سقانا فحيا وأحيا نفوسنا وأسكرنـا من خمـر اجلاله غـوا
مدام عليها العهد الا يسيغها سوى مخلص في الحب خال من الدعوى
مزجنا بها التقوى قلوبنا فيا من رأى خمرا يمازجهـا التقـوى

شربنا فبحنا ، واستبيحت دماؤنا أيقتل بواح بسر الذي يهـوى
وما السر في الاحرار الا وديعة ولكن اذا رق المدام فمن يقـوى

★ ★ ★

أكون كاذبا اذا قلت انني أستطيع أن أنقل بدقة ذلك الفيض الروحي الذي كان يغمر كل من كان يستمع لذلك الصوفي الورع ينشد بصوتـه العميق المؤثر هذه الابيات ، او امثالها من الشعر الصوفي .

ولا أجيء بجديد اذا ذكرت هنا ان الشيخ كان شاعرا مبدعا وكان كثيرا ما ينشد خـلال فترات الذكر بعض مقطوعاته الصوفية ، يذكـر الاخوان معي بعضها ، كقوله :

موائد احسان يضوع لها نشر	وحضرة ايقاف جلاليبها الستر
وبعض وجوه أشرقت من بهائها	تلوح لنا منها البشاشة والبشر
وانس نديـم لا يمـل حديثه	وشرب مدام طاهر كأسها بكر
يمر بها في آخر الليـل شادن	من الملأ الاعلى يفوح له عطر
على صاحب التهليل عند نزول من	تعالى مكانا ان يحيط به فكر
هنيئـا له بالله طابت حياتـه	لياليه غر ثـم أيامـه زهـر
هنيئـا له قد فاز فوزا مؤبدا	وفي ملكوت الله كان له ذكر

ومن يرد الاستزادة من شعر الشيخ فليبحث عن ديوانـه المطبـوع « رشفات المدام » وان الديوان ــ كما علمت ــ لا يحمل كل شعـره لقارئه ، واني لاسف اذ لا أملك منه نسخة ...

وتتلقفنا حياة العمل بعد انقضاء عهد التلمذة ، فطوحت بنا هنا وهناك ولم نجد فرصة لنؤدي صلاة الجمعة مع الشيـخ ، ونستمع الى ودبكار

وقنديل ورفاق قنديل ، رحمهم الله ، حتى فجعنا بنبأ وفاة الشيخ قريب الله في شهر رمضان من عام ١٩٣٦م على ما أذكر ـ ومعذرة لهذا الخلط بين الشهر العربي والسنة الميلادية ! ـ اذ ارتبطت بها كل مقدرات حياتنا وبقيت في أعماق نفوسنا هذه الذكريات الحلوة ننشرها لمن عاشوها ولمن جاءوا من بعدنا ولم يعيشوها !

ثم ... ماذا كان بين الشيخ قريب الله الصوفي الورع ، والفنان البوهيمي كرومه !؟.

(٢) كرومة كما يعرفه أبناء جيله

ربع القامة ، أقرب للقصر ، أسمر اللون ، ممتلىء الجسم في غير ترهل ، وسيم الطلعة على خديه « شلوخ » عريضة في أعلاها وكانت من سمات الجمال آنذاك للجنسين معا ، أنيق في ملبسه الى حد المغالاة ، يحب لبس (القفاطين) ويشتريها من الانواع الغالية ، وقد يغير ثيابه مرتين في اليوم الواحد ، خاصة اذا علق بها أدنى قدر من « الوساخة » فسرعان ما يعود الى داره ليستبدل ثيابه بغيرها ، يحمل في يده دائما عصا جميلة من « الكريز » تكملة للاناقة ... وله فيها مآرب أخرى سيأتي ذكرها هنا .. وكان ينتعل في رجليه « جزمة » يحسن اختيارها من المحلات الافرنجية في السوق الافرنجي بالخرطوم ، وأشهرها محل « ديفز براين » الذي يستورد السلع الانجليزية الذي يرتاده الانجليز وكبار الاجانب وقلة من « الافندية » الارستقراط ويختار « جوربا » ملائما للون « الجزمة » مع ان الاحذية الرائجة بين الكثيرين من السودانيين هي «المراكيب الفاشرية» نسبة لمدينة الفاشر التي انتشر فيها هذا النوع الجيد من « المراكيب » وقد اشتهر بصناعته الوافدون من نيجيريا ، وما يزال هذا النوع محتفظا ببعض الراغبين فيه بعد ان كان يحتل المكان الاول عند تجار الاحذية !

هذا هو المطرب المبدع ، الذي فتن عشاق الطرب بصوته الرائع وجعل

الفتيات يتهافتن على حلبات الرقص التي يغني فيها ليرقصن على ألحانه الشجية ••• عبد الكريم عبد الله مختار الذي عرف باسم « كرومة » •

وقد كنت أعرف ان اسم « كرومة » هو اسم « التدليل » الذي كانت تناديه به أمه ، تصغيرا لاسم عبد الكريم ، وهو تصغير « تعظيم » كما يقول النحاة ، وهو التعليل الذي يعرفه الناس • ولكني التقيت بالشاعر عمر البنا ، وكان من اصدقائه الحميمين لتوافق اهتماماتهما بفن الغناء ، وقال لي عمر ، ان والدة عبد الكريم أطلقت عليه اسم « كرومر » وذلك عندما زار السودان في عام ١٩٢٢ اللورد كرومر واستقبل استقبالات رسمية فخمة ، فبهرها ذلك وأطلقت على ابنها اسم « كرومر » لعله يكون رجلا عظيما مثله !•• واختفت « راء » كرومر من الالسنة ليبقى «كرومة»! وأكد لي انه عندما كان يزور دار كرومة ولا يجده كان يسأل أمه « أين اللورد ؟ » ويعني بذلك تأكيد اسم اللورد كرومر !•• أذكر هذا والعهدة على الراوي المعاصر •••

وقد ولد كما هو معروف في أم درمان وتلقى تعليمه في مدرسةالهجرة الاولية ولم يزد على ذلك ، وقد عرف في عهد تلمذته بحلاوة الصوت بين زملائه ومدرسيه ، ومن هنا كانت بداية انطلاقه في عالم الطرب حتى صار من أعلامه الذين فتن بهم الناس ، وقد أخذ يتألق بين مطربي تلك الفترة منذ منتصف العشرينات •

أذكر وأنا تلميذ في مدرسة سنجه الاولية ان سكن بجوارنا رجل أنيق وسيم ، ممتلىء الجسم ، أقرب الى القصر ، جاء من أم درمان ليعمل « ساعاتيا » وكان عازبا ، وكنا معجبين بأناقته وظرفه ، وعرفنا اسمه « عبد الله مختار » ثم ترامى الى اسماعنا انه والد الفنان « كرومة » •••

ولما جئت الى الخرطوم للالتحاق بقسم العرفاء الملحق بكلية غردون

القديمة والذي يتخرج فيه مدرسو المدارس الاولية ، وأخذني بعض من عرفت من زملائي الطلبة سكان أم ذرمان ، وشهـدت لاول مرة كرومة يغني ، خيل الي انني أرى أمامي « عبد الله مختار » بكل سماته ووسامته وأناقته ، الا ان كرومة كان يختلف عنه بظاهرة « الشلوخ » العريضـة على خديه ! ولا شيء سوى هذا !

يتفق كل أصدقاء كرومة وعارفوه انه كان دمث الخلق حلو المعشر ، محبوبا بينهم ، وكان شجاعا يرهبه أولئك الذين كانوا يتعمدون افساد حفلات الرقص ، في بيوت الاعراس ، عندما تحجر عليهم العربدة والنزول الى حلبة الرقص « لاخذ الشبال » كما جرت العادة من الراقصات ، اذ كان كرومة يضع عصا « الكريز » على ساعده وهو يغني فاذا ما أحدث بعض هؤلاء الصعاليك عربدة وحاولوا ضرب الموجودين كعادتهم ، أعمل فيهم عصاه غير هياب ولا وجل !.. لهذا كانوا يتهيبون التعرض للحفلات التي يغني فيها كرومة ، بجانب حرصهم على الاستمتاع بالاستماع لاغانيه.

وكان مع شدة بأسه وشجاعته ، مهذبا حييا خجولا. قال بعض زملائه المطربين ، ومن كانوا يغنون معه « شيالين » أو « كورس » بلغة اليوم ، بلغ من حيائه وأدبه انه كان لا يدخـن السجائر والفتيـات جلوس على « السباتة » في حلبات الرقص ، فكان في فترة الاستراحة القصيرة ، يخرج من مكانه ويختار ركنا بعيـدا عن الفتيـات والنساء ، وربما خرج الى الشارع ان لم يكن في الدار مكان ملائم لستـره ، ثم يدخن سيجارته ، ويعود بعدها الى مكانه ليستأنف الغناء !

ولقد سألني بعض الشبان ، اذ وصفت كرومة بأنه فنان « بوهيمي » وقد توهموا انني أردت بذلك انه لا اخلاق له ، ولعلي فيما ذكرت هنا ما ينفي ذلك ، وانما أردت بالتحديد انه كان مفتونا بالجمال مولعا به وقد

عاش حياته هائما به ، ولهذا لم يتزوج قط ، ولكنه مع هيامه بالجمال كان مهذبا جدا في سلوكه الانساني مع سائر النــاس ، حريصا على مراعــاة الآداب العامــة الى الحــد الذي كان يأنف من أن يشرب سيجارة امام الفتيات والنساء لانه يعد هذا التصرف الذي يبدو الآن غريبا وغير مهضوم خروجا على آداب السلوك المعهودة في ذلك الوقت !..

كان لكرومة تموجات في صوته تسكر طربا ، « وبحة » لعلهــا سر روعة ذلك المزمار الساحر ، وتوقيعات خاصة على « الرق » الذي اشتهر بها ذات روعة خاصة ، ضاعفت من سحر صوتــه وادائه على مستمعيه ، وكان شباب أم درمان ــ المفتون بغناء كرومة ــ يرهف سمعه في الليــل الهادىء ــ ولم تكن المدينة صاخبة آنذاك ــ عساه يستمع الى توقيعات « رق كرومة » ويتجه نحوها ليستمع اليه !..

وكانت فتيات أم درمان يسرعن الى بيوت الاعراس التي يغني فيها كرومة متى دعين اليها دون ابطــاء ، وهن في أبهى زيناتهــن ! وكن لا يصطنعن التردد عندما يدعو العريس احداهن الى حلبة الرقص بل تسرع الى الحلبة سعيدة بالرقص على أنغام كرومة ! بل كن اذا ما أوشك الليل ان يمضي لينصرف كرومة ــ وكان عددهن كبيرا ــ ان تندفع الى الرقص اكثر من واحدة ، وتلك ظاهرة كانت تنفرد بها حفلات كرومة الراقصة .

وكان من التقاليد الاجتماعية ان تجلس الفتيات في هذه الحفلات على « سباتة » أو أكثر تفرش على الارض مباشرة ، ويولين ظهورهن للشبان، الا انهن كن يخالسن النظر ناحية الشبان ، ويتغامزن خفية ان كان هناك ما يستحق التعليق ... على بعض الشبان !..

ومما أذكره أغنية لطيفة عبّر فيها الشاعر عن مخالسة النظــر هذه ،

ولعله كان متيما باحداهن ، وكانت تنظر اليه خلسة في مثل هذه الحفلات فقال :

تسرق عيونها بشيشي !
والنار تقوم في قشيشي !

أي انها تسارقه النظر « بشيشي » ! فتندلع النار فيه !.. وهي احدى صور الحرمان في ذلك العهد الممعن في الانفصالية بين الجنسين !.. وما يزال هناك من يحن الى ذلك العهد ، بينما يسخر منه كثير من أبناء الجيل الجديد ! كما سيسخر منهم أبناؤهم غدا وهم يتحدثـون عن حيـاتهم الاجتماعية !

قلت ان كرومة كان أنيقا الى حد المغالاة وكان يعنى باختيار أنواع لطيفة من العطر تفوح من ثيابه ، ولهذا فان مصنع «الشبراويشي» للعطور في مصر ولعله أول مصنع للعطور في البلاد العربية ، أنتج عطرا معينـا ، وضع على زجاجته صورة كرومة وسمي العطر باسمه ، فعل ذلك بعد ان تأكد من شعبية الفنان الانيق ، وأذكر ان هذا المصنع أنتج أيضا نوعين من العطور وضع على زجاجة احداهما صورة المغفور له السيد علي الميرغني وعلى الآخر صورة المغفور له السيد عبد الرحمن المهدي ، وجاء عطـر كرومة ثالثا لهما ... وذلك بعد استئذانهم جميعا .

وكان كرومة ذا موهبة معروفة في تلحين الاغانـي في سهولة ويسر ، واليه تنسب ألحان أكثر الاغـاني التي عرفت فيما بعد باسم « أغـاني الحقيبة » رحمه الله وغفر له .

(٢) لقاء كرومة بالشيخ قريب الله ..

الليل خافت الاضواء والحركة ، يسري نسيمه رخاء ، والقمر يرسل أشعته الفضية على دور أم درمـان الداكنـة ــ وجلها من الجالوص ــ فيضفي عليها شيئا من الرواء ، وخلف هذه الجـدران وجـوه تهفو لها القلوب وتظمأ الارواح ! ففي كل حي وجـوه ألهمت شعراء الاغنيـة ، وأطلقت أوتار المطربين وسارت على ألسنة الناس ، في أم درمان وفي سائر مدن السودان ، التي كانت « البقعة » منارة هادية لها في كل جديد يصدر عنها . هناك في حي « القلعة » حيث الوجه الفاتن الذي ألهم «ابو صلاح»:

العيـون النوركـن بجهـرا
غير جمالكـن مبين السهـرا
يا بدور « القلعة » وجوهرا

وفي « ودنوباوي » تلك التي كانت تلهب مشاعر الشباب كلما تثنت في حلبة الرقص ، ويغنون لها :

في النسايـم شاكـي
لي « نوباوي » تـروح
بي لطـف تغشاكـي
يـا شريكـة الـروح !

و ••• ثم ماذا ؟•• الفرع المال في « بيت المال » !••

وفي العباسية الحسناء « اسيا » التي تمنى عمر البنا ان يحمل اليـه النسيم عبيرها مساء كل يـوم ، عسى أن يخفف عنه ما يلاقي من « ألم البين » فيقول :

يا نسيم الروض زورني في الماسيـة
وجيب لي الطيب من جناين « آسيا »
وانعش روحـي مـن ألم البين !

ولا يمانع « عتيق » ان تضيع حياته فداء لساكن « الموردة » :

مـا عنـدي مانـع حتـى ولـو
ضيعنـي ساكـن المـوردة

ويشدو عبيد عبد الرحمن وسيد عبد العزيز لحسان « المسالمة » •• « لي في المسالمة غزال » •• « وآه من جور زماني » •• « وحاول يخفي نفسه » •• « وهل يخفى القمر في سماه » !•• كلا يا سيد ! لن يخفى قمر المسالمة !••

شباب أم درمان يجوب هذه الاحياء كل ليلة عساه يظفر ببيت عرس فيشهد في حلبة الرقص الفاتنات اللواتي ألهمـن الشعراء •• ولا يثلـم شرفهن أن يغني فيهن الشعراء ، فهن مصونات •• كظباء مكـة صيدهن حرام !•• وقد يكون هذا الشعر الذي قيل فيهن مدعاة لجذب خـيرة الشباب ليتزوجوهن ••• كما حدث فعلا !

ليست بيوت الاعراس بما فيها ومن فيها هي كل ما تطرب له المدينة ويتجاوب معه شبابها وكهولها وشيوخها ، فهناك أيضا مساء كل خميس

وأحد ، رجال الطرق الصوفية بمظهرهم الخاص ، واعلامهم الضخمةالتي ترفرف عالية يجوبون الشوارع في صفوف متراصة ، تجمـع انماطا من الناس ترتفع أصواتهم بالمدائح والاناشيد الدينية ، بعضهم يقرع الطبول والدفوف ، وبعضهم بغير طبول او دفـوف ، ويتقدم كل مجموعة منهم صف طويل من الشباب يحملون المصابيح المضيئة ، فتزين تنظيمهمويخرج النساء والصبية والاطفال الذين قد يهبون من نومهم ليشهدوا الموكب ، وترتفع زغاريد النساء اعجابا او التماسا « للبركة » من صاحب الطريقة ! ويود الصبية والاطفال ان لو انخرطـوا في الموكب لفـرط اعجابهم بما يشهدون !.. حتى اذا ما بلغت هذه المواكب الدور التي تقصدها قضوا اكثر الليل في المدائح والاذكار ــ كل على طريقته ــ وجعلوا لليل نكهة خاصة .. لا تقل طيبا عن تلك التي تنبعث من بيوت الاعراس ... وقد فقدت أم درمان هذه المظاهر ــ الا لماما ــ ومن غير ان نحتفي بها كما كانت تفعل بالامس ...

كرومة .. يتوسط حفل عرس في حي ودنوباوي .. الذي تمنى فيه ابو صلاح ان يغشى النسيم « بي لطف شقيقة الروح » .. وقد اكتظت الدار بالجنسين ، ككل حفل يغني فيه كرومة ، الذي انطلـق صوته في هدأة الليل صافيا عذبا ، يهز المشاعر طربا ، والفتيات يتهافتن للرقص .. على .. الحانه الشجية ..

دار العرس ليست بعيدة عن دار الشيخ قريب الله ، وقد جلس الشيخ التقي انورع على « تبروقة » الصلاة وحوله بعض مريديه وتلامذته جلوسا على « البروش » يستمعون الى ارشاداته واحاديثه الموجهة للخير كعادته معهم .. ويصمت الشيخ في بعض الفترات ولا يتحدث ، وانما ينصرف الى تأملاته وينفرد بنفسه ..

ويحمل النسيم الى الشيخ ومن معه صوت كرومة الرائع يغني :

يا ليــل ابقــالي شاهــد !
على نار شوقــي وجنوني !
يــا ليــل !...

وينصت الشيخ الى هذه المناجاة العذبة لليل .. الليل الذي يقيمــه تعبدا وتهجدا وتلاوة للقرآن .. الا ما احسن هذا الذي يسمع من كلمات ويلتفت الشيخ الى تلاميذه سائلا .. من هذا الذي يغني لليل ؟!. ويقولون انه مطرب اسمه « كرومة » .. ويصمت الشيخ قليلا .. ثم يتجه اليهم قائلا .. اذهبوا اليه واطلبوا منه ان يأتيني مشكورا .. ويخف بعض تلامذته الى حيث يغني كرومة في بيت العرس القريب ..

كرومة ، وقد فرغ من اداء الاغنية وجلست الفتاة التي كانت ترقص « على السباته » لتخلي الدائرة لاخرى .. ووصل رسل الشيخ ، وهمسوا في أذن كرومة .. الشيخ قريب الله يريدك أن تحضر اليه الآن !.. ويفزع كرومة ويضطرب ، ويحار .. ماذا يريد منه الشيخ ، كان بجانبه صديقه الشاعر عمر البنا ، يستمع للحديث ، فيقول له مشجعا : سأذهب معك ، ونهضا .. ويخب التلاميذ أمامهما .. كرومة ينتابه قلق شديد ، وقد قر في نفسه ان الشيخ لا بد قد سمعه يغني ، وانه سيؤنبه على مسلكه ويزجره ويقول هذا لصاحبه الذي لم يكن بأقل منه قلقا وحيرة .. ويبلغان الحجرة التي فيها الشيخ وبعض مريديه ، وينحني كرومة مسلما ومقبلا يد الشيخ ويلقاه الشيخ في بشاشة ولطف ، وتهدأ نفسه بعض الشيء .. ويشير اليهما الشيخ ان يجلسا ، ويجلسان على البرش .. ويؤتى لهما بشراب من العسل الممزوج بالماء .. يرشفانه في بطء ويزداد اطمئنان كرومة ...

وينظر الشيخ الى كرومة ويقول له : لقد سمعتك الآن تنشد كلمات طيبة عن « الليل » .. فهلا اسمعتني اياها ؟ .

كان هذا آخر ما فكر فيه كرومة ، ولكنه نهض منتشيا بهذا الطلب ، ونهض معه عمر البنا ليقوم له بمهمة « الشيال » او « الكورس » .. وبدأ كرومة يغني مطلع القصيدة في شيء من الاضطراب :

يا ليــل ابقالي شاهــد
على نار شوقي وجنوني !

الشيخ ينظر بعيدا ساهما ، الليل .. كم له فيه من تسبيح وتهليل ، وكم شهد له بما يلقى من تعلق وشوق للذات الالهية .. ألم يقل في احدى قصائده عن هذا الليل :

يمر بهــا في آخر الليــل شــــادن
مــن الملأ الاعلى يفوح له عطر
على صاحــب التهليــل عند نزول من
تعالى مكانــا لا يحيط بــه فكر
هنيئــا لــه بالله طــابت حيــاته
لياليــه غــر ، ثــم أيامــه زهــر
هنيئـــا لــه قــد فاز فوزا مؤبــدا
وفي ملكــوت الله كــان له ذكــر
تلاشى لديــه الهم والغــم والعنــا
وحاز لديه القصد . وانجبــر الكسر

ويردد كرومة المقطع الاول من الاغنية ، وقد طابت نفسه فما أحلى وأعذب أن يغني للشيخ قريب الله ... ويغني المغنــي وكل على هواه ،

ويترفع صوت كرومة بكل ما يحمل من نبرات ساحرة (بحة) .. آسرة :

يا ليل ... صار ليك معاهـد
طـرفي اللـي منامـو زاهـد

يـا ليـل ...!

دنا لي سهـرك ... وأشاهـد
فوق لـي نجمـك ظنونـي !

يـا ليـل ...!

ويهتز الشيخ ... ويرتفع صوته في صيحة من تملكته نشوة الليل.. ليل الصوفي العابد .. صاح .. الله !.. ويسمـع كل من في الحجـرة صيحة الشيخ .. الله ! وقد انكفأ على « التبروقة » مغشيا عليه !

ويصمت كرومة ذاهلا ... ولا يزيد على هذا المقطع ، وصمت كل من في الحجرة ، وهم يرون الشيخ منكفئا مغشيا عليه !.. ويا لامثال الشيخ من الليل وذكر الليل !..

ويسرع تلاميذ الشيخ الذين جاءوا بكرومة وصاحبه وقد وقفا وسط الحجرة كتمثالين جامدين لما أصابهمـا من دهشة ... ويصحبانهما الى خارج الدار ليكملا ليلتهما في دار العرس ، وليتركا الشيخ حتى يفيق مما غشيه من هذا الكلام الذي يدرك وحده عمق معانيه ... وليكمل ليله في عبادته وتهجده وذكره ...

وما أبعد الشقة بين ليل كرومة ... وليل الشيخ قريب الله !

والله يعفو عن كثير ... ولعل كرومة قد أظلته رحمة الله التي تمثلت في قوله تعالى :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » .

لجنة (ديلاور) للتعليم ومحمد عشري

أبناء الثلاثينات ـ وأعني من بقي منهم ـ ما زالـوا يذكـرون ان الانجليز كانوا يهتمـون اهتماما بالغا بتدريس اللغة الانجليزية في كلية غردون التذكارية ، لعلها المادة الوحيـدة التي كانوا يولونها كل الرعاية والاهتمام من بين المواد الاخرى ولهذا كان الخريجون يجيدونها الى حد ان بعضهم من السهل عليه ان يتعمق قراءة كبار كتابها وشعرائها واشتهر بالثقافة الانجليزية كأحد أبنائها .

وفي مستهل تلك الفترة استقدم الانجليز لجنـة من خبراء التعليـم الانجليز برئاسة أحدهم ويسمى (ديلاور) واشتهرت اللجنة باسمه وكان الغرض من استقدام هذه اللجنة ان تقوم بدراسة جديدة لبرامج وطرق تدريس اللغة الانجليزية في الكلية مع نظرة عامة للتعليم كله ليس بغرض النهوض به بل لتقديم اقتراحات مدروسة لتدريس اللغة الانجليزية .

وقد أثار هجوم هذه اللجنة اهتماما بالغا لدى المثقفين في تلك الفترة، وقد حيل بينهم وبين الاتصال بها لتقديم أي مقترحات او افكار حـول التعليم في السودان وكما نعلم فان للانجليز آنذاك سطوة وقدرة تجعل من العسير تحدي ارادتهم فظلت لجنة (ديلاور التعليمية) تعمل بمعزل عن السودانيين مكتفية باصتفاء معلوماتها من ذوي الرأي والاختصاص

من الانجليز ، ولكن الشاب (المرحوم) محمد عشري صديق وهو من الذين اشتهروا بعمق ثقافتهم الانجليزية يجرأ ويضع مذكرة ممتازة عن التعليم كله في السودان ، كما وكيفا مبديا ملاحظات موضوعية لسياقة مقترحات تعني النهوض بمستوياته ويدعم مذكرته بالاحصاءات الدقيقة عن انواع وعددية المدارس القائمة آنذاك وعدم جدواها بوضعها القائم لتحقيق رسالة التعليم كما يريده قطر ناشيء متوثب ، واستطاع محمد عشري أن يرسل هذه المذكرة الموضوعية الضافية الى رئيس اللجنة الذي قيل انه أعجب بها ولكن لم يكن فيمقدوره أن يفعل شيئا بشأنها لانوضع وتقرير السياسة التعليمية في السودان من شأن القائمين بالامر فيه هنا (في الخرطوم) ولكنه أطلع مدير الكلية الانجليزي (طبعا) على المذكرة وتركها له ، ومن حسن حظ الشاب محمد عشري ان ديلاور أدرك من الشعور الذي لمسه من مدير الكلية عندما تلى المذكرة ، أدرك انه سيبطش بهذا الشاب لانه تطاول فقدم هذه المذكرة من وراء ظهره لرئيس اللجنة فطلب ديلاور من مدير الكلية ان يعده الا ينزل أي عقوبة على هذا الشاب كأن لم يفعل شيئا ، واستجاب مدير الكلية مكرها لهذا الرجاء ولكنه ظل يشكو من تصرف محمد عشري لعدد من كبار الخريجين وبعض شبابهم باعتبار ان ما فعله عشري يعتبر تصرفا غير لائق وما كان يجب أن يحدث منه ويصمه بالادعاء والغرور .

وكان محمد عشري من خريجي قسم الهندسة بالكلية ومن المبرزين فيه وكان يعمل مهندسا بالحكومة بعد تخرجه ويبدو ان الانجليز انتقاما منه أحدثوا له في عمله مضايقات شديدة فما كان منه الا ان قدم استقالته من العمل الحكومي وكان هو العمل المرموق الذي يعد قبلة الانظار ، وتقدم للمدرسة الاهلية بأم درمان لتعيينه مدرسا أهليا وبمرتب أقل من الذي كان يتقاضاه في وظيفته الحكومية ، ومع الاسف فقد كان الوضع الذي فرضه الانجليز على لجان هذه المدارس الا تعين مدرسا الا بعد

موافقة مصلحة المعارف ، وقد عد أعضاء لجنة المدرسة الاهلية بأم درمان كسبا كبيرا للمدرسة ان يعمل محمد عشري مدرسا بها وتقدموا لمصلحة المعارف يطلبون الاذن لهم بتعيينه فرفضت المعارف ـ وكان عشري من أعلام المثقفين الذين تعتز المدارس الاهلية بانضمامهم اليها وما كان يقبل أحدهم ان يعمل بها لضعف مرتباتها الا من صدقت وطنيته ـ وقد خشي الانجليز ان يبث عشري روح الوطنية والتمرد عليهم بين الطلبة ويبث روح الوطنية ، فأصروا على رفض طلب لجنة المدرسة الاهليـة بتعيينه مدرسا بها ، وربما كان أيضا من عوامل هذا الرفض ما عرفوه من ان بعض شباب الخريجين وكهولهم كانوا يترددون على محمد عشري في داره بحي الموردة بأم درمان بعد ان علموا بالمذكرة مبدين اعجابهـم وتقديرهم لما قام به اذ كانت المذكرة في جملتها تعبيرا صادقا لما كانوا يحسون به من نقص فاضح في التعليم كما وكيفا .

كان من بين أعضاء لجنة المدرسة الاهلية خريجون كبار معتدلـون لهم وزنهم واعتبارهم عند الانجليز والمجتمـع كله فظلـوا يلحون على المسئولين من الانجليز حتى قبلوا أخيرا بعد لأي بأن يعمل محمد عشري مدرسا بالمدرسة الاهلية التي تعادل اليوم الثانوية العامة ، وبمرتب ضئيل اذا ما قيس بالمرتب الذي كان يتقاضاه في وظيفته الحكومية ، وكان كما قلت يعد من أبرز المهندسين الذين تخرجوا في الكلية آنذاك وهو أيضا من أعلام الشباب المثقف الذي تعقد عليه الآمال وقد قبل هذا الوضع بل سعى اليه بوطنية لما اكتنفته المضايقات العديدة التي شنها عليه رؤساءه الانجليز والموعز بها لانه تقدم بمذكرة موضوعية هادئة متزنة عن التعليم في السودان وقدمها الى رئيس اللجنة التي جاءوا بها خصيصا لتقدم لهم نصائحها وارشاداتها في هذا الموضوع ، فكبر عليهم جدا ان يتقدم شاب سوداني من صغار الموظفين بمثل هذه المذكرة ويتدخل في أمر افترضوا ان يكون بحثه وقفا عليهم وحدهم !

ولولا شفاعة رئيس اللجنـة المستر ديلاور لكان انتقامهـم من هذا الشاب مريرا وما كانوا يبالـون من شيء آنذاك والقـوة والسطوة في أيديهم ، والوعي الوطني لما ينضج بعد •

رحمك الله يا عشري لكم قاسيت وأبناء جيلك من طغيان المستعمرين، فأي جريمة كانت ــ لولا صلفهم ــ ان يتقدم شاب سوداني مثقف بآراء نيرة ومدروسة في شأن يهم وطنه ومستقبله اكثر مما يهم المستعمر ، بل ان الاختلاف الشاسع جدا بين نظرته للتعليم كوطني يحس بواجبه نحو أمته وبين مستعمر يريد التعليم مطية زلولا لتحقيق أغراضـه في اخماد الروح الوطنية لدى أبناء الشعب •

دكتور هوفل وشيخ العلماء

يا لها من أيام ! تلك التي كان الخريجون يهتبلون فيها كل فرصة وسانحة ليسددوا سهامهم للمستعمرين ويعمقوا كراهيتهم في ضمير الشعب ، اعدادا له لمعركة الخلاص ...

نحن في عام ١٩٣٧ ، وفي مستشفى أم درمان الحالي حيث كان أكثر الاطباء من الانجليز ، ومدير المستشفى أحدهم وهو الدكتور هوفل بطل هذه القصة .

كان النظام يسود ادارة هذا المستشفى ... ومن حسنات الانجليز البارزة حبهم للنظام وحرصهم على تطبيقه بدقة ، وأخذ كل من يخالفه بالشدة .. وقد كان هذا الحرص من الدعائم الاساسية لنجاحهم في فن الادارة ، وقد كانت ادارة المكاتب في السودان ـ او الخدمة المدنية كما يطلق عليها ـ مثالا للنظام الدقيق مما جعلها نموذجا فريدا لا مثيل له في كل افريقيا والشرق الاوسط آنذاك ، شهد بذلك كل من اتيحت لهم الدراسة المقارنة للادارة في مختلف هذه البلاد .

وقد خصصت لزيارة المرضى في المستشفيات ساعات معينة في يوم محدد من كل اسبوع ، وكان جرس المستشفى يقرع قبيل انتهاء الزمن

المحدد للزيارة لبضع دقائق ايذانا للزوار لكي يبدأوا في الخروج ، ويقرع الجرس الثاني والاخير في تمام الزمن المحدد لانتهـاء فترة الزيارة ، ولا يجب ان يبقى زائر واحد في المستشفى بعد قرع الجرس الاخير .

وكان مدير المستشفى ، أو أحد الاطبـاء المسؤولين ـ وجلهم من الانجليز كما ذكرت ـ يحرص على الطواف على غرف المرضى بعد قرع الجرس الاخير مباشرة ليتأكد من ان كل الزوار قد خرجوا ولم يبق منهم أحد يقلق راحة المرضى بعد انتهاء فترة الزيارة .

وفي أحد أيام الزيـارة هذه ، كان يرقد في احـدى غرف مستشفى أم درمان ولد صغير هو ابن الشيـخ احمد محمد ابودقن شيخ علمـاء السودان آنذاك ، وجاء الشيخ يعود ابنه ، وجلس بجانبه مشفقا ، فقد كان الولد يعاني من ألم شديد ، وقرع الجرس الاول ، ثم الاخير ، ولم يخرج الشيخ من غرفة ولده ، بل ظل جالسا بجانبه يرعاه ...

وأقبل الدكتور هوفل مدير المستشفى يتفقد غرف المرضى ليتأكد أن ليس هناك من زائر باق بينهم ، وفي غرفـة الولد المريض رأى الدكتور هوفل شيخ العلماء ما يزال جالسا رغم انتهاء فترة الزيارة ، فأثاره المنظر، وسأل الشيخ عن سبب وجوده .. وقال الشيخ : انه سيخرج بعد ان يطمئن على ولده أكثر ، وازدادت حدة ثورة الدكتور هوفـل وانفعل ، وتقدم نحو شيخ العلماء ، وكانت له لحية طويلـة تتدلى حتى صدره ، فأمسك بها محاولا اقتياده الى خارج الغرفة !..

وبالرغم من ان المغفور له شيخ العلماء كان معروفا بحدة الطبع عندما يثار ، الا انه تمالك أعصابه وتصرف في حكمة ، اذ غادر الغرفة في هدوء..

ولم يدر الدكتور هوفل انه بامساكه للحية الشيخ قد فجر القنـابل الفتاكة التي كان الخريجون يدخرونها لمثل هذه المواقف ضد المستعمرين.

وأي فرصة أسعد من هذه التي يهان فيها شيخ علماء الاسلام بالسودان على يد أحد الطغاة المستعمرين لكي يلهبوا شعور المواطنين باسم الدين ضد هوفل ورفاق هوفل الحاكمين المستبدين ؟!

خرج الشيخ هادئا ليرفع شكوى رسمية للمسؤولين عما حدث له من اهانة على يد الدكتور هوفل .. وتنتشر قصته في سرعة فائقة لتلهب المشاعر الوطنية والدينية ...

وتبنى الخريجون في مؤتمرهم العتيد اثارة القضية على نحو جماهيري واسع ، فأرسلوا البرقيات النارية لحاكم السودان العام يحملونه مسؤولية هذه الاهانة التي لحقت برجل يمثل أعلى منصب اسلامي في البلاد ... وأوعزوا الى مختلف الجهات لكي تبرق محتجة مظهرة ثورتها وسخطها واستنكارها !.. لقد حركوا كل التيارات في براعة لتبدي ثورتها !.. وانهالت البرقيات على الحاكم العام ، ومن كل أنحاء السودان ، ثائرة مهتاجة ، وعززها طائفة من العلماء ، وساندها كبار رجال الدين ...

وزاد النار اشتعالا تحرك جماهير من أهل الشيخ وعشيرته ثائرين ناقمين مهددين ...

وانحنى الانجليز ـ كالعهد بهم ـ للعاصفة ، ولو كانت عاصفة سياسية خالصة لعرفوا كيف ينكلون بمثيريها ويبطشون بهم ، ولكن العاصفة هذه المرة قد لبست مسوح الدين ، وهو أمر مفرط في حساسيته ، فهم يعرفون جيدا مدى عمق الاحساس الديني لدى السودانيين فلجأوا الى الحكمة ، وقدموا الاعتذار تلو الاعتذار لشيخ العلماء في خضوع واستكانة واكرهوا الدكتور هوفل لكي يقدم اعتذارا شخصيا ... ففعل !

وحسبوا ان الستار قد أسدل ... ولكن الخريجين أرادوا ان يستغل الحادث استغلالا سياسيا الى أبعد مدى ممكن ، والا يسدل عليه الستار

الا بعد استنفاد أغراضه في استنفار الناس ضد الحكم الاستعماري الجاثم على صدر البلاد ...

وحدث في تلك الايام ان قدم من القاهرة الطبيب السوداني المعروف الدكتور بخيت محمد عمر ليعمل لاول مـرة في مستشفى الخرطـوم . والدكتور بخيت كما هو معروف : أحد طلبة كلية غردون القديمة الذين سبقوا بالهرب الى القاهرة للدراسة في معاهدها فأثاروا سخط الانجليز الذين حرموا عليهم العودة للسودان وقالوا انه تحريم أبدي ، وظل هذا التحريم قائما منذ ان هربوا في عام ١٩٢٤ ، وما تلاه ، حتى أعلن عقـد الاتفاقية بين حكومتي انجلترا ومصر عام ١٩٣٦ وقد كان من بين بنودها اصدار العفو عن جميع المجرمين السياسيين، فأطلق سراح علي عبد اللطيف ورفاقه الذين كانوا في المنفى « بواو » ، وسمح للطلبة الذين هربوا في سبيل العلم للقاهرة ان يعود من يشاء منهـم للسودان ، وكان الدكتور بخيت محمد عمر قد أكمل دراسة الطب ، وعين طبيبا في مستشفى القصر العيني بالقاهرة ، وتخصص في الجراحة ، وبعد المعاهدة المذكورة رؤي ان يتفق معه للعمل في مستشفيات السودان ، واختيرت الخرطوم مقـرا لعمله .

واعتبر الخريجون عودة الدكتور بخيت انتصارا للارادة الوطنية ، وهزيمة للاستعمار الذي حدد موقفه من هؤلاء الطلبة الهاربين لتلقي العلم بمصر ، واعلن انه لن يسمح بعودتهم مرة أخرى لوطنهم !.. كما قرر ان يمنع اي عون مادي يرسل اليهم من السودان !

وأراد الخريجون ان يعلنوا بهجتهم بهذا الانتصار الوطني ممثلا في عودة الدكتور بخيت مظفرا بالعلم وبتحطيم الستار الحديدي الذي ضربه الانجليز ليحول دون عودته واخوانه ، فدعوا لحفل تكريم ضخم في نادي الخريجين بأم درمان ، ووجهوا الدعوة لزملائه الاطباء في العاصمة المثلثة

مع من دعوا ، وكان بينهم عدد من الاطباء الانجليز كما ذكرنا ، كما وجهوا الدعوة لكبار الموظفين البريطانيين في العاصمة المثلثة .

وأغفل الخريجون عمدا دعوة الدكتور هوفل ، احتقارا منهم لشأنه، وامعانا في الاساءة اليه ، وانتقاما لموقفه من شيخ العلماء .. وعلم الانجليز المدعوون ــ أطباء وغير أطباء ــ باغفال دعوة الدكتور هوفل وما وراء هذا الاغفال ــ فقرروا هم بدورهم مقاطعة الحفل فلا يحضره واحد منهم ...

وأقيم الحفل واحتشد النادي بالمدعوين من السودانيين وغير السودانيين من كل الجاليات التي دعيت للحفل ، واختفى البريطانيون تضامنا مع الدكتور هوفل ، ولم يؤثر اختفاؤهم على جو الحفل ، بل زاده روعة ووطنية ، وانطلق الخطباء والشعراء وقد وجدوا مجال القول واسعا خصبا ... وكان لهذا الحفل الوطني صدى عميق في تلك الاونة اذ كانت هذه هي المرة الاولى التي يضطر فيها الانجليز الى مقاطعة حفل ، اذ كانوا يصرون دائما على الحضور والجلوس في الصدارة ... حتى الحفلات التي كانت تقام باسم الاعياد الدينية لم يتخلفوا عنها ... ولاول مرة تضيق صدورهم ويعزلون أنفسهم ، وقد عد تصرفهم هذا انتصارا للحركة الوطنية النامية .

ان الرواية لم تتم فصولها !.. كان الانجليز في تلك الفترة التي بدأ فيها الوعي الوطني يتجه نحو النضج ، قد رأوا ان يطعموا الادارة بلون جديد من الشبان السودانيين المثقفين ، فأعلنوا انهم قد زهدوا في الاداريين السودانيين القدامى لان اكثرهم من طبقة « نعم سيدي » وليست لديهم الجرأة لكي يقدموا الرأي الناصح اذا ما كان ضد رغبة رؤسائهم الانجليز، وقرروا اختيار نوع جديد من الشبان المثقفين يدربونه على الادارة توطئة لرفع مسؤوليات الاداري السوداني وتأهيله لوظائف أكبر من الوظيفة التي يحتلها آنذاك وكانت لا تتجاوز درجة « مأمور » ... وكأن الانجليز

بهذه المحاولة الجديدة يريدون أن يلتقوا أو يتقدموا خطوات نحو مواجهة الشعور الوطني الذي أخذ يستعر .

وفعلا أختير عدد من الشبان النابهين الملحوظي المكانة في المجتمع لاول دفعة لهذا الوضع الجديد ..

وقد ظن بعض الناس خيرا في اختيار هذه المجموعـة الاولى للادارة واخذوها دلالة على تراجع الانجليز لكي يفسحوا مجال التدريب إمـام الشبان المثقفين ليحملوا مسؤولية الادارة .

ولما وقع حادث الدكتور هوفل ، وقاطع الانجليز حفـل الخريجين لتكريم الدكتور بخيت ، وكان هؤلاء ما زالوا طلبـة في مدرسة الادارة التي يشرف عليها أحد دهاقنة الاداريين الانجليز واسمه (بيرفس) وكان من أكثر الاداريين الانجليز معرفة باللهجات والعادات السودانية لتجوله في مختلف أنحاء السودان .. ودار نقاش بينه وبين طلبة الادارة حـول موقف الاداري السوداني في مثل موقف مقاطعة رجال الدولة الانجليز حفل الخريجين الذين تربطهم معهم الزمالـة الوطنيـة ... ماذا يكون موقفه ؟ لو كان مأمور مركز أم درمان مثلا ، ودعي لهذا الحفل ، وعلم ان كل رؤسائه الاداريين من الانجليـز قد قاطعوا الحفـل ، هل يلبـي الدعوة ؟.. أم يقاطع ممتثلا لموقف رؤسائه ؟ وهل اذا قبل الدعوة يكون قد خرج على الجهاز الاداري الرسمي الذي ينتمي اليه وقد قاطع هذا الجهاز الحفل ؟.. أم يعتبر تصرفا شخصيا لا غبار عليه ؟

وقد كان حريا ان تدور هذه الاسئلة في أذهان طلبة الادارة الجدد ، فقد كان الاداريون الانجليز هم كل شيء في الدولـة ، وان كل اداري سوداني يجب أن يتصرف في مثل هذه الظروف تصرفا يلائم السياسة التي

يحددها الانجليز • ورد مستر بيرفس يقول : ان التصرف الطبيعي المنتظر من مأمور أم درمان السوداني في مثل هذه الاحوال هو مقاطعة الحفل ، لان المأمور يمثل الدولة التي قرر رجالها المقاطعة ، ولكن يمكنه اذا شاء أن يعبر عن شعوره الخاص نحو تكريم مواطن زميل بأن يقيم للدكتور بخيت دعوة خاصة في داره !••

وكانت هذه الاجابة الحاسمة بمثابة الضوء الكاشف لزيف ما كان يدعو اليه الانجليز آنذاك من تدعيم الادارة بعقول أكثر تحررا وجرأة !• وانكشف الزيف الاستعماري وان لم يكن مستورا عن كل ذي بصيرة •

صور من حياة كانت حافلة بالجهاد أهديها لشباب اليوم حتى لا ينسوا ما قدمه الاولون •••

الحاكم العام يخالف سياسة معاونيه
ويوعز بدعوة بعثة اقتصادية مصرية

فبراير ١٩٣٥

بعثة مصرية تجارية زراعية تزور السودان بمسعى خاص من السير سايموز حاكم السودان العـــام لاول مرة منذ ان أخرج المصريـــون من السودان بعد مقتل السير لي استاك حاكـــم السودان العام في شوارع القاهرة عام ١٩٢٤م عقب عودته من انجلترا في طريقه للسودان واتخذت انجلترا مقتل استاك مبررا لاخراج الجيش المصري وكل المواطنين المصريين من السودان ، وكان مجيء هذه البعثة المصرية لاول مرة بعد خـــروج المصريين حدثا ضخما ، فماذا كان وراء هذا الحدث ؟؟

كانت الحالة الاقتصادية في السودان سيئة جدا مما دعا الحكومـــة الى فرض استقطاع يبلغ ٥ ٪ من مرتبات الموظفين والعمال كما عمـــدت الى الاستغناء عن خدمات الكثيرين منهم ، فرأى الحاكم العـــام السير سايموز انه مما يحسن الوضع الاقتصادي ان تستأنف العلاقات الاقتصادية مع مصر فأوعز الى أحد كبار التجار اليونانيين وهو « كونتو ميخالوس » رئيس الغرفة التجارية (بالخرطوم) وكان أغلبية أعضائها من التجـــار الاجانب ، أوعز اليه ان يضمن خطابه السنوي للغرفة في اول عام ١٩٣٥

حديثا عن سوء الحالة الاقتصادية وضرورة عودة العلاقات الاقتصادية مع مصر ، وفعل ذلك ، وكان لهذا الخطاب أثر بعيد المدى ، وكان سايموز قد عاد من مصر وقد قام باتصالات هامة في هذا الشأن ، ورأى ان تثمر الدعوة لتحقيق هذا الغـرض الاقتصادي عن طريـق الغرفة التجاريـة بالخرطوم والقاهرة .

ثم رأى أن يبدأ العمل لتحقيق زيارة وفد مصري تجاري زراعي عن طريق شخصيات غير رسمية فأوفد المرحوم الشيخ احمد عثمان القاضي رئيس تحرير جريدة حضارة السودان الرسمية التابعة للحكومة آنذاك ، وهو رجل ذو شخصية قوية كان يعمل قاضيا شرعيا ثم اختارته الحكومة رئيسا لتحرير جريدة الحضارة وكان الانجليز يثقون فيه ، أوفده وألحقه بكوتتو ميخالوس اليوناني رئيس الغرفة التجارية بالخرطوم فعملا معا مع الغرفة التجارية في مصر لاعداد الوفد الزائر .

وهنا يجب ان نسجل للتاريخ ان الحاكم العام في خطوتـه تلك كان ـ كما علمنا ـ مختلفا كل الاختلاف مع كبار رجال الادارة الانجليز في السودان والذين كان من سياستهم التي يؤمنون بها ويرفضون أية تغيرات لها ان يفتح باب للعلاقة بين السودان ومصر وقد عارضوه في فكرته ولكنه سار فيها قدما بحكم وضعه كحاكم عام للسودان .

وجاءت البعثة المصرية للسودان يرأسها فؤاد اباظه باشا رئيس الغرفة التجارية بمصر .. وكان من بين أعضائها شخصية محبوبة لدى السودانيين الذين يعرفونه وهو الدكتور محجوب ثابت الـذي كان شديد التعلـق بالسودان والحديث عنه باعجاب في الصحف والمجلات المصريـة ، كما اشتهر بالدعابة والمرح ، وكان من خلصاء الزعيم المصري المعروف سعـد زغلول ، ولامير الشعراء أحمد شوقي بك شعر طريف يداعب فيه الدكتور محجوب ثابت أثبت بعضه في ديوانه المطبوع .

لهذا ما كاد القطار الذي يقل البعثة يصل محطــة الخرطــوم وقد استقبله جمهور كبير حتى تقدمت اليه مجموعة من الشبان المثقفين وحملت محجوب ثابت على الاعناق حتى بلغت به السيارة المعدة له ، محجــوب ثابت ولد من أم سودانية وأب مصري وهو يفخر بذلك .

وتنقلت البعثة بين عدة مناطــق في السودان ، في الجزيرة والشرق والغرب فقوبلت باستقبالات رائعة ربما كان مبعثها الاول اظهار العلاقة القوية بين السودان ومصر والتي أنكرها عليهم الانجليز وحاربوها بعنف .

قلت ان كبار الموظفين الانجليز آنذاك لم يكونوا راضين عن فكرة هذه البعثة وحضورها ولكنهم لم يستطيعوا أن يقفوا أمام صمود الحاكم العام وراء فكرته ، وكان السير سايموز الحاكم العام يولي اهتماما كبيرا للسودان والسودانيين ولم يشتط في تطبيق السياسة الاستعمارية الخالصة التي كان يسير عليها معاونوه وقد رأيناه يسافر الى مدن في رحلة رسمية ليجد الفرصة ليحضر احدى الاجتماعات التي تعقدها الجمعية الادبيــة المعروفة ويجلس مع الاعضاء في غرفة صغيرة داخل النادي ويستمع الى برنامج من كلمات قصيرة أعدوها باللغة الانجليزية عندما علموا بزيارته لهم فيستمع اليهم باهتمام ويشترك معهم في نقاشهم وتتم هذه الزيارة في غير أبهة السلطة الحاكمة .

وأراد معاونوه أن يخلقوا بعض المضايقات للبعثة المصرية ، ومن ذلك ان المرحوم السيد عبد الرحمن المهدي وجــه الدعوة للبعثــة لتزوره في جزيرة أبا وأعد لها استقبالا حافلا واتفق مع المسئولين أن يسمحوا للبعثة باستعمال الباخرة لنقلهم من كوستي حتى جزيرة أبا فوافقوا على ذلك ولكنهم في اليوم المحدد لاعداد الباخرة لنقل البعثة اعتذروا له ليفسدوا حفل التكريم اذ لم تكن هناك مواصلات لنقل البعثــة من كوستي لأبا ، ولكن السيد عبد الرحمن المهدي وكانت هناك حشود ضخمة من الانصار

قصد بهم فرع النهر المسمى بالجاسر وقرر أن يردمه الانصار لتسير العربات، وذهب مع أنصاره المحتشدين الى حافة الجاسر وأخذ بيده حفنة من التراب وقال بسم الله الرحمن الرحيم وألقاها على حافة الجاسر ، وكبّر الانصار وأخذوا يكيلون التراب على الجاسر حتى تمكنوا من ردمه ، واستطاعت البعثة المصرية أن تعبر الجاسر بالسيارات الى جزيرة أبـا وأقيم حفـل التكريم في موعده وقد أخبرني المغفور له محمد صالح الشنقيطي وكان من العارفين بدقائق هذا الخـلاف بين الحاكم العـام وكبـار الاداريين والانجليز ان هؤلاء نقموا على السيد عبد الرحمن واعتبروا تكريمه للبعثة المصرية مناصرة لموقف الحاكم العام في تلك الفترة ، وكان من جراء هذه النقمة أن سحبوا منه التصديق الذي منحوه اياه بانشاء مشروع زراعي للقطن في منطقة « قندال » بالجزيرة •

وما من شك في ان البعثة المصرية استقبلت من السودانيين استقبالات حارة وحاشدة في كل المناطق التي طافت بها ، واحتفـى بها بوجه خاص السودانيون في العاصمة المثلثـة • ومما أذكر ان السادة « آل البرير » بأم درمان أقاموا لها حفلا فخما أعـدوا فيه برنامجا اسمعوهم الاغنيـة السودانية ودعوا الفنـان الكبير محمد احمد سرور لهذا الغرض وكان يصحبه فنان اسمه « السر » يجيد العـزف على الكمان الذي ابتكر له بوقا صغيرا ركبه عليه ليزيد الانغام وضوحا وروعة ، وقدم سرور أغنية عبيد عبد الرحمن المشهـورة « أفكر فيه وأتأمل » ولما كان الدكتـور محجوب ثابت مشهورا بالدعابة فانه ما كاد يسمع سرور يغني هذا المقطع :

هـواه بجسمـي يتخـلل
مجـاري الـدم اذا تحـلل

صاح محجوب ثابت قائلا وهو يضحـك بشدة « هو الشاعر ده طبيب ولا ايه » وضحك معه الحاضرون ، وكانت للدكتور محجوب لحية كثـة

مستديرة ، كما أسمعهم سرور أيضا أغنية «اطرد الاحلام يا جميل واصحى» ولما عاد الدكتور الى مصر أشاد بالاغنية السودانية في الصحافة المصرية وقال انها تشبه الموشحات الاندلسية في رقة معانيها وعذوبة كلماتها وصدق عواطفها ونشر صورة الفنان سرور وبجانبه السر بكمانه كما أخذها لهما في ذلك الحفل •

وعند وصول البعثة في أول فبراير ١٩٣٥ أقام لها حفل تكريم خواجه كوتتو ميخالوس رئيس الغرفة التجارية بالخرطوم وخطب مرحبا بها في ذلك الحفل وأشار الى الخلاف السياسي بين انجلترا ومصر حول السودان وقال عن السودان انه (عظم النزاع بينهما) فشنت عليه مجلة « الفجر » هجوما عنيفا وأنكرت أن يكون له حق الكلام باسم السودان وان يصفه بأنه (عظم نزاع) ويبدو أن مجلة « الفجر » كانت متحفزة لهذا الهجوم منذ أن أخذ كوتتو ميخالوس يقوم بمساعيه لزيارة هذه البعثة للسودان، ووالت الهجوم عليه في أكثر من مقال ، وكانت هناك جريدة «السودان» التي يصدرها ويحررها استاذنا المرحوم عبد الرحمن احمد فكتب فيها عدد من الشبان المثقفين يناصرون قدوم البعثة ويحمدون لكوتتو ميخالوس ما هيأ من سبيل لزيارته ، وكان هؤلاء الشبان مأخوذين بفكرة عودة الصلات بين مصر والسودان بعد انقطاعها منذ ثورة ١٩٢٤ المعروفة فهاجمتهم « الفجر » وسخرت من دفاعهم عن الخواجه كوتتو ميخالوس اليوناني وأطلقت عليهم في مقال لها اسم « الاغاريق السود » •

وهكذا أحدثت تلك الزيارة نشاطا في صحافتنا على النحو الذي ذكرت طرفا منه •

ومهما يكن فقد كان شعور السودانيين نحو مصر ممثلا في استقبالات تلك البعثة أين ما حلت دافقا • وكانت تلك الزيارة من المعالم البارزة في فترة الثلاثينات •

مع علي نور شاعر المؤتمر

علي نور .. شاعر المؤتمر ، كما اطلق عليه في تلك الفترة القاسية التي اتسمت بالصراع المرير ضد الاستعمار تقوده طبقة الخريجين خفية وعلنا ، وقد كان علي نور شابا متوثبا يحدو الركب وهو في أول خطاه بشعره الثائر وفكره الثاقب ، ولم يقل بيت شعر واحـد في الحب والغـزل أو مجالس المجون والطرب ويكاد يكون شعره كلـه قاصرا على القضايـا الوطنية والهاب المشاعر .

طلبت منه قبل وفاته رحمه الله أن يعنى بتسجيل شعره ومناسبة كل قصيدة له ، وكان يغفل تسجيل شعره ولا يعنى به ، وأخذت أحثه على ذلك وبعد لأي كتب لي أربعة قصائد من شعره ومع مناسباتها التي قيلت فيها ــ ثم توقف بعدها رغم الحاحي عليه ــ وقد بدأها بالقصيدة التي أنشأها عقب الخلافات الحادة في صفـوف الخريجين في أول الثلاثينات حول رئاسة النادي بين المرحومين الشيخ احمد السيد الفيل ومحمد علي شوقي ، وهو أول خلاف يشق صفوفهم ويفرق بينهم اذ أعقبه ابتعـاد أكثرهم عن النادي لفترة طويلة .. وأنا أترك الحديث هنا لاخي علي نور رحمه الله رحمة واسعة وهو يقدم قصيدته عن ذلك الخلاف المرير الذي تألم وأسف له الجميع ، واصبح على مرارته معلما تاريخيا بارزا لا بد من الوقوف عنده لمن يؤرخ لتلك الفترة ، يقول علي نور :

••• سارت بين صفوف الخريجين بلبلة بسبب من يحق له ان يتقدم الصفوف ويجلس على مقعد رئاسة النادي بينهم بعد انتخاب لجنة العشرة التي وجدت لازالة الحيف الذي لحق بهم في ذلك الوقت وكان ذلك أول حدث يحمل في طياته بدء العمل لصالح المجموعة •

وحدث بعد ذلك ان اختلف الخريجون اختلافا كبيرا اثر منازعات رئاسة النادي بين مؤيدي المغفور لهما محمد علي شوقي والشيخ احمد السيد الفيل ودار الناس في دوامة من الشقاق مدة طويلة ، وكادت المنازعات بين الطرفين أن تؤدي بكل الوشائج بينهم ــ فخرج «الفيليون» من النادي ولم يلبث ان تبعهم « الشوقيون » ــ اصبح نادي الخريجين قاعا صفصفا ، ويجدر بنا أن نذكر ان تلك المنازعات حول رئاسة النادي كانت تحمل في طياتها العريضة أي أقدر على البذل والتضحية في سبيل العمل العام وان بدا للكثيرين ان النزاع كان على مجرد الرئاسة ، وفي تلك الاثناء نشر طيب الذكر الشيخ عبد الله عبد الرحمن الامين قصيدة يرثي فيها الحال ويحث الخريجين على ترك المنازعات الشخصية والالتفاف حول الاهداف العالية • وكان مطلعها :

قاتل الله كاذبات الاماني
شغلت في النفوس كل مكان

فرددت عليه بقصيدة جاء فيها :

أنت أحسنت في اختيارك للفظ
وأحسنت في اختيار المعاني
يوم أرسلتها على القوم شعواء
وأعملتها كحد السنان
أشعلوها بالامس حربا عوانا
أنت أطفأتها بحرب عوان

جبن النـاس عن مناصرة الحـق
وفي الحـق لم تكن بالجبـان
قد وعظت الرجال من منبع الشعـر
فأسمعت كل قـاصي ودانـي
حزت اعجاب من ثوى في أعالي النيل
أو كـان في قـرى كردفـان
غير ان الشبـاب في هذه الايـام
لا يسمعون الا « الاغاني » !
فاذا شئت فاحضر العود والـدف
وانشد موشحات «ابن هاني»
ان قومـي لهـم عيـون ولكـن
لا ترى كل واضح للعيـان !
سقـط النابـه النبيـل لديهـم
ويفوز البليـد في الامتحـان
ليس نـادي المدارس اليـوم الا
أثـرا من مخلفـات الزمـان
كنت بالامس أدفـع السوء عنـه
وأرى اليوم شأنه غير شأنـي
قد أردنـاه مُدنيـا مـن بعـاد
فاكتسبنا تباعـداً من تدانـي
وأقمنـاه للـوئـام وللـود
فأمسى رهينـة للهـوان
ضم في صـدره قلوبـا خرابـا
ليتهـا كالبنـاء في عمـران

« قهوة » شأنهـا صغـير ولكـن
في ضفاف العقول «كالبرلمان»

ان الخريجين الذين عاشوا تلك الفترة السيئة من تاريخ نادي الخريجين بأم درمان يصدقون علي نور في هذه الصورة القاتمـة التي رسمها في قصيدته هذه .

ولكن الشاعر الوطني يحيل هذه الصورة القاتمـة التي رسمها في قصيدته هذه الى صورة زاهية وهو يحـدو الركب الوطني في صراعاته المتوالية ضد الاستعمار ، وان كان يشوبها أحيانا بعض المرارة والاسى .

ويكتب الشاعر علي نور في مقدمـة قصيدته الثانية . نشرت هذه القصيدة (الماضية) في جريدة يحررها السيد داود منديل تسمى الجريدة التجارية فجاءني خطاب من سكرتير النادي يطلب مني أن أقدم اعتذارا كتابيا ترتضيه اللجنة ويهددني بتطبيق القانون الذي يرفت من النادي كل من يشين سمعته . وطلبت بدوري اعتذارا كتابيا أرتضيه لتوجيه تلك التهمة الى (اشانة سمعة النادي) ثم احتكمنـا الى المستر وليمز رئيس النادي .

والمستر وليمز هو مدير كليـة غردون آنذاك والـذي تنص قوانين النادي أن يكون شاغل هذا المنصب هو رئيس الشرف للنادي ، وهو نص فرضه الانجليز من بين الضمانات التي بموجبها سمح للخريجين بانشاء النادي .

ويستطرد علي نور وهو يكتب لي مقدمة قصيدته الثانية فيقول ان مناسبتها التاريخية :

في هذا الجو المكفهر كانت الجمعية الادبية بمدني تسير في خط آخر تدرب المشتركين فيها على الخطابة وارتجال الكلمات وتشجيع القراءة ، والاطلاع والبحث وتلخيص ما في الكتب التي لم يتمكـن الآخرون من

قراءتها نقلت في تلك الاثناء بصفة مؤقتة الى مدني واشتركت في الجمعية وكانت تقيم ندوات عامة ومحاضرات كلما جد جديد تدعو اليها جميع الاعضاء والمواطنين بعد اطلاع لجنة النادي على ما يقال ... اما في اجتماعاتها فكان الكلام مباحا ...

كنت أدير الندوة التي ألقى فيها صديقي احمد خير محاضرته عن زيارته للقاهرة واجتماعاته وحضر الندوة رواد كثيرون ، وقد عقد الاجتماع في الساحة الشرقية في النادي ، فقدمته بالابيات الآتية :

هذي يدي لسماء المجد أرفعها رمزا يشير الى المستقبل الحسن
لما نرجيه تحت الشمس من مطر وما تفديه بالارواح من وطن
دقوا البشائر للدنيا بأجمعها وللعروبة من شام الى اليمن
انا هممنا وارهفنا عزائمنا على النهوض بشعب بالعلا قمن
انا لبسنا ثياب العز ضافية فضفاضة بعد ثوب الذلة العفن
وبات كل فقير غاض مورده فينا يفيض له النعماء كل غني
يسعى له ويواسيه ويمحضه ودا ويألفه في المنزل الخشن
كنا بعيش بلا عقل يوجهنا الى الصواب ، ولا عين ولا أذن
بالامس ناحت باطلال بلادنا فليس تعرف غير الشجو والشجن
واليوم أورقت الاعواد وازدهرت لها ، فغنت باهزاج على فنن
وامتدت السيل للركبان واعتدلت هوج العواصف والانواء للسنن
مرحى لنا بأمانينا محققة ومرحبا بالشباب العامل الفطن
ان جاد للوطن العالي بعزمته وجهده ، فبلا من ولا ثمن
يمشي الشباب بأهليه على سنن والشيب يمشي بأهليه على سنن
هذا بحكمته يمشي على مهل وذاك يمشي بلا ريث ولا وهن
فان تركتم له آمال نهضتكم تركتموها لقوام ومؤتمن
ما خاب أو ضل أسباب الهدى بلد ألقى وأسلم للشبان بالرسن

وقبل ان اروي الابيات التي اختتم بها الشاعر قصيدته احب ان القي الضوء عليها لكي تتضح معانيها للقارىء ، فقد تذكر الشاعر ايامه التي كان ورفاقه يقيمون الخلايا السرية للعمل الوطني ، فعندما كان طالبا بكلية غردون القديمة اشترك في خلية سرية كانت على اتصال وثيق بجمعية اللواء الابيض تجند لها المناضلين بين صفوف طلبة الكلية ، وحق له ان يقول :

الله أكبر هذا الروح أعرفه — اذا تذكرت أيامي ويعرفني
كنا ننميه سرا في جوانحنا — متى استحال الى الاجهار والعلن
يا احمد الخير قم وانشر صحائفه — على جميع رجال الرأي في المدن

ليس كل الخريجين انذاك كانوا يقفون في صف الحركة الوطنية وهي في بدء أمرها ، بل كانت هناك قلة والحمد لله يرتجفون ذعرا من كل موقف وطني قد يعرضهم لمواجهة من الانجليز من ذلك موقف نائب رئيس نادي الخريجين بمدني في تلك الليلة التي اقيمت فيها المحاضرة والقصيدة ، فقد اعترض على استمرار المحاضر في القاء محاضرته لانه تجاوز القدر المكتوب من المحاضرة وسمحت به لجنة النادي قبل الالقاء ، وغادر النادي بعد ان اثبت اعتراضه خوفا من تحمل المسؤولية ، الشاعر علي نور رحمه الله يكتب في تعليقه على هذا الموقف في ختام قصيدته يقول عن هذا الموقف ما يلي :

« واذكر ان نائب رئيس النادي وقف دون استئذان وقال :

« لقد تكلم المحاضر بأكثر مما اجازته اللجنة ، فهو يقرأ الان من الورقة السابعة ولم تطلع لجنة النادي الا على اربعة ورقات فقط ، وبذلك اوقف هذا الاجتماع ، وخرج من الدار .

قلت نحتكم للمحاضرين (وكان علي نور مدير تلك الندوة) فان اقروا استمرار الاجتماع يستمر فكانت الاغلبية بجانب المحاضر فاستمر في محاضرته حتى النهاية ، واعتقد ان مثل هذه المواقف التي سجلها علي نور في شعره تعطي صورة للجو الارهابي الذي فرضه الانجليز وبعض اعوانهم حتى في صفوف الخريجين ليحدوا من نشاط وحرية العاملين لنشر الوعي الوطني لمواجهة الاستعمار .

لقد تركنا علي نور في قصيدته الثانية منتشيا بما جد في نشاطنا الوطني من نقاش ، فهاهم الرواد الاحرار يحاولون اقتحام الحواجز التي وضعها الانجليز امام الوعي الوطني حتى لا ينمو ويتمدد فالشاعر يهتف فرحا بهذه المحاولات الوطنية ويقول :

دقوا البشائر للدنيا بأجمعها ... وللعروبة من شام الى اليمن
انا هممنا وارهفنا عزائمنا ... على النهوض بشعب للعلا قمن

ولكن هذه البشائر التي يدفعها الشاعر للدنيا بأجمعها يخص بها العروبة من شامها الى اليمن ، هذه الفرحة بالبشائر لم تدم طويلة عند الشاعر المرهف الحس الوطني فقد نبتت فكرة انشاء مؤتمر الخريجين بين اعضاء الجمعية الادبية في مدني وحملها الاعضاء الى نادي الخريجين بامدرمان ليتبناها ويحتضنها ويعمل لتحقيقها باعتباره شيخ الاندية ، وكان الخريجون يتلمسون الطريق ويتشككون في كل شيء فلم يستقبل اكثر اعضاء النادي الفكرة بالقبول والرضاء ودار حولها نقاش اثمر خلافا حادا، ضاعف من اثره ان اكثر الخريجين قد ابتعدوا عن النادي عقب الخلاف المرير الذي نشب بينهم حول رئاسة النادي في مستهل الثلاثينات كما اسلفنا القول عن قصيدة الشاعر آنذاك . ولكن اعضاء الجمعية بمدني ، وبينهم علي نور لم يتطرق اليهم اليأس فواصلوا جهودهم لكي يحملوا الخريجين في ناديهم بأم درمان ليتقبلوا فكرة المؤتمر واحتدم الخلاف وعنف بينهم ووجد علي نور في شعره منفسا عن الضيق أو اليأس الذي اعتراه وهو يرى فكرة المؤتمر التي تحمس لها مع رفاقه اعضاء نادي مدني تلقى ما لقيت في نادي الخريجين بامدرمان من خلاف مرير حولها .. وعدم الاقتناع بها من اكثرية الاعضاء .

انه يكتب في مستهل قصيدته التي انشأها في تلك الفترة (.. وانتقلت فكرة المؤتمر الى شيخ الاندية بامدرمان وبحثت في اجتماعات كثيرة كنا نحضرها في ايام الخميس من كل اسبوع « يحضرون من مدني ») وفي

تلك الاجتماعات شعرت بأننا ندور في حلقة مفرغة وان كثيرين يحاولون تعويق الحركة وقتلها فطلبت الكلمة في اجتماع من اجتماعات الخميس بشيخ الاندية وقد تملكتني موجة من موجات التشاؤم واسمعتهم هذه القصيدة:

أما آن للنفس أن تهـدأ	وللدمع في العين أن يرقأ
أما آن للروح ان تستريح	وللجرح في القلب أن يبرأ
أما آن للوطن المستضام	ان يستفيـق وان يعبـأ
رأيت الزمان وأحداثـه	تبدلنـا الاحسن للاسوأ
وما طلعت شمسنا بالجديد	الا بكينا على ما نـأى
حياة الورى سنة من كرى	وما لـذة العيش الرؤى
ولما وجدتك مستهزئـا	صحبتك يا دهر مستهزئا !
اذا خرج الفأر من وكـره	وهيـأ للقـط ما هيـأ
وقلنـا نعلـق أجراسنا	فانـا وربـك لن نجرأ !

واسطورة الفئران والقط وتعليق الجرس مشهورة وهو هنا يرمز بها الى هؤلاء الذين تهيبوا فكرة المؤتمر لانها حركة ستغضب الانجليز حتما ـ فمن الذي يعلق الجرس آنذاك ؟ هكذا يتساءل علي نور او قل يسخر علي نور من هؤلاء المهيبين ـ ولكن الفكرة تحققت بحمد الله وعقد الخريجون اول اجتماع عام للمؤتمر وكان عيدا وطنيا لم يسبق له مثيل ووقف علي نور في ذلك الاجتماع الاول يحيي مولد المؤتمر بقصيدة ادمت الاكف بالتصفيق ومنها أطلـق عليه لقب « شاعر المؤتمر » • بعد تلك الاجتماعات ذات طابع الخلافات الحادة بين الخريجين في ناديهم بامدرمان وفي مجتمعاتهم خارج النادي حول فكرة المؤتمر مما كاد يؤدي بها ، اجتمع الرأي بعد لاي ، وتغلب انصار فكرة قيام المؤتمر ، كان شاعرنا علي نور كما تتبعناه في قصائده الماضية في مقدمة الشباب المناصر للفكرة العامل لتحقيقها •• وتكونت لجنة تمهيدية تعد العدة لاجتماع عام يدعى اليه كل الخريجين الذين ايدوا الفكرة من العاصمة والاقاليم ، واسندت سكرتارية

هذه اللجنة التمهيدية للمغفور له السيد اسماعيل الازهري الذي كـان آنذاك رئيسا لنادي الخريجين •

وفي عام ١٩٣٧ ـ وفي عيد الاضحى ـ حيث تتاح فرصة اجازة العيد للخريجين القريبين للعاصمة ان يحضروا ذلك الاجتماع التاريخي كما جاء بعضهم من الاقاليم البعيدة وقد اخذوا اجازاتهم السنوية ليتمكنوا مـن الحضور ، وفي ذلك اليوم التاريخي احتشد اكثر من الف خريج في ناديهم بامدرمان الذي كان بسيطا في مظهره وليس بهذه الفخامة والمساحة التي هي عليه الآن ـ وقد امتزجت أزياء « الافندية » بأزياء المشايخ بجببهم وقفاطينهم •• والعمم والطرابيش والقبعات وكانوا جميعا رغم تباين هذه الازياء يجمعهم شعور وطني وتعلو وجوههم كل مظاهر البشر والفرحة ، بقيام اول مؤسسة وطنية وحدت من آمالهم وجعلتهم ينظرون للمستقبل في ثقة هي الثقة التي يبعثها الاتحاد في الجماعة التي كانت تعاني مـن الخلاف والتمزق •

وكان لا بد لشاعرنا علي نور حادي الركب الوطني ان يلقي شعرا في ذلك اليوم التاريخي ، وكانت قصيدته التي اثبتها هنا هي القصيدة الوحيدة التي القيت في ذلك الاجتماع التاريخي والذي كنت من بين حضوره وما زال في سمعي دوي الهتاف والتصفيق وقد لا يجد شباب اليوم في هـذه القصيدة ثورة جامحة بمعايير اليوم ولكنها يومذاك وفي ذلك الجو الارهابي الذي فرضه الانجليز كانت شيئا كبيرا وان جاءت بعض ابياتها ـ كما يبدو الآن ـ مغلفة بالحذر واترك لعلي نور ان يتحدث في مقدمة قصيدته كما سجلها في مذكراته •• يقول :

ثم قدر للرأي ان يجتمع ، ولمؤتمر الخريجين العام أن يرى النور في ثاني ايام عيد الاضحى المبارك في عام ١٩٣٧ فقد اجتمع تلبية لدعوة اللجنة التحضيرية ما يربو على الف خريج في تمام الساعة الخامسة وكان اكبر اجتماع يشهده الناس حتى ذلك العهد •• وكنت قد اطلعت السيد اسماعيل

الازهري على الشعر الذي اعددته ، واتفقت معه على المكان الذي اجلس فيه حتى اذا ما انتهى من كلمة الافتتاح واتاح للمتكلمين فرصة الكلام اتاح لي الفرصة .. وعندما قال الرئيس (الفرصة الآن برفع الايدي) رفعت يدي ضمن المئات فما كان منه الا ان نادى بأسمي ، فقمت الى المنصة والقيت لاول مرة امام المكيرفون القصيدة الآتية :

اليوم عيد ، وللخريجين   عيد ... وعيد
هذا سعيد وهذا   كما اردنا سعيد
هذا نداء قديم   وذا نداء جديد
جئنا اليكم وجاءت   من كل فج وفود
سيروا بنا للمعالي   سيرا حثيا وقودوا
فنحن ندري ويدري   حكامنا ما نريد
لا ترهبوا او تهابوا   فنحن نحن الجنود
حتى يقدر للسودان   المكان العتيد
ما فيه سود ولكن   فيه تقيم الاسود

اهلا وسهلا بمن   سيروا الامور ائتمارا
اهلا وسهلا بمن   جربوا وكانوا كبارا
اهلا بصابية القطر   والرجال الغيارى
اقول للحي لما   آنست في الحي نارا
ليس السياسة حظا   مجردا او « قمارا »
فلا تسوقوا اليها   فتى اذا حار ثارا
لا يحسن السير الا   اذا أثار الغبارا
يرى التصدر في   الناس مغنما واشتهارا
ولا يراه اضطلاعا   وذمة او ذمارا

هذا زمان عجوز   فيه القوي يفوز

وللضعيف المعنى يجيز ما لا يجوز
فان حمينا حمانا وانه نروز
فذاك ما تتوخاه مصر والانجليز
لا يقبل الذل حر لا يهان العزيز
والعدل عهد طويل والظلم عهد وجيز
يفيد قول صريح ولا تفيد الرموز
هيهات يسعد شعب لم يدر ماذا يعوز
ما قر راع بواد لا ترضيه المعيز

اني احب بلادي والحب ما لا يقدر
وافتديها لانني اميز الخير والشر
ولست ارغب الا ربا هو الله اكبر
ولست الاه أرجو ولست الاه احذر
واعظم الناس عندي من ينفع الناس اكثر

اذا انتخبتم فجدوا واحسنوا الانتخابا
لا تؤمنوا بالدعايات واطرحوها ترابا
جيئوا بكل اصيل وجنبوها الذئابا
وابعدوا الاتهازي او اميطوا النقابا
فان بعثتم الى حاكم البلاد خطابا
فلا يكن فيه الا رأيا جريئا صوابا

وانه ليؤسفني وقد قدمت قصائد علي نور الاربع بمقدماتها التاريخية كما سجلها بنفسه تحت الحاح مني ان ينتهي تسجيله عندها ولا يجد فرصة من وقته ليكتب بقية شعره ـ وهو كثير ـ وكله مرتبط بالمواقف التاريخية قبيل الاستقلال وبعده ... ولقد حاولت من جانبي ان اعثر على بعض شعره من بعض أهله وأصدقائه ولم أوفق، رحمه الله رحمة واسعة.

علي الجارم في السودان وشعراؤنا

الزمان يوليو ١٩٣٧ تلك الفترة التي أولع فيها المثقفون بالادب فأقاموا له المهرجانات واحتفوا به في أنديتهم فقل أن يخلو ناد منها من جمعيــة أدبية تلقى بها الاشعار وتقام المناظرات والمحاضرات وتجد اهتماما بالغــا من الناس •

وكان أدباء مصر ــ شعراء وكتابا ــ قادة ذلك الجيل ينهلون من معين آدبهم وثقافاتهم ويشيعون لهم ويروون أشعارهم ويختلفون حولها مثلما يختلف حولها الادباء هناك فأنصار لشوقــي وأنصار لحافظ ومطــران ومتشيعون للعقاد يرون في شعره فتحا جديدا ويضجون ابتهاجا بقصيدته او ملحمته عن ــ الشيطان ــ •

فالادب شعرا أو نثرا ، والشعراء في المقدمة كان سمة تلك الفتــرة الظاهرة ، وكان المثقفون أيضا يتشيعون في السياسة للاحزاب المصريــة وكانت أغلبيتهم تتأثر بحزب الوفد المصري الذي كان يمثل التيار المصري الثوري ضد الانجليز وكان يقبلون على الصحافة المصريــة في نهم بكل ألوانها السياسية والثقافية وكانت بمثابة النافذة التي يطلون منها على ما يجري في العالم من حولهم وخاصة الثــورات المشتعلة ضد الاستعمــار فيتابعونها باهتمام فائق •

وكان الانجليز تحقيقا لسياستهم الراميــة الى اضعاف الصلات بين

القطرين قد قطعوا منذ عام ١٩٢٤ متذرعين بأحداث ذلك العام كل صلة رسمية قائمة•فأخرج الجيش والموظفون المصريون وأبدوا غضبهم ومقتهم سافرا على كل سوداني يتشيع سياسيا لمصر • ولكنهم لم يستطيعوا أن يقطعوا تلك الوشيحة الخالدة في اللغة ، ولهذا كان التيجاني يوسف بشير صادقا كل الصدق عندما قال يخاطب مصر :

وشجي من علائق الادب الباقي ولا تحفلي بأشياء أخرى

ولكن الانجليز لسبب ما رأوا أن يعيدوا الصلات الرسمية الى ما كانت عليه قبل عام ١٩٢٤ ودخلوا في مفاوضات مع مصطفى النحاس رئيس الحكومة المصرية آنذاك ورئيس حزب الاغلبية ــ الوفد المصري ــ أسفرت عن معاهدة ١٩٣١ المعروفة والتي أعيد بسببها الجيش المصري للسودان وخلقت بعض وظائف كبرى لحفنة قليلة جدا من المصريين • ومهما يكن فقد تهلل السودانيون لزوال ذلك الحاجز الرسمي وان كانت المعاهدة قد حفزتهم ليفكروا جديا في كيف يستغلونها لمصلحتهم • وفي هذا الجو الذي هلت فيه بوادر زوال الحواجز الرسمية دعت حكومة السودان الشاعر المصري الكبير علي بك الجارم ليزور كلية غردون التذكارية ويرى دروس اللغة العربية فيها ويقدم تقريرا عن الطريقة المثلى لفتح كلية للآداب في الخرطوم وعلي الجارم كان من كبار رجالات التربية والتعليم في القاهرة وكان شقيقه المرحوم محمد نعمان الجارم يملأ منصب قاضي القضاة في السودان وهو منصب ظل الى ما قبيل الاستقلال محتكرا للقضاة والعلماء المصريين وحدهم •

وجاء علي الجارم الى الخرطوم فأحدث وصوله دويا في الاوساط الادبية اذ كان من الشعراء الذين رشحوا في دولة الشعر لخلافة أمير الشعراء احمد شوقي بعد وفاته وكان خليقا به أن يخلف ــ شوقي ــ لولا ان شوقي ــ قد حلق في آفاق عجز الشعراء من أن يرقوا اليها •

وكان في العاصمة أيضا عندما وصل الشاعر الكبير علي الجارم وكيل وزارة الحربية المصرية ابراهيم باشا خيري ولعله ــ على ما أذكر ــ قد جاء ليمهد لعودة الجيش المصري تنفيذا لاتفاقية ١٩٣٦ أو ربما جاء لشيء يتعلق بثكنات الجيش المصري السابقة قبل رحيله عام ١٩٢٤ مهما يكن من أمر حضوره فقد هل موعد عيد جلوس الملك فاروق وابراهيم باشا خيري هنا والشاعر الجارم هنا ولم يكن خير من ان يدعو الباشا للاحتفاء بجلوس فاروق وأن يقول الجارم شعرا تهتز له محافل الادباء في السودان.

وفاروق في ذلك العهد كان بشبابه وحيويته أملا من آمال الشرق كله عقدت عليه الآمال والحناجر ، وتطلعت اليه الانظار والقلوب ولم يكن الاحتفاء بأعياده ملقا أو تمسحا بالاعتاب ولكنه كان تعبيرا عن آمال صادقة تعلقت به أن يكون من شبابه وحيويته ما يهيمنه لانتفاضة تحرر وادي النيل من مغتصبيه وتبعث في الشرق كله وقدة التحرر والانعتاق وأقام ابراهيم باشا خيري الحفل في الفندق الكبير وكان لا يدخله السودانيون الا في ندرة وقلة ودعا اليه النخبة والصفوة من كبار البريطانيين ورجال الجاليات الاجنبية ومن بلغت بهم مكاناتهم من السودانيين مستويات مثل هذا الحفل .

ووقف علي الجارم يلقي قصيدته . لم نسمعه بالطبع في ذلك المكان وأين نحن من حفل كهذا يقام في الجراند أوتيل ولكنا سمعناه فيما بعد عندما دعي الى نادي الخريجين بأم درمان .

وان له طريقة فذة في الالقاء جذابة الى أبعد مدى انك لا تمل سماعه أبدا ولو ألقى بيت الشعر اكثر من مرة ... ان كل من استمع الى القائه لن ينساه مطلقا وسيظل عالقا بسمعه لا يزول ولم نعجب عندما علمنا ان احمد شوقي كان يكل اليه القاء شعره في المناسبات . ووقف الجارم في ذلك الحفل في الجراند أوتيل ينشد :

عيد الجلى صدقت وعدك | بالمنى وصدقت وعدي
عامت طير الواديين | فغردت بحنين وجدي
ونظمت فيك فرائدا | كانت لجيدك خير عقد
الشعر يبدي فيك | زينته ، ووجه الروض يبدي
نثر الربيع بك الورود | نضيده ونثرت وردي
ووشى البرود من الازا | هد وانتقى لك خير برد
فيه الرياض تبرجت | وثنين من جيد وقد
كم من عيون غضة | فيها ومن ثغر وخد
وجرى النسيم مضمخ الا | ردان من مسك وند
عيد الجلوس وكم حوت | ذكراك من عز ومجد
أصبت وحدك في الزمان | وأين ان لم تلف عندي
صاغت سوائره لهم | تاجين من مجد وخلد
ولرب قافية بها | ما شئت من خيل وجند
تسري فلا صعب | لها ولها بعد ببعد
تثب الجبال وما لها | بين الكواكب من مصد
الشعر زند للقوى | وعدة للمستعد

ويلتفت الجارم ليحيي ــ فاروقا ــ تحية الامل المشرق ويرتفع به الى سماء المجد المرجو وواها لفاروق والف واه ... ماذا أضاع من مجد وهدم من بناء

فاروق يا اس الرجاء | وملتقى الركن الاسد
جملت بالقول السديد | وساطع الرأي الاسد
وهبت لك الدنيا مفاتح | مجدها من غير رد
وضممت برد شبابك الزا | هي على جد وجد
خلق كازراء النسيم | تفتحت عن نفح وند
وعزيمة لو لاطمت | أحدا مضت أيا أحد

ظهــرت مــن حلف الزعيـم　　عنفــــوان المستبـــد
تجـري على سنــن المهيمــن　　بــين ايمـــان ورشـد
مــن ســار في نــور الالــه　　سعــى اليــه من كل قصـد

ويستحث الشاعر فاروقا للمجد ويحدثه عن مصر البطولة... وهيهات لقد سلك فاروق غير طريق المجد ودفع الثمن غاليا

المجـد وهو منـى الحيـاة　　أعــد للبطــل المجــد
حسنــاء دون مجـابهـا　　وصـدان من هجـو وصـد
تقـف العيـون حيـالهـا　　حـيرى علـى شغف وسهـد
مهـر البطولـة مـا أجـل　　فمـن يـوفـي أو يـؤدي
لا تبـك ان عـز السبيـل　　فـان نوحـك غـير مجـد
واعمـل بجهدك ما استطعت　　فلـن تفـوز بغـير جهـد
ـ فاروق ـ فـرد في الجلال　　يجـل عـن وصـف وحـد
العبقريـة ان تخلـق للنجوم　　بــغـــير نـــد
وتنـال قسرا من فـم الـد　　نيـا حـلاوة كـل حمـد

ويلتفت الشاعر الى بلادنا والى ما لقي من بنيها من ترحاب وكـرم فيخصها بهذا الشعر السلس العذب :

انــي نزلـت بجـيرة سحـل
علـى النجــدات حشـد

أنسيـت أهلـي بينهـم
وسلـوت أخوانـي وولـدي

الضيـف فـي ساحتهـم
يجتـاز مـن رفـد لرفـد

عقـدوا خناصرهـم عـلى
صـدق الوفـاء أشد عقـد

ومضــت أواصرنــا تمـــد
الــى العروبــة خــير مــد

ونشرت جريدة « النيل » في اليوم التالي القصيدة كاملة وتناقلهـا الادباء في شغف ورددوا أبياتهـا في عجب واعجاب ولم يكن ندري اننا سنفاجأ في الغد وفي نفس الجريدة بخريدة لشاعرنا الملهم ومداحنا الفرد احمد محمد صالح وقد استهواه شعر الجارم وسحر الشعر يصدى وكان استاذنا احمد آنذاك ناظرا لمدرسة الخرطوم الاميرية وبينه وبين شقيق الشاعر فضيلة الاستاذ الجارم قاضي القضاة مودة وصداقة ويكاد قاضي القضاة يمر يوميا على استاذنا احمد في مدرسته يأتنس بحديثه قبل ان يذهب الى مكتبه فلما جاء شقيقه الشاعر علي الجارم عرّفه باستاذنا احمد وتوثقت بينهما الصلات وكلاهما شاعر موهوب . ومع هذه الصلات فان استاذنا احمد لم يكن من بين الذين دعوا لحفل عيد الجلوس في الجراند أوتيل وكان قد قرأ قصيدة الجارم قبل نشرها عند صديقه المرحوم الاستاذ حاج الامين في جريدة « النيل » ففعلت في نفسه فعل البابلي وفي سويعات كان قد انتهى من قصيدته التي ضمنها مشاعره وفي اليوم التالي تلقى عشاق الادب على صفحات جريدة « النيل » بخريدة شاعرنا الملهم واحتفت بها محافلهم وشجر النقاش أي القصيدتين حاز قصب السبق ومن تلك الفترة ينسى فينوس ـ احمد ـ الملهم :

أخلفت يا حسناء وعــدي ... وجفوتني ومنعت رغــدي
فينوس ـ يا رمز الجمال ... ومتعة الايــام عنــدي
لمــا جلــوك على المــلا ... وتخيروا الخطاب بعــدي
هرعــوا اليــك جماعــة ... وبقيت مثل السيف وحدي
استنجز الوعــد النسيم ... وأسأل الركبات جهــدي
يا من رأى الحسناء تخطر ... فــي ثيــاب اللازورد
لو كان زنــدي واديــا ... لقيتهــم كفــي وزنــدي

أو كان لـــي ذهب العــز لاحسنوا صلتـــي وودي
لمـــا تنكـــر ودهـــم جازيتهـم صــدا بصــد
هذي البراعـة في يــد لو شئــت كانت حـد
لو شئت سالت علقمـا سما يـرى عند التحدي
فــاذا رضيــت فانهـا سعــدا مصفى أي سعـد
لـــي من بيانـــي صــارم وكتــائب العزمات جندي
حسنــاء ليس أبوك بـا لرجل النحيــل المستبـد
حجبوا سنــاك وما دروا ان الكواكب ذات وقـد
لمـا طلعــت على شباب القطــر في يمن وسعــد
وتضوع الوادي وفــاح شذاك مــن عطـر ونـد
وبــدت معاني السحر في كل العقول فليس تبــدي
رفعــوا العمار وهللــوا وأتوك وفــدا اثر وفـد
نهلــوا وعلوا من جمالك فاستطابــوا خـير ورد

ويلتفت استاذنا أحمد الى الجارم ويحدثه بل يتحدث الى شباب ذلك العهد في كل مكان في بلاد العرب ، كأنما هو يستوحي أحداث اليــوم تحدث حديثا سما فيه وارتفع فأثار الحمية في النفوس وهز المشاعر :

ملك القريض ووارث الـ ـمجـد المؤثل مــن مصر
غــرد كما شاء البيــان محدثــا عن خــير عصر
أيــام كان لواؤنا الجبار مــن تــل لــوهـد
وأذكر لنا عهد الجـدود وصف لنــا أيــام أحـد
في القادسية يــوم ســار النصر مــن بنـد لبنـد
قلــب صحائف مجدنـا مــن غــور لنجـــد
يا وارث الادب التليـد ويا ابن الادب الاجـد
علــم شبــاب الواديين خلائــق الرجـل الاشد
علمهــم أن الخنــوع مذلــة والجبن يــردي
علمهــم أن العقــول تحــررت من كـل قيـد

علمهـم أن الحيـــاة تســير في جــزر ومــد
علمهـم أن التمســح بالفرنجــة غــير مجــدي
وأبــن لهــم أن العروبة ركــن اعــزاز ومجــد

شعر قوي حي يشعل النــار في النفوس تلقفه الشيوخ والشبــاب وحفظوه عن ظهر قلب وخاصة الابيات التي تحدث فيها عن رسالة الشباب وواجبهم وان التمسح بالفرنجــة غير مجد وأن الخنــوع مذلة والجبن يردي وأن العقول قد تحررت وان العروبة ركن اعزاز ومجد • ويختم شاعرنا قصيدته الرائعة بأبيات يوجهها لفاروق الذي كان أملا عريضا لم يتحقق لان فاروق قد أضاع فرصته في المجد ولان ترداد الحديث وتصوير أمل الناس فيه في تلك الفترة مؤلم ومحزن ، ومن تصاديف القدر أن نذكر أنه في حفل ابراهيم باشا خيري في الجراند أوتيل الذي ألقى فيه الجارم قصيدته هذه كان من بين الجلوس المحتفين بعيد الجلوس البكباشي محمد نجيب الذي جاء مع ابراهيم خيري للخرطوم • ومن كان يدري في تلك اللحظات وفاروق ملك القلوب وموطن الامل وموحي الشعراء ان يكون هذا الضابط الصغير على رأس القوة الثائرة التي أطاحت بعرش فاروق بعد تلك الجلسة بنحو عشرين عاما ولكنها الاقدار •••

ان الشعر الجيد لا تخبو جذوته ولا تنطفيء جدته وان زالت مناسبته ولقد حكمنا لشاعرنا أحمد يــوم ذاك عن غير هــوى أو تعصب انه بز الجارم في قصيدته وقد عدت للقصيدتين اليوم في هدوء ، فوجدتني ما أزال عند رأيي • أتراني ما زلت متأثرا بشعري القــديم أو هو الحــق ولا شيء غير الحق ؟!

وكانت أيام الشاعر الكبير علي الجارم التي قضاها معنا في الخرطوم في شهر مايو ١٩٣٧ أعيادا للشعر الذي ــ كما ذكرت ــ كان السمة الغالبة على مجتمع المثقفين آنذاك فما منهم الا شاعرا او غاو للشعر ، الا قلــة نادرة •

وان كان حفل عيد جلوس فاروق الذي أقامه ابراهيم باشا خيري في الجراند أوتيل وكان من بين شهوده البكباشي محمد نجيب قد أهدانا رائعتي الجارم وأحمد محمد صالح فقد أهدانا حفل كلية غردون تكريما للجارم عدة قصائد لاساتذة اللغة العربية في الكليـة ، أولئك الاساتذة الذين جاء الجارم ليتعرف الى مدى ما قدموه لأم اللغات من جهود وليقرر على ضوء ذلك كيف تقوم كلية الآداب في الخرطوم كنواة للمدارس العليا التي تتالى قيامها بعد كلية الآداب حتى بلغت بحمد الله المستوى الجامعي الحالي .

وكان لا بد ان تكرم الكلية ضيفها وان تسمع في هذا التكريم شعرا جيدا رصينا وقد كانت تضم عددا من أعلام الشعراء في ذلك الحين وقد تطلعنا الى سماع صوت شاعرنا الكبير الاستاذ عبد الله محمد عمر البنا وكان من بين أساتذة الكلية ومن بين شعراء حفلها للجـارم . واحتشد المدعوون في رحاب الكلية يتوسطهم المحتفى به علي الجارم الذي ظل في هذا الحفل مستمعا لشعرائنا دون أن ينشد شيئا من شعره .

واختار البنا لقصيدته نفس الروي والقافية لقصيدتي الجارم وأحمد محمد صالح ، وتطلعت اليه الانظار عندما بدأ يتلو قصيدته التي استهلها بتحية الشاعر الذي جاءت زيارته في شهر مايو حيث يشتد وقد الحرارة (الصيف) عندنا وكان صيفا قائظا وجد فيه الشاعر مادة ليجعل من زيارة الجارم نسيما عليلا روّح عن الناس وقد الصيف :

ملك البيان قدوم سعـد أهلا بعهدك خـير عهـد
زرت البـلاد وحـرهـا يـزداد من وقد لوقـد
فنزلـت بـين ربوعهـا مثل الغمام بغـير رعـد
فتنسمـت نفس النسيم ورَوحت مـن غير وعـد
ونقلـت مـصر وأهلهـا بجميل وجهك فأل سعـد

أهلا بمبسمك الجميل وخاقك المرح الاشد
وبوجه سدتك الكريم ورأيك الحسم الاسد

ويلتفت البنا الى الوشيحة الخالدة ــ النيل ــ فيرى فيه (حق القرابة) بين البلدين الشقيقين ولا يملك الا ان يشيد بهذا النيل الخالد وخضرة شطه وعرف نسيمه الفواح :

النيل وهو عذوبة تجري بمرحمة ... وود
حق القرابة بيننا وأخو الكرامة غير حد
نرتاد خضرة شطه ونجل واديه ونغدي
ونشم عرف نسيمه معنى الحياة بماء ... ورد

ويعود مرة أخرى الى الجارم ليثني على خريدته التي ألقاها بالامس في عيد الجلوس وشغلت مجتمعات الادب ، ويقول انها أعدته بسحرها وسحر الشعر يعدي :

أعليُّ يا ملك البيان وما لذلك من مرد
الشعر قلت هو الفرند فخذ نصيبك من فرندي
قلدت نابغة البيان ورمت باقعة التحدي
أو كالمنار على البحار يضيء مرتفعا ويصدي
أنشدت أمس خريدة تاهت بسالفة وخد
قنصت حبائلك الحسان فصدتهنَّ وأي صيد
وتفثه سحرا فأعداني وسحر الشعر يعدي
يا من تصدى للعلا وعن الحمى دفع التصدي
هذا عليٌّ قائما متألقا يشدو ويسدي
ألبست برد كرامة منه فضاق عليَّ بردي
ورشفت من كلماته حبب الكلام نظيم عقد
وقطعت في الخرطوم ما .. غرس الألى برياض نجد
وسمعت من نبراته هزج الحمام فذاب رشدي
سكر الرفاق وأقلعوا وحزت سكر الدهر وحدي

وهل يمكن لشعرائنا في ذلك العهد أن ينظموا شعرا دون أن يلتفتوا فيه الى العروبة وأمجاد العرب ولغة العروبة وأن يثيروا في طريقها حماس الشباب ، وكما فعل أحمد محمد صالح في قصيدته ، يفعل البنا لا عن تأثر ببعض بل لعمق ايمانهم وأصالة عقيدتهم في هذه العروبة .

قل للشبيبـة جـددي · أمل البلاد بأن تجـدي
وتلغنـي اللغـة التـي · خلقت لمكرمـة وخلـد
لغـة العـروبـة انهـا · لبني العروبـة خير حـد
نـزل الكتاب بنهجهـا · وتألقـت بسنـا معـد

ويختتم البنا قصيدته بأن عقد لواء الشعر للجارم ورضي أن يكونوا جنودا تحت هذا اللواء

ملـك البيان لك الرضـا · مـن كل مكرمة ومجـد
خذ من قريضك ضوءه · أرجو لضوئك كل مجـد
وانشر لـواءك وابتهـج · انّا وراءك خـير جنـد

في هذا الحفل أيضا يقف أستاذنا الوقور الشيخ مجذوب جلال الدين ، (والد الشاعر محمد المهدي مجذوب) ، ليلقي تحيـة للجارم ولكنه لا يسير على نهج سابقيه من حيث التأثر بقصيدة الجارم في الروي والقافية وانك لتحس في مستهل أبياته بذلك الشوق الدافق الذي يعرفه كل من ساير ذلك العهد شوق الرعيل الاول من اساتذتهم المصريين الذين تلقوا على أيديهم العلم والمعرفة وبصروهم بدقائق اللغة العربية وطافوا بهم على روائعها المنظومة المنثورة فتعلقوا بهم تعلقهـم بهذه اللغة ، واستاذنـا مجذوب جلال الدين يرى في زيارة الجارم ، صورة من ذلك العهد الحبيب عهد اساتذته المصريين الذين نهلـوا وعلّوا من فيض علمهم الغزيـر . واستاذنا المجذوب شاعر مقل ولكنه يجود شعره ويصقله وكنا قد حفظنا له من عهد بعيد بعض أشعاره الرقيقة في المجموعة التي اختارها سعـد ميخائيل في كتابه « شعراء السودان » في منتصف العشرينات وما زلنا نتذوق في اعجاب قصيدته التي يقول في مستهلها :

مَلَكَ النُهـى والمُلـك بعض صفاتـه
رشـأ أغـن يتيـه بـين لـذاتـه

يستهل استاذنا قصيدته للجارم مبديا فرحته الطاغية بعودة الشقيق الى أوطانه ، ومعبرا عن حنينه الى عهد أساتذته المصريين الذين تلقـوا عليهم علوم اللغة والدين عند بدء التحاقهم بكلية غردون كطلبة :

أتيح الصفاء لاخوانـه	فعاد الشقيق لاوطانـه
ولاق المحب حبيبنا ونلنا	نعيـم السرور بلقيانـه
وجاشت صدور بزفراتها	وفاض الفؤاد بتحنانـه
وجاء الربيعان في موسم	فغنى الهـزار بألحانـه
وخير الربيعين محيي النفوس	ربيع القلـوب بعرفانـه

وكما قلت ان الشاعر يرى في الجارم أولئك الاساتـذة الاجلاء تراه يذكر منهم استاذه المعروف « عبد الرؤوف سلام » الذي كان من أعلام اساتذة الكلية وأشدهم أثرا في نفوس تلاميذه :

أعدت لنا ذكريات مضت	ـ بعبد الرؤوف ـ وأقرانه
بني الضاد أكبروا شأنـه	وحثوا على فهـم فرقانه

وقد انفردت قصيدة استاذنا الجليل الشيخ مجذوب بهذا الجانب من الوفاء للاساتذة المصريين الذين أبعدوا عن التدريس في الكليـة بعد ان تركوا أعمق الاثر في نفوس تلاميذهم الذين ورثوا عنهم حب هذه اللغة والتفاني في هذا الحب . وكان عميد الكلية ـ عندما ألقيت هذه القصيدة في حفل الجارم ـ المستر سكوت ، المستعرب المعروف كما كان من شهودها مدير المعارف الانجليزي وكبار أعوانه وكلهم انجليـز وحشد كبير من الاساتذة والعلماء والمثقفين السودانيين .

وينفض الحفل وتصدر جريدة « النيل » اليومية حافلة به ، ويتناقله ـ كالعهد بهم ـ عشاق الادب ويثير بينهم نقاشا أدبيا ممتعا ، ولا يقف الاثر الادبي لزيارة الجارم عند الشعر الذي قيل في حفلات استقباله بل

فاضت الصحف في نشر كثير من شعر شعراء الشباب يقتنص كل منهم فرصة زيارة الشاعر الفحل ليحاول اظهار مقدرته على نظم الشعر .

وتطلع علينا مجلة « الفجر » لصاحبها المغفور له عرفات محمد عبدالله في عددها الصادر في يوم الاحد ١٦ مايو ١٩٣٧ فتحمل في بابها الاسبوعي آداب وفنون على هؤلاء المتشاعرين الذين ملأوا أعمدة الصحف بشعرهم عن الجارم وتحدد رسالة الشعر في وقت مبكر ، وتكملة لفائدة هذا العرض ، أنقل أهم ما جاء في « الفجر » في ذلك المقال :

... والذي دعانا الى هذا الحديث هو هذا الفيض من الشعر الذي امتلأت به أعمدة الصحف بمناسبة مقدم الشاعر المصري علي بك الجارم فكل من استقام له الوزن ساق القريض الى ملك القريض مادحا أو شاكيا وفيما يبدو لنا كانوا ينتظرون منه اصدار حكمه على مبلغ شاعريتهم . بل ربما انتظر البعض منهم أن يعطيه الجارم ـ ورقة براءة ـ كتلك التي يوزعها القسس أيام محاكم التفتيش أو ورقة حرية كالتي وزعتها حكومة السودان قبل سنوات على الارقاء الطالبين (الحرية) ! ولكن الجارم جامل الكل دون ان يعقد لواء الشعر لواحد من أولئك الشعر ودون أن يناول قصب السبق للفائز في حلبة البيان . والاستاذ الجارم من خيرة شعراء مصر وقد أنشد في عيد الجلوس لصاحب الجلالة الملك فاروق قصيدة كانت حديث الناس فلا تجد واحدا الا وهو يترنم ببيت أو بيتين من أبياتها العامرة ، والذي زاد القصيدة روعة وجلالا أنها قيلت في فاروق وأنشدها الجارم بصوته ذي النبرات المؤثرة وحركاته التمثيلية التي تشغل العين عن متابعة الاذن ، وهكذا يشغل حاسة النظر من ناحية وحاسة السمع من ناحية أخرى . ولا نريد التعليق على شاعرية الجارم فللناس في شعره آراء ونظرات .

وحسبنا أن نقول ان الجارم نفث شعره فأعدى شاعرين من شعرائنا هما البنا واحمد محمد صالح فنظم كل واحد منهما قصيدته على وزن

وروي وقافية قصيدة الجارم ... وقد أجاد الاثنان كل في موضوعه غير ان أغلبية محرري هذه المجلة لا يوافقون على هذا الطراز من الشعر التقليدي ، شعر المدح والتباهي ، ذلك لانهم ينتمون الى مدرسة أدبية ترى ان خير الشعر ما ارتفع به صاحبه من عبادة الاشخاص وكرسه للافصاح عن خلجات النفوس وصوت الضمير ، والتعبير عن أماني شعب مغتصب الحقوق مهيف الجناح وتصوير المناظر الطبيعية وتسجيل التيارات الفكرية والاجتماعية ولهذا لزموا الصمت حين قام أعلام المدرسة التقليدية ينظمون قصائد الترحيب ويصوغون السوار (لاي كف بشرت بابن العميد وأي عبد كبرا) وها هم يهيبون بأعلام المدرسة التقليدية لينهجوا نهجهم ذاك وليساهموا بشعر لا يقوم على المناسبات ولكنه وليد الدرس والقصيدة وكم يكون سرورنا عظيما حين نسمع الينا يعالج بعض أدوائنا الاجتماعية في شعره الرصين وحين نسمع الاستاذ احمد محمد صالح ينشد بصوته الشجي نشيدنا القومي تدبجه يراعته الحرون .

اما هذا الشعر الذي درجوا عليه نحو عشرين عاما فما قدموا ولا أخروا ، فخير منه السكوت ، ووالله بقدر ما كان سرورنا بجودة شاعرية الاستاذ احمد محمد صالح في قصيدته التي رفعها الى علي بك الجارم بقدر ما كان ألمنا لصمته الطويل ولعدم أخذه بناحية الخالد من الشعر الذي يخلد صاحبه وينعش أمته .

ونكتفي الآن بهذا التلميح وهذا التوجيه ، فان لبى أعلام المدرسة التقليدية نداءنا وهبوا الى تزعم صفوفنا رحبنا بهم وان لم يلبوا النداء فلنا معهم غير هذا الشأن ونخشى أن تكون الحرب حامية الوطيس والنصر لا شك للحق والله المستعان .

الى هنا تنتهي كلمة « الفجر » أهديها للذين يزعمون اليوم انهم يجأرون بحملة جديدة لتجديد مضمون الشعر ليكون معبرا صادقا عن خلجات الشعب وأمانيه وليحسبوا كم سنين مضت على هذا الحديث .

ليكشفوا سياسات الانجليز

لقد درج القسم السياسي او بالاحرى قسم « المخابرات » كما كانوا يسمونه على تتبع خطى كل سوداني ذي مكانة او خطر وتسجيل المعلومات الدقيقة عنه في « كرت » يعد له خصيصا ، وكان رجال هذا القسم يهتمون بتسجيل الجوانب الخاصة من سلوك الشخص المراقب ، مثل أيشرب الخمر ؟ أمقامر ؟ أم زير نساء ؟ أمصاب بالشذوذ الجنسي ؟ أهو محب للمال ويقبل الرشوة ؟ امتدين نظيف الخلق ؟ هذا بجانب تدوين لون نشاطه ومدى خطره أو أثره في وسطه الى آخر هذه المعلومات التي تكشف كشفا دقيقا عن كل جوانب الشخصية المعنية .

كانت هذه « الكروت » تعد عن كبار الشخصيات السودانية في كل قطاعات المجتمع من موظفين وزعماء عشائر ورجال دين ، وكان قسم المخابرات هذا يتتبع في دقة كل أولئك الذين يوضعون تحت المراقبة وكان يجند لهذا الغرض حشدا كبيرا من الموظفين والمأجورين الذين يتسللون خلال المجتمعات دون ان يعرفهم احد الا ما تكشفه الصدفة عن أمر بعضهم ، كما كان جميع الموظفين البريطانيين وخاصة الاداريين منهم مجندين لهذا القسم يعاونونه باخلاص كلما طلب منهم معلومات معينة عن بعض الاشخاص الذين يقعون في دائرة عملهم ... وبالاسف كان هناك موظفون سودانيون يعاونونهم في هذه المهمة الرديئة وكان اكثرهم معروفا .

كان رجال المخابرات في أول عهد الحكم والى فترة طويلـة قبل أن يقوى الوعي الوطني يوجهون آكثر اهتمامهم الى زعماء العشائر ورجال الدين وخاصة ذلك النوع من الفقهاء الذين يجوبون القرى والبوادي يجذبون اليهم السذج والبسطـاء وما اكثرهـم ... وكان مبعث هذا الاهتمام بهذا النوع من السودانيين ان الحكومة قابلت عدة ثورات عنيفة قادها هؤلاء الفقهاء باسم الدين ، ومن هؤلاء الثائر «السحيني» المعروف الذي احتل باتباعه مركز نيـالا في دارفور بأن قتـل عدد من الجنـود والموظفين كان منهم مفتش المركز الانجليزي وهنـاك آخرون قادوا عدة ثورات بعد ان زعم كل منهـم انه عيسى الموعـود ! ولما تحرك قطـاع الخريجين يقود الوعي الوطني وينشره وأنشأ مؤتمر الخريجين العام اتجه نشاط المخابرات نحو هذا القطاع وسلطت أضواءهـا عليه ... ولاول مرة تحتشد في قسم المخابرات « كروت » جديدة تحوي معلومات دقيقة عن عدد كبير من شبان الخريجين وكهولهم وهم يتجمعـون تحت راية المؤتمر حتى لا يؤخذ الحاكمون على غـرة وحتى لا يخرج المؤتمر عن الخط الذي يريده الحاكمون وقد كان لهم في صفوف الخريجين أعوان وأصدقاء ... بجانب هذا الجهـاز السري الدقيـق الذي كان يراقب ويسجل ويوجه الجهاز الاداري الحاكم في وعي ودقة أقول بجانب الاجهزة الحكومية السرية كانت هناك أجهزة سرية وطنية لا نظام لها ولا قيـادة ولا ترتبط ببعضها وقوامها بعض الكتبة (المترجمين) الذين كانوا يعملون بجانب الموظفين الانجليز يقومون بمعاونتهم في الاعمال الكتابية بالعربية والانجليزية الصادرة والـواردة وكانت ترد الى هؤلاء الانجليز رسائل خاصة من رؤسائهم يكتب على ظاهرها (سري جدا) وهذه كان محرما على الكتبة ان يفضوا غلافها وان يقرأوا ما بها بل تقدم للمسئول الانجليزي رأسا وكانت في مكاتبهم خزائن حديدية ضخمـة يودعونها هذه الرسائل بعض الاطـلاع عليها ، وفي عواصم المديريات حيث يقبع كبار المسئولين

الانجليز كان هناك موظف انجليزي هو الذي يتولى مسئولية الرسائل السرية في شدة الحرص عليها ولكن مع هذه الدقة في الاحتياط كان بعض الكتبة بواقع وطنيتهم الصادقة يحتالــون على الحصول علــى بعضهــا ويكشفون أسرار السياسة الانجليزية المودعة في تلك الخطابات .

هناك أمثلة كثيرة لوطنية هؤلاء الكتبة كان لها أبعد الاثر سأذكــر من بينها واقعتين فقط على سبيل المثــال ، فقد كان الانجليز كما نعلــم شديدي الغضب على الطلبة الذين هربــوا الى مصر يتعلموا فحاربوهم ومنعوا أهلهم من ارسال أي قدر من العون المادي اليهم بطريقة خلت من كل جانب انساني وسلطوا عليهم الباشوات حكــام مصر ليحرموهم من أدنى عون مادي يصل اليهم من المصريين فعاشوا في شظف وفقر وصمدوا للمحنة بشجاعة فذة حتى حققوا بغيتهم في التعليم العــالي وكان من بين القرارات التي أصدرها الانجليز في السودان الا يسمحوا لاي واحــد منهم بالعودة الى بلاده والعمل فيها ، كان من بين هؤلاء الطلبــة الذين هربوا الى مصر طالب ذكي مولع بأن يحصل على دراسات عليا في الادبين العربي والانجليزي نعرفه الآن جيدا وهو معاوية محمد نور الذي اجتاز امتحان القبول بكلية الطب في الخرطوم ولكن طموحه الثقافي جعله ينسل هاربا الى مصر وكان ينتمي الى أسرة (العمراب) التي كان منها بعض كبار الموظفين الذين لهم مكانات عاليــة في وظائف الحكومة واحترام في المجتمع وعند الانجليز فلحق به بعض أهله وأقنعــوه بعد محاولات لكي يلتحق بالجامعة الاميركية ببيروت حذرا من تنكيل الانجليز به كغيره من الهاربين الى مصر . والتحق بجامعة بيروت ثم عاد الى مصر يحمل ثقافــة عالية في اللغتين وكتب في صحفها ومجلاتها وفي صحيفة انجليزية تصدر في القاهرة وصارت له مكانة ثقافية محترمة ونال تقدير كبار المثقفين في مصر وكان أثيرا لدى المرحوم عباس محمود العقاد .

وعاد معاوية الى وطنــه في الثلاثينات وكان اول طالب مهاجر يعود

وأخذ بعض كبار رجال أسرته وهم كما أشرت مقاما واحتراما لدى الحكومة والمجتمع يحاولون ايجاد وظيفة حكومية له تتناسب ومؤهلاته الثقافية العالية وأخذ المسئولون من كبار الانجليز ينظرون الى هذا الموقف كسابقة قد تتلوها أمثالها من الطلبة المهاجرين العائدين فماذا يفعلون ؟ كان السكرتير الاداري المستر « نيوبولد » من دهاة المستعمرين فأراد أن يخرج بوضع عجيب وهو ان يعتبر كل طالب يعود اذا تم تعينه فيكون في مستوى خريج كلية غردون كأنه لم يتلق تعليما فوق ذلك وكتب مذكرة سرية ضمنها آراؤه في هذا الصدد مستغلا عودة معاوية محمد نور ليجعل منها أساسا لمن قد تعود به ظروف مماثلة للسودان مهما حصل من الدرجات العلمية فكأنه لم يزد على متخرج كلية غردون في مرتبه العادي • وبالطبع (رفض) معاوية هذا العرض واستطاع أقاربه بعد رضاء المسئولين ان يجدوا له منصبا في الغرفة التجارية في الخرطوم التي كان أكثر أعضاءها من التجار الاجانب • وبمرتب يزيد قليلا تقديرا لمكانة أسرته •

وذات يوم في الثلاثينات وصلت الخرطوم الصحافة المصرية ومن بينها جريدة « البلاغ » اليومية لسان حال حزب الوفد المصري الذي يمثل الى حد ما التيار الشعبي الثوري في مصر ومن هذا العدد من « البلاغ » نشرت ترجمة دقيقة للخطاب السري الذي أصدره المستر « نيوبولد » عن السياسة التي يجب ان تتخذها حكومة السودان حيال مستقبل كل طالب هرب للتعليم وعاد لوطنه ، وكانت فضيحة وضجة أذهلت الانجليز ولم يستطيعوا ان يعرفوا كيف تسرب هذا الخطاب السري جدا مترجما بدقة للعربية ونشر في جريدة « البلاغ » وحامت الشبهات حول بعض الموظفين السودانيين في مدينة (وادمدني) تمكنوا من هذه الفعلة بدافع وطنيتهم الصادقة •

عجز الانجليز عن توجيه الاتهام الى شخص او اشخاص معينين لفقدانهم الدليل على ذلك •

والمثل الثاني أسوقه من جوبا جنوب السودان حيث كان الموظفون البريطانيون يبذلون كل جهودهم لفصل الجنوب عن الشمال واسجل هنا رسالة توحي بكل التقدير والاعجاب تلقيتها من السيد اسماعيل عبد الرحيم حامد الذي كان يعمل مترجما هناك يحدثني عن الوطنيـــة الحقة لكاتب جنوبي من أبناء الدينكا اسمه عبد اللطيف مرسال نال حظا من التعليم وكان ضابطا في الجيش وتخلى عنه عندما اتجهت القوات العسكرية لحرب علي دينار في دارفور فسجن ونفي وبعد سنوات طويلة عطفت الحكومة عليه باعتباره من القلة الجنوبية التي نالت قدرا من التعليم وألحقوه كاتبا بمكتب مدير جوبا ..

ولا أحد يعرفه الآن او يذكره ممن عرفــوه ... وانا اجتري هذا الجانب الهام الذي يكشف عن عظم الدور الوطنـــي الذي كان يقوم به أولئك الافذاذ من الكتبة الابطال ، يقول السيد اسماعيل عبد الرحيم من بعض رسالته :

تكونت بجوبا جماعة سرية من الموظفين شماليين وجنوبيين وسمــت نفسها جماعة الصداقة بين الشمال والجنوب ، وكان هدفها بث الدعاية سرا بين ابناء الجنوب وكشف اسرار السياسة الانجليزية لهم . وكان على رأس هذه الجماعة البطل المرحوم الملازم اول بالجيش السوداني سابقا ، والمترجم في الفترة التي اتحدث عنها عبد اللطيف مرسال ، يجدر بي قبل ان استرسل في الحديث ان اعرف القارىء من هو عبد اللطيف مرسال .
كان احد ضباط الحملة التي ارسلت الى دارفور لاخضاع المرحوم السلطان علي دينار ، وموقف السلطان علي دينار من الانجليز معروف .. ولما اقتربت الحملة الانجليزية في الفاشر ، أبت على الضابط الملازم اول عبد اللطيف مرسال نفسه الابية ان يحارب مواطنا شهر سيفه في وجــه الانجليز فتمرد وانضم الى جيش علي دينار وحارب معه ، ووقع في الاسر ، فأرسل سجينا الى رشيد بمصر ، وهناك امضى زمنا ليس بالقصير ، ثــم

افرج عنه • بعد لاي عين مترجما بالمديرية الاستوائية لانه من قبيلة الدينكا بمركز التونج ، وحددت اقامته بجوبا لا يخرج منهـا الا باذن حتى في اجازته الاعتيادية • ولم يخفف السجن ولا تحديد الاقامة منغلواء بغضه وحدة حنقه على الانجليز واستمر يعمل ضدهم بكل ما يستطيع حتى وافاه الاجل المحتوم •

ومن تخطيط بارع ــ وهو يشغل منصب مترجم رئاسة المديرية طلب المرحوم عبد اللطيف من رؤسائه الانجليز ان يسمحوا له بابتداء عـمله المكتبي في الصباح الباكر كما تعود ان يفعل ايام خدمته في الجيش فاذنوا له ــ وكان يرمي من وراء ذلك أن يدرأ عن نفسه الشبهات اولا اذا مـا توالى حضوره للمكتب قبل توقيت بدء العمل ــ ثانيا ــ الى تنفيذخطته في كشف الاسرار الانجليزية وذلك (توليفه) لعدة مفاتيح لفتح مكتب مدير الاستوائية ونائبه ومفتش الرئاسة والكاتب السري للمديرية ، وطبعا كلهم انجليز •

كانت طريقته ان يفتح هذه المكاتب في وقت مبكر ، ويجمع من كل الاوراق الملقاة على سلال المهملات ، ويفرغها في ادراجه ، ثم يضع مكانها اوراقا من عنده مزيفة ، ويعيد السلال الى مكانها حتى يوهم المراسلة المسؤول عن النظافة بأنها مخلفات الرؤساء •

بعد ذلك يبتدىء في فحصها بدقة وعناية فائقة ، فاذا ما وجد شيئـا هاما اسرع الى رفاقه واطلعهم عليها ، وكانت طريقته ان يقوم بزيارتهـم زيارة خاطفة كل في منزله دون تجمع ويسر اليه بما عثر عليه •

وفي طريف ما اذكر ان كنا نشاهد المستر شو الكاتب السريللمديرية يحرق هذه الاوراق المزيفة بنفسه بعد جضوره للمكتب امعانا في الحرص!

ولم يخطر بباله قط مرة واحدة ان الاوراق التي يحرقها يوميا لا تمت بأدنى صلة للاوراق التي القاها بالامس في هذه السلة .

ومن اساليب المرحوم السيد عبد اللطيف التي اتخذها للحصول على المعلومات السرية من الكاتب السري المستر شو ، اذ كان كلما دخل سرا الى مكتبه في الصباح الباكر قام بتغيير الكربون بكربون جديد حتى يسهل قراءة ما به في اليوم التالي وهكذا يسحب كل صباح الكربون الذي وضعه بالامس ليقرأه ويضع آخر جديدا بديلا له دون ان يفطن المستر شو الى ذلك لانه يستبعد دخول اي شخص لمكتبه في غيبته !

وهناك اسلوب آخر كان يستعمله في ظروف خاصة وذلك عندما يكون الخطاب السري غير محكم القفل اذ كان يستعمل « المقشط » المحمى بالنار قليلا حتى لا يحرق الظرف فيفتحه ويقرأه ثم يعيد قفله بدون كسر الختم بعد الاطلاع على محتوياته !

في تلك الفترة كان مدير الاستوائية يسمى المستر بار وقد اشتهر بعدائه البالغ للشماليين وامعانه في الاساءة اليهم كلما وجد الى ذلك سبيلا ومن المؤمنين بوجوب فصل الجنوب ، العاملين لذلك بكل جهودهم وله في ذلك مواقف بالغة السوء . وبالرغم منه ولظروف سياسية اقوى منه أقيم بناء جامع جوبا الذي لا يعرف قصته الكثير من ابناء الجيل الحاضر وكان المستر بار يحاول جهده محاربة الجامع حتى بعد قيامه .

وفي احد الايام التقط عبد اللطيف مسودة خطاب سري كتبها المستر بار الى السكرتير الاداري والسكرتير القضائي يخبرهما فيه عن عزمه — بعد التصديق منهما — على نزع ملكية قطعة الارض التي خصصت لبناء وقف الجامع ، واعطائها لاحد التجار الاغريق بحجة ان لجنة الجامع بجوبا

مفلسة ولا يمكنها بناء الوقف في الوقت الحاضر ويمكن اعطاؤها قطعة اخرى في المستقبل متى ما توفر لها المال لبناء الوقف . واسرع عبداللطيف ونقل هذا الخبر لجماعته ، ولما كانوا يعرفون جيدا ان الاراضي بمنطقة السوق محدودة ، فان هذا العمل ما هو الا نوع من الكيد الذي يوجهه المستر بار لجامع جوبا الذي شيد ضد ارادته بعد المظاهرات الضخمة في مصر والسودان .

اجتمع الرفاق ويحسن بي هنا ان احدد اسماؤهم فان ذلك ملك للتاريخ بعد هذا ، وهم السادة صادق أونسه الموظف بالجمارك، عبدالحميد العتباني الموظف بالزراعة ، عبد الباقي محمد الذي كان يعمل بالمطار ، عبد اللطيف مرسال ، محمد السيد النجار الموظف بالجمارك ، اسماعيل عبد الرحيم حامد الكاتب بالمديرية .

اجتمع هؤلاء في منزل احدهم وتدارسوا الموقف من جميع نواحيه فرأوا ان خير ما يفعلونه ان ينتدبوا احدهم ليسافر الى مصر ليحمل رسالة منهم بتفاصيل الموقف الى المرحوم الشيخ سماعه امام جامع جوبا المنتدب من قبل مصر ، ليقوم بدوره بالاتصال بالمرحوم الامير عمر طوسون الذي كانت له اليد الطولى في قيام هذا الجامع .

ووقع الاختيار على السيد محمد السيد النجار لانه موظف في الجمارك ولن يفتشه زملاؤه في حلفا ، وذلك حرصا منا على تسليم الرسالة الهامة باليد والتحدث في شأنها مع الشيخ سماعه .. ولكن كيف نحصل على اجازة له ؟ والسفر الى مصر فيه ما فيه ولم تطل حيرتنا فقد كان حكيمباش المستشفى الدكتور علي خير (شقيق الاستاذ أحمد خير) رجلا نعرفه بصدق الوطنية والرجولة ، وهو أخ وصديق لنا جميعا ونطمئن اليه ،

فقررنا أن نكشف له كل شيء وان نطلب منه منح محمد السيد النجار اجازة مرضية ليتمكن من السفر لمصر •

ولم يتردد الدكتور علي خير لحظة في تنفيذ مطلبنا ، وقرر ان يمنحه اجازة مرضية ، ونفذ قراره دون تردد ، ولم يكن هناك ما يريب في الامر •• وسافر النجار الى مصر ومن حسن الصدف ان وجد الشيخ سماعة ملبيا دعوة للغداء عند الامير طوسون ، فأسرع اليه في دار الامير وطلب لقاءه وسلمه الرسالة الخطيرة ، فأمر عمر طوسون في نفس الوقت بتحويل الف جنيه من ماله الخاص الى لجنة جامع جوبا لتبدأ في بناء الوقف ، كما أمر سكرتيره ان يدعو الجمعية الزراعية في ذات المساء ويعرض عليها الامر لتتبرع بألف جنيه أخرى ، وحدث ذلك فعلا • وفي اليوم التالي لوصول مندوبنا ، وصلت الى جوبا التلغرافات بهذه المبالغ الى لجنة الجامع ووضعت في لوحة اعلانات نادي جوبا ليصل خبرها للمدير عن طريق عيونه المنبثة بجوبا •• فأسقط في يده ، ولم يدر كيف تم هذا •

وبعد يومين جاءنا المرحوم عبد اللطيف ووجهه يتهلل فرحا ، فقد حصل بطرقه السرية التي حذقها على مسودة خطاب المدير المستر بار للسكرتير الاداري والسكرتير القضائي يلغي خطابه السابق بطلب مصادرة أرض وقف الجامع بجوبا لزوال السبب •

وبث المدير عيونه ليعرف كيف تسرب الخبر الى مصر ، ولكن الرفاق كانوا يعرفون اولئك العيون فلم يتركوا لهم ثغرة صغيرة لينفذون منها لمعرفة الحقيقة •

وما اكثر امثال هذه النماذج لو اردنا ان نعددها وقد خصصنا الكتبة لانهم كانوا بحكم وضعهم من الصق الموظفين السودانيين بذوي السلطة

من الانجليز وقد كان آخرون من بين من كانوا يعملون في السلك الاداري والبوليس يسرون الى خاصــة أصدقائهم العاملين في الحركة الوطنيــة بالاسرار التي يحصلون عليها درءا لخطرها .

رحم الله عبد اللطيف مرسال واخوانه العاملين لوطنهم في صدق دون تطلع للمباهاة والتفاخر بما فعلوا .

لماذا لم يعترض عليه الانجليز ؟

مؤتمر الخريجين ... نقطة الابتداء للحركة الوطنية للمثقفين المتصلة الحلقات حتى تم تحرير البلاد واستقلالها فمنه انبعثت اليقظة والوعـي الوطني بما قام به في توعية وطنية اتسع نطاقها فأصبح الشعب مهيأ لمنازلة الاستعمار لتحقيق حريته .

كيف نشأ المؤتمر ولماذا لم يعترض عليه الانجليز ؟ ذلك ما سأسجله هنا . ولنبدأ القصة من أولها .

كانت النهضة الادبية الطابع المميز لفتـرة الثلاثينات ، بدأت أولا كجمعيات قراءة في المنازل اشتهرت بها مدينـة أم درمان ثم انتقلت الى الاندية القائمة في أنحاء عديدة من البلاد وأصبح من المألوف ان تكون هناك جمعية أدبية في كل نادي او اكثر الاندية في تلك الفترة ، وفي عام ١٩٣٦م أبرمت معاهدة بين انجلترا ومصر كان نصيب السودان منها ان يكون للسودانيين الفرصة الاولى في الوظائف الحكومية متى وجد من يحمل مؤهلاتها فان لم يوجد سد الفراغ من حاملـي المؤهـل من مصر او انجلترا وكانت كلية غردون وهي مدرسة ثانوية كل حظ السودانيين من المؤهل التعليمي فأحدث ذلك الاتفاق يقظـة بين الخريجين ودعاهـم

للتفكير في ايجاد وسيلة لالتقائهم ووحدتهم وظهرت على صفحات جريدة « السودان » الوطنية التي كانت تصدر في الخرطوم لصاحبها ورئيس تحريرها المرحوم الاستاذ عبد الرحمن احمـــد ، ظهرت عدة مقالات من بعض الخريجين تدعــو الى وحدة الخريجين دون تحديد للطريق الذي يحقق هذه الوحدة .

وكانت تقوم في نادي مدني جمعية أدبية تجمع نخبة من المثقفين فرأت ـ بعد توقيع تلك المعاهدة ـ ان تقوم بدراسات مختلفــة تحت عنوان « واجبنا بعد المعاهدة » وكان من نصيب الاستاذ أحمد خير أن يكون موضوعه « واجبنا السياسي بعد المعاهدة » فألقى في اجتماع عام للجمعية هذه الكلمة التاريخية التي أثبتها هنا بنصها لاسباب سأذكرها فيما بعد :

سادتــي

للحديث شجونه وكثيرا ما أفضت شجون الحديث الى طيات الضمائر وأسرار الجوانح فكشفت عن استارها وأزاحت للسامعين والمستكشفين حجبها والمجتمع كالافراد له غريزته وله ميوله وبأحاديث المجالس وصدى الاندية تبين اتجاهاته ومقاصده . وفي تعرض أعضــاء هذه الشعبة من شعب النادي لهذا الضرب من المباحث وتصديهــا لهذا اللون من ألوان الكلام دليل على ان مزاج الجمهور السامع قد تحول وانتقل وجعل يعرض عن كل ما لا يمت الى جوهر حياته بسبب أو يتصل بها عن قريب وكثب وليت شعري مرجع هذا التحول وذلك الانتقــال والتطور الى دعايــة المثقفين وجهاد المرشدين من رجال الجيل المتقدم الاعلى ما زالوا من عهد (الرائد) الى (عهد الحضارة) يهمسون في أذن الشعب بحديث الوطن والوطنية وينغمون في طول البلاد وعرضها على أوتار القوميــة ويمهدون لهذا الانتقال الشامل والتطور الكامل ، بكل ما أوتوا من سداد العقــل

وما اكتسبوا من نضوج الحكمة وما وهبوا من بكورة اليقظة ؟ أم ان عبر الليالي وصروف الايام التوالي ومجرى الحوادث وسير التاريخ قد أثرت بدورها في هذه الامة فنبهت السواد وطفرت بالدهماء ؟

ومهما يكن العامل الاساسي ، والسبب الجوهري فالذي يهمنـا ان ذلك العهد قد انقضى بشره وبلاه وولى بضره وأذاه انصرف عهد الشعر للشعر وعهد الكلام للكلام ايام

كنا نعيش بلا رأي يوجهنـا
الى الصواب ، ولا عين ولا أذن

اما الآن فهذه صحفنا لا تكتب الا في كل جدي نافع ولا تطرق الا كل قوي مفيد ولا تبحث الا المواضيع التي يرغبها السواد وتبغيها الكثرة وتتغنى بها الكتلة الناطقة ، المواضيع التي غدت حديث المائدة وسحـر المجالس ، المواضيع التي تنفس عما في الصدور من ألم وتذهب ما أصابها من يأس وخيبة رجاء مواضيع السودان وأناشيد حب الاوطان وما أمتع الحديث عن الاوطان وأشهاه للسمع واللسان فهو يلعب بأوتار القلـوب فيوقظها من السبات ويمدها بالقوة لان الوطن تعبير جامع لكل ما سمي من المعاني ورمز لاصدق الاشياء بشرف الانسان وأخلدها لذكرى الجسم الفاني لان الوطن فكرة قبل ان يكون وحدة جغرافية ولذة الحديث عنه ناشئة عن اتصال حديثه بالحديث عن أنفسكم وعن أمانيكم وعن أبنائكم وعن آبائكم الاولين . وهل يكون المرء أكثر تلبسا بالجد واستشعارا بالاهتمام الا حين يفكر في قرارة نفسه يجول خلال سراديبهـا المتعددة مستعرضا الماضي بعبره ومستوضحا الحاضر بظروفه ومستكشفا طلائع المستقبـل المجهول ؟

فلهذا الاهتمام الذي يحسه المرء ازاء كل ما يتصل بحياته وللتمشي مع رغبات الجمهور المتطور تخاطف زملائي أعضـاء الجمعية فصول موضوع (واجبنا بعد المعاهدة) وتخاطفوه قائلين :

دقـوا البشائـر للدنيـا بأجمعهـا
وللعروبـة مـن مـصر الى عـدن

وقولـوا لهـا :

انـا هممنـا وأرهفنـا عزائمنـا
على النهـوض بشعب بالعلا قمـن

ولم يتركوا لي الا الناحية السياسية فارتضيت اذ لم أترك لهم تلـك الناحية . وأجبتهم :

اللـه أكبـر هذا الـروح أعرفـه
اذا تذكـرت أيامـي ويعرفنـي

كنـا ننميـه سرا في جـوانحنـا
حتى استمال الى الاجهار والعلـن

بعد هذا الشعر وهو ، ككل فروع الفن الناطق يرهف الحس ويهز الاعصاب ويحرك العاطفة فترقص الروح وتنتقل الى دنيا الاحلام وعالم الخيال وفردوس الاوهام وعدنا أيها السادة نستفيق لنرى شبح المحنـة المتجهم وعبء الحقيقة المضني وحقيقـة الواجب المحتـوم هذا اذا كان الواجب بسيطا شخصيا قليل الواجب علـوي صعب المنال واجب أمـة ناشئة ناهضة عقد بنوها العزائم وأقسموا الايمان على ان لا يرضوا دون المثل الاعلى لاحترام ذاتيتهم ودون تحقيق كامل الامانـي الوطنية حتى

يباهوا غيرهم من الامم قبل يوم القيامة بالقوميـة السودانية . نعم نعم كيف والواجب سياسي ؟؟

ولكن ماذا يكون هذا الواجب السياسي ؟

تعـاريـف

اما الواجب فهـو كل ما حوسب المرء على التقصير فيه سواء أكان الحساب تفسيا منشؤه وخز الضمير أو ضغطا خارجيا صادرا من هيمنة القانون وسلطان العرف والاجتماع والسياسة كلمة مرنة موسيقية النغـم رشيقة المبنى فخمة داوية المعنى افتتن بها الناس قاطبة وأسرفوا فياستعمالها أدخلوها في كل شيء حقيقة ومجازا حتى كثر مدلولها وان لم تفقد على كر الايام والليالي سحرها وقوة مفعولها ولم تعد هي اليوم من الالفاظ التي نرجع عندها للقاموس فقد تمردت عليه واتخـذت لها في كل مكان وزمان معنى جديدا ومدلولا فريدا ولنحددها في الليلة فنقول (السياسة الاشتغال بشؤون الدولة لرعاية مصالح الاهلين) .

بقي علينا ان نعرف في غير لبس او غموض الركن الثالث من أركان الحديث وهو أشدها تعقيدا ونعني به الجماعة او الهيئة التواقة الىمعرفة واجبها حتى لا تفرط فيه فيلحقها لوم ، وتواقة أيضا الى تبيان مسئوليتها حتى لا تغفل عنها فيصيبها تعنيف وندم نريد ان نعرف المسئولين أمـام أنفسهم وامتهم وأمام العالم وأمام التاريخ.فكثيرا ما يتبادر الى ذهن بعض الناس وخصوصا المقلدين في التمسك بمبادىء الديمقراطية يتبـادر الى ذهنهم المساواة بين طبقات الامة وعدم تمييز الكفاءة والاعتراف بالنبوغ حتى عند تنفيذ البرامج الشعبية وهذا لون من ألوان التفكير الخاطىء ، صوابه أن الرجال نوعان لان الواجب قسمان ، رجل يصلح للجهـاد في

مقدمة الصفوف وجبهة القتال وآخر يجب ان يبقى في مركز القيادة ودفة الشئون . وواجب الاول عملي بينما مسئولية الثاني عقلية . والسودان في اول نهضته وفجر تاريخه الحديث ومستهل حياتـه في حاجة الى رسم الخطط وتنظيم الزعامة نستخلص من هذه المقدمات ان نداء اليوم موجه الى السوداني الناطق ، السوداني المستند الى طبقة الخريجين .

الواجبـات الوطنيـة

بعد هذا أرجو أن يسمح لي زملائي ان غيرت عنوان حديثي الى ما يأتي (ما هي الخطوات التي يراها الخريجون لازمة لرعاية مصالح الاهلين ونيل الحقوق الوطنية) ؟

أجل كيف يتأتى لهم حمل الحاكمين على الاعتراف بهذه الحقـوق وكيف يعبرون عن تلك المصالح ؟ فيطالبون برفع مستوى التعليم واحترام الشعور القومي ؟ كيف يستنكرون ما يمس كرامة الامة من قوانين وما يضعف وحدتها من لوائح ؟ كيف يجهـرون في حزم وجـد بأن سياسة الادارة الاهلية والادارة المالية والمعارف العمومية وقوانين العدل ونظام شركات الاحتكار وكل ما يفرضه الحاكم من نظم وما يوزعه من عـدل يجب أن يكون موضع الشوزة منهـم وان يكون لهم فيه رأي محترم ؟ وأخيرا أيها الخريجون ما وسيلتكم وما حيلتكم للاطلاع على أسرار المالية والاقتصاد والتجارة وادراك حكمة تلك القروض الضخمة وما أحاط بها من ظروف وما أثر فيها من عوامل ؟ القـروض التي بقيت محافظـة على قيمتها الاولى رغم ما أدخل على كل صفقـة مالية في العالم من تسويـة وتعديل .

الخريجـون أيـن هـم ؟

ان المرء ليتساءل كيف يضطلع الخريجـون بكل هذه الواجبات أو جلها وهم هيئة لا وجود لها ، واسم على غير مسمى ، والخريجون أفراد مشتتون في البلاد . تراهم في العاصمة كثرة ، ولكنها كثرة مختلفة الرأي متباينة المزاج . وهم في الاقاليم وعواصـم المديريات أقلية من العمـال المكدورين وآلة الحكومة المنهوكة . أو هم كما وصفهم السير هارولد مكمايكل في كتابـه « السودان الانجليزي المصري » اذا ما استسلـم السوداني العصري الى احلامه رأى نفسه عضوا ممتازا وزعيما مرتجى لهيئة اجتماعية متحضرة لديها من وفير المال ما يكفي لجلب كل أسبـاب المدنية والرفاهية لبلاده ، حتى اذا ما ثاب الى رشده ، أيقن بأنه ليس الا مستخدما بسيطا ذا أجر متواضع نشأ في بيئة ساذجة ، حقيرة في نظره ، متقيدا في حياته المنزلية بأغلال عادات همجية ، مؤمنا في سويداء قلبه بأن ثقافته ليست الا قشورا وما أحلام نهاره الا فكاهات .

يترك الشاب المدرسة ويلج معترك الحيـاة فخورا بآمال الصبـا المعسولة ، وبريق النظريات الذهبية ، وأحلام الرجولة عجولا على تطبيق ما حفظ ولقن وان هي الا أسابيع وشهور ، في جو العمل الموبوء وبيئته العليلة ، حتى تخور قواه وتضعف حيويته ويموت في نفسه الطموح ، ثم تأتي الكهولة فيفقد كل امل وايمـان في حيـاة الجهاد . أتدرون لماذا ؟ السبب سهل بسيط ، فقدان الرائد ، وانعدام القائد والدليل .

اتحاد ـ او مؤتمر ـ الخريجين

فواجبنا الاول هو الاتحاد الفكري

ضموا صفوفكم وقووا عزمكـم
فالدهـر قلب والحيـاة ثـوان

وأعني بالاتحاد الفكري انتظـام الطبقيـة المستنيرة ــ ولا أقـول المتعلمة ــ في هيئة محكمة النظام ، لاستغلال منابع القوة والنضال في هذا البلد واستغلالها في شتى النواحي في الدعاية : في التعليم والتربية ، في المالية والتجارة ، وفي الرياضة والفن ، وفي الخيرات والاجتماع ، فهذه تركيا الحديثة قامت على أكتاف المجلس الوطني الكبير، والهند الجمهورية في ثمار رجال السن فين ولم تبلغ الهند هذا المستـوى بدون المؤتمر ، وفي القاهرة الوفد ، وفي دمشق الكتلـة الوطنيـة ، وفي فلسطين المجلس الاسلامي الاعلى •

فلم يبق السودان المسئول محافظا على نظـام ندوته منذ سنة ١٩١٨ الى اليوم ؟ لم أسمح لنفسي بالتفكير في كل شيء وقد عمل الجليل وشاد العظيم من الاسس الا تدريب الصفوف وتنظيم القيادة الا الثـورة على هذا النظام العتيق البالي ، الذي لا يتمشى مع تطورات فكره وأحـوال زمنـه •

تحدث اليَّ أحد كبار الخريجين منذ اسبوع فقـال ، علينا باثنين ، الاولى الاتصال بالطبقة الحاكمـة ، كل في دائرة عمله ، وبثها مطالبنـا وارشادها الى ما يسرنا وما يغضبنا أيضا ، والثانية ان نعرف بعضنا بعضا معرفة أكيدة حتى نميز الغث من السمين ، وحتى ننفـخ في الزبد فيذهب جفاء ونبقي على ما ينفع الناس • وهذا حسن وجميل لان الاولى رياضة على الجهاد والثانية الخطوة البدائية في سبيل الاتحاد • ولكني انوافقت الاستاذ المتحدث على الغاية وأخالفه في الوسيلة ، فقد آن الاوان لترك هذه الشكـاوى وتلك المناجاة بيننا وبين الحاكـم الى هيئة من رجـال الصفوف الامامية فينا ، هيئة نجلها ، ونوليها الثقة ، وندين لها بالطاعـة الحق ، والخضوع في سبيل الصالح العام • ولمن يريد مجاملتنا ويتعرف نواياىا بعد ذلك ان يستمع لرأيها ويحترم مشورتها واليكم سادتي برهاني

على ان هذا العهد قد حان حينه ، وأظلكم أوانه وأدرككم اتيانه • برهان يدل على مبلغ ضعف الروح المعنوية للاستعمار والمستعمرين • ذكر المؤلف الانجليزي Bruce Lo Khart في كتابه « العودة الى جزر الملايا » بصدر المسائل الاستعمارية • ان انجليزيا خبيرا بالشئون الشرقية حين سئل عن رأيه في اعادة المستعمرات الالمانية السابقة الى حكومة الريخ الثالث أجاب « ليس هذا الامر بذي بال لان حق تقرير المصير مبدأ أخذ يسيطـر على عقول الشرقيين بسرعة مدهشة ولن يمضي ربع قرن دون ان تتلاشى مزايا الاستعمار » •

نادي الخريجين ولجنته السنوية

فواجبنا أيها السادة ان ننهض بأبي النوادي ــ نادي الخريجين لنجعله معقلا حصينا للوحدة الفكرية وحدة السوداني الحديث لنجعله نقابة عامة للدفاع عن كل ما يمس الوطن والمواطنين ، وهنالك نغرس ومن هنالك نعلن رسالة السوداني الحديث لتكون لجنة النادي منبعا للدعاية القومية ومصدر الارشاد والهداية • يجب ان يستقل الرأي المستنير في البلـد ، يتحرر من قيود التقاليد المشينة ، وينفـك من أسار الاغراض وعبـادة الافراد ، ثم يثبت ذاتيته في شخصية ممثليه ولسان حاله •

اذا ما انتظم السوداني المستنير في رابطة او مؤتمر او نقابة مركزهـا لجنة النادي بأم درمان وفروعها في الاقاليم ، اذا ما نشر برنامجه القومي نكون قد عرفنا وحددنا واجبنا السياسي • وهو موضوع حديثنـا هذه الليلة •

١ ــ وألفت النظر الى النفحة الادبيـة والاستشهاد بالشعر وكان ذلك من سمات ما يكتب في الثلاثينات وليجتذب القارىء •

٢ ــ ويتضح أيضا من هذه الكلمــة تطلــع المثقفين واهتمامهــم بالحركات التحريرية والنقابية التي تدور في العالم من حولهم ، وجــاء اختيار اسم المؤتمر اقتداء بالمؤتمر الهنــدي الذي كان يقــوده المهاتما غاندي الذي بهر العالم كله •

لم يكن القاء هذه الكلمة وحده كافيا لقيــام المؤتمــر اذ لا بد من دفعات عملية لتحقيقها وكان أول هذه الدفعــات ان قام الصحفي الكبير الاستاذ احمد يوسف هاشم بنشر الكلمة في مجلة « الفجر » التي أسند اليه تحريرها بعد وفاة صاحبها ومحررها عرفات محمد عبد الله ولم يكتف المرحوم الاستاذ احمد يوسف بنشر الكلمة بل شفع ذلك بعــدة مقالات تأييد نشرها في جريدة « النيل » اليومية كما أفسح المجال لمؤيديها على صفحات مجلة « الفجر » •

وجاءت الدفعة القوية من أعضاء الجمعية الادبية بمدني اذ حضروا لام درمان واتصلوا بلجنة نادي الخريجين وكان يرأسها المرحوم اسماعيل الازهري وعرضوا الفكرة لتتبناها لجنة النادي وتشرع في تنفيذها ولكن لجنة النادي لم تتحمس لها أولا وظنتها بعضهم محاولة جانبية لادخــال عناصر جديدة تستولي على النادي وكان النادي لا يضم آنذاك الا عددا قليــلا من المشتركين اذ انفض عنه كثير من الخريجين منذ ان بدأ ذلك الخلاف التاريخي الذي ذكرته في مستهل هذا الكتاب ، وبعد بذل جهود متصلة ولقاءات عديدة بين بعض أعضاء الجمعية الادبية بمدني والخريجين بنادي أم درمان ومن ظلوا بعيدين عنه تم الاتفاق على الشروع في ابتداء تنفيذ فكرة المؤتمر ، ولما لم يكن في ذهن أحد منهم فكرة محددة عن كيف تكون البداية والتعريف بالاهداف مع تحديدها فقد كونت لجنة تمهيدية من الاعضاء الموجودين بالنادي لتعقد اجتماعات عامة للخريجين بالعاصمة

مساء كل يوم خميس يتحـدث فيها بعضهـم عن ما يرى ان يكون عليه المؤتمر وتسجل الآراء التي تبسط في تلك الاجتماعات ، كما اتصلت هذه اللجنة التمهيدية بخطابات بعثت بها الى الاندية القائمة آنذاك خـارج العاصمة لتعقد مثل هذه الاجتماعات وتحصل على آراء الخريجين الموجودين بها وتبعث اليها وبعد تجميع تلك الآراء المتعددة من الخريجين في العاصمة وخارجها استطاعت اللجنة التمهيدية ان تعد ملخصا وافيا لها عرض في اجتماع عام بنادي أم درمان فاستبانت بعض معالم الطريق الذي يجب ان يسلكه مؤتمر الخريجين ، وكان لا بد حسب القوانين القائمة آنذاك ان تتقدم اللجنـة التمهيدية للحكومـة تطلب الاذن بالتصديق بقيـام هذا المؤتمر ، وفي حذر بالغ منحت الحكومة التصديـق موقـع عليه المستر (جيلان) السكرتير الاداري آنذاك مبتعدة به عن العمل السياسي ومهما يكن فقد كان هذا (التصديق) للخريجين بقيام مؤتمرهم في الحـدود الضيقة المرسومة خطوة كبيرة من حكومة كانت سياستها تتسم بالكبت والارهاب واجتثاث كل عمـل وطني بقـوة ، فلماذا خطى الانجليز هذه الخطـوة ؟

كانت سياسة الانجليز منذ البداية تقوم على محاولة الانفراد بحكم السودان وابعاد المصريين عنه ونعرف انها عنفت في توقيع العقوبة على ثوار ١٩٢٤ لانهم كانوا يرفعون شعار وحدة وادي النيل تجاوبا مع ثورة مصر التي أشعلها سعد زغلول ورفاقه ولم تخف عنف هذه السياسة ضد كل اتجاه من المثقفين نحو مصر التي كان ينبعث منها التيار الثوري الذي يتأثرون به حتى انهم كانوا يوالون الاحزاب المصرية الثائرة وينتمـون اليها في مجالسهم الخاصة ويتحدثون باعجاب فائق عن قادتها ، وعن طريق مصر أيضا كانوا يحصلون من صحفها وأنبائها على أنباء التيارات الثورية في العالم فرأى الانجليز ان سياسة القمع نحو الاتجاه لمصر والتيـارات

الثورية التي تنبعث منها او تحملها من العالم هذه السياسة غير مجدية ، وانه من الخير ان يفسح المجال للسودانيين أنفسهم ليخلقوا نشاطا وطنيا ينبعث منهم ويلتفون حوله ويدينون له بالولاء لعل ذلك يقلل من اندفاعهم نحو مصر ٠

وقبيل قيام المؤتمر انبعثت صيحة تنادي (بالقومية السودانية) وقيل ان الانجليز كانوا وراء خلق هذا الاتجاه لا حبا فيه ولكن لاضعاف التيار المصري ، وأذكر ان كثيرا من المثقفين في تلك الفترة حملوا على نداء القومية السودانية واتهموه بانه تيار مندفع بقوة الانجليز لافساد الحركة الوطنية المتجهة نحو مصر ، ومع ان المؤتمر صيحة وطنية خالصة لا شك فيها الا ان الانجليز اصدروا توجيها سريا في خطاب بعث به المستر (جيلان) السكرتير الاداري الى كل الاداريين الانجليز من صغارهم حتى كبارهم يطلب فيه منهم عدم التعرض بمنع الاجتماعات او التصدي للاشخاص الذين يقومون بنشاط لقيام مؤتمر الخريجين وقد وصلت نسخة من هذا المنشور السري حصل عليها احد الكتبة من الخزانة السرية لمفتش المركز الذي يعمل فيه وارسلها لبعض اصدقائه بأم درمان من اعضاء النادي واستغل هؤلاء الشبان هذا المنشور السري لاستمالة بعض كبار الخريجين الموالين للحكومة للانضمام للمؤتمر وقد تهيبوا ذلك في البداية، ويبدو ان الانجليز كانوا يعتمدون على ان قيادات المؤتمر ستكون من اصدقائهم ومن الخريجين المعتدلين فلا يسلكوا به مسلكا وطنيا مثيرا وقد تحقق ذلك لعدة سنوات منذ قيام المؤتمر في عام ١٩٣٧ والذي نص دستوره على ان يعقد الاجتماع العام للمشتركين في اليوم الثاني من عيد الاضحى المبارك لينتخبوا انتخابا سريا ٦٠ (ستون) عضوا ويجتمع هؤلاء الستون في اليوم الثالث لعيد الاضحى لينتخبوا ١٥ عضوا ليمثلوا اللجنة التنفيذية للمؤتمر وكان المعتدلون فعلا يمثلون اغلبية الاعضاء حتى عام ١٩٤٢ حيث

شملت اللجنة والهيئة عددا لا بأس به من الخريجين المتحمسين فقدمت مذكرة المؤتمر المعروفة والتي طالب في اول بنودها بحق تقرير المصير للسودانيين فكانت بداية جدية لاتجاه المؤتمر اتجاها جديدا فيه حيوية وطنية ووضع بهذه المذكرة قضية وطنية واضحة المعالم امام الشعب ليلتف حولها وان كان بعض جوانب المذكرة مطالب لا ترقى الى المستوى الوطني الحاسم ولكنها نجحت في اثارة الشعور الوطني لدى السودانيين .

وجدير بالذكر ان هذه المذكرة قدمت والحرب العالمية الثانية تقترب في النهاية وقد اتضح نصر انجلترا وحلفائها فيها وكان السودان قد ساهم مساهمة كبيرة في الاشتراك بجانب انجلترا بجنوده وقواته وقد تقدمت بعض الشعوب التي اشتركت مع انجلترا وحلفائها في تلك الحرب تطالب بحق تقرير المصير فكان لا بد للسودان ان يتأثر بما تقدمت به الشعوب التي تماثل موقفه من مناصرة الحلفاء .

ويجدر بي ان اذكر ايضا ان المذكرة بجانب المطالبة بحق تقرير المصير احتفظت بالحق ايضا في الاتحاد مع مصر والتحالف مع بريطانيا كما فرضه اصدقاؤها في المؤتمر ثمنا للموافقة على تقديم المذكرة ومهما يكن فقد أحدثت المذكرة دفعة قوية للحركة الوطنية كما اشتد الخلاف وضوحا بين مؤيدي الاتحاد مع مصر ومناصري التحالف مع بريطانيا فبدأت نشأة الاحزاب فيما بعد على اساس هذين الاتجاهين وهذا ليس هناك مجاله عن نشأة المؤتمر وتغاضي الانجليز عن نشأته .

وللتاريخ أسجل هنا بعض الخطاب السري الذي بعث به السكرتير الاداري السير « جيلان » لسائر الانجليز في السودان وخاصة الاداريين ـ كما ذكرت هنا ـ عن موقفهم من النداء الوطني لتكوين المؤتمر اذ جاء فيه :

« ان المؤتمر حركة طبيعية جاءت في ابانها ذاكرا ان السودان جزء من هذا الشرق الذي شملته اليقظة وقامت فيه حركات تحررية عديدة ونالت بعض اقطاره حريتها ، وان السودان لا بد ان يتأثر بهذا وانه من الخير ان تفسح المجال لهذه الافكار الجديدة لكي تبرز .. وحذرهم في ختام خطابه ان يشمل هذا التسامح زعماء العشائر والعمد والمشايخ فهؤلاء يجب ان يبقوا بعيدا عن هذه الحركات الجديدة ! .. »

كما اصدر امرا بمنع كل رجال القضاء والادارة والجيش والبوليس من الاشتراك في عضوية المؤتمر .

ولكن عندما قويت الحركة الوطنية واشتد ساعدها لم يبق أثر لكل هذه التوجيهات والاوامر فناصرها الجميع وبذلك تحقق استقلال البلاد .

وبختام الحديث عن نشأة مؤتمر الخريجين ينتهي بحمد الله تعالى الجزء الثاني من الملامــح .

محتوى الجزء الأول

محتوى الجزء الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

ملاحظة مهمة

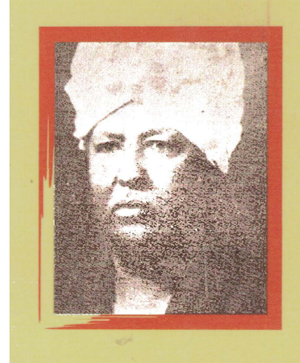
قمت بتصوير هذا الكتاب من النسخة المصورة من مكتبة عزة، وهي إعادة تصوير للنسخة القديمة المكونة من جزئين من نشر وزارة الثقافة والإعلام، وقبل تصوير الكتاب وجدت مجموعة الميزاب للكتب قد صوروا مشكورين الجزء الثاني من الكتاب، ولذلك ضمنت هذا الجزء الثاني ضمن هذا الكتاب في جزء واحد، والفارق الوحيد هو اختلاف ترقيم الصفحات، ولذلك فإن الفهرس المرفق السابق هو للنسخة المجمعة في نسخة واحدة، وراعيت أن يكون ترقيم ملف الPDF مطابقًا لصفحات هذه النسخة المجمعة حتى يسهل الرجوع إليها، ثم أرفقت بعدُ هذه الملاحظة الفهرس الملحق بالجزء الثاني وهو مطابق للأرقام التي في أسفل صفحات الجزء الثاني.

أو يمكن الاستفادة من العلامات المرجعية في الملف.

ختامًا: أعتذر عن هذا الخلط، ولكن رأيتُ ألا أعيدَ تصوير الجزء الثاني سيما وتصويره تصوير جيد واضح .

شكرًا لتفهمكم .

مسطورات للكتب المصورة



- أول مقال ظهر له في صحيفة الحضارة السودانية في عام ١٩٢٩م.
- وبدأ عموده الشهير بعنوان (خواطر) في الحضارة ثم انتقل به إلي عدة صحف ولم يتوقف إلا عند وفاته عام ١٩٨٣م.
- أسهم قلمه بدور أساسي في إنجاح صحيفة الرأي العام اليومية المستقلة التي صدرت في ١٥ مارس ١٩٤٥ م .
- أسس صحيفة الرأي العام العدد الأسبوعي
- أنشأ أول مجلة عربية ثقافية باسم (القلم الحر) التي كانت تطبع في بيروت وتوزع علي جميع العواصم العربية ومن خلالها عرف القراء العرب الأدب السوداني وفنونه ، وتوقفت عام ١٩٦٩م.
- ظل معتزا بدوره كمعلم ، وقد سبقت شهرته كمعلم شهرته ككاتب وصحفي ومؤرخ.
- مؤلفاته عديدة ولكن وصل منها إلي القراء (ذكرياتي في البادية) و(ملامح من المجتمع السوداني) و (ذكرياتي في دار العروبة) و(أيام في الاتحاد السوفيتي).
- تحت الطبع ، خواطر ، ويوميات ، وأحاديث الفكر والثقافة.



محتويات الكتاب